



ستيفن راسيمان

# تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى أورشليم

ترجمة

نور الدين خليل

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى: ١٩٩٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب

الى الدكتور (فاضل نقي حجاج)  
والنظمت الغاضلة نفعي خيس  
مع قلمك في الفاصلة الملتصقة  
نور الدرر خيل  
يوليو ٢٠٠٠

### تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى اورشليم





## دَعَا إِلَى الْحَيَاةِ

### المحتويات

٩	مقدمة الطبعة الثانية
١١	مقدمة الطبعة الأولى
٢١	مقدمة المؤلف
الباب الأول: أماكن العالم المسيحي المقدسة	
٣١	الفصل الأول: رجسة الخراب
	بقاء الامبراطورية في الشرق - الساسانية والوحديطيون - تصدع في سوريا - الحرب الفارسية - الجزيرة العربية قبل الإسلام - الفتح العربي لسوريا - فتح مصر
٥٧	الفصل الثاني: حكم مناهض المسيح
	الذميون - الارثوذكس تحت الحكم الإسلامي - الخلافة الأموية - الخلافة العباسية - شارلمان وفلسطين - الامبراطور تسيميس - السلام بين بيزنطة ومصر - الحاكم بأمر الله - المسيحيون في رخاء
٨٣	الفصل الثالث: حجاج المسيح
	الحجاج الأوائل - حجاج القرنين الثامن والتاسع - عصر عظيم للحج - الحجاج الاسكندنافيون - السفر عبر الخدود
١٠٥	الفصل الرابع: صوب الكارثة
	انحيار الاقتصاد البيزنطي - كومنينوس ودوكاس - أبناء تسانكريد دي هوتفيل - الأتراك يتحركون غربا - نهاية أرمينيا - معركة مانزكورت
١٢٥	الفصل الخامس: اضطراب في الشرق
	دخول الأتراك آسيا الصغرى - روسيل أوف ييلويسل - أليكسيوس كومنينوس يعتلي العرش - الإمبراطور أليكسيوس - الأرمن في طوروس - الغزو السلجوقي لسوريا - الفانשמند وشاكا - مصاعب الحجاج

## الباب الثاني: التبشير بالحرب الصليبية

### ١٤٩ ..... الفصل الأول: السلام المقدس والحرب المقدسة

حركات من أجل السلام - الهدنة في الأيام المقدسة - المنصور - الحرب المقدسة في إسبانيا

### ١٦٧ ..... الفصل الثاني: صخرة القديس بطرس

روما والقسطنطينية - صدع سنة ١٠٥٤ ميلادية - مخطط حريجيوري السابع  
حرب صليبية - تنصيب البابا ايربان الثاني - المجلس الكيسي في بيانشانزا

### ١٨٧ ..... الفصل الثالث: الدعوة

مؤتمر كليرمونت - تنظيم الحملة الصليبية - ايربان يعود الى إيطاليا - بطرس  
الناسك - حماس الرؤيا - استعدادات الإمبراطور

## الباب الثالث: الرحلة إلى الحرب

### ٢٠٨ ..... الفصل الأول: حملة الشعب

والتر (الملك) - بطرس يدخل الإمبراطورية - وصول بطرس إلى  
القسطنطينية - غارات الصليبيين - كارثة في سقيوت - فشل حملة الشعب

### ٢٢٧ ..... الفصل الثاني: الحملة الصليبية الألمانية

الاستيلاء من اليهود - المذابح الأولى - مذابح في ميوز وكولونيا - نهاية حملة  
لكنيش

### ٢٤١ ..... الفصل الثالث: الأمراء والإمبراطور

حودفري أوف لورين - حودفري في النمسا - وصول حودفري إلى  
القسطنطينية - معركة الأسبوع المقدس - احتفال التكريم - مسيرة  
بوهيموند عبر البندوس - وصول بوهيموند إلى القسطنطينية - ريموند أوف  
تولوز - رحلة ريموند - ريموند والإمبراطور - روبرت أوف نورماندي  
وستيفن أوف بلوا - بالدوين أوف ألوست - نجاح تنظيم الإمبراطور -  
مصالح الإمبراطور

#### الباب الرابع: الحرب ضد الأتراك

##### ٢٨٣ ..... الفصل الأول: الحملة في آسيا الصغرى

تجمع الصليبيين أمام نيقية - المعركة خارج نيقية - الاستيلاء على نيقية -  
الطرق خلال آسيا الصغرى - معركة دوريليوم - الفرنج والأتراك - عبر  
صحراء الأناضول - على حدود الأناضول - الصليبيون ومرشدوهم  
اليونانيون

##### ٣١١ ..... الفصل الثاني: الفاصل الأرميني

بالدوين وتانكريد يقزوان كيليكيا - جوتيمر أوف بولونيا - بالدوين  
وتانكريد يقادريان كيليكيا - بالدوين يتقدم إلى الفسرات - الحملة على  
ميماسط - بالدوين وثوروس - زواج بالدوين - المؤامرة ضد بالدوين

##### ٣٣٣ ..... الفصل الثالث: أمام أسوار أنطاكية

ياغي سيان يبحث عن حلفاء - المعسكرات أمام أنطاكية - تفاد إمدادات  
الطعام - الهجعة - بطرس الناسك بمحاول الحسب - يوهيموند يهتد  
بالانسحاب - معركة على طريق السويدية - مفاوضات مع الفاطميين -  
مؤامرة للاستيلاء على أنطاكية - عشية المحرم - الاستيلاء على المدينة

##### ٣٦٥ ..... الفصل الرابع: الاستيلاء على أنطاكية

اقترب كريبوقا - أليكسيوس في طريقة إلى أنطاكية - تدخل ما وراء الطبيعة  
- رؤى بطرس بارتولوميو - اكتشاف الرمح المقدس - سفارة بطرس  
الناسك - الانتصار على كريبوقا - طباغ سيئة - موت أدمار أسقف لوبوي  
- مسألة اللاذقية - غارات الصليبيين - المحرم على معرفة النعمان - جيش  
ريموند ينطلق إلى القدس

#### الباب الخامس: أرض الميعاد

##### ٤٠٣ ..... الفصل الأول: الطريق إلى القدس

الأمراء السوريون - الصليبيون في حصن الأكراد - حصار أرقا - مسألة  
الرمح المقدس - الصليبيون أمام طرابلس - احتلال الرملة

٤٢٣	الفصل الثاني: انتصار الصليب .....
	الدفاع عن القدس - معاناه المحاصرين - ترتيبات الهجوم - المنتصرون يرتكبون المذابح
٤٣٧	الفصل الثالث: أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري (حامى القبر المقدس).....
	مواثبات من أجل العرش - انتصار جودفري - جودفري ورفاقه - الانتصار في عسقلان - دياميرت لوف بيرزا - بوهيموند ودياميرت في اللاذقية - حج بوهيموند في القدس - دياميرت يصبح بطريقاً - بوهيموند والدنوين يعودان إلى الشمال - جودفري وأمراء الساحل - غارات عبر الأردن - جودفري في مرضه الأخير
٤٧١	الفصل الرابع: مملكة أورشليم .....
	دياميرت يلجأ إلى بوهيموند - ريموند في زيارة القسطنطينية - بوهيموند في الأسر - رحلة بالدوين إلى القدس - الملك بالدوين
٤٨٩	المرفق الأول: ..... المصادر الرئيسية - لتاريخ الحملة الصليبية الأولى المصادر اليونانية - المصادر اللاتينية - المصادر العربية - المصادر الأرمنية المصادر السورية
٥٠٥	المرفق الثاني: ..... قوة الصليبيين العددية
٥١٣	لبيت المراجع: .....

### ثبت الخرائط

٢١٨	خريطة رقم (١) ضواحي القسطنطينية ونيقية في وقت الحملة الصليبية الأولى .....
٢٣٢	خريطة رقم (٢) شبه جزيرة البلقان في وقت الحملة الصليبية الأولى .....
٢٤٤	خريطة رقم (٣) آسيا الصغرى في وقت الحملة الصليبية الأولى .....
٣٣٩	خريطة رقم (٤) أنطاكية سنة ١٠٩٨ .....
٤٠٩	خريطة رقم (٥) سوريا في وقت الحملة الصليبية الأولى .....

## مقدمة الطبعة الثانية

تحية وتقدير ..

أولاً : للمؤلف " ستيفن وانسيما " وهو نموذج فريد في عصره ...  
كان جزء كلمة الحق لوم اللاتين من بني جلدته أصحاب الحضارة المدعين !  
وقد أشار هو نفسه إلى ذلك في تقديمه للجزء الثالث ...

وثانياً : لرفيق الحياة والدراسة أخي الأستاذ محمود آدم  
الذي صاحبني في هذه الرحلة الصليبية من ألفها إلى يائها ...  
وكان له من سديد الرأي ، وثاقب النظرة ، وعمق البصيرة ، ما أعان علي هذه الترجمة  
ومراجعتها والتقديم لها ...  
وصدق أحمد فارس الشدياق حين قال :  
ومن فاته التعريب لم يدرك ما العنا  
ولم يصل نار الحرب إلا الخراب

وثالثاً : لأهلنا في العراق ...  
وهم يواجهون الصليبيين الجدد ، أصحاب الحضارة المدعين !!!  
في أحدث وأخسر الحملات الصليبية ... " الحملة الصليبية الأمريكية " ... !!!

ورابعاً : لرجال لم يوجدوا في عالمنا بعد ...  
لكهم قادمون ... والله سوف يميون !! .....  
يسمرون علي درب أسلافهم ... نور الدين زنكي ، وشركوه ، وصلاح الدين ...  
وإن طال الزمان ... سيأتون !!

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو ولي التوفيق !!!

المترجم

الإسكندرية في ١٠ رمضان ١٤١٩ هـ  
٢٩ ديسمبر ١٩٩٨ م



## مقدمة الطبعة الأولى

### التاريخ والتاريخ

يقصد بالتاريخ على الإجمال تلك الفروع التي تتناول مناهج كتابة التاريخ وطرائق البحث التاريخي التي تنتهي بنا إلى ما يتعارف على تسميته بـ "التاريخ". وللتاريخ تراث تطور عبر ثقافات متنوعة تسبق عالمنا الحديث. ففي اليونان وروما كانت كتابة التاريخ تعتبر فرعاً من فروع الأدب، وكان تقييم الأعمال التاريخية يعتمد على أسس تولي مزاياها الدرامية والأسلوبية أهمية لا تقل عما توليه للدقة التي يفترض أن تتميز بها تلك الأعمال. وفي العصور الوسطى اهتم التاريخ المسيحي في أوروبا بإضفاء قيمة خاصة على "التأثير الإلهي" في شؤون البشر. ويميز عصر النهضة



بشغفه بالعصور القديمة ووثنيها، وأدى ذلك فيما بعد إلى تطور الدراسات (التاريخية) القديمة والقائمة على فقه اللغة، وإلى محاولة التركيز على الأسلوب؛ ثم بدأ الوعي يتجه تدريجياً إلى عملية التغير التاريخي. وعند بداية القرن التاسع عشر ظهر التأريخ كفروع مستقل يتناوله الأكاديميون المحترفون.

على أن من يتطلع لما يدور حوله في عالمنا المعاصر يتيسر له أن يستخلص أن التاريخ لا يمكن بأية حال أن يكون سهلاً المتناول. فعالمنا الحديث، وإن غداً عالماً صغيراً يسهل فيه الاتصال، على نحو لم يكن متحققاً فيما مضى، يحار المرء فيه حيال ما يتناهي إلى أسماعه من هنا ومن هناك، ولا يكاد يستطيع أن يفرق بين غث وسمين برغم ما يتاح الآن من أداة علمية لا شك في كونهما قادرة. وإن شئنا أن نخلل لذلك فإننا نشير إلى المدرستين اللتين تولتا التأريخ للحرب العالمية الثانية. فالمدرسة الشرقية، ونعني بها المدرسة الروسية، تنحو نحواً والمدرسة الغربية، ونعني بها الاتجاهين السائدين في غرب أوروبا والولايات المتحدة، تنحو نحواً آخر يغاير الاتجاه الشرقي، وذلك برغم أن الشرق والغرب اللذين نشير إليهما كانا حليفين في الحرب يستجمعان قواهما ضد قوة ثالثة تمثلت في دول المحور التي هُزمت في نهاية المطاف ولم يُقدَّر لها أن تؤرخ لنفسها ومن ثم غابت مدرسة ثالثة كان يمكن أن تعطينا تاريخاً يغاير اتجاهه الاتجاهات التي اتخذتها مدرستا الشرق والغرب. ويُستخلص من ذلك أن اتفاق الهدف بين الشرق والغرب في القضاء على هتلر لم يكن ليؤثر في اختلاف المصالح من ناحية، وفي تباين الانتماء الأيديولوجي من ناحية أخرى.

وليس ثمة شك في أن الشرق والغرب كانا يستهدفان أن يقضي كل منهما على الآخر بأن يحقق أيهما نصراً سياسياً يؤدي إلى تسيّد الأيديولوجية التي ينادي بها. ولعلنا نرى الغرب في هذا العقد الأخير من القرن العشرين وقد أوشك أن يحقق نجاحاً

في إزاحة المذهب الشيوعي الذي ظل أصحابه لما يناهز سبعين عاماً يدّعون أنهم أصحاب عقيدة لا بد لها من أن تسيطر على أرجاء العالم كله في نهاية الأمر . ولم تكن النظر فيما سجلته من تاريخ عبر السنوات السبعين التي خلت . ومن ثم نجد المرء نفسه محيراً إزاء "تواريخ" يكتبها الناس عن الناس أو يكتبها الناس عن أنفسهم.

وهذا يعني أن عالماً شَبَّت أداة بحثه عن طرقها، وبلغت قدرته رشدها، تجاوز في محاولته التأريخ الرشدة إلى غي لم يكن ينبغي له إذا التزم الإنسان الأمانة والحيدة وحاول أن ينصف نفسه وينصف لغيره، ذلك إذا أردنا التعميم. وإن شئنا أن نضيق النظرة فأجلناها فيما يدور في العالم الثالث، أو ما يعن للغرب أن يسميه عالماً ثالثاً، فإننا نرى أن تعاقب أنظمة الحكم في بعض تلك الدول يتيح لنا أن نقرأ تواريخ متباينة تختلف من نظام إلى نظام في الدولة الواحدة.

والغريب في ذلك أن أبناء تلك الدولة يعيشون تاريخها في ظل نظام، ويمتد هم الأيام ليعيشوا تاريخها في ظل نظام آخر فإذا تعرض عليهم وعلى عقول أبنائهم تاريخاً يختلف أو يكاد يختلف تماماً عما سبق أن رأوه أو عايشوه.

وخلاصة القول في هذه المسألة أن التاريخ الحقيقي على عمومهم يكاد يكون مغيباً ولا بد للباحثين، معاصرين كانوا أو لاحقين، من أن يضرعوا في تلك المناهات محاولين أن يخرجوا منها بما يقارب اليقين. وهذا بدوره قريب من المستحيل، فالإنسان هو الإنسان، لا يستطيع في أية حال أن يبلغ كمالاً وإن حاول. فيعرض اكتمال قدرته واستقامة أدواته تبقى حديدته أمراً صعب المنال، فهو ابن حضارته يلتزم بعقيدته ولا يكاد يستطيع أن يغفل انتماءه بالوعي حيناً وباللاوعي حيناً آخر.

على أننا لا نبليغ في ذلك مبلغ اليأس كله، فالإنسانية عبر تاريخها أُنْجبت قلة من أولئك الأقداد الذين أُلْجَأَهم غيرتهم إلى التزام مقتضيات العقل والمنطق وما ينبغي أن يكون فيما يحاولونه من عطاء في شئ أو حبه المعرفة. وهناك من المؤرخين الذين اجتهدوا

جهدهم من يصدق عليهم ذلك؛ وإن كان هذا الجانب المشرق الذي تتحقق فيه غايصة الرحمن من خلق الإنسان ما يشوبه من مأخذ تفرضها غلبة الكثرة الضالة على القسلة الممّرة. ولعلنا نذكر في هذا الصدد واحداً من أعظم المؤرخين، وهو إدوارد جيون، الذي أرخ للإمبراطورية الرومانية فأعطى للبشرية صورة رائعة لما يمكن أن يبلغه جهد الباحث المدقق، في حيدة وأمانة، من إنجاز لا يستطيع أصحاب الطوى التصدي له مهما أوتوا من قدرة. ويكفي أن نشير إلى أنه أنفق ثلاثة وعشرين عاماً مدياً يفكر في كتابة تاريخه الشهير "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" وإلى أن انتهى منه، وأن نشير إلى أن هذا "التاريخ" الذي لم يكتب جيون سواه أقام الدنيا وأثار ثورتها ووضعت الكنيسة الكاثوليكية على رأس قائمة الكتب المحظورة، وما يزال باحثوا الغرب حتى يومنا هذا يحاولون النيل من هذا العمل دون طائل.

#### الحاجة الماسة إلى مدرسة تاريخ عربية

إن للإسلام حضارة عربية المهتد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية في تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه في سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوحسب على المسلمين أن يؤرخوا لأنفسهم، وألا يتركوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قصادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الطوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية في قدم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً يتجسح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وأذنت بانقضائه فيما مضى، وتوذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغي أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفي كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناحوا مع

الأيام عن الجادة التي أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيبه، فآل أمرهم إلى غيرهم، وقصرت آداهم وضافت آفاقهم فأصبحوا يعولون على من لا ييقون إلا مضرهم وإذلالهم. ولكم تستشعر العقلية العربية والإسلامية القادرة في يومنا هذا الخزي كل الخزي وهي ترى أن علماءنا قد حيل بينهم وبين يتابع الثقافة الإسلامية الأصيلة، وهي نرة وقيرة، فالتفتوا في غالب الأمر دروباً غريبة إلى معرفة توشك أن توردهم موارد التهلكة. وربما يبحث المرء عن مرجع عصري في التاريخ الإسلامي على عمومته فلا يكاد يجده متكاملًا، وإن وحده فهو مبتسر يعول في الغالب على مراجع غريبة فينقل عنها نقلًا مباشرًا رديفًا يخلو من إعمال العقل ومن أية قدرة نقدية. وتتواتر بذلك في مراجعنا العربية التي يفتقر لأبنائنا أن يدرسوها تلك الأخطاء التي تعمدتها الغربيون في عيهم أو اقترفوها في جهلهم. وينبغي لنا، وتلك هي الحال، أن نعيد تقييم وتقويم الأمر كله، فنصحح النظرة، ونلغز العبرة، ونحاول العود إلى الطريق القويم، والعود إن شاء الله أحمد.

#### هذه الترجمة

إن إحالة النظر فيما كتبه الغربيون ويكتبونه في تناولهم لحضارتنا وحضارتهم تظهر أن آداهم البحثية، من الناحية الفنية، متكاملة ومقتنرة، وهم يسخرونها في غالب الأمر في حرب عوان ضدنا. ولكم تحولنا بأنظارنا وجهدنا إلى مراجعنا المعاصرة فلم نجد ما يشفي غلة أو يهدي إلى سواء سبيل. ويصدق ذلك على التاريخ الإسلامي بعامه والتواريخ العربية بخاصة، مما دعانا في نهاية المطاف إلى أن نحاول أن نتقي من بين ما كتب الغربيون في ذلك ما هو أقرب إلى ما ينبغي أن يكون لننقله إلى لغتنا حتى يفيد أبنائنا من شهادة حق تخرج من نطاق الغلبة فيه لغير المنصفين من الدارسين.

وليس ثمة شك في أن الحملات الصليبية، بكل ما تبينه من جوانب، لها بالغ الأثر في مسيرة الصراع بين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات تنتهي إلى ما يسمى بالحضارة الغربية الحديثة في نطاق ما يسميه ارنولد توينبي "التحدي والاستجابة"؛ ومن ثم كان ينبغي أن تتوفر عنها في اللغة العربية مراجع توفيقها ما هي خليفة به من اكتمال الصورة والشمول. بيد أن ذلك لم يتحقق. وبينما نحن نجول في الساحة الغربية وقعنا على مرجع شامل يتناول تلك الحملات مذ بدأت وإلى أن انتهت، ويجاوز ذلك إلى تساؤل دقيق لما سبق تلك الحملات من ظروف ومقدمات. وما كنا لنقف طويلاً إزاء هذا المرجع إن اقتصر أمره على ذلك، فالشمول والاكتمال يستطيع الباحث أن ينهي إليهما من مراجع متعددة أو حتى من شذرات متفرقة، وإن استحال ذلك على القارئ العام. غير أن أبين ما يمتاز به هذا المرجع، وهو "الحملات الصليبية" الذي كتبه ستيفن رانسيمان، يتمثل في قدرة فريدة على إضفاء "نبض الحياة" على السرد التاريخي الذي يحيل الصفحات المكتوبة إلى واقع يكاد يكون معاشاً بما فيه من تفصيل يبين اتجاهه ويظهر مغازيه. ويضاف إلى ذلك أننا نجد أنفسنا إزاء عقلية قادرة محققة ومتحقة تلتزم جانب الإنصاف والحيدة التي لا تتأني إلا لتلك القلة من الأفذاذ الذين يتميزون رحابة الأفق وعمق النظرة ونفاذ البصيرة، فضلاً عن حس إنساني يتعاطف مع الإنسان، ويرجو له أن يتأثر القيمة العليا، على اختلاف المكان والزمان.

ولنتظر معنا أيها القارئ إلى ما يقوله رانسيمان وهو يصف دخول الصليبيين بيت المقدس في شهر يولية ١٠٩٩ ميلادية: "...إن الصليبيين وقد جنوا بما أحرزوه من نصر كبير بعد المعاناة، اندفعوا عبر الطرقات والمنازل والمساجد يقتلون كل من صادفهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طيلة عصر ذلك اليوم وتلك الليلة. ولم تسبغ رابية تانكريد أية حماية على أولئك الذين لاذوا بالمسجد الأقصى، ففي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلت كل من فيه. وعندما طساف ريموند أوف أجيليه بالمنطقة التي يسبق فيها

المسجد كان عليه أن ينقل الخطي ليحدد طريقا بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه". ويقبول في موضع آخر: "...وكان الجيش في معرة النعمان يعاني الجوع بعد أن نفذت المؤن التي استولى عليها من الجوار، ولم يكن له من سبيل سوى أن يأكل لحوم البشر". ويظهر رانسيمان ذلك المدى البشع الذي وصل إليه الصليبيون في تقتيلهم المسلمين المسلمين في المسجد الأقصى من ناحية، وبين من ناحية أخرى حقيقة كنان لابد لمؤرخ مسيحي أن يواربها، وهي أكلهم لحوم البشر، وهذا ذرّك لا يتحدر إليه الحيوان، ويواصل رانسيمان سرده ليظهر كيف أن صليبياً واحداً، من الذين صاحبوا الحملة وأرخوا لها، هو الذي أنكر على المسيحيين ذلك بعد أن لاحظ كيف ارتاع الأتراك المسلمون من مشاهد أكل لحوم البشر.

وهذان الاستشهادان، على ما فيهما من بشاعة لا يكاد يجلوها بيان، لا يعطيان إلاّ صورة محدودة للغاية لما نرعى إليه. وتتجلى جودة رانسيمان في أنه لا يكاد يجد مأخذاً واحداً على بحاسة المسلمين، أو هامتهم، بل يتجاوز ذلك إلى القبول وهو يوضح واحداً من مواقف الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس: "...وكان ألكسيوس على حق في أن يرى أن رعاياه المسيحيين الأرثوذكس سيكونون أحسن حالاً في ظل الحكم الفاطمي المتسامح الذي يتيح لهم ما لم يتحهم حكم الفرنجة الذين أظهروا في واقع الحال عداوة واضحة للمسيحية السائدة في أنطاكية". ويقول في موضع آخر: "...ووجدت كنائس المرافقة أن الغزو اللاتيني يؤذن بفترة أفول لها بعد أن كانت تنعم بالتسامح في ظل الحكم الإسلامي". وتتواتر أمثال هذه الصورة في الأجزاء الثلاثة التي أرخ فيها للحملات الصليبية، وتقدم في هذا المجلد جزءها الأول، والتي بين فيها البواعث الحقيقية لتلك الحملات، وتظهر دون مراعاة للصليبيين لم يكونوا أصحاب دين يحرّكهم بقدر ما كانوا طلاب دنيا تجعلهم يذهبون كل مذهب مدفوعين بأهوائهم ومطامعهم؛ ويجلوا ذلك ما يورده رانسيمان في مختلف المواضع من تفاصيل لا يكاد يقف عندها غيره ممن أرخوا لأبناء دينهم وعشيرتهم، مثل قوله: "...إن الصليبيين

وهم يحاصرون أنطاكية تركوا المسلمين يتسللون في الليل من المدينة المحاصرة ليدفنوا في المقابر المجاورة موتاهم الذين قتلوا في معركة ذلك اليوم، ولكن الصليبيين نبشوا القبور في صباح اليوم التالي وأخرجوا جثث الموتى ليتزعموا منها حلى الذهب والفضة". ولتأمل معاً قول رانسيمان: "...من المولم أن يتضح أن الأمراء الصليبيين لم يكونوا على استعداد للتعاون من أجل صالح العالم المسيحي عندما تمنح لهم فرصة الاستحواذ على غنائم شخصية؛ وسرعان ما أدرك المسيحيون ممن أهل البلاد أن مخلصهم الفرثية لم تكن تحذوهم عاطفة إيثار حقيقي، وعرفوا أن أحسن ما يمكن أن يستفيدوا به من أولئك الأمراء الصليبيين يتمثل في السعي بالوقعة بينهم، وتلك لعبة يسيرة".

وأما تلك الوقائع عديدة عند رانسيمان، ويسترعي النظر فيها ألما تحكم الصلة بين الأحداث التاريخية، حلقة إثر حلقة، وتنتهي إلى بلوغ غاية تجلو ألقاها عاما بمميز الحملات الصليبية ويضعها في منظور عام متكامل يبين حركة التاريخ ومماته عبر القرون التي وقعت فيها تلك الحملات.

ولعله لا يفوت عيني القارئ وحياله لمسات يضيها رانسيمان بريشة فنان بأسرع إلى اللوحة التي يصور فيها حوالب في الحملات الصليبية تضفي على واقعها ألوانا تجلو منظورها وتعين المتلقي على استيعابها واستخلاص مراميها، وإن كانت اللمسات رقيقة رفيقة فهي تنبئ وتعلق دون أن تفصح وتقرر؛ فليس من قبيل حفة الظل، على سبيل المثال، أن يقول رانسيمان في تقديمه للدور البارز الذي قام به بطرس الناسك في التهمة والإعداد لحملة الشعب: "كان بطرس الناسك رجلاً قصير القامة، قاتم اللون، ذا وجه طويل نحيل يشبه في صورة مفزعة حمارة الذي لا يفارقه والذي كان الناس يولونه من التبحيل ما يقارب تبجيلهم لراكبه". ولا شك أن مثل هذه اللمسة الباردة، التي ربما يظن أن لا موضع لها عند مؤرخ حاد كـرانسيمان، توحى بتقييم

يكاد يكون شاملا يعكس ما اصطفت به تلك الحملات الصليبية من قتامة وجهالة. ولسوف يجد القارئ من أمثال هذه اللمة الشيء الكثير في رحلته مع رانسيما من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة.

ويرتب رانسيما تاريخه ترتيبا عاما يتسق مع ما تهتم به المدرسة الغربية من إيجاد صلة بين الحدث والهدف . فتراه بعد أن استفاض في التقدم للحملات الصليبية يأخذ بما جرى عليه الغربيون من تقسيم للحملات الصليبية فيجعل حملة أمراء الصليبيين التي استطاعت أن تبلغ بيت المقدس الحملة الصليبية الأولى في حين أن تلك الحملة سبقتها حملتان: الأولى هي حملة الشعب التي بدأت في أعقاب الخطاب الذي ألقاه البابا إيربان الثاني في مدينة كليرمونت الفرنسية في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ ميلادية، والثانية هي الحملة الصليبية الألمانية، ولم يقدر لكتبيها الوصول إلى فلسطين.

وبلاحظ أن المؤرخين العرب، وهم يتأثرون بخطى المؤرخين الغربيين، يتجاهلون أول حملة صليبية، وهي التي تعرف بحملة الشعب بقيادة بطرس الناسك التي احتشد فيها الكثيرون من أبناء الدول الأوروبية على اختلافها نتيجة لمساعي البابا إيربان والحوالة الواحدة التي قام بها في أرجاء فرنسا وإيطاليا سنة ١٠٩٥ ميلادية . وتمثل أحداث تلك الحملة أشكال الفوضى العارمة والوحشية المروعة التي سادت بين المشتركين فيها من المسيحيين على نحو لم يسبق إليه البرابرة، والتي تظهر أن العقيدة الدينية وحدها لم تكن هي الدافع وراء تلك الحملة التي جمعت شذاذ الأفاق والقتلة والمجرمين إلى أبناء الأسر الأوروبية النبيلة الذين كانوا يسعون إلى تعويض ما فاتهم نتيجة تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر وحده في الميراث على حساب المسلمين في الشرق . وليس عمة شك في أن الهزيمة الماحقة التي ألحقها السلاجقة بصليبي تلك الحملة والفشل الذي انتهت إليه الحملة الصليبية الألمانية كانا العامل الهام الذي أدى إلى الحملة الصليبية الثالثة والتي بصنفها المؤرخون على أنها الحملة الأولى، في حين أنه لولا حملة الشعب



والحملة الصليبية الألمانية لما كانت هناك حملات أخرى، إذ من الواضح أن اليهود الهائلة التي بذلتها الكنيسة في سبيل القيام بهاتين الحملتين لم تكن لتؤدي إلى شيء ما لم يجد الصليبيون في الخزيمة النكراء التي راح ضحيتها عشرات الألوف من الصليبيين تعة قوية توازرهم في دعواهم إلى الحملة التالية التي يقول مؤرخوا الغرب والمؤرخون العرب إنها الأولى ونقسول نحن إنها الثالثة . ويستطيع كل من يرجع إلى المنصفين من مؤرخي الغرب أمثال رانسيمان أن يتبين في حلاء لا تشوبه أدنى ريبة حقيقة ذلك. ومن الطريف أن الغربيين ينظرون إلى هرقل الذي حارب الفرس سنة ٦٢٢ ميلادية على أنه أول صليبي برغم أن حربه مع الفرس بدأت قبل الحملات الصليبية بخمسة قسرون، ولا يفوت مؤرخهم ولهم السوري ذكر ذلك في كتابه عن الحملات الصليبية الذي سماه "كتاب هرقل".

وإذ أحمد العلي التقدير على ما وفقني إليه، أرجو أن يفيد من هذا العمل القارئ العام الذي ينبغي له أن يلم بمحلفات بالغة الأهمية من تاريخ حضارته، والباحث الذي لا يجد سيلا مسورا إلى ما يكتب في هذا المجال في لغة غير لغته، والله الموفق.

## مقدمة المؤلف

هذا هو المجلد الأول من ثلاثة مجلدات تستهدف تغطية تاريخ الحركة التي نطلق عليها الحروب الصليبية - من بدايتها في القرن الحادي عشر إلى نهايتها في القرن الرابع عشر - وتاريخ الدول التي أوجدتها تلك الحروب في الأراضي المقدسة والبلدان المجاورة. وأرجو أن أعطي في المجلد الثاني تاريخ ووصف مملكة القدس وعلاقتها بشعوب الشرق الأدنى والحروب الصليبية في القرن الثاني عشر؛ ثم أعطي في المجلد الثالث تاريخ مملكة عكا والحروب الصليبية وما تلاها.

وإذا كان لنا أن ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها أكثر المغامرات المسيحية جسامة ورومانسية ، أو على أنها آخر الغزوات البربرية ، فإنها تشكل حقيقة مركزية في

تاريخ القرون الوسطى. فقبل ابتدائها كان مركز حضارتنا يتخذ مكانه في بيزنطة وأراضي الخلافة العربية، وقبل انقضائها انتقلت الهيمنة على الحضارة إلى أوروبا الغربية، ومن خلال هذا التحول وُلد التاريخ الحديث. غير أنه لا ينبغي لنا، كي نفهم هذا التاريخ، أن نقف عند الظروف التي كانت سائدة في أوروبا الغربية والتي أدت إلى الانتداع الصليبي، بل علينا أن نجاوز ذلك، على نحو ربما يتطلب مزيداً من الإفاضة، إلى ظروف الشرق التي أتاحت للصليبيين فرصتهم وترتب عليها تقدمهم ثم انسحابهم. ولا بد لنا من أن نُنقل النظرة من الأطلنن إلى منغوليا. فمغزى القصة يضع إذا رويست من وجهة نظر الفرنجة وحدهم، أو من وجهة نظر العرب وحدهم، أو كما يراها ضحاياها الرئيسيون — مسيحيو الشرق ذلك أن هذه القصة، كما يرى جيون، مناظرة عالمية.

وقصة الحروب الصليبية لم ترو في غالب الأمر على إجمالها في اللغة الإنجليزية، ولا توجد في هذا البلد مدرسة فعالة تُعنى بالتاريخ الصليبي. والفصول التي كتبها جيون في كتابه إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية — برغم تعامله والتاريخ الذي كان يكتب فيه — حذيرة بالدراسة. ثم يأتي بعد جيون ذلك الموجز الحاذق الذي كتبه سير ارنتس باركر عن الحركة الصليبية ونشر في البداية في دائرة المعارف البريطانية، ونضيف إليه تاريخ الممالك الصليبية الذي يثير الإعجاب على ما فيه من اقتضاب والذي كتبه ب. ستيفنسون. بيد أن الإسهام البريطاني في هذا المجال يتشكل في غالبه من مقالات كتبها العلماء، ومن النقل عن المصادر الشرقية ومن عدد قليل من التواريخ التي كتبها غير المتخصصين. أما فرنسا وألمانيا فلهما في ذلك تراث يجاوز ما لبريطانيا من حيث الكم والمدى. وتبدأ التواريخ الألمانية العظيمة المتعلقة بالحروب الصليبية بالتاريخ الذي كتبه ويلكين ونشره في مطلع القرن التاسع عشر، ولا يزال تاريخ فون سيبييل الذي نشر أول مره سنة ١٨١٤ يحظى بأهمية بالغة؛ ويعقب ذلك في نفس القرن ما قام به اثنان من الدارسين المميزين — هما روهريشت، هاجنماير — من

عمل بالغ القيمة لا يقتصر على جمع المادة التاريخية من مصادرها ونقدها وحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى قيامها بكتابة تواريخ شاملة. ويتواصل التراث الألساني في السنوات الأخيرة عبر ما قام به اردمان في دراسته الجامعة للحركات الدينية في الغرب التي أدت إلى الحروب الصليبية. وفي فرنسا التي جاء منها في البداية أكبر عدد من الصليبيين، يظهر اهتمام الدارسين بنشر أهم المصادر الغربية والإغريقية والشرقية في العمل الفرنسي الضخم مجموعة تواريخ الحملات الصليبية في منتصف القرن التاسع عشر. وكان تاريخ ميشو المستفيض قد ظهر بالفعل في السنوات التي تلت سنة ١٨١٧ وفي أواخر ذلك القرن أخرج ربات وأعوته في جمعية الشرق اللاتيني كثيراً من الأعمال القيمة. وفي القرن الحالي اهتم اثنان من الدارسين المتميزين في الدراسات البيزنطية هما شالاتون، وبريهر بالحروب الصليبية؛ وقبل الحرب العالمية بقليل أخرج م. حروست تاريخه عن الحروب الصليبية في ثلاثة مجلدات، وهو تاريخ يجمع في الترسات الفرنسي ما بين العلم الواسع وحسن الكتابة ولمسة من الوطنية الغالية. على أن أكثر مدارس مؤرخي الحروب الصليبية نشاطاً توجد في الولايات المتحدة، وهي مدرسة بدأها د. س. مونرو الذي كان لإنتاجه الأدبي المقل على نحو مؤسف أثره السلي على أهميته كمعلم. ولا يزال المؤرخون الأمريكيون يركزون حتى الآن على الجوانب التفصيلية، ولم يحاول أيهم بعد أن يضطلع بتقدم تاريخ شامل كسامل؛ وإن كانوا قد وعدوا بتقدم عمل جامع يشترك في القيام به بعض الدارسين الأجانب كي يغطوا مجال التاريخ الصليبي بأكمله؛ ويؤسفني أن هذا العمل لم يصدر في وقت يسمح لي بالإفادة منه في كتابة هذا المجلد.

وربما يبدو أن إقدام "قلم" بريطاني واحد على منافسة "أكنداس الآلات الكتابية الأمريكية" عمل لا يتسم بالحكمة، وواقع الحال أن الأمر لا ينطوي على منافسة. ذلك أنه لا يتأتى لكاتب واحد أن يتحدث بمثل ما لجماعة من الخبراء من سلطان كبير، وإن كان يستطيع أن يضيء على عمله صفات تكاملية وملحمة لا يتأتى بلوغها بمجلد

بشترك عديدون في وضعه. فهو ميروس شأنه في ذلك شأن هيروودوت، كان أبا التاريخ، وهذا أمر وعاء حيون أعظم مؤرخينا؛ وإنه لمن الصعب، وإن رغم النقاد، أن نتخذ أن هوميروس لم يكن كاتبًا واحدًا وإنما مجموعة من الكتاب. وكتابة التاريخ أيامنا هذه عادت بنا إلى عصر الإسكندرية الذي تفوق فيه النقد على الإبداع. والمؤرخ الحديث — الذي تواجهه أكادس هائلة من دقائق المعرفة والذي يرهيه تشدد زملائه الذين يترصدون له — غالبًا ما يلوذ بكتابة المقالات العلمية أو الأبحاث ضيقة التخصص، وهي قلاع صغيرة يسهل الدفاع عنها عند مهاجمتها. ويمكن لعمل هذا المؤرخ أن ينسجم بأعلى قيمة، بيد أنه لا يشكل الغاية المرجوة في حد ذاته. وأحسب أن أسمى واجب للمؤرخ هو أن يتصدى لكتابة التاريخ، أي أن يحاول أن يسجل في تنابع متلاحق كبريات الأحداث والحركات التي وجهت أقدار الإنسان. والكاتب الذي تبلغ به المحازفة محاولة ذلك لا ينبغي أن ينتقد لطموحه، وإن استحق كثيرًا من اللوم لقصور أداته أو خواء نتائجه.

وأورد في حواشي الصفحات المراجع التي اعتمدت عليها فيما خلصت إليه، كما أورد في مسرد مراجعي قائمة بالأعمال التي رجعت إليها. وأنا مدين لكثير منها بفضل كبير، حتى وإن لم أكن قد استشهدت بها في الحواشي. والأصدقاء الذين أعانوني بتقدمهم ونصحهم عديدون بحيث لا يتأتى ذكرهم.

ولا يفوتني أن أبدي ملاحظة عن كيفية نقل الأسماء من لغة إلى أخرى. فحيث ترد أسماء مسيحية لها شكل إنجليزي مقبول مثل — جون أو جودفري أو ريموند — فإنني آخذ به احتسابها للحذقة؛ ولقد حاولت دائمًا أن استخدم الشكل الشائع الذي يلقي قبول القارئ الإنجليزي العادي. واستخدمت الحروف اللاتينية في نقل حروف الكلمات الإغريقية وهو النهج المتبع الوحيد الذي يلائم ذلك. وتتمثل في الحروف العربية صعوبة أكبر فالنقط وعلامات نطق الحروف الخلقية التي يوصي بها المتخصصون تجعل القسراءة صعبة. ومن ثم حذفتها، وإن كنت أتمنى أن يكون النسق الذي اتبعته

واضحاً. وفي الأرمنية حيث يصح أن تحمل K محل G و B محل P بحسب المكان أو الفترة الذي أو التي استخدمت فيه الكلمات، فلانني التزمت بما استعمل في القديم منها. وتشكل الأداة الفرنسية de مشكلة دائمة، وقد ترجمتها في جميع الحالات التي لم تكن فيها جزءاً من كنية محددة.

وأود في النهاية أن أشكر مسئولني وأمين مطبعة جامعة كامبريدج لفضلهم وعونهم الدائمين.

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٠



## الباب الأول :

### أماكن العالم المسيحي المقدسة





## الفصل الأول :

### رجسة الخراب



## رجسة الخراب

«قَمَتِي نَظَرْتُمْ رِجْسَةَ الْخَرَابِ الَّتِي قَالَ  
عَنْهَا دَاوُدُ النَّبِيُّ قَائِمَةٌ فِي الْمَكَانِ  
الْمُقَدَّسِ».

(الإنجيل متى ٢٤ — ١٥)

دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس في أحد أيام فبراير (شباط) سنة ٦٣٨ ميلادية على ناقه بيضاء، مرتدياً ثياباً رثة بالية، والجيش من خلفه أشعث أغبر وإن كان نظامه في ذروة الكمال. وكان بجانبه الطريق سوفرونيوس كبير القضاة في المدينة المستسلمة، ومضى عمر مباشرة إلى معبد سليمان الذي عرج منه النبي محمد إلى

السماء، وتمتم البطريق وعبراته تفيض — وهو يرى عمرا واقفا هناك — مرددا: "انظروا رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي".

وأبدى الخليفة رغبته في مشاهدة مزارات المسيحيين فصحبه البطريق إلى كنيسة القبر المقدس وأراه كل ما كان هنالك. وعندما حانت ساعة الصلاة استفسر الخليفة عن الموضوع الذي يمكن أن يبسط فيه سجادة الصلاة، فرجاء سوفرونوس أن يبقى حيث هو، لكن عمر خرج إلى رواق الاستشهاد خشية أن يدعي أتباعه الغير حقاً للإسلام فيه، كما حدث بعد ذلك إذ استولى المسلمون على الرواق وبقيت الكنيسة كما كانت أقدس حرمت العالم المسيحي. (١)

وتم ذلك طبقاً لشروط استسلام المدينة؛ فبينما قضى النبي نفسه بتخيير عباد الأوثان بين الدخول في الإسلام أو الموت، سمح لأهل الكتاب أي المسيحيين واليهود (الذين ألحق بهم الزرادشتيين تطلقاً) (٢) بالاحتفاظ بدور عباداتهم بممارسة فيهما شعائهم دون قيد، ولم يكن لهم أن يزيدوا من عددها أو يعملوا سلاحاً أو يعتلوا حوادا وعليهم أن يدفعوا نوعاً من ضريبة الرأس تعرف بالجزية. (٣) ولم يكن سوفرونوس ليرجو شروطاً أفضل من تلك وهو يخرج راكباً حماره — بعد أن منح الأمان — ليقابل الخليفة على جبل الزيتون، إذ رفض أن يسلم المدينة لأي شخص دون الخليفة منزلة. ومضى على حصار القدس مدة تجاوز العام، فلم يكن

(١) Theophanes, ad ann. 6127, p. 333 ; Eutychius, *Annals*, col. 1099; Michael the Syrian, vol. ii, pp. 425-6; Nisibin, p. 64. An excellent summary of the sources is given in Vincent and Abel, *Jérusalem Elias of Nouvelle*, vol. ii, pp. 930-2

(٢) (الترجم): ليس هنا صحيحاً وإنما يرجع ذلك إلى أباطيل المؤرخين والمستشرقين الذين خلطوا بين أهل الكتاب وغيرهم.

(٣) See the article " Djizya " by Becker in the *Encyclopaedia of Islam*, and Brown, *The Eclipse of Christianity in Asia*, p. 29-31

العرب على حيرة بحروب الحصار ولم يكونوا مجهزين لها كما ينبغي، فوقفوا عاجزين أمام التحصينات التي حددت موعرا. وأخذت المون تتناقص داخل المدينة وتبددت الآمال في إنهاء الحصار، فالبلاد كلها في قبضة العرب وقد تسوأل سقوط المبدن السورية والفلسطينية واحدة تلو الأخرى، وكان أقرب حيث مسيحي إليهم هو الذي في مصر، باستثناء حامية صامدة في قيسارية على الساحل تحميها البحرية الإمبراطورية. وكل ما استطاع أن يحصل عليه سوفرونيوس من الفاتحين بالإضافة إلى الشروط المعتادة هو السماح لمستولي الإمبراطورية في المدينة بأن ينسحبوا إلى ساحل قيسارية في أمان ومعهم عائلاتهم وما يمكن أن يحملوه من متاع.

وكان هذا آخر إنحاز عام قام به البطريق. وتلك نهاية مأسوية لحياة طويلة قضاه في دأب كي يستقيم العالم المسيحي ويتحد؛ فمنذ أيام شبابه التي أمضاها في تطواف بأديرة الشرق مع صديقه جون موسكاس، يجمعان غذاءهما الروحي من أقوال القديسين وأقاصيصهم، وإلى آخر أيامه، وبعد أن عينه الإمبراطور بطريقاً لأسقفية القدس الكبرى برغم معارضته لسياسته، وهو يكافح في صلاية الهرطقات والقومية الوليدة التي كان يرى أنها ستقطع أوصال الإمبراطورية. بيد أن ما دعا إليه وقام به هذا البطريق الذي عرف "بالمدافع عن الدين معسول اللسان" ذهب سدى. فالفتح العربي برهن على فشله، ومات كسير القلب بعد وقوعه بأسابيع قليلة. (١)

---

(١) أنظر : Mansi, *Concilia Nova Collectio*, vol. X, col. 607.

ومن المؤكد الآن أن سوفرونيوس البطريق هو نفسه سوفرونيوس صديق Moschus.

أنظر : Usener, *Der Heilige Tychon*, pp. 85-104.

#### بقاء الإمبراطورية في الشرق

ولم يكن يوسع بشر، في واقع الحال، أن يوقف حركات التمزق في المقاطعات الشرقية لروما، فعبر تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان الصراع كامناً بين الشرق والغرب. وإن كان الغرب قد انتصر في أكتيوم فإن الشرق تغلب على غزاته؛ ومصر وسوريا كانتا أغنى أقاليم الإمبراطورية وأكثرها سكاناً وفيهما أهم مراكز الصناعة في الإمبراطورية، وتسيطر سفنهما وقوافلهما على تجارة الشرق، وتفوق ثقافتهما الروحية والمادية ثقافة الغرب بكثير، ولا تقتصر علة ذلك التفوق على تراثيهما العريقين وحسب وإنما تنصرف كذلك إلى قربهما من مملكة الساسانيين الفارسية التي كانت تمثل حافزاً لهما والتي كانت الند الحضاري الوحيد لروما، ومن ثم لم يكن هناك مناص من أن يتعاظم نفوذ الشرق، وظل الأمر كذلك إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين العظيم في نهاية الأمر ديناً شرقياً ونقل عاصمته إلى الشرق في بيزنطة على البسفور. وعندما ضعفت الإمبراطورية، في القرن الثاني، لما أصابها من تآكل في الداخل، كان عليها أن تواجه هجمة البرابرة، فهلك الغرب وبقي الشرق، بفضل سياسة قسطنطين في غالب الأمر. وبينما أخذت الممالك البربرية تنشأ في الغال وإسبانيا وأفريقيا وبريطانيا النائية وأخيراً في إيطاليا، كان الإمبراطور الروماني يحكم المقاطعات الشرقية من القسطنطينية. ونادراً ما كانت حكومة روما تحظى بشعبية في مصر وسوريا، وسرعان ما أنارت حكومة القسطنطينية تيرما مريراً أخذ في التزايد، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ظروف خارجية. فالفقير الذي حل بالغرب كان يعني ضياع أسواق للتاجر السوري والصانع المصري، كما أن الحروب المتصلة مع فارس عرقلت طريق التجارة الذي كان يمضي خلال الصحراء إلى أنطاكية والمدن اللبنانية. وبعد فترة وجيزة سقطت إمبراطورية الحبشة ونقش الاضطراب في الجزيرة العربية، وأغلق نتيجة لذلك طريق تجارة البحر الأحمر الذي كان يسيطر عليه بحارو مصر وأصحاب القوافل في البتراء والأردن جنوب فلسطين. وأصبحت القسطنطينية السوق الرئيسية للإمبراطورية، وكانت تجارة

الشرق الأقصى، التي شجعتها دبلوماسية الإمبراطور تبحث لها عن طريق مباشر يتجه إلى الشمال عبر سهول أواسط آسيا، فتولدت المرارة بين أبناء الإسكندرية وأنطاكية، ومملكتهم الغيرة من تلك المدينة حديثة النعمة التي كانت تنذر بالسيطرة عليهم. وزادت مرارة السوريين والمصريين من مركزية الحكومة الجديدة، ومن تقلص الحقوق المحلية وحقوق الأقليات على نحو مطرد؛ وكان جاني الضرائب أكثر صرامة وإلحاحا منه في أيام روما القديمة، فتفشى السخط وأضاف قوة جديدة إلى قومية الشرق التي لا يغلبها التعاس أبدا لوقت طويل.

#### النساطرة والوحديطييون (١)

وتفجر الصراع حول القضايا الدينية علانية. ولا شك في أن الأباطرة الوثنيين كانوا متسامحين حيال العبادات المحلية، إذ يمكن للألهة المحلية أن تجدد في يسر مكانا لها بين الآلهة الرومان، وأما المعاندون من الوحديطييين، كالمسيحيين واليهود، فكانوا هم الفئة الوحيدة التي عانت من نوبات اضطهاد بين الحين والآخر. ولم يستطع الأنساطرة المسيحيون أن يتحلوا بمثل ذلك التسامح، فالمسيحية لا تقبل آلهة أخرى، وأرادوا استغلالها كقوة موحدة لربط كل رعاياهم بالحكومة. وكان قسطنطين، الذي التفت عليه أمور اللاهوت بعض الشيء، قد سعى من قبل إلى توحيد الكنيسة التي مزقتها

---

(١) (الترجم) : علينا أن نلاحظ الفارق بين Monophysite التي تعني الواحد بطيحي في العقيدة المسيحية أي القائل بالطبيعة الواحدة للرب ولا يرى أنه ذو طبيعتين إلهية وأخرى بشرية ، وبين Monotheist أي التوحيد والتي تعني القائل بالتوحيد أي الذي يؤمن بأن الله واحد لا شريك له وليس له ثلاثة أقانيم .



الجدل الأريوسي (١) . وبعد مضي نصف قرن جعل ثيودوسيوس العظيم الامتناع لأعراف الكنيسة أمراً ينبغي أن يأخذ به الأباطرة. بيد أن ذلك الامتناع لم يكن سهلاً المثال . فالشرق كان قد أقبل على المسيحية في تلهف، وتناول اليونانيون مشكلاتهما بما يستهويهم من الجدل الحاد الذي أضاف إليه أهل الشرق المتأثرون بالاتجاه اليوناني حدة عاطفية جاثقة سرعان ما ولدت تعصباً وكرهية. وكان الموضوع الرئيسي الذي احتلوا حوله هو طبيعة المسيح التي تمثل فيها المشكلة الهورية باللغة الصعوبة في اللاهوت المسيحي كله. ولأن كان هذا الجدل لاهوتياً، فإنه كان يستهوي في تلك الأيام رجل الشارع الذي نظر إليه على أنه ضرب من ضروب التسمية التي لا يفوقها متعة سوى ألعاب السرك. بيد أن الأمر لم يقتصر على ذلك، فالسوريون والمصريون بعامه كانوا يريدون طقوساً أبسط من تلك التي تمارسها الكنيسة الأرثوذكسية بما فيها من أهمة يؤذيهم بذبحها وهم يعانون من فقر متزايد وينظرون إلى أحبار الكنيسة وقساوستها على أنهم عملاء لحكومة القسطنطينية؛ وانتهى ذلك بكبار رجال الكنيسة إلى معاناة مماثلة للسوريين والمصريين. وكان بطارقة الكراسي الأسقفية القديمة في الإسكندرية وأنطاكية يتميزون غبطة من إخوانهم حديشي النعمة في القسطنطينية الذين يماززونهم في الأسبقية، فليس ثمة بد إذن من أن تظهر المرطقة وتتخذ شكل حركة قومية انشاقية.

وسرعان ما عبت جذوة الأريوسية في الشرق، باستثناء الحبشة، بينما بقيت هرطقات القرن الخامس عشر بعد ذلك. ففي بداية القرن أعلن نسطور — بطريرق القسطنطينية السوري المولد — عن مذهب يركز تركيزاً مفرطاً على بشرية المسيح، وجذب ذلك الاتجاه قلوب لاهوتيي المدرسة الأنطاكية، وتبع نسطور أشياء كثيرة في

---

(١) الأريوسية : مذهب ينسب إلى الكاهن أريوس السكندري المتوفى عام ٣٣٦ ميلادية ، قال أن المسيح الابن يختلف في الجوهر عن الإله الأب .

شمال سوريا، بيد أن المجلس المسكوني الذي عُقد في أفسوس سنة ٤٣١ ميلادية أنكر مذهب هذا وأعلن أنه هرطقة، فانشقت مجامع سورية عديدة، وطُرد النساطرة من الإمبراطورية، وأقاموا في المنطقة التابعة للملك فارس في أرض ما بين النهرين، وسرعان ما تحول انتباههم إلى التبشير في أقصى الشرق، في الهند وتركستان بل والصين، إلا أنهم في القرنين السادس والسابع كانوا ما يزالون يحتفظون بكنائسهم في سوريا ومصر يرتادها في الغالب تجار الشرق الأقصى.

ولم يتوقف الجدل النسطوري عند هذا الحد وإنما أثار جدلاً آخر أشد مرارة، ذلك أن لاهوتى الإسكندرية، الفرحين بفوزهم المزدوج على المبادئ الأنطاكية وعلى بطريق القسطنطينية، تخطوا حدود الأرثوذكسية في اتجاه مضاد ووضعا مذهباً يدّعون أنه يتضمن إنكاراً لبشرية المسيح، ويطلق على هذه الهرطقة أحياناً (ايوتيكية) نسبة إلى قسيس مغرور يدعى إيوتيكيوس كان أول من طرحها، وتشيع تسميتها على نطاق أوسع الوُحدِيَّة، لكن المجلس المسكوني الرابع المنعقد في سنة ٤٥١ ميلادية في خلقدونية أنكر تلك الهرطقة، فاغتاز الوُحدِيَّةيون واشتقوا على الهيئة الرئيسية للعالم المسيحي آخذين معهم أغلب مسيحي مصر وعدداً من المجمع السورية..على أن وفد الكنيسة الأرمنية وصل إلى خلقدونية متأخراً ولم يشهد الحوار ورفض قبول ما توصل إليه المجلس وانضمت الكنيسة الأرمنية إلى الوحديطعيين. وسعى الأباطرة المتأخرون سعياً حثيثاً كي يوحدوا صيغة توفيقية ترأب الصدع وقرها المجلس المسكوني ويمكن أن تقبل على أنها أقرب إلى العقيدة الصحيحة، غير أن تلك المساعي عاقها عاملان ذلك أن الهرطقة لم يكونوا ليعودوا إلى الخطيئة إلا بشروطهم غير المقبولة، فضلاً عن أن موقف روما والكنيسة الغربية كان معادياً لأي حل وسط عداء لا هوادة فيه فالباپا ليو الأول استقر على رأى موداه أن خليفة القديس بطرس، وليس أي مجمع كنسي، هو صاحب الحق في تحديد المذهب، وكان يضيق ذرعاً بخفايا الجدل التي لا يفهمها، وأصدر بياناً يحدد فيه الرأي الصحيح في المسألة، ويبيّن ذلك البيان في

التاريخ باسم (توماس أوف ليون) ورغم أن ذلك البيان تجاهل دقائق الجدل فقد قبلته سلطات مجلس خلقيدونية وأضافت صيغته إلى ما توصل إليه المجلس من نتائج. وكانت صيغة بيان البابا ليون الأول محددة ومباشرة لا تقبل تمويهاً ولا تعديلاً، وكان أي حل وسط يسترضي المراطقة يعتبر إنكاراً للبيان ومن ثم يعد صدعاً في العلاقة مع روما وهذا ما لم يمرّ على الإقدام عليه أي إمبراطور له مصالخ أو مطامع في إيطاليا والغرب. وهكذا وجدت الحكومة الإمبراطورية نفسها واقعة في هذا المأزق فلم تحاول مطلقاً الأخذ بسياسة ثابتة وإنما تذبذبت بين اضطهاد المراطقة وتهدئتهم، وفي نفس الوقت ازدادت قسوة المراطقة في المقاطعات الشرقية، تشد من أزهرهم قومية الشرق التي كانت تنفض عن نفسها غبار سيئاتها. (١)

وبخلاف الوندليين والساسانية كانت هناك طائفة في المقاطعات الشرقية تعارض الحكومة الإمبراطورية دائماً، هي طائفة اليهود، التي كانت تستقر بأعداد كبيرة في مدن الشرق الكبرى كلها، وتخضع لأوجه من عدم الأهلية القانونية في النواحي المدنية، وتتعرض هي وممتلكاتها بين الحين والآخر للضرر الذي يترتب على ما يشور من شغب، وإزاء ذلك كانت تنتهر كل فرصة لإيذاء المسيحيين، وجعلت منها مورداً مالياً واتصالها الواسعة خطراً كامناً يتهدد الحكومة. (٢)

(١) أحسن ما كتب عن التاريخ المبكر لكاتس الساسانية والوندليين يرد في :

Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, articles on "Nestorians", by Amann, and "Monophysitisme", by Jugie, and in the chapters by Bardy in vol. iv, and by Bréhier in vols. iv and v, of the *Histoire de l'Eglise*, ed. by Fliche and Martin.

For the arbitrary but not very oppressive imperial legislation against the Jews, (٢) see Bury, *Later Roman Empire* (A.D. 395-565), vol. ii, p. 366, and Krauss, *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichte*, pp. 1-36.

## تصدع في سوريا

وساءت الأمور في القرن السادس عشر، إذ استمرت حروب جستينيان في الغرب وأنفق فيها أموالاً كثيرة وزاد الضرائب على رعاياه الشرقيين دون أن يمنحهم مزايا تعويضهم، وغدت سياسته في وضع حرج. وعانت سوريا أسوأ معاناة، فبجلاف عبء الضرائب ابتليت بسيل من غارات الجيوش الفارسية، وسلسلة من الزلازل المدمرة. ولم يزدهر سوى الهراطقة؛ إذ قام يعقوب الأوربي (١) بتنظيم الوجديطيعيين في سوريا وجعل منهم قوة لها شأنها يدفعه في ذلك عطف الإمبراطورة ثيودورا، ومنذ ذلك الحين أصبحت كنيستهم تعرف عادة (بالكنيسة اليعقوبية). وأما الوجديطيعيون في مصر، ويسمون الآن الأقباط، فكانوا يشملون كل أبناء مصر تقريباً، وأما الساطرة الآمنون المتحصنون عبر الحدود الفارسية فقد توسعوا توسعاً سريعاً باتجاه الشرق وعززوا موقفهم مع الإمبراطورية، وأما الأرثوذكس الذين كانوا يمثلون أقلية في غير مدن فلسطين فقد أطلق عليهم اسم "الملكيين" (٢) من قبيل الازدراء، وهي تسمية

---

(١) (المترجم) : نسبة إلى مدينة أوريا - وتسمى أيضاً الرها - في أقصى الجنوب الشرقي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الملكيون Melchites أو Melkites : تسمية تطلق على من أخذوا من مسيحي سوريا ومصر بما انتهى إليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ميلادية من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية واصطلح على إطلاق هذه التسمية عليهم من قبل الازدراء لأنهم أخذوا في ذلك بالموقف اللاهوتي الذي كان يدين به الإمبراطور البيزنطي ومن ثم أصبحوا ملكيين ، أو رجال الإمبراطور اشتقاقاً من اللفظة السريانية **Malika** التي تعني ملك وأطلق عليهم هذه التسمية أولئك الذين رفضوا تعريف مجمع خلقدونية والذين يؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة وأطلقت هذه التسمية في بادئ الأمر على من أخذ من المصريين برأي مجمع خلقدونية ثم انصرفت بعد ذلك إلى كل من أخذ بذلك الرأي في الشرق الأوسط وأصبحت في النهاية تدل على كل من أخذ بمذهب الطبيعتين في بطريركيات الإسكندرية والقدس وأنطاكية ==

هذا ما يبررها فيقاوهم يتوقف على قوة الإدارة الإمبراطورية وهيبتها. (١)

وفي سنة ٦٠٢ ميلادية اغتصب فوكاس قائد المئة (٢) العرش الإمبراطوري، وكان حكمه وحشيًا عاجزًا. وبينما كانت القسطنطينية تعاني من حكم الإرهاب تفششت في المقاطعات أعمال الشغب والحرب الأهلية بين المتحيزين من رواد السيرك المتحيزين ومن يتصدون لهم من الطوائف الدينية؛ وفي أنطاكية عقد البطارقة اليعقوبيون

---

«مما انحصرت طائفة الملكيين في المستوطنين اليونانيين والمستعربين من مسيحي مصر وسوريا الذين ألفوا الشعائر البيزنطية وانبعوا ميخائيل سيريلاريوس بطريرك القسطنطينية في انشقاقه عن روما سنة ١٠٥٤ ميلادية . وحاول بطارقة أنطاكية في القرون التالية أن يعودوا إلى الاتحاد مع روما وظهرت أعداد قليلة من الملكيين الكاثوليك ولم يتم ذلك الاتحاد إلا في سنة ١٧٢٤ ميلادية عندما انتخب سبول السادس الكاثوليكي بطريرقا لأنطاكية وتبعه بضعة أساقفة وثلاث الملكيين وانتخب الأرثوذكس الذين عارضوا الانقسام سلقستر بطريرقا ثم حصلوا على اعتراف قانوني بهم من الحكومة العثمانية وبذلك تأكد استقلالهم الذاتي وبعد انقضاء مائة عام من الاضطهاد والصراعات الدينية بين اليسوعيين (Jesuits) والمارونيين اللبنانيين وبين الكاثوليكين منح الأتراك العثمانيون لأولئك الكاثوليكين استقلالاً ذاتياً أتاح لهم حرية ممارسة نشاطهم وتزايد عددهم .

(١) See Bréhier, cit. iv, pp. 489-93; Devreesse, *Le Patriarchat d'Antioche*, pp. 77-99

(٢) (الفرحيم) : المئة : جماعة تتألف من مئة مقاتل حسب تقسيم الجيش الروماني .

والنساطرة مجلسًا مشتركًا علنيًا لمناقشة اتخاذ إجراء ضد الأرثوذكس، فعاقبهم فوكاس بأن أرسل إليهم جيشًا قتل أعدادًا غفيرة من المطرطقة بمساعدة اليهود الذين سرهم ذلك، وبعد ذلك بعامين ثار اليهود أنفسهم وعذبوا بطريق المدينة الأرثوذكسي وقتلوه. (١)

#### الحرب الفارسية

وفي سنة ٦١٠ ميلادية عزل فوكاس شاب نبيل ينحدر من أصل أرمني هو هرقل ابن حاكم أفريقيا. وفي نفس العام أتم كسرى الثاني استعداده لغزو الإمبراطورية ومخزيق أوصالها، ودامت الحرب الفارسية تسعة عشر عاما، اتخذت الإمبراطورية في اثني عشر منها موقف الدفاع، واحتل الجيش الفارسي هضبة الأناضول وسوريا، وسقطت أنطاكية سنة ٦١١ ميلادية ودمشق سنة ٦١٣ ميلادية، وفي ربيع ٦١٤ ميلادية غسرا القائد شهربراز فلسطين وراح ينهب البلاد ويحرق الكنائس في طريقه ولم تسلم سوى كنيسة الميلاذ في بيت لحم بسبب الفسيفساء التي تصور حكماء الشرق يرتدون ملابس فارسية، وحاصر القدس في الخامس عشر من أبريل (نيسان) وكان البطريق زخارياس مستعدا لتسليم المدينة حقنا للدماء، ولكن سكانها من المسيحيين رفضوا أن يسلموا في خنوع، فافتحمها الفرس في الخامس من مايو (أيار) بعون اليهود الذين كانوا في داخلها، وتبع ذلك مشاهد من الملع البالغ؛ فبينما كانت النيران تلتهم كنائس ومنازل المسيحيين قتل جنود الفرس بعضهم وقتل اليهود أكثرهم دون تمييز ويقال إن

---

(١) Theophanes, ad ann. 6101, p.296; John of Nikiu, p.166; Sebeos, pp.113-14; Eutychius, *Annales*, col. 1084 (telling of riots in Tyre); *Chronicon Paschale*, p. 699 (attributing the murder of the Patriarch to rioting soldiers); Kulakovsky, "Criticism of evidence in Theophanes" (in Russian), *Vizantiiski Vremennik*, vol. xxi, pp. 1-14, and *History of Byzantium*, vol.iii (in Russian), pp. 12-15, who collates the evidence and fixes the date.

ستين ألفاً أيديوا وإن حمسا وثلاثين ألفاً آخرين بيعوا عبيدا في أسواق الرقيسق، وإن "المخلفات المقدسة" بالمدينة وهي "الصليب المقدس" و"أدوات الآلام" (١) قد اكتشفت بعد إخفائها وأرسلت مع البطريق شرقا هدية للملكة فارس المسيحية، مرمم النسطورية. وبلغ تخريب المدينة وما حوفا ذروته بحيث لم تعد البلاد إلى حالتها الأولى حتى يومنا هذا. (٢) وبعد ثلاث سنوات تقدم الفرس إلى مصر وسيطروا عليها في غضون عام واحد، وصلت الجيوش الفارسية إلى الإسكندرية شمالا.

وكان سقوط القدس صدمة مروعة للعالم المسيحي. ولم يكن الدور الذي لعبه اليهود في ذلك لينسى أو يغتفر في أية حال. وأخذت الحرب ضد الفرس طبيعة الحرب المقدسة. وعندما استطاع هرقل أخيراً أن يبادر إلى الهجوم سنة ٦٢٢ ميلادية كسر نفسه وحيشه للرب في خشوع، وانطلق كمحارب مسيحي يتصدى لقوى الظلم، وصورته الأجيال اللاحقة على أنه أول الصليبيين. فبعد ذلك بخمسة قرون أورد المؤرخ وليم الصوري قصة الحرب الفارسية ضمن تاريخه عن الحملات الصليبية، وتعرف الترجمة القديمة لكتابه باسم "كتاب هرقل".

وكانت تلك الحرب الصليبية حرباً ناجحة. فبعد كثير من التقلبات والحظوظ من القلق واليأس هزم هرقل الفرس في نينف في ديسمر (كانون الأول) سنة ٦٢٧ ميلادية، وفي بداية العام التالي ٦٢٨ ميلادية اغتيل الملك كسرى، وفاوض خليفته على السلام الذي لم يقر إلا سنة ٦٢٩ ميلادية، واستعادت الإمبراطورية ما فقدته من مقاطعات، وفي أغسطس (آب) احتفل هرقل بانتصاره في القسطنطينية، وفي الربيع التالي رحل مرة

(١) (الترجم): يقصد بالآلام، في العقيدة المسيحية، معاناة وموت السيد المسيح علي الصليب.

(٢) (١): Antiochus the stratege, pp. 9 - 15; Sebeos, pp. 130 - 1; Anon. Guidi, p. 3; (٢): Chronicon Paschale, pp. 704 - 5; Theophanes, ad ann. 6106, pp. 300-1. The incident of the mosaics at Bthlehem is given in the letter of the eastern Patriarch to Theophilus, in Migne, Patrologia Graeco-Latina, vol. xciv, cols. 380-1.

أخرى جنوباً ليستعيد "الصليب المقدس" ويعمله إلى القدس في موكب فخم. وكان ذلك المشهد مثيراً للعواطف.

على أن مسيحي الشرق لم يكونوا على أية حال سيئة في ظل الحكم الفارسي، فمحاياة كسرى لليهود لم يدم وانتهى به الأمر إلى طردهم من القدس. وبينما كان البلاط الفارسي يحايي النساطرة، كان كسرى يظهر رسمياً مشاعر العطف على الوجدانيين والأرثوذكس بنفس القدر، فاستعادوا كنائسهم وأعادوا بناء ما تهدم منها وانعقد في العاصمة كسيفون (١) مجلس برعاية كسرى لمناقشة إعادة توحيد الطوائف. على أنه تبين بعد عودة الإدارة الإمبراطورية، وبعد أن حيا ما صاحب ذلك من حماس، أنها تفيد الأرثوذكس دون غيرهم؛ ذلك أن هرقل الذي ورث خزائنه خاوية لم يتمكن من تمويل حروبه إلا بقرض ضخيم من الكنيسة، ولم تكف الأسلاب التي أحدها من فارس لسداد الدين، ومرة أخرى وجد السوريون والمصريون أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، وإذا هم يرون أموالهم تضخم خزائن رجال الكنيسة الأرثوذكسية.

وأخفقت سياسة هرقل الدينية في إصلاح الأمور. ذلك أنه بدأ باتخاذ بعض الإجراءات ضد اليهود، وإن لم يكن يضرهم عداؤه من قبل، ولكن الذي حدث هو أنه التقى بيهودي أكرم وفادته في طبرية وهو في طريقه إلى القدس وأحاطه علماً بالتفاصيل الكاملة للدور الذي قام به اليهود إبان الغزوات الفارسية. وربما تأثر بنوعية مبهمة مفادها أن جنسنا محتونا سيدمر الإمبراطورية، فأمر بتعميد كل اليهود في الإمبراطورية تعميداً قسرياً وكتب إلى ملوك الغرب يختمهم على أن يعمدوا حذوه. واستحال تنفيذ أمره، على أن الحادثة أتاحَت للمسيحيين المتعصبين فرصة نادرة لتقتيل

---

(١) (الترجم) : كسيفون : أو المدائن، تقع حالياً بالقرب من بغداد جنوباً .



ذلك الجنس البغيض، وهكذا ازداد استياء اليهود من الحكم الإمبراطوري. وخاض الإمبراطور في أمواه اللاهوت المسيحي الخطرة؛ ذلك أن سرجيوس بطريرك القسطنطينية وهو سوري وحنديطعي بالمولد تدرج في تطوير عقيدة ظن أنها تحقق المصالحة بين الوحنديطعيين وبين الأرثوذكس، ووافق هرقل على تلك العقيدة المعروفة تاريخياً باسم المونوتريكية (١)، وبانتهاء الحروب الفارسية انتشرت العقيدة الجديدة. وبرغم أن الإمبراطور والبطريرك تبنياها، وأن الخير الرومان هونوريوس وافق عليها موافقة مشوبة بالخدر، فإنها لم تلق شعبية تذكر، وأجمع رجال الكنيسة من الوحنديطعيين على رفضها من فورهم كما رفضتها أغلبية الأرثوذكس التي يتزعمها في القسطنطينية الصوفي الكبير مكسيموس المعترف، وفي الشرق البطريرك سوفرونوس. وحاول هرقل جاهداً أن يفرضها على رعاياه تدفعه الحماسة أكثر مما تدفعه القسطنطينية، لكنه لم يجد أحداً يؤيده سوى حاشيته وعدد ضئيل من الأرمن واللبثانيين الذين عرفوا فيما بعد بالموارنة. ثم عدل هرقل هذه العقيدة فيما بعد ونشر سنة ٦٣٨ ميلادية عقيدته المسماة اكنيسيس (٢) التي يدافع فيها عن المونوتيليتية (٣)، لكنه أحرق بنفس القدر. ولم يستقر على رأى في هذه المسألة برمتها، وبقيت الحال على ذلك حتى بعد انعقاد المجلس المسكوني

(١) (الترجم): Monoenergism يقصد هذه اللفظة الواحد بطاقة إذا ذهب سرجيوس بطريرك القسطنطينية (٦١٠-٦٣٨) في محاولته التوفيق بين الواحد بطيعين وبين القائلين بأن للمسيح طبيعتين إلى التأكيد على أن للمسيح منع إلهي واحد للفعل الجسدي Monoenergism وأنه يتنص بإرادة واحدة Monothelitism وقد حاول سرجيوس بذلك تحقيق الوحدة العقائدية في العالم المسيحي الشرقي، وإن كانت هذه العقيدة قد رفضت بعد ذلك على أنها غير أرثوذكسية .

(٢) (الترجم): اكنيسيس Ekthesis لفظة يونانية تعني: يعرض أو يطرح ، استخدمها أرسطو في علم المنطق ليدللها على صحة فرض أو قياس منطقي معين .

(٣) (الترجم): المونوتيليتية Monothelism معتقد لاهوتي يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين .

السادس سنة ٦٨٠ ميلادية. مما زاد من المرارة والاضطراب الذين كانا يلحقان الحراب  
مسيحي الشرق.

#### الجزيرة العربية قبل الإسلام

كان هرقل يستقبل في القسطنطينية في سنة ٦٢٩ ميلادية السفراء المهنتين  
القادمين من بلاد بعيده كفرنسا والهند. ويقال أنه في تلك الأثناء حاثته رسالة يوجهها  
إليه سيد عربي يقدم نفسه على أنه نبي الله ويدعوه إلى الدخول في دينه، وتلقى ملكا  
فارس والحبيشة وحاكم مصر رسائل مماثلة. وربما تكون تلك القصة مكذوبة، فمن غير  
الغشمل ألا يكون هرقل قد علم آنذاك بالأحداث العظام التي كانت آخذة في تغير  
الجزيرة العربية تغيرا شاملا. ففي بداية القرن السابع كانت تقيم في شبه الجزيرة بعض  
القبائل المستقلة التي يصعب قيادها، تقوم حياة بعضها على الرعي والبعض الآخر على  
الزراعة واستقرت قلة منها في مدن تجارية تقع على امتداد طريق القوافل. وكان شبه  
الجزيرة وثنيًا ولكل منطقة فيه أوثانها. وكانت الكعبة أقدس المقدسات وتقع في مكة  
وهي المدينة التجارية الرئيسية. على أن عبادة الأثان كانت تتضاءل بسبب ما كان يقوم  
به المبشرون من اليهود والمسيحيين والزرادشتيين (١). ولم تحقق الزرادشتية نجاحًا إلا في

---

(١) (المترجم) : الزرادشتيون : نسبة إلى زرادشت (Zoroaster أو Zarathustra) الذي ولد في فارس  
حوالي سنة ٦٢٨ ق.م وتوفي حوالي سنة ٥٥١ ق.م ، وهو مصلح ديني لا يعرف عن حياته معرفة يقينية إلا  
القليل . ويقال أنه تلقى رؤيا من أهورا مازدا الرب الحكيم الذي كلفه بالدعوة إلى الحقيقة ولم تصد زرادشت  
للقضاء على وثنية الديانة الفارسية وإنما جعل أهورا مازدا على رأس ملكوت يقوم على العدل وبعد بساطة  
والنعم فهورا مازدا هو صاحب المكانة العالية بين الألهة والجدير بأن يعبد ولا يستطيع الدارسون المحدثون أن  
يشعروا على سبيل اليقين ما يرد إلى زرادشت وما يرد إلى أتباعه مما جاء في الزرادشتية من توحيدية وإثنية (أي  
عبادة إلهين) ومما يتعلق بالأحاديث (كالنور والبعث والحساب والخلود) والممارسات الشعائرية . للزرادشتية  
أتباع قلائل معزولون في إيران ولها أتباع كثيرون في الهند من أسلاف الزرادشتيين الأول الذين هاجروا إلى هناك

المناطق الشمالية الشرقية الخاضعة للنفوذ السياسي الفارسي وفيما بعد في الجنوب. وكان اليهود مجتمعون في كثير من المدن العربية، خاصة في "المدينة"، وممكنوا من تحويل عدد قليل من العرب إلى دينهم. وأما المسيحيون فكانوا يحققون نجاحا أكبر وأصبح للأرثوذكس أتباع في سبنا والبراء، ووجد النساطرة حيثما توفرت الحماية الفارسية شأهم في ذلك شأن الزرادشتيين، وكان للوحديعيين تجمعات عبر طرق القوافل الممتدة إلى اليمن وحضرموت، كما كانت هناك قبائل هامة كثيرة تدين كذلك بالوحديعية كالفساسنة والتغالية. وأتيحت للتجار العرب الذين كانوا يترددون على مدن سوريا وفلسطين والعراق فرض أكثر للإلزام بأديان العالم المتحضر، بينما كان هناك في شبه الجزيرة ذاتها تراث الخفاء (١) القديم الذي يأخذ بالتوحيد. وفي الوقت نفسه كانت شبه الجزيرة في حاجة إلى التوسع نظرا لمواردها الشحيحة التي كانت تنقص على نحو مطرد منذ تدمير منشآت الري الخاصة بالحميريين ولم تعد تكفي السكان المتزايدين، فعلى مدى التاريخ المسجل كان سكان الصحراء يتدفقون دائما على الأراضي المزروعة من حولهم، وزادت الحاجة الآن إلحاحا.

ويمتدح مؤرخو الأديان الغربيون أن يفتقروا في وضوح على أوجه الصلات أو العلاقات بين العقائد الزرادشتية والعقائد اليهودية والمسيحية، ومن ثم تراهم يحاولون أفعال علاقة مزعومة بين الزرادشتية والإسلام. ذلك أقسم يرون في أباطيلهم أن ثمة علاقة بين الإسلام واليهودية والمسيحية، وبالتالي لابد من أن تكون هناك علاقة بين الإسلام والزرادشتية. على أن بطلان هذا الزعم لا يحتاج إلى تدليل عند المنصفين ممن دارسي خصائص الأديان الذين يعرفون أن الإسلام وحدة هو الدين الذي يقوم على التوحيد الخالص الذي يراه الله توبيا مطلقاً عن الشرك أو شبهة الشرك به وعن إثاره لقوم معين دون سائر خلقه.

(١) (المترجم) : الخفاء : جمع حنيف وهو المخلص الذي أسلم لأمر الله فلم يلق في شيء من دينه وقد جاء هذا اللفظ في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قول الحق عز وجل في سورة البقرة الآية ١٣٥ ، " قل يا ملأ ابراهيم حنيفاً " وفي سورة الحج الآية ٣١ ، " حنيفاً لله غير مشركين به " ولفظ حنيف مشتق من الفعل : حنفت يحنف حنفاً أي : مال ويقصد بالميل في هذا السياق : الميل إلى الحق والخفاء على وجه العموم هم أولئك السابقون على الإسلام الذين اعتدوا إلى التوحيد ومن ثم أنكروا اليهودية والمسيحية وعبادة الأوثان .

وحايت عبقرية محمد العظيمة والمتفردة لتلائم تماما تلك الظروف. فقد نشأ في مدينة مكة المكرمة واحدا من فقراء قبيلتها العظيمة قريش، وأرتحل وشاهد العالم ودرس أديانه (١)، واحتذته الوجدانية بوجه خاص، على أن عقيدة التثليث بدت له متناقضة مع اتجاه التوحيد الخالص الذي أعجب به في تراث الحنفاء. والعقيدة التي جاء بها، وإن لم تكن ترفض المسيحية رفضا مطلقا، إن هي إلا شكل من الدين يقوم المفاهيم ويبسطها بحيث تسوغ لقومه في يسر. ويرجع نجاحه كداعية ديني إلى فهمه العميق للعرب، ذلك أنه كان أقدرهم وكان يشاركهم مشاعرهم وميولهم. مشاركة أصيلة، فضلا عن أنه كان يتميز بمهارة سياسية فائقة. واتلفت هذه الصفات فيه ثلعيته على أن يقيم من لا شيء في سنوات عشر إمبراطورية تتأهب لفتح العالم. ففي سنة ٦٢٢ ميلادية، وهو عام الهجرة، انحصر أتباعه في آل بيته وجماعة صغيرة من أصدقائه، وعندما مات سنة ٦٣٢ ميلادية كان سيد شبه الجزيرة العربية كلها وكانت جيوشه تتجاوز حدودها. وإذا كان من يهيمون على التغيير في الشرق كثيرا ما يتولون زمام الأمور على حين غرة، فإنهم سرعان ما يفقدون سلطانهم فجأة بعد ذلك. بيد أن محمدنا ترك من بعده نظاما باقيا يضمن القرآن دوامه، ذلك الكتاب العظيم الذي جاء به النبي

---

(١) (المترجم) : غلب أن رائسيمان مؤلف هذا الكتاب يأخذ فيما يذهب إليه هنا ومناخ في العرب مما يردده المستشرقون وواقع الحال أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينبع له أن يهوب بقاع العالم على سمته وأن يدرس أديانه على شروعه ومن البدهي أن وسائل الاتصال وسبل انتشار المعرفة لم تكن لتصح مهما أوتى من قدرة الإلزام بما كان متوزعا هنا وهناك من معتقدات .

والدراسة المقارنة والمتعمقة والتي تتميز بالحيدة الموضوعية لتواريخ الأديان السماوى منها والوضعى ، تبين دون شك أن المفاهيم الأساسية والتي تمثل في مفهومي الألوهية والنبوة من ناحية بالإضافة إلى شرائعه ، والتي تستهدف تنظيم حياة الإنسان تختلف في الدين الإسلامى اختلافا بيا وأصيلا عما عدلها في سائر الأديان والمعتقد الأخرى . والفصلة التي حاول المستشرقون وبعادولون حتى يومنا هذا إيجادها بين الكتاب المقدس بمعديه القديم والجديد تنسم بالفنمعال وتعمل لا يصمدان للمناقشة المنطقية والحيدة الموضوعية .

وتتمثل فيه كلمة الله، والذي لا ترد فيه جوامع الكلم والقصاص وحسب، وإنما يضم كذلك القواعد التي تقوم عليها الحياة وأسس الحكم وشريعة كاملة. ولم يكن القرآن مستغلقاً على البسطاء من العرب معاصري النبي، كما أنه يتميز بالشمول الذي يفي باحتياجات الملك العظيم الذي قدر لخلفائه أن يقيموه من بعده. ولا غرو، فإن قوة الإسلام تنبثق من بساطته. ففوق الخلق إله واحد، وعلى الأرض يحكم المؤمنين أمير واحد، بمقتضى شريعة لا ينبغي له أن يحكم بسواها ألا وهي القرآن. وعلى خلاف الحال في المسيحية التي تدعو إلى سلام لم تستطع أبداً تحقيقه، جاء الإسلام بسيف لا يستشعر الحرج في مجاهدة الباطل (١).

(١) (المترجم) : انقضت الأمانة العلمية أن تنقل إلى العربية بكل دقة ما جاء به رانسيما في هذا الجزء متأثراً بما ورد في المراجع الغربية من تصور ساذج بنىء عن الجهول حيناً وعن سوء القصد أحياناً ويختل في أن النبي عمداً لم يكن يصدر فيما جاء به عن وحي أنزل عليه من السماء وإنما كان مدفوعاً بواحد مصلح اجتماعي وسياسي توفرت له أسباب القدرة المتفوقة والعقيدة المتفردة وهو في رأيهم إنما جاء بما يناسب بساطة قومه الذين عاش حياتهم وسر أغوارهم . وكان هؤلاء الكتاب الغربيين لم يحاولوا أن يسألوا عقولهم المتحيزة عن علة واقع لا يجهلونه يعلمهم أن الإسلام - كمعقدة وشريعة ونظام سياسي اجتماعي - حاوز حدود شبه الجزيرة وبلغ في عقود قليلة أقصى أرجاء العالم المعروف من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ودانت به شعوب وأقوام تختلف في كل قوماتها إنما اختلاف عن بعضها البعض وعما كان عليه العرب الذين بدأ الإسلام مسرته عندهم.

ولمحة حقيقة أخرى أسرف خصوم الإسلام في تعاملها وعمدوا إلى افتعال ما يناقضها تتمثل في أن الإسلام لم يقم في نشر دعوته على إصمال السيف ، وحسبنا في الرد على من يزعمون أن للسيف محالا في نشر الدعوة الإسلامية أن نورد آيتين من القرآن الكريم تقرر أولاهما أن " لا إكراه في الدين " (البقرة ٢٥٦) ، وتأمير ثانيهما المسلمين ألا يلجأوا إلى القتال إلا دفاعاً عن أنفسهم : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... " (الحج ٣٩) ولا يفوتنا هنا أن نقلت نظر القارئ إلى أن الفعل " يقاتلون " مبني للمجهول وذلك يعني أن المسلمين لم يؤذن لهم بقتال إلا بعد أن يودروا به وأنهم لم يبدؤوه . والذي حدا بنا إلى الإشارة إلى ذلك أن مترجمي القرآن الكريم من غير المسلمين عمدوا في ترجماتهم إلى نقل الفعل " يقاتلون " مبني للمعلوم كي يوحوا بأن المسلمين هم الذين كانوا يبادرون بالقتال . ولا يتسع هذا المجال الضيق لأن نورد ما يجاور ذلك في دحض أساطير

الذين لا همهم ..

### الغزو العربي الأول

واتخذ السيف سبيله إلى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية والتي بعد على قيد الحياة، ومثل ذلك في سرايا صغيرة ذهبت إلى فلسطين ولم تحقق الكثير من النجاح. واتسع انتهاج سبيل الفتح في عهد أبي بكر، خليفة محمد، الذي استكمل فتح شبه الجزيرة بطرد الفرس من مستعمراتهم في البحرين، وفي نفس الوقت زحف جيش عربي عبر البتراء على طريق التجارة المؤدي إلى ساحل فلسطين الجنوبي وهزم الحاكم المحلي سرجيوس في مكان ما بالقرب من البحر الميت، ثم تقدم إلى غزة واستولى عليها بعد حصار قصير ولقي سكانها معاملة طيبة منه، وأصبح جنود الحامية أول من استشهد من المسيحيين على أيدي المسلمين.

وفي سنة ٦٣٤ ميلادية خلف عمر أبا بكر وورث عنه عزمه على أن يزيد من قوة المسلمين. وفي تلك الأثناء أيقن هرقل، الذي كان ما يزال في شمال سوريا، أنه لا مفر من أخذ الغزو العربي مأخذًا جادًا، لكنه كان يعاني من نقص الرجال لخسائره الفادحة في الحرب الفارسية خاصة وأنه سرح كتائب كثيرة بعد انتهاء تلك الحرب لأسباب اقتصادية، وتبدد حماس الالتحاق بالجيش، وخيم في أثناء مملكته شعور التراخي والتشاؤم الذي غالبًا ما يحل بالمتصرين بنفس القدر الذي يحل به على المهزومين بعد حرب طويلة مريرة. ورغم ذلك، أرسل هرقل أخاه ثيودور على رأس جنود المقاطعة السورية لحفظ النظام في فلسطين. والتقى ثيودور بالجيشين العربيين الرئيسيين معًا في جيانا أو أجنادين جنوب غرب القدس وهزم هزيمة ماحقة. وبسات العرب آمنين في

---

== يد أنه لا بد لنا من أن نسمح للمؤرخ رانسيمان عذرًا فيما يستغل عليه بالعقيدة والشرعية الإسلاميتين فراجعهما فهما غريبة وتبعية التقصير في نقل إسلامنا على وجهه الصحيح إلى الغرب تقع ولا شسك علينا ، وحسبنا من رانسيمان أنه استطاع أن يبذل جهده ويعمل فكره ويحيى بمعالجة واقعية لما كانت عليه الحملات الصليبية في حجة علمية لا تكاد نجد مثلها عند غيره .

جنوب فلسطين، فتقدموا على طريق التجارة الذي يمضي شرقي الأردن إلى دمشق ووادي الأردن (نهر العاصي)، وسقطت في أيديهم مدن طبرية وبعليش وحمص دون مقاومة، واستسلمت دمشق في أغسطس (آب) سنة ٦٣٥ ميلادية بعد حصار قصير.

#### الفتح العربي لسوريا

وهنا شعر هرقل بالخطر الحقيقي فأرسل بشيء من الجهد جيشين جنوباً: الأول يقوده أمير أرميني يدعى فاهان ويتألف من مجندين أرمينيين وعدد كبير من العرب المسيحيين يرأسهم شيخ من بني غسان، والجيش الثاني يقوده ثيودور تريثيريوس يتألف من أحلاط من الجنود. وحين علم المسلمون بأنباء اقترابهما انسحبوا من وادي الأردن ودمشق ناحية الأردن، واشتبك معهم تريثيريوس عند حابيا في الخوران لكنهم هزموه. ورغم ذلك، تمكن من الاحتفاظ بموقع على نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من الجليل حتى يلحق به فاهان، حيث نشبت المعركة في ٢٠ أغسطس (آب) سنة ٦٣٦ ميلادية في عاصفة رملية تعمي الأبصار، وكان جيش المسيحيين يفوق جيش المسلمين عدداً ولكن المسلمين ناوروهم وهزموهم، ففي خضم القتال انضم الأمير الغساني إلى الأعداء ومعه اثنا عشر ألفاً من العرب المسيحيين من الوجدية الذين كانوا يكرهون هرقل وتأخرت روايتهم لشهور عديدة، ومن ثم سهلت عليهم خيانتهم بحيث حسمت الموقعة، وبذا اكتمل النصر الإسلامي. وهلك تريثيريوس وفاهان وجميع رجالهما تقريباً، وأصبحت فلسطين وسوريا مهيأتين للفتح.

وعلم هرقل بالهزيمة وهو في أنطاكية فأخذ منه اليأس كل مأخذ. إلها يد السرب تمتد إليه لتعاقبه على زواجه الآثم من ابنة أخته مارتينا، وليس لديه رجال ولا أموال للدفاع عن المقاطعة أكثر من ذلك. فأقام صلاة شفاعة خاشعة في كاتدرائية أنطاكية، وأجه إلى الشاطئ وركب سفينة إلى القسطنطينية. وأثناء غرق السفينة

متعددة عن الشاطئ. صاح في صوت مرير من بين عيراته: "وداعا... وداعا طوبلاً لسوريا".<sup>(١)</sup>

واكتسح العرب البلاد، واستسلم لهم الحراطقة المسيحيون دون اعتراض وقدم لهم اليهود عوناً فعالاً إذ عملوا كمرشدين لهم. ولم يجد العرب مقاومة منظمة إلا في أكبر مدينتين فلسطينيتين: قيسارية والقدس، وفي قلعتي بيل ودارا على النخوم الفارسية. أما في القدس، فما أن سمع سوفرونيوس بأخبار اليرموك إلا وحصّن دفاعات المدينة، وفور سماعه بوصول الأعداء إلى أريحا جمع آثار المسيح المقدسة وأرسلها إلى الساحل بلبل لتوصيلها إلى القسطنطينية، فلا ينبغي أن تقع تلك الآثار المقدسة في أيدي الكفرة مرة أخرى. وصمدت القدس للحصار لما يزيد على عام، وصمدت قيسارية ودارا حتى سنة ٦٣٩ ميلادية، لكنهما كانتا نقطتي حراسة معزولتين، وكانت حاضرة الشرق أنطاكية قد سقطت في العام المنصرم، وهكذا أمست البلاد كلها من برزخ السويس وحتى جبال الأناضول في قبضة المسلمين.<sup>(٢)</sup>

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الأحداث دمر العرب الإمبراطورية الفارسية ند روما القديم. إذ استولوا على العراق بانتصارهم في القادسية سنة ٦٣٧

---

(١) يذكر ميخائيل السوري Micael the Syrian, vol. ii, pp. 424 قصة صلاة الشفاعة التي أداها هرقل ووداعه، وينهمه خطأ بأنه غلب ثروات المدن السورية قبل رحيله. ويكرر ذكر هزيمته في *Agapius*, *Kitab al-Unvan*, p. 471، حيث يقال إنه رفض أن يحارب ضد إرادة الرب. وعجب مما ذكره Nicephorus, p. 23، فإن Theodore يعزو الكوارث التي نزلت بالإمبراطور إلى زواجه الباطل بانية أخته. (٢) أنظر Ceatani, op. cit. vol. iii, pp. 1119 ff. and de Goeje, *Mémoire sur la Conquête de la Syrie*, *Passim*; Prince, op. cit. pp. 267-89; Kulakovsky, op. cit. vol. iii, pp. 152-6 وتأكد الدور الذي لعبه اليهود في جميع المصادر الأصلية، خاصة Sebeos, pp. 173-4 وفي *Doctrina Jacobi*, pp. 89-8 الذي كبه أحد يهود القسطنطينية الذي وجد نفسه آنذاك في قرطاجنة.



ميلادية، وعلى القضية الإيرانية بانتصارهم في نهاوند في العام التالي. وقبع يزدجرد الثالث، آخر الساسانيين، في خراسان متحفزا حتى سنة ٦٥١ ميلادية، وكان العرب قد وصلوا آنذاك إلى حدوده الشرقية على التلال الأفغانية وتلال أكسوس<sup>(١)</sup>.

### فتح مصر

وتقدم القائد المسلم عمرو في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٣٩ ميلادية بأربعة آلاف رجل لغزو مصر التي كانت إدارتها الرومانية في فوضى عارمة منذ نهاية الاحتلال الفارسي. فكان حاكم مصر، سيروس بطريق الإسكندرية، فاسدا نعوزه الحكمة، فقد تحول عن النسطورية وتزعم مناصري الإمبراطور في تعاليمه المونوتيلية وعقد العزم على فرضها على الأقباط الرافضين لها، فكانوا يمتنون حكمه مقتا شديدا، وهكذا لم يجد عمرو مشقة في العثور على حلفاء له من بين رعاياه. وفي بداية سنة ٦٤٠ ميلادية دخل عمرو قلعة الفرما العظيمة على الحدود بعد حصار دام شهرين، وهناك جاءته تعزيزات من الخليفة. وتقدم إلى بليس (القاهرة القديمة) حيث تتركز الحامية الإمبراطورية، وأسفرت المعركة التي نشبت في هليوبوليس في أغسطس (آب) سنة ٦٤٠ ميلادية عن تفهقر الرومان إلى حصن بابليون الذي صمد حتى إبريل (نيسان) سنة ٦٤١ ميلادية. واستولى العرب على مصر العليا، وبعد سقوط بابليون سار عمرو من الفيوم إلى الإسكندرية وأمامه حاكمها وحاميتها يلوذون بالفرار. وثار شكوكها ما يبررها حول دخول سيروس في تحالف خائن مع عمرو، فاستدعته القسطنطينية، لكن هرقل مات في فبراير (شباط)، وتنظر أرملة الإمبراطورة الوصية مارتينا فلا تأمن على نفسها في القسطنطينية، فمادّا تفعل للدفاع عن مصر؟ لذا أعادت سيروس إلى

(١) Caetani, *op. cit.* vol. iii, pp. 629 ff.; Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, pp. 494-503.

مصر ليصل إلى ما يستطيع الوصول إليه من شروط. فذهب إلى عمرو في نوفمبر (تشرين الثاني) ووقع معه معاهدة تسليم الإسكندرية. وفي تلك الأثناء سقطت مارتينا، وأنكرت الحكومة الجديدة سيروس ومعاهدته، لأن عمرو أحل بما اتفق عليه وغزا مدن منطقة البتاتبولس بفلسطين ومنطقة طرابلس بليبيا (١). وبدأ، مع ذلك، أنه من المستحيل الاحتفاظ بالإسكندرية بينما مصر كلها في قبضة العرب فاستسلمت المدينة في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ٦٤٢ ميلادية. لكن الأمل لم يتبدد كله بعد، إذ استدعى عمرو إلى "المدينة" في سنة ٦٤٤ ميلادية، وأرسل إلى الإسكندرية جيش جديد عسّن طريق البحر من القسطنطينية ليحتلها مرة أخرى في أوائل سنة ٦٤٥ ميلادية، وتقدم إلى القسطنطينية وهي العاصمة التي شيدها عمرو بالقرب من بابليون. ولكن عمرو عاد إلى مصر وهزم القوات الإمبراطورية هزيمة نكراء على مقربة من القسطنطينية، وانسحب قائدها مانويل الأرميني عائداً إلى الإسكندرية وقد أذهله ما أبداه المسيحيون من لا ميالة مطلقة عند محاولته إعادة البلاد إلى المسيحية، فلم يبذل جهداً للدفاع عن المدينة، ورجع إلى القسطنطينية، وأعاد الطريق القبطي بنيامين الإسكندرية إلى عمرو (٢).

وضاعت مصر إلى الأبد. وفي سنة ٧٠٠ ميلادية أصبحت أفريقيا الرومانية في قبضة العرب. الذين فتحوا إسبانيا بعد أحد عشر عاماً. وفي سنة ٧١٧ ميلادية امتدت إمبراطوريتهم من حبال البرانس إلى أواسط الهند، بينما محاربوهم يذقون أسوار القسطنطينية.

---

(١) (الترجم): بتاتبولس Pentapolis : أي المدن الخمس وتضم : غزة وعسقلان وأخدود وحيت وعقرون وكلمة طرابلس مأخوذة عن الأصل تريبوليس Tripolis الذي يعني : المدن الثلاث .

(٢) Bréhier, *op. Cit.* pp. 134-8, 152-5; Amélineau, *La Conquête de l'Egypte par les Arabes in the Revue Historique*, vol. cxix, pp. 275-301 .  
الكاملة الواردة في Butler's *The Arab Conquest of Egypt* ما تزال ذات فائدة رغم أن أسماء الأماكن قد عفا.



- ٥٥ -

## الفصل الثاني :

### حكم مناهض المسيح



## حكم مناهض المسيح

"أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ كَلَّتْ أَعْيُنُنَا مِنَ النَّظَرِ إِلَى  
عَوْنِ الْبَاطِلِ. فِي بَرْحِنَا انتَظَرْنَا أُمَّةً لَا  
تُخَلِّصُ".

(مراثيا أرميا: ٤ — ٧)

وارتضى مسيحيو الشرق عن طيب خاطر حكم سادتهم الكفيرة، ولم ينس  
بوسعهم غير ذلك. وتضاءل الآن احتمال قيام بيزنطة مرة أخرى لإنقاذ الأماكن  
المقدسة كما فعلت مع الفرس، وسرعان ما بنى العرب، وهم في ذلك أحكم من  
الفرس، أسطولاً لهم في الإسكندرية، وانتزعوا من بيزنطة أعلى ما لديها من قوة، ألا  
وهي السيطرة على البحار. واحتفظوا على اليابسة بزمام المحرم لما يقرب من ثلاثة  
قرون، وهكذا تبدد الأمل في أن يقوم أمراء العالم المسيحي بذلك الإنقاذ.

ولم يكن مثل هذا الإنقاذ ليلقى ترحيباً من طوائف المراطقة، فتغير الحكام يربحهم  
ويسرهم. وبعد تلك الأحداث بخمسة قرون كتب بطريق أنطاكية اليعقوبي، ميخائيل  
السوري، أيام الممالك اللاتينية، معرباً عن تقاليد شعبه القديمة قائلاً: "إن رب الانتقام  
القدير ... هو الذي بعث بني اسمايل من الجنوب ليخلصنا هم من أيدي الرومان"،

وأضاف أن هذا الخلاص "ليس شيئا هينا لنا" (١). وردد النساطرة هذه الشاعر، فكتب مؤرخ مجهول من مؤرخيهم "لقد طُربت قلوب المسيحيين لحكم العرب لهم — أعزهم الله ووفقهم" (٢). وأما قبط مصر، فكان لديهم ما يثير بعض الانتقاد، بيد أن عداوتهم كانت تنحى إلى عمرو القاسي المخادع وما يفرضه عليهم وليس إلى قومه أو دينه (٣). ولم يظهر الأرثوذكس كثيرا من الميل إلى مناقشة مصيرهم بعد أن وجدوا أنفسهم آمنين من الاضطهاد الذي كانوا يخشونه فيما مضى، وأنهم يدفعون ضرائب تقل بكثير — برغم الجزية التي فرضت عليهم كمسيحيين — عما كان يفرضه عليهم البيزنطيون أيام حكمهم. ولم يكن هناك من يقاوم الحكام الجدد سوى قبائل قليلة تعيش في الجبال، مثل قبائل المارديين في لبنان وجبال طوروس، لكنها كانت تقاوم من منطلق الفوضى والكبرياء لا من منطلق العقيدة. (٤)

#### الذميون

وترتب على الفتح العربي أن بقيت كنائس الشرق كما كانت دون مساس بها. فعلى حين كانت الإمبراطورية المسيحية تتوغل مثلا أعلى يتمثل في أن تفرض على جميع مواطنيها وحدة دينية حال دون بلوغها تعذر تحويل اليهود عن دينهم أو طردهم، كان العرب، كالفرس من قبلهم، مهياين لقبول الأقليات الدينية على أن تكون من أهل الكتاب. وأصبح المسيحيون ومعهم الزرادشتيون واليهود ذميين، أي طوائف تحظى

(١) Michael the Syrian , vol. ii, pp. 412-13 (Syriac text, p. 412)

(٢) *Chronicle of Seert*, pt. ii, xciv, in *Patrologia Orientalis*, vol. xiii, p. 582

(٣) John of Nikiu, pp. 195, 200-1

(٤) Theophanes, أحداث خروج الفراعنة على الفاترين في زمن الخليفة الأموي معاوية بصفها .

Sathas, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, vol. ii, ad ann 6169, p. 355  
pp. 45 ff

بالحماية، تكفل لهم الجزية حرية العبادة وتعفيهم من الخدمة العسكرية، وألحق بالجزية الخراج وهو ضريبة الأرض. وكانت كل طائفة تعامل على ألها ملة أو جماعة تتمتع بحكم شبه ذاتي في نطاق الدولة، يرأس كلا منها زعيم ديني يعتبر مسئولاً عن حسن سلوك أفرادها أمام حكومة الخليفة. وبحق لكل منها أن تحتفظ بدور عبادتها التي كانت تمتلكها قبل الفتح، وكان هذا الترتيب يلائم الأرثوذكس أكثر مما كان يلائم هراطقة المسيحيين الذين أعطاهم هرقل بآخرة كثيراً من الكنائس ليقيموا فيها شعائرتهم. ولم يراع الإجراء الأخير مراعاة صارمة، واستولى المسلمون على كنائس مسيحية معينة مثل كاتدرائية القديس جون الكبيرة في دمشق، وأزالوا بين الحسين والأخضر عدداً من الكنائس، ولم يتوقف في نفس الوقت إقامة العديد من الكنائس والمعابد اليهودية. ولقد أباح فقهاء المسلمين المتأخرون للذميين أن يقيموا أبنيتهم دون أن يتجاوز في ارتفاعها أبنية المسلمين وبحيث لا تبلغ أصوات أجراسها أو الشعائر التي تقام بداخلها آذان المسلمين. بيد أنه لم يكن هناك ثمة تراخ في الالتزام بالقاعدة التي تقضي بأن يرتدي الذميون ملابس مميزة، وألا يحاولوا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، وألا يتزوجوا نساء المسلمين، وألا يستخفوا بالإسلام؛ وينبغي لهم أن يظلوا على ولاء للدولة. (١)

#### الأرثوذكس تحت الحكم الإسلامي

ورسخ النسق الملقى مفهومًا يختلف بعض الشيء عما كان يفهم من الانتماء القومي. ولم تكن القومية في الشرق تقوم لقرون عديدة حلت على العنصر، فيما عدا حالة اليهود الذين حافظ انغلاقهم الديني على نقاء دمهم نسيباً، وإنما كانت تقوم على

---

(١) *Encyclopaedia of Islam*, articles "Djizya" by Becker and "Kharadj" by Juynboll; Browne, *op. cit.* ch. v; Tritton, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*, ch. xv; Vincent and Abel, *op. cit.* vol. ii, pp. 935-44



الثرات الثقافي والموضع الجغرافي والصالح الاقتصادي. والآن أصبح الولاء لدين ما بديلاً للولاء الوطني. فالعصري، على سبيل المثال لا يعتبر نفسه مواطناً مصرياً، وإنما مسلماً أو قبطياً أو أرثوذكسياً بحسب حالته. وكان الدين، أو الملة، هو الذي يوجهه ولواء الفرد، الأمر الذي أعطى للأرثوذكس امتيازاً على طوائف المراطقة، إذ كانوا ما يزالون يعرفون بالملكيين ويعتبرون أنفسهم — كما نعين هذه اللفظة — رجال الإمبراطور. وربما تضعهم الضرورة القاسية تحت سيطرة الكافر الذي يديرهم على إطاعة قوانينه؛ أما الإمبراطور فهو خليفة الرب على الأرض وسيدهم بلا منازع. والقديس جون الدمشقي، الذي كان يعمل في بلاط الخليفة، كان يخاطب الإمبراطور دائماً على أنه مولاه وسيده برغم أنه كان يختلف معه في مسائل اللاهوت، بينما كان يخاطب مخلوقه — أي الخليفة — على أنه "الأمير" وحسب. والبطارقة الشرقيون، الذين كانوا يكتفون في القرن التاسع إلى الإمبراطور ثيوفيلوس معترضين على سياسته الدينية، كانوا يخاطبونه بالفاظ مماثلة. وكان الأباطرة يقلون تلك المسؤولية، ففى جميع حروبهم ومعاملاتهم الدبلوماسية مع الخلفاء، كانوا يضعون في حسابهم صالح الأرثوذكس الذين يوجدون فيما وراء حدودهم. ذلك أن إدارة شؤون هؤلاء الأرثوذكس لم تكن في متناول حكومة الإمبراطور، فالأباطرة لم يكن يوسعهم التدخل في الحكم اليومي في الأراضي الإسلامية، كما لم تكن لطريق القسطنطينية أية ولاية على زملائه من البطارقة الشرقيين. ولم تكن مراعاة الأباطرة لصالح الأرثوذكس إلا تعبيراً، يتسم بعاطفة قوية، عن بقاء فكرة أن العالم المسيحي واحد ولا يقبل التجزئة، وأن الإمبراطور رمز وحدة ذلك العالم. (١)

ولم يكن لكنائس المراطقة من يسبغ عليها حماية كذلك التي كانت تسبغ على

---

(١) Runciman, 'The Byzantine \* Protectorate \* in the Holy Land', in *Byzantium*, vol. xviii, pp. 207-15

الأرثوذكس، فلم يكن بوسعهم إلا أن يعتمدوا اعتمادا مطلقا على حسن نية الخليفة، ومن ثم تقلص نفوذهم وتناقصت هيبتهم. زد على ذلك أن هرطقاتهم تعزى أصولها الأولى إلى حد كبير لرغبة أبناء الشرق في تبسيط العقائد والممارسات المسيحية. وكان الإسلام — الذي كان يقارب المسيحية على نحو جعل الكثيرين يعتبرونه شكلا متقدما منها والذي كان يتمتع في ذلك الحين بميزة اجتماعية كبرى تتمثل في كونه دين الطبقة الحاكمة الجديدة — يسهل قبوله لدى الكثيرين منهم (١). وليس ثمة سبيل إلى معرفة عدد الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام؛ بيد أن الغالبية العظمى منهم كانوا من المراطقة وليسوا من الأرثوذكس. ففي غضون قرن واحد من الفتح أصبحت سوريا بلدا يسود فيه الإسلام، بعد أن كان سواد سكانها من المراطقة للمسيحيين، بينما نقصت أعداد الأرثوذكس بشكل ضئيل. وفي مصر، فقدت المسيحية مكانتها بشيخ من البطء، ويرجع ذلك إلى ثراء الأقباط الذين كانوا يحاربون معركة خاسرة. ومن ناحية أخرى، ضمن النسق الملى دوام بقاء المراطقة وعزز وضعهم على نحو يحول دون إعادة توحيد الكنائس.

---

(١) (الترجم) لابد لنا من أن نقف مع رانسيمن في هذا السياق فهو - رغم الحيدة الموضوعية التي تتميز بها كتاباته - لا يستطيع أن يخلص عما يشيع عند الكتاب الغربيين من أن الإسلام شكل متقدم أو متطور من أشكال المسيحية بالرغم من أن زيف هذا الرأي أحلى من أن يحتمل كُتِّبَ . فالمفهوم الإلاه في الدينين الإسلام والمسيحية يختلف اختلافا بينا يخلق كل أبواب التماثل أو التشابه ويحول دون أي شكل من أشكال التوفيق أو التوفيق وهذه حقيقة راسخة تملوها المقارنة الموضوعية بين المفهومين وليس ثمة شك في أن المفهوم الإلهي هو المفهوم الأساسي الذي لا يهتض دين إلا به . وليس ثمة شك في أن مفهومي النسوة والوحس في الدينين يتسمان بالاختلاف الجذري ناهيك عن أن مفهوم الخلاص الذي تقوم عليه المسيحية تجري على منطق يرفض الإسلام رفضا مطلقا. وإذا انتقلنا إلى ما يستهدفه الدين من تنظيم للمجتمع نجد أن سبل هذا التنظيم وما تنطوي عليه من تشريع تختلف في الإسلام عنها في المسيحية . وإذا كانت هذه الغاشية لا تتيح مزيدا من التوسع فإننا نترك معالجة الأمر كله إلى صفحات كتاب نرجو أن يعين الله على إصداره .

ولم ترجع قوة الإسلام في سوريا وفلسطين إلى تدفق العرب المفاجئ من الصحراء، فلم تكن حيوز الفاتحين من الضخامة بمكان، ولم تكن لتشكيل سوى طبقة عسكرية تهيمن على السكان الموجودين في البلاد الذين لم يكند بتغير تكوينهم العرقي. وسرعان ما اتخذ أبناء المدن والقرى، من أسلم منهم ومن بقى على مسيحيتهم، اللغة العربية بدلا من لغتهم في شتى مناحي حياتهم، وفي وقتنا الحاضر نسمي خلقهم، في بساطة، عربا. بيد أنهم كانوا يتألفون من خليط من أحناس كثيرة، ومن قبائل كانت تقيم في تلك الأرض قبل خروج بني إسرائيل من مصر، من الأمالكين أو الجيوسيين أو المؤابيين أو الفينيقيين، ومن قبائل أخرى كالفلسطينيين الذين تقادم بهم العهد هناك كغصيرهم، ومن الآراميين الذين انتشروا عبر التاريخ المسجل في ببطء وخفية في الأراضي الزراعية، ومن أولئك اليهود الذين انضموا إلى كنيسة المسيح، كما فعل الرسل الأولون. ولم يبق دون تغطى سوى اليهود المتدينين، الذين لم يتأثر نقاؤهم العرقي إلا في القليل. وفي مصر كانت سلالة حام أقل تغطيا، بيد أنها زادت نتيجة للتزاوج مع المهاجرين من سوريا والصحاري والنبيل الأعلى وشواطئ حوض البحر المتوسط كله.

وكان لابد للهجرة العربية من أن تبلغ أقصى مداها في المناطق المتاحة للصحراء وفي المدن الواقعة على طريق القوافل الممتدة بطول حوافها. وتدهور التجارة البحرية في البحر المتوسط، الذي حدث على إثر الفتح، أضفى على هذه المدن التي تقطنها أغلبية من المسلمين، أهمية تفوق أهمية المدن الهيلينية (١) القريبة من الساحل. وكانت الإسكندرية هي الميناء الوحيد الكبير الذي احتفظ به العرب على البحر المتوسط. وبقي فيها، وفي مدن سوريا الهيلينية كثير من السكان المسيحيين الذين ربما جاوزوا في العدد السكان المسلمين. وفي الريف السوري كان هناك نفس الاختلاف تقريبا، فأصبحت السهول الداخلية والوديان إسلامية بشكل آخذ في التزايد بينما سادت

(١) (المترجم) : هيلينسي : كل ما يتعلق بالثقافة الإغريقية في عصر ما بعد الإسكندر الأكبر .

الطوائف المسيحية المتنوعة المنطقة الواقعة بين لبنان والبحر. وفي مصر كان الفارق بين الحضر والريف أكبر إذ تحول الفلاحون إلى الإسلام شيئا فشيئا بينما كانت المسيحية تغلب على أهل المدن. وفي فلسطين كان توزع المسلمين والمسيحيين مغايرا، فبينما أسلم السكان في مناطق كثيرة من الريف، تمسكت قرى كثيرة بدينها القديم، وأما المدن ذات الأهمية الخاصة عند المسيحيين — مثل الناصرة وبيت لحم — فكانت المسيحية منتشرة فيها تماما. وفي القدس نفسها، ورغم تهجير المسلمين لها، ظل المسيحيون هم الأغلبية، وكان الفلسطينيون المسيحيون كلهم تقريبا من الملة الأرثوذكسية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مستعمرات يهودية هامة في القدس وفي العديد من المدن الأصغر كصفد وطبرية. وكانت المدينة الإسلامية الرئيسية هي العاصمة الإدارية الجديدة في الرملة. وعلى مدى القرون الأربعة التالية ظل سكان سوريا وفلسطين ومصر في تلك المجموعات النمطية التقريبية. (١)

#### الخلافة الأموية

وكان الخليفة الأموي الخامس، معاوية، حاكما لسوريا قبل توليه الخلافة، وبعد توليه خلافة المسلمين سنة ٦٦٠ ميلادية نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق، وحكم خلفاؤه هناك زهاء قرن من الزمان ازدهرت فيه سوريا وفلسطين. وكان الخلفاء الأمويون يتمتعون — عدا القليل منهم — بمزايا غير عادية من الاقتدار والتسامح وسعة الأفق. وكان وجود بلاطهم في تلك المقاطعة بمثابة ضمان للإدارة الحسنة والنشاط التجاري المتجدد؛ ولقد شجعوا الثقافة التي وحدوها هناك، وهي ثقافة هيلينية مسيحية تأثرت

(١) للإطلاع على هيكل تكوين المجتمع في فلسطين وسوريا في ظل الخلفاء أنظر :

Le Strange, *Palestine under the Moslems, passim*; Gaudetroy-Demombynes and Platonov, *Le Monde Musulman*, pp. 233-47; Browne, *op. cit.* ch. v; O'Leary, *How Greek Science passed to the Arabs*, pp. 135-9.

بأذواق وأفكار نعتها نحن بالبيزنطية. والتحق المسيحيون من المتحدثين باليونانية بالوظائف الحكومية؛ وكانت حسابات الدولة تقيد باليونانية لعشرات السنين، كما كان الفنانون والصناع المسيحيون من ذوي المهارات يعملون لدى الخليفة، وستبقى قبة الصخرة في القدس، التي أتم بناءها الخليفة عبد الملك سنة ٦٩١ ميلادية، مثالاً رفيعاً لمسط البناء الدائري في العمارة البيزنطية، وستبقى قسيفساؤها — وأعمال القسيفساء الأكثر جمالا التي أقامها ابنه الوليد الأول في فناء جامع دمشق الكبير — من أرفع مستويات الفن البيزنطي. فإلى أي مدى تعتبر تلك الأعمال من صنع الحرفيين من أبناء البلاد، وما مدى العون الذي قدمه لهم الفنيون والمواد التي لا بد وأن يكون الوليد قد أحضرها من بيزنطة؟ هذه أمور مازال مثار خلاف. ولقد روعي في أعمال القسيفساء هذه ما ارتآه النبي من احتجاب تصوير الكائنات الحية. ولم يتقيد الأمويون بذلك في قصورهم الرقيقة المتوارية عن أنظار رجال الدين المتشددين، ومثال ذلك اللوحات المرسومة على جدران استراحة الصيد بقصر الأمراء في السهوب الواقعة وراء نحر الأردن والتي تصور شكل الإنسان وجسده. وواقع الحال أن حكم الأمويين لم يؤد إلى انقطاع تطور الثقافة الهيلينية في الشرق الأدنى والتي كانت قد بلغت في ذلك الوقت ذروة الازدهار الذي لم تبلغها بعد ذلك. (١)

ومن ثم، لم يكن هناك من سبب يؤدي بالمسيحيين إلى الخسرة لما حققه الإسلام من انتصار. فبرغم ما تعرضوا له من اضطهاد لا يذكر، وبرغم القليل من التدابير المهينة، فإنهم كانوا أحسن حالا مما كانوا عليه أيام الأباطرة المسيحيين، فالحفاظ على

(١) عن الحضارة الأموية أنظر :

Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, pp. 335-44, and Lammens, *Études sur le Siècle des Omayyades*. For its art, see Creswell, *Early Muslim Architecture*, especially ch. V, on mosaics, by M. van Berchem. For individual buildings, see Richmond, *The Dome of the Rock*, and the two volumes *Kuseir Amra*, published by the Kaiserliche Akademie der Wissenschaften of Vienna.

النظام كانت أفضل، وتحسنت أحوال التجارة وخفضت الضرائب إلى حد كبير عما كانت عليه. وفضلا عن ذلك، كان الأباطرة المسيحيون هراطقة في الشطر الأكبر من القرن الثامن يحطمون الأيقونات ويضطهدون كل من يبجل الصور المقدسة من الأرثوذكس. وكان المسيحيون المتدينون أسعد حالا في ظل الكافر.

#### الخلافعة العباسية

على أن هذه الفترة السعيدة لم تدم. ذلك أن تدهور حكم الأمويين، واستقرار الخلفاء العباسيين في بغداد سنة ٧٥٠ ميلادية نتيجة للحروب الأهلية، جلبا الفوضى إلى سوريا وفلسطين. فجمع بعض الحكام المحليين ممن لا ضمير لهم ولا ضابط لأفعالهم المال عن طريق مصادرة بعض الكنائس المسيحية التي كان على المسيحيين في ذلك الوقت أن يسترجعوها بأموالهم. وعاود التعصب والاضطهاد والإكراه الديني الظهور بين الحين والحين (١). وأعاد انتصار العباسيين استقرار النظام، مع وجود فسارق يتمثل في أن بغداد كانت نائية فقلت الرقابة على الحكيم في الأقاليم. وكانت حركة التجارة مازالت نشيطة على طريق القوافل، وإن كانت تفتقد الأسواق الكبرى التي تنهض بها داخل البلاد. وكان العباسيون أكثر تشدداً من الأمويين، فلم يتوسعوا في إفساح المجال للمسيحيين، ذلك أنهم كانوا يعتمدون — شأنهم في ذلك شأن الأمويين — على ثقافة أقدم من الهيلينية ألا وهي الفارسية. وكانت بغداد تقع في نطاق مملكة الساسانيين القديمة. وشغل الفرس مواقع رئيسية في الحكومة، واتباع العباسيون مثل الفن الفارسي والعادات الفارسية في الحياة اليومية. واستعانوا — كالأمويين — بموظفين مسيحيين، بيد أن هؤلاء المسيحيين كانوا — مع بعض الاستثناء — نساطرة ممن يتوجهون إلى الشرق

(١) Diehl and Marçais, *op. cit.* pp. 345-8; Gaudefroy-Demombynes and

Platonov, *op. cit.* pp. 260-8

وليس إلى الغرب. وكان اهتمام البلاط العباسي بأمور الثقافة يجاوز اهتمام الأمويين على وجه العموم واستعين بالنساطر في ترجمة الأعمال الفنية والفلسفية عن اليونانية القديمة، وشجع العلماء والرياضيون على البحث من بيزنطة وغيرها للتدريس في مدارس بغداد. لكن هذا الاهتمام كان سطحيًا، ذلك أن الحضارة العباسية لم تتأثر في أساسها بالفكر الإغريقي وإنما اتجهت إلى اتباع التراث المتوارث من ممالك ما بين النهرين وإيران، ولم يبق أثر للحياة الهيلينية في العالم الإسلامي إلا في إسبانيا التي لاذ بها الأمويون.

على أن حظ المسيحيين في ظل الحكم العباسي لم يكن تيسرًا. وربما تصدى الكتاب المسلمون، من أمثال الجاحظ في القرن التاسع، للهجوم عليهم، ومرجع ذلك أنهم كانوا يقيمون في غطرتهم لفرط ثرائهم ولأنهم لم يعبأوا بالتدابير التي كانت تتخذ من أجلهم (١). وفي ذلك الوقت تقريبًا كتب بطريق القدس لزميليه بطريق القسطنطينية يحذره عن السلطات الإسلامية الحاكمة قائلًا: "إنها عادلة لا تظلمنا شيئًا ولا تظهر نحونا أي شكل من أشكال العنف." (٢) فعدلت تلك السلطات واعتدلتها كانا في غالب الأحوال متميزين. وفي القرن العاشر، عندما كانت أحوال العرب تسوء في حروبهم مع بيزنطة، ويتألب الغاضبون من المتحمرين على المسيحيين لتعاطفهم المعروف مع أعداء الإسلام، كان الخليفة في كل حال يعرض أولئك المسيحيين عما قد يصيبهم. وربما كان دافعه إلى ذلك خشية من القوة الوليدة للإمبراطور الذي كان

(١) Al-Jahiz, *Three Essays*, ed. by Finkel, p. 18. Labourt, *De Timotheo I*, *Nestorianorum Patriarcha*, pp. 33-4. بوضوح Labourt، ما كان يتمتع به النساطرة من نفوذ في بلاط الخليفة.

(٢) رسالة Theodosius of Jerusalem إلى Ignatius of Constantinople الواردة في Mansi, *Concilia*, vol. xvi, pp. 26-7.

يعيش في أراضيهم مسلمون بوسعهم أن يضطهدهم من قبيل الانتقام (١). وحظيت الكنائس الأرثوذكسية، والقوى الأجنبية توازرها، بوضع طيب في كسل حال. وفي أوائل القرن العاشر، وأثناء خلاف وقع بين إبراهيم الثالث - كاثوليكوس النسطوري - وبين بطريرك أنطاكية الأرثوذكسي، قال الأول للوزير الأكبر "نحن معشر النساطرة أصدقاء للعرب ونبتل من أجل انتصارهم ..... وأناى بك أن نساوي في نظرتك بين النساطرة، الذين ليس لهم ملك سوى العرب، وبين اليونانيين الذين لا يتوقف ملوكهم مطلقاً عن قتال العرب" (٢). غير أن منطق لم يبلغه مأربه في نهاية المطاف وإنما حققت غايته الهدية التي قدمها وقدرها ألفاً قطعة من العملة الذهبية. وكانت الجماعة المسيحية الوحيدة التي استمرت العداء تجاهها هي جماعة المسيحيين المنحدرة من أصل عربي خالص، مثل قبائل بني غسان أو بني تنوخ، التي اضطر أبناؤها إلى عبور الحدود لياذا ببيزنطة بعد رفضهم أن يهبطوا على التحول عن دينهم. (٣)

#### شارلمان وفلسطين

واستمرت هجرة المسيحيين إلى أراضي الإمبراطور، ولم يتخذ المسلمون أية خطوات حيال تلك الهجرة. ويبدو أنه لم تكن هناك محاولة في كل حال للحيلولة دون قيام علاقات وثيقة بين المسيحيين داخل الخلافة وخارجها، حتى في أزمنة الحرب.

(١) في عامي ٩٢٣ و ٩٢٤ قام بعض المتظاهرين المسلمين بمهاجمة كنائس مسيحية أرثوذكسية في الرملة وعسقلان وقيسارية ودمشق، وعلى الأثر ساعد الخليفة المقتدر المسيحيين على إعادة بناء تلك الكنائس (Eutychius, co, 1151)

(٢) Bar Hebraeus, quoted in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. ii, pp. 4401

(٣) البلاذري، النص العربي ص ١٤٢ ترجمة Hitti and Murgotten, pp. 208-9. أنظر :

Nau, *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie*, pp. 106-11.



وخلال الجزء الأكبر من فترة الخلافة العباسية لم يكن الإمبراطور البيزنطي من القسوة بحيث يستطيع أن يقدم الكثير لأبناء دينه. وكان فشل العرب في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٧١٨ ميلادية بمثابة ضمان لاستمرار الإمبراطورية، ولكن بيزنطة لم تتمكن من المبادرة إلى الهجوم على العرب على نحو فعال إلا بعد انقضاء قرنين من الزمان. وفي تلك الأثناء كان مسيحيو الشرق الأرثوذكس قد اكتشفوا صديقا أجنبيا جديدا؛ فانتساع إمبراطورية شارلمان الكارولنجية في القرن الثامن لم يرد دون أن تلحظه أنظار الشرق. وفي نهاية القرن أظهر شارلمان العظيم، الذي كان على وشك أن يتوج إمبراطورا في روما، اهتماما خاصا بإصلاح حال الأماكن المقدسة، ولقيت اهتماماته ترحيبا كبيرا؛ إذ أن الخليفة هارون الرشيد، الذي سره أن يجد حليفا ضد بيزنطة، شجعه على إقامة مؤسسات في القدس وإرسال العطايا لكنائسها. ولفترة من الزمان حل شارلمان محل الإمبراطور البيزنطي وكان العاهل الذي تسمى قوته الأرثوذكس في فلسطين، ولقد ردوا على إحسانه بأن بعثوا إليه ما يدل على تحيلهم له. بيد أن الخيار إمبراطوريته في عهد من خلفوه وبعث بيزنطة مرة أخرى جعل تدخل الفرنجة قصير الأجل ولا يكاد يذكر، لولا تلك النزول التي أنشأها شارلمان، والصلوات اللاتينية التي كانت تقام في كنيسة القديسة ماري الخاصة باللاتينيين، والراهبات اللاتينيات اللاتي كن يخدمن في كنيسة القبر المقدس. لكن الغرب لم ينس أبدا تلك القصة التي بسالغت الأساطير والمأثورات في روايتها، وسرعان ما ظن أن شارلمان قد أخفى على الأماكن المقدسة حمايته القانونية، وقيل أنه قام بالهج إلى هناك. وأعلنت أجيال الفرنجة المتأخرة حقها في أن تحكم القدس، وقوبل هذا الإعلان بالتأييد.<sup>(١)</sup>

(١) أنظر Runciman, "charlemagne and palestine", in *English Historical Review*, vol. I, pp. 606 ff.

وكان المسيحيون الشرقيون أكثر اهتماما ببعث قوة بيزنطة. ففي أوائل القرن التاسع كانت الإمبراطورية مائتزال في موقف الدفاع، واستولى المسلمون على جزيرتي صقلية وكريت، ولم يكد يمضي عام دون أن يشن العرب غارة كبرى في قلب آسيا الصغرى. وفي منتصف القرن أعيد تنظيم البحرية البيزنطية وتجهيزها، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى الاقتصاديات الرشيدة للإمبراطورة الوصية على العرش، ثيودورا. وبفضل قوة بيزنطة تأكدت سيادتها على جنوب إيطاليا ودامانيا (١). وفي بداية القرن العاشر، بدأت الخلافة العباسية تضمحل بسرعة، إذ ظهرت ممالك محلية أهمها مملكة الحمدانيين في الموصل وحلب ومملكة الإخشيد في مصر. وكان الحمدانيون مسلمين غير ذوي براعة كبيرة في القتال وأقاموا خطا دفاعيا لصد العدوان البيزنطي، لكنهم لم يستطيعوا وقف إضمحلال القوة الإسلامية، بل زادوها إضمحلالا بتشجيعهم الحروب الأهلية. وسيطر الإخشيديون إبان تلك الحروب على فلسطين وحبش وحبش، وسارع البيزنطيون إلى الاستفادة من ذلك الموقف. وكان هجومهم حفرًا في بادئ الأمر. ولكن في سنة ٩٤٥ ميلادية استولى القائد البيزنطي جون كركوس — برغم شجاعة وإقدام الأمير سيف الدولة الحمداني — على مدن ومناطق في أعالي أرض ما بين النهرين، لم تكن قد شاهدت جيشًا مسيحيًا منذ ثلاثة قرون (٢)، وضمها للإمبراطورية. وتزايدت سرعة الأحداث بعد سنة ٩٦٠ ميلادية، على إثر تسلم الجندي العظيم نيسفوراس فوكاس قيادة الجيش الإمبراطوري، وفي سنة ٩٦١ ميلادية استعاد نيسفوراس جزيرة

(١) (المترجم) : دالماتيا : حاليًا إقليم في جمهورية كرواتيا الصربية في يوغوسلافيا على الساحل الأدرياتيكي .

Vasiliev, *Byzantium and the Arabs* (in Russian), vol. ii, pp. 229 -37; Runciman, (٢)

*The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 135-50

كريت، وفي سنة ٩٦٢ ميلادية جرد حملة على حدود كيليكيا (١) واستولى على أنزاريوس وماراش (حرمانيشيا) وبذلك عزل كيليكيا المسلمة. وفي سنة ٩٦٣ ميلادية كان نيسفوراس مشغولا في وطنه ينقطع للانقلاب الذي جاء به إلى العرش بمساعدة الجيش والإمبراطورة الوصية. وفي سنة ٩٦٤ ميلادية عاد إلى الشرق، وفي سنة ٩٦٥ ميلادية أكمل غزو كيليكيا، وأرسل حملة إلى قبرص أعادت السيطرة البيزنطية الكاملة على الجزيرة، وفي سنة ٩٦٦ ميلادية أغار على أواسط الفرات ليقطع خطوط المواصلات بين حلب والموصل (٢). فنهض الشرق المسيحي كله وظن أن الخلاص وشيك، وكتب إليه جون بطريق القدس يحثه على الإسراع إلى فلسطين، بيد أن تلك الخيانة حاوز وقعتها قدرة المسلمين على الصبر، فألقت الجماهير الغاضبة القبض على جون وأحرقتة. (٣)

لقد كانت آمال جون سابقة لأوانها. ففي عامي ٩٦٧ و٩٦٨ كان نيسفوراس مشغولا بملوذه الشمالية، لكنه في سنة ٩٦٩ ميلادية قاد جيشه جنوبا مرة أخرى إلى قلب سوريا مباشرة، وتقدم إلى وادي الأردن (العاصي) ليستولي على مدن شيزار وحماة وحمص وينهبها الواحدة تلو الأخرى، ثم سار على الساحل إلى ضواحي طرابلس؛ وعاد إلى الشمال تاركا وراءه طرطوس وجبله واللاذقية تلتهمها النيران، بينما حاصر ضباطه أنطاكية وحلب. واستولى على أنطاكية في أكتوبر (تشرين الأول)، واستسلمت حلب في نهاية السنة. وذابت أنطاكية، التي ربما كان عدد مسيحييها يفوق عدد مسلميها، في

(١) (المترجم): كيليكيا : الجزء الجنوبي الشرقي من الأناضول (تركيا) لتطل على البحر المتوسط .

(٢) Schlumberger, *Un Empereur Byzantin, Nicéphore phocas*, chs. viii and x

(٣) Yachya of Antioch, in P.O. vol. xviii, pp. 799-802. The date is discussed in

Rosen, *Emperor Basil the Bulgar slayer* (in Russian), p. 351

الإمبراطورية، ويبدو أن المسلمين قد أحيروا على المحرة منها. وأصبحت حلب السبي كان المسلمون أغلبية غالبية فيها، ولاية تابعة. ووقع حاكمها معاهدة تحدد بدقة الحدود التي تفصل بين المقاطعة الإمبراطورية الجديدة وبين المدن التابعة. وبمقتضى تلك المعاهدة يقوم الإمبراطور بتعيين حاكم حلب، وفرضت ضرائب باهظة على هذه الولاية التابعة على أن يعفى المسيحيون منها، وتدفع مباشرة إلى الخزانة الإمبراطورية، كما تقتضى المعاهدة بمنح تجار الإمبراطورية وقوافلها امتيازات وحماية خاصة. وهكذا أذنت تلك الشروط المهينة بانتهاك قوة المسلمين في سوريا.

#### الإمبراطور جون تسيميس

وقبل سقوط حلب اغتيل الإمبراطور في القسطنطينية، قتلته الإمبراطورة وعشيقتها ابن عم الإمبراطور جون تسيميس، وكان نيسفورس رجلاً صارماً لا يُحب، وبرغم انتصاراته كان مكروهاً في القسطنطينية لاغتصابه الأموال وفساده وخلافه المريب مع الكنيسة. واعتلى جون، الذي كان معروفاً كفائد بارع، العرش دون صعوبة وسالم الكنيسة بأن تخلى عن خليلته الإمبراطورة، بيد أن الحرب مع بلغاريا أبقت مشغولاً في أوروبا طوال السنوات الأربع التالية. وفي تلك الأثناء كان الإسلام ينهض من جديد في ظل الفاطميين الذين عززوا مكانتهم في مصر وجنوب سوريا، وحاولوا استعادة أنطاكية سنة ٩٧١ ميلادية. واستطاع جون أن يلتفت إلى الشرق سنة ٩٧٤ ميلادية، فأنجمه في تحريف ذلك العام إلى شرق ما بين النهرين واستولى على نصيبين وحول الموصل إلى ولاية تابعة، وفكر في زحف مفاجئ على بغداد، بيد أنه تحقق مسن أن الفاطميين أعداء يخشى بأسهم أكثر مما يخشى بأس منافسيهم العباسيين، فتقدم في الربيع التالي إلى سوريا واتخذ نفس الطريق الذي اتخذ نيسفورس قبل ذلك بستة أعوام،

واكتسح وادي الأردن (العاصي) متجاوزا حصص التي استسلمت دون أدنى مقاومة، وبعلبك التي أخذها عنوة، ثم انتهى إلى دمشق التي وعدت بدفع إتاوة وعقدت معه تحالفا مهيئا. ومن هناك انطلق إلى الجليل، واستولى على طبرية والناصرية، ثم اتجه جنوبا إلى قيسارية على الساحل. وجاءته الوفود من القدس متوسلة إليه أن يخف لنجدتها، لكنه شعر بعدم استطاعته التقدم إلى المدينة المقدسة ذاتها دون الاستيلاء على مدن الشاطئ الفينيقي من ورائه والتي لم يكن قد استولى عليها، فعاد أدراجه شمالا وقهرها الواحدة تلو الأخرى فيما عدا ميناء طرابلس الحصين. وكان الشتاء على الأسوار، فاضطر الإمبراطور إلى تأجيل جهوده إلى فصل آخر. وفي طريق عودته إلى أنطاكية استولى على القلعتين الكبيرتين، قلعة بارزوبا وقلعة صهيون، الواقعتين في جبال النصيري وترك فيهما حاميتين من رجاله وعاد إلى القسطنطينية، بعد أن حملته لم تستأنف بعد ذلك على الإطلاق، إذ مات على حين غرة في يناير (كانون الثاني) سنة ٩٧٦ ميلادية. (١)

ولقد جعلت هذه الحروب من الإمبراطورية المسيحية القوة العظمى في الشرق مرة أخرى. وبينما كان مسيحيو الشرق ينتظرون مخلصهم كانت تلك الحروب تتخذ سمة دينية، وفي ذلك الحين، كانت الحروب ضد المسلمين تشن بانتظام دفاعا عن الإمبراطورية، وكانت من المسلمات في الحياة اليومية — إذا جاز هذا التعبير. وبرغم أنه ربما كان يعد لأحد المنتصرين المسلمين المتشددين أن يخبر أحيانا الأسرى المسيحيين بين الارتداد عن دينهم أو الموت، فإن ذكرى هؤلاء المسيحيين كان يعتفى بها على أهم شهداء، بيد أن مثل هذه الحالات كانت نادرة الحدوث. ولم يكن هناك فارق كبير عند الرأي العام البيزنطي بين أن يموت المرء في المعركة لحماية الإمبراطورية من عربي كسافر أو بلغاري مسيحي، ولم تكن الكنيسة تفرق بين هاتين الحالتين كذلك. غير أن

(١) Schlumberger, *L'Épopée Byzantine*, vol. i, ch. iv

نيسفوراس وجون أعلنوا أن الصراع حين ذاك كان من أجل مجد العالم المسيحي وإنقاذ الأماكن المقدسة والقضاء على الإسلام. وعندما كان أحد الأباطرة يعتفّل بانتصار أحرزه على العرب كان المنشدون في الكنائس يتغنون: "انجسد للسرب، الذي هزم العرب" (١). وكان نيسفوراس يؤكد أن حروبه حروب مسيحية، وربما كان من دوافعه إلى ذلك، محاولة موازنة علاقاته السيئة مع الكنيسة، لكنه فشل في أن يجفّر البيطريست لإصدار مرسوم كنسي بأن الجنود الصرعي على الجبهة الشرقية ماتوا كشهداء، فالكنيسة الشرقية كانت ترى أن ضرورات الحرب لا تبرر القتل في كل حال (٢). لكنه عندما أرسل بيانه المهين إلى الخليفة قبل أن يبدأ حملته سنة ٩٦٤ ميلادية، صوّر نفسه على أنه البطل المسيحي، وحاول ذلك إلى التهديد بالزحف إلى مكة لإقامة عرش المسيح هناك (٣). واستخدم جون تسميس نفس اللغة، إذ جاء بخطابه إلى ملك أرمينيا الذي يصف فيه حملته سنة ٩٧٤ ميلادية: "كانت رغبتنا هي تحرير بيت المقدس من انتهاكات المسلمين" وأحيره أنه أنقذ مدن الجليل من النهب، لدورها في تاريخ العقيدة المسيحية، وأضاف أنه لولا امتناع مدينة طرابلس عليه لذهب إلى مدينة القدس وأقام الصلوات في أماكنها المقدسة. (٤)

وكان العرب فيما مضى يميلون دائما إلى النظر إلى الحرب على أنها مسألة دينية ثم قل هذا الميل عندهم، وحاولوا بعد ذلك أن يستعيدوا حُمَاهُم وقد استشعروا الخوف

---

(١) Constantine Porphyrogenetus, *De Ceremoniis* (Bonn ed.) vol. i, pp. 332-3, (١)

ed by Vogt, vol. ii, pp. 135-6

سنة ٨٦٣. أنظر:

Bury, "The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogenetus", in *E.H.R.* vol. xxii, pp. 434.

Zonaras, vol. iii, p. 506 (٢)

(٣) Schlumberger, *Un Empereur Byzantin*, pp. 427-30 الذي يقبس من مخطوطة عربية في فيينا.

(٤) Matthew of Edessa, pp. 13-20

من المسيحيين. ففي سنة ٩٧٤ ميلادية حدثت أعمال شغب في بغداد أجبرت الخليفة على إعلان الحرب المقدسة، أي الجهاد، رغم أنه لم يأسف لهزيمة الفاطميين. (١)

#### السلام بين بيزنطة ومصر

وبدا أن الأراضي المقدسة ستعود أخيرا إلى الحكم المسيحي، لكن الأرثوذكس في فلسطين انتظروا دون طائل، وبرغم أن بازل الثاني، وهو وريث جون الشرعي، أصبح محاربا عظيما فإن الفرصة لم تتح له أبدا ليواصل التقدم نحو الجنوب. فالحروب الأهلية التي أعقبتها حرب طويلة ضد البلغار استغرقت كل اهتمامه. ولم يستطع زيارة سوريا سوى مرتين: مرة لتأكيد السيادة البيزنطية على حلب سنة ٩٩٥ ميلادية، ومرة أخرى عندما زحف على الساحل حتى بلغ طرابلس سنة ٩٩٩ ميلادية، وقرر في سنة ١٠٠١ ميلادية أن من العبث مواصلة الغزو. وهكذا عقدت هدنة لعشر سنوات مع الخليفة الفاطمي، فكانت فاتحة سلام دام أكثر من نصف قرن دون إحلال خطيرهما. وثبتت الحدود بين الإمبراطوريتين وامتدت بين بانباس وطبرطوس إلى الأرند جنوب شيزار، وبقيت حلب رسميا تحت النفوذ البيزنطي. لكن الأسرة الحاكمة المرداسية التي حكمت حلب سنة ١٠٢٣ ميلادية سرعان ما حصلت على استقلال حقيقي، ففي سنة ١٠٣٠ ميلادية هزم أميرها جيشا بيزنطيا هزيمة نكراء. على أن الإمبراطورية البيزنطية عوضت خسارة حلب بضم الرها في العام التالي. (٢)

(١) Miskawaihi, *The Experiences of the Nations*, in Amedroz and Margoliouth. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vol. ii, pp. 303-5 (Arabic text) and vol. v, pp. 326-8 (English text)

(٢) يرد وصف أنشطة بازل في سوريا من مصادر عربية كمال الدين وابن الأثير وأبو الحسن يوهي واردة في Rosen, *op. cit.* pp. 239-66, 309-11 وفي ٩٨٧-٨ أرسل بازل سفراء إلى القاهرة قدموا الأموال

اللازمة لصيانة كنيسة الفخر المقدس في القدس. *ibid.* pp. 202-5، يقتبس نصا من مخطوطة أبي الحسن =

وكان السلام ملائماً للإمبراطورية وللفاطميين في آن، فقد كان من المقلق أن يعيد بعث الخلافة في بغداد معامرون أتراك من أواسط آسيا. ولم يكن بوسع المعاهل الفاطمي، الذي كان المسلمون الشيعة يقبلونه على أنه الخليفة الحقيقي، أن يتيح للعباسيين أية فرصة لتعزيز مطالبهم، بينما كانت بيزنطة ترى أن حدودها الشرقية أضعف من حدودها الجنوبية. وبدافع الخوف من الأتراك، اضطر بازل الثاني إلى ضم مقاطعات أرمينيا الأقرب إلى الإمبراطورية، ثم استولى بعد ذلك على المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي للبلاد، وهي إمارة فاسبوراكان. واستمر خلفاؤه في سياسته، ففي سنة ١٠٤٥ ميلادية، قام ملك آن، وهو الحاكم الرئيسي في أرمينيا، بتسليم أراضي مملكته إلى الإمبراطور، وفي سنة ١٠٤٦ ميلادية ذات إمارة كارس في الأراضي الإمبراطورية وقد كانت آخر ولاية مستقلة في أرمينيا. (١)

وأملت الاعتبارات العسكرية ضم أرمينيا إلى الإمبراطورية، وبينت التجارب أن أمراء الأرمن ليسوا أهلاً للاعتماد عليهم. ورغم أنهم كانوا مسيحيين لا يستفيدون شيئاً من الفتح الإسلامي، فإنهم كانوا هراطقة، تجاوز كرامتهم للأرثوذكس كرههم لأي مسلم ظالم لهم. ورغم استمرار التجارة والعلاقات الثقافية، ورغم هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى الإمبراطورية وشغلهم لأعلى المناصب هناك، لم تنطق جذوة العداوة عندهم. ونظراً لسهولة التغلغل في قلب آسيا الصغرى عبر الوديان الأرمينية — كما أظهرت حروب الحدود فيما مضى — رأت السلطات العسكرية أن من الحماسة

---

==وفيما يتعلق بالحدود أنظر المناقشات الواردة في *Honigmann, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches*, pp. 106-8, 134 ff., also his article "Shaizar" in the *Encyclopaedia of Islam* وكانت شيزر ما تزال تخضع لإدارة أسقف باسم الإمبراطور حتى سنة ١٠٨١ (Michael the Syrian, vol. ii, p. 178)

(١) يرد موجز كامل بالمراجع عن التاريخ الأرميني في هذه الفترة في *Grousset, Histoire de l'Arménie*, pp. 531. أنظر أدناه ص ١١٩.



ترك تلك المنطقة الخطرة خارج نطاق سيطرتها. وكان ضم أرمينيا — من الناحية السياسية — خطوة تقتصر إلى الحصافة، إذ كان الأرمن يفتنون الحكم البيزنطي، وبرغم أن الحاميات البيزنطية تحرس الحدود فإن أعدادا كبيرة من الأرمن الساحطين توجد وراءها، وليس هناك من شك في أن غيبة الولاء تعد خطرا كامنا، لا سيما وأنهم الآن لا يدينون بالولاء لأمير محلي وراحوا ينشرون الفوضى في أنحاء الإمبراطورية. على أن الأمر لو ترك لرجال الدولة المتحسين، الذين لا تشغلهم وجهة النظر العسكرية كما تشغل أباطرة بيزنطة العسكريين، لترددوا في خلق تلك المشكلة الأرمينية التي تقتضي على تجانس الإمبراطورية وتدخل أقلية متنافرة في زمرة رعاياها.

#### الحاكم بأمر الله

وانتقل شمال سوريا إلى الحكم المسيحي، ووجد المسيحيون في جنوب سوريا وفلسطين أن حكم الفاطميين يسهل احتماله. ولم يعانون من أي اضطهاد إلا لفترة وجيزة وذلك عندما انقلب الخليفة الحاكم على حين غرة وتصرف على نحو يغيّر مساريه عليه، فهو ابن لأم مسيحية وأسهم المسيحيون في تنشئته إلى حد كبير. فليسنوات عشر من ١٠٠٤ إلى ١٠١٤ ميلادية، وبرغم احتجاجات الإمبراطور، أصدر مراسيم ضد المسيحيين، وبدأ بمصادرة ممتلكات الكنيسة، ثم بحرق الصليبان والأمر ببناء مساجد صغيرة على أسطح الكنائس وأخيرا بحرق الكنائس ذاتها. وفي سنة ١٠٠٩ ميلادية أمر بدم كنيسة القبر المقدس على أساس أن معجزة النار المقدسة التي تحدث في كل سنة، والتي يحتفل بها عشية عيد الفصح، زيف فاجر دون مراء. وبحلول سنة ١٠١٤ ميلادية أحرق أو نهب ما يقارب ثلاثين ألف كنيسة، واعتنق كثيرون من المسيحيين الإسلام في الظاهر لإنقاذ أرواحهم. واتخذت إجراءات مماثلة ضد اليهود. بيد أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن المسلمين كانوا معرضين لنفس القدر من الاضطهاد المتعسف من حاكمهم السني دأب على تعيين وزراء من المسيحيين. وفي سنة ١٠١٣ ميلادية، وكنسازل

للإمبراطور، سمح للمسيحيين بالهجرة إلى الأراضي البيزنطية. ولم يتوقف الاضطهاد إلا عندما انتهى الحاكم إلى الاقتناع بأنه هو نفسه إله. وفي سنة ١٠١٦ ميلادية أعلن صديقه درازي على الملأ هذه الألوهية. وأدى سلوك الحاكم على هذا النحو إلى إحساس عميق بالصدمة في نفوس أقرانه من المسلمين تجاوز ما كان يمكن أن يحس به غيرهم، فبدأ الحاكم يحايي المسيحيين واليهود وعاقب المسلمين بأن منعهم من الصوم في رمضان ومن الحج إلى مكة. وفي سنة ١٠١٧ ميلادية منح المسيحيون واليهود كسامل الحرية الدينية وسرعان ما عاد حوالي ستة آلاف ممن ارتدوا حديثاً إلى حظيرة المسيحية. وفي سنة ١٠٢٠ ميلادية أعيدت للكنائس ممتلكاتها المصادرة بما في ذلك ما أخذ ممن مبانها التي هدمت، بينما ألغى القرار الذي يقضي بارتداء ملابس مميزة. بيد أن المسلمين استنصر غضبهم حين ذاك على الخليفة الذي أمر بأن يستبدل اسم الله باسمه في الصلوات في المساجد، وفر درازي إلى لبنان وأنشأ هناك الطائفة التي سميت باسمه وهي طائفة الدروز. وفي سنة ١٠٢١ ميلادية احتفى الحاكم نفسه، ورعماً قتلته أخته الطموحة ست الملك، لكن مصيره ظل غامضاً حتى الآن. ويعتقد الدروز أنه سيعود مرة أخرى في الوقت الملائم. (١)

#### المسيحيون في رخاء

وبعد موته، استولى أمير حلب صالح بن مرداس على فلسطين لفترة من الزمن، لكن الفاطميين استعادوها كاملة سنة ١٠٢٩ ميلادية. وكانت هناك معاهدة موقعة بالفعل سنة ١٠٢٧ ميلادية تسمح للإمبراطور قسطنطين الثامن بالاضطلاع بإعادة بناء كنيسة القبر المقدس وتسمح بعودة المرتدين الباقين إلى المسيحية دون عقاب، وتحددت

---

(١) See the article "Hakim" by Graefe in the *Encyclopaedia of Islam*, also browne, *op. Cit.* pp.60-2

هذه المعاهدة سنة ١٠٣٦ ميلادية، بيد أن إعادة بناء الكنيسة بدأ بالفعل بعد ذلك نحوالي عشر سنوات وقام بتنفيذه الإمبراطور قسطنطين التاسع. وللإشراف على العمل كان مسئولو الإمبراطورية يرتحلون بحرية إلى القدس حيث بدأ أن المسيحيين يسيطرون على كل شيء سيطرة كاملة الأمر الذي أثار استياء المسلمين للقيمين والمرتلين<sup>(١)</sup>. وكان كثيرون من البيزنطيين يشاهدون في طرقات القدس فأشيع بين المسلمين أن الإمبراطور نفسه قدم إليها <sup>(٢)</sup>. وكان للتجار الأماقيين <sup>(٣)</sup> مستعمرة مزدهرة يحميها الخليفة، بيد أنهم كانوا يعترضون على تبعية مدينتهم الإيطالية للإمبراطور، مما كان يتيح له مشاركتهم فيما ينالونه من امتيازات <sup>(٤)</sup>. وكانت الخشية من القوة البيزنطية توفّر الأمان للمسيحيين. ويذكر الرحالة الفارسي ناصري خوسرو، الذي زار طرابلس سنة ١٠٤٧ ميلادية، عدد السفن التجارية البونانية التي تشاهد في الميناء، ويصف خسوف

---

(١) William of Tyre, vol. i, pt. I, pp. 391-3; Schlumberger, *L'Epopée Byzantine*, vol. iii, pp. 23, 131, 203-4; Riant, *Donation de Hugues, Marquis de Toscane*, p. 157; Mukaddasi, *Description of Syria*, by Le Strange, p. 37.

وعنونا المقدسي أن الكتاب والأطباء في فلسطين كانوا كلهم تقريباً من المسيحيين بينما كان الديباغون والصباغون والصبارة من اليهود.

(٢) Nasir-i-Khusrau, *Diary of a Journey through Syria and palestine*, trans. by Le Strange, p. 59.

(٣) (المترجم): الأماقيين: نسبة إلى مدينة أمالقي الحالية وتقع إلى الجنوب الشرقي من نابولي في إيطاليا. وهي من أهم الجمهوريات البحرية الإيطالية في القرن التاسع الميلادي وكانت تضاهي بيزا وجنوا وفينيسيا وحالياً كقوة بحرية في التجارة مع الشرق.

(٤) William of Tyre, vol. 1, 2, pp. 822-6; Aimé, *Chronicon*, p. 320.

السكان من هجوم قد تشنه البحرية البيزنطية. (١)

في منتصف القرن الحادي عشر كان من النادر أن يحظى المسيحيون بمثل هذا القدر من الرضا، فأصحاب السلطة من المسلمين كانوا يبي الجانِب، وكان الإمبراطور يرعى مصالحهم، وكانت التجارة مع البلدان المسيحية في الخارج تزدهر وتسترايد، ولم يحدث من قبل أن حظيت القدس في أية حال بمثل هذا القدر من التعاطف ومن الثروة التي كان الحجاج يجلبونها إليها من الغرب.

---

(١) 3-4 *Mukaddasi. op. Cit. pp. 6-7; Nasir-i-Khusrau, op. cit.* ويقول المقدسي الذي كان يكتب في حوالي عام ٩٨٣ ، أن الناس في سوريا " يعيشون في رعب دائم من البيزنطيين ... إذ أن مناطق حدودهم كانت تنتهب على الدوام ، وكانت غالبهم تدمر المرة بعد المرة " .



## الفصل الثالث :

### حجاج المسيح



## حجاج المسيح

«تَقِفْ أَرْضُنَا فِي أَبْوَابِكَ يَا أُورُشَلِيمُ»

(الْمَزَامِير: ١٢٢ — ٢)

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية. فوقوف المسرء في نفس الموقع الذي وقف فيه من يجلبهم ذات مرة، ومشاهدة نفس الأماكن التي ولدوا وكافحوا وماتوا فيها، يبعث في المرء شعورا بالاتصال الروحي بهم، وفي ذلك تعبير عملي عما يشعر به نحوهم من تبحيل. وإذا كان لعظماء رجال العالم مزاراتهم التي يقف إليها المعجبون بهم من بعيد، فإن جماعات الناس تُقبل في تلهف أكبر إلى تلك الأماكن التي يعتقدون أن الرب أكسب الأرض قداسة فيها.

وكان الحج نادرا في أيام المسيحية الأولى. وكان الفكر المسيحي يتجه إلى تأكيد ألوهية المسيح وعموميته أكثر مما يؤكد بشريته، وكانت السلطات الرومانية لا تشجع الارتحال إلى فلسطين. ولم تكن القدس سوى أطلال بعد أن دمرها تيتوس، وبقيت كذلك إلى أن أعاد هادريان بناءها وأصبحت مدينة إيليا الرومانية. غير أن المسيحيين كانوا يتذكرون المكان الذي وقعت فيه أحداث حياة المسيح وبلغ احترامهم لموقع



كالقاري(١) حدا جعل هادريان يعمد إلى إقامة معبد لسيفتوس كابيتولينا(٢) هناك. وعرف مسيحيو القرن الثالث الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيت لحم معرفة جيدة، وراح المسيحيون يرتحلون إلى هناك وإلى جبل الزيتون وحديقة جثمان(٣) ومكان صعود المسيح إلى السماء. وأصبحت زيارة هذه البقع المقدسة للصلاة ولاكتساب الفضائل الروحية جزءا مما يزاوله المسيحيون.(٤)

(١) (الترجم) : كالفاري : اسم المكان الذي صلب فيه المسيح ، بالقرب من القدس .

(٢) (الترجم) : ' كابيتولينا : اسم تل من تلال روما السبعة على الضفة الشرقية النهر ، وهي التلال التي بنيت روما في الأصل عليها أو من حولها.

(٣) (الترجم) : جثمان Gethsemane: هو اسم حديقة كانت تقع عبر وادي كسدرون Kidron في جبل الزيتون وهي المكان الذي صلي فيه السيد المسيح عشية صليبه ، والاسم جثمان مأخوذ عن العبرية حيث شيمانيم أي معصرة الزيت وهذا الاسم يوحي بأن تلك الحديقة كانت دغلا من أشجار الزيتون توحدت بمعصرة للزيت. ورغم أنه لا يمكن تحديد موقع حديقة جثمان على سبيل اليقين فإن الكنائس الأرمنية واليونانية واللاتينية والرومية تقبل دغلا من أشجار الزيتون يقع على المنحدر الغربي من جبل الزيتون على أنسة الموقع الفعلي الذي أخذت به الإمبراطورة هيلينا ، أم الإمبراطور قسطنطين أول الأباطرة المسيحيين في أوائل القرن الرابع الميلادي. غير أن رواية أخرى من روايات التراث تصور أن صلاة السيد المسيح وخيائه في جثمان وقعت في مكان يعرف الآن بمغارة العذاب بالقرب من قطرة نعر وادي كسدرون. ويمكن أن تكون حديقة جثمان في موقع آخر إلى الجنوب من هذا المكان في حديقة تضم أشجار زيتون قديمة ، حيث توجد كنيسة لاثينية أقامها الرهبان الفرنسيسكان على أنقاض كنيسة كانت موجودة في القرن الرابع.

(٤) يشير جروم Jerome, *Epistolae* xlv, 9, M.P.L., vol. xxii, col. 489 إلى رحلات الحج المبكرة إلى فلسطين وكنان أول من تعرف اسمه من الحجاج أحد أساقفة قبرصية قسي اسبا الصغرى في وقت مبكر من القرن الثالث ، وهو المدعو Fermilian (Jerome, *De Viris Illustribus*, M.P.L. vol. xxiii, cols. 665-6) في عام Alexander، وهو أحد أساقفة قبادوقيا ، بزيارة فلسطين (Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, pp. 185-6) أما أوريجين Origen فيحدث في (In Joannem vi, 29, M.P.G vol. xiv, col. 269) عن " عمة المسيحيين في القضاة حطوات المسح "

واتسع نطاق هذه المزاوالت بانتشار المسيحية. وكان يسر الإمبراطور قسطنطين أن يضيف قوة على الدين الذي اختاره، وانطلقت أمه الإمبراطورة هيلينا، وهى من أنجح علماء الآثار العظام في العالم وأرفعهم شأنًا، إلى فلسطين لتكشف كالفاري وتبحث عما تبقى من أدوات صلب المسيح، ودعم الإمبراطور اكتشافها ببناء كنيسة القبر المقدس هناك، وهى الكنيسة التى ظلت الهيكل الرئيسى للعالم المسيحى عبر كل تقلباته. (١)

وبدا على الفور تيار من الحجاج يتدفق إلى المكان الذى بذلت فيه هيلينا جهودها. ولا نستطيع أن نعرف أعداد هؤلاء الحجاج لأنهم لم يدونوا في الغالب شيئا عن رحلاتهم، غير أنه في سنة ٣٣٣ ميلادية، وقبل انتهاء حفائر هيلينا، جاء أحد المسافرين من ميناء بوردو الفرنسى إلى فلسطين ودون شيئا عن رحلته (٢). ولبعد بعض ذلك وصفا لرحلة قامت بها سيدة دعوب تسمى أحيانا اثريا وأحيانا أخرى القديسة سيلفيا قديسة إقليم أكتيان الفرنسى (٣). وعند اقتراب نهاية القرن استقر في فلسطين واحد من عظماء آباء العالم المسيحى اللاتين، وهو القديس جيروم، وحذب إليه جماعة من نساء الطبقة الراقية ذوات الثراء اللامحى كن يتلقين العلم عنه في إيطاليا. وكان يستقبل في صومعته بيت لحم موكبا لا ينقطع من الزوار الذين كانوا يفسدون إليه

---

(١) Eusebius *Vita Constantini*, chs. xxv-xi, given in *Palestine Pilgrims' Text Society*, vol. 1

(٢) *The Itinerary of the Bordeaux Pilgrim* is published in the *P.P.T.S.* vol. 1, in a trans. by A. Stewart

(٣) The pilgrimage of Aetheria is published in an English trans. by J.H. Bernard in the *P.P.T.S.* vol. 1, under the name of *The Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine*, with whom the editor identifies her, almost certainly incorrectly

معبرين عن احترامهم له بعد مشاهدة الأماكن المقدسة (١). وكان القديس أوجستين، وهو أشد الآباء الغربيين روحانية، يرى أن القيام بالحج لا عمل له وفيه مخاطرة وكان الآباء اليونانيون يميلون إلى الاتفاق معه في هذا الرأي (٢). غير أن القديس جيروم، الذي لم يكن يرى أن للإقامة الفعلية في القدس أية قيمة روحية، أكد أن الصلاة في المكان الذي رطأته أقدام المسيح عمل من أعمال الإيمان (٣)، وكان رأيه أكثر انتشاراً من رأي أوجستين. وتضاعفت رحلات الحج بتشجيع من السلطات ويقال إنسه في مطلع القرن التالي بلغ عدد الأديرة والأنزال التي شيدت في القدس أو حولها لاستقبال الحجاج مائتين، تخضع كلها تقريباً لرعاية الإمبراطور. (٤)

(١) يرد خطاب Paula and Eustochion إلى Macella، وفيه وصف الحياة في فلسطين في مجتمع القديس جيروم منشوراً ضمن خطابات القديس جيروم تحت الرقم xlii (cols. 483 ff. in M.P.L. vol. xxii). Desiderius (ibid. col. 493) يذكر نفسه في الخطاب الذي يحمل رقم ١٣٧٧ (ibid. col. 493) ويقول إن زيارته لفلسطين مكنته من أن يفهم الأسفار المقدسة على نحو أفضل. (M.P.L. vol. xxviii, cols. ١٣٧٧-١٣٧٨). Paulinus of Nola (ibid. vol. xxii, col. 580) يعرب عن اعتقاده بأنه لا يلتفت شيئاً في حالة عدم زيارة القدس. (٢) خطاب القديس أوغسطين Contra Faustum xx, 21, ibid. vol. xlii, cols. 384-5. ويعارض Saint Gregory of Nyssa الحج بشدة (Letter no ii, in M.P.G. vol. xlii, col. 1009). كما يعارض بنفس القدر تقريباً Saint John Chrysostom في (Ad Populum Antiochenum v, 2, in M.P.G. vol. xlix, col. 69). غير أنه (ibid. vol. lxii, col. 57) يعرب في أماكن أخرى عن رغبته في أن تسمح له واجباته بأن يكون حاضراً (In Ephesios viii, 2) (٣) أنظر ما سبق ص ٨٤ حاشية ٤. (٤) Couret, La Palestine sous les Empereurs grecs, p. 212

### الحجاج الأوائل

وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الإقبال المبكر على القدس. واستقرت هناك الإمبراطورة ابودوسيا، وهي ابنة فيلسوف وثني أثيني، بعد حياة تعسة في البلاط، وجاء في ركاها كثيرون من الأرستقراطيين البيزنطيين الورعين. وفي الوقت الذي أخذ الناس فيه يكتبون التراثيم كانت ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار الدينية، التي بدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية بأن أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا.<sup>(١)</sup>

وحذا حذوها حجاج من الغرب، ومن القسطنطينية، وبدأ بذلك انتقال بذائع التحف الدينية من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت متطلبات الترف المادي في العالم هي التي تأتي من الشرق منذ أقدم العصور. وكانت المسيحية بادئ الأمر ديناً شرقياً، وأغلب القديسين والشهداء المسيحيين الأوائل كانوا شرقيين. وكان هناك ميل متزايد لتبجيل القديسين، وكان الثقة من أمثال بروذينيوس وابوديسيوس يقولون إن العون الإلهي يمكن أن يستمد من قبورهم وإن أحسادهم قادرة على أن تأتي بالمعجزات<sup>(٢)</sup>. وبدأ الرجال والنساء في قطع مسافات طويلة ليروا أثراً مقدساً، وجاوزوا ذلك إلى

(١) أنظر . Bury, *Later Roman Empire* (A.D. 395-565), vol. 1, pp. 225-31. وفيما يصلح بما قام به Eudocia من صيد الآثار، أنظر Nicephorus Callistus, *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. cxlvi, col. 1061

(٢) uidentius, *Peristephanon* vi, pp. 132; Ennodius, *Libellum pro Synodo*, p. 315 وكان القديس أمبروز يؤمن إيماناً راسخاً بما للآثار من أفضال، وقد جاءه هو نفسه إلهام لاكتشف بعض الآثار، وذلك كما جاء في الرسالة (letter xxii in *M.P.L.* vol. xvi, cols. 1019 ff). ويؤكد القديس Victricius أن للآثار فضل ونعمة وذلك فيما كتبه *Liber de Laude Sanctorum* (٤-453) *M.P.L.* vol. xx, cols. 453-4. ومن الناحية الأخرى فإن Saint Basil أحب أن يكون متيقناً تماماً من أصالتها. أنظر خطابه إلى القديس Ambrose حول جد أحد أساقفة ميلانو، الخطاب الذي يعمل رقم cxcvii في 109-13 *M.P.G.* vol. xxxii, cols.

محاولة الحصول على واحد من تلك الآثار وينقلوه إلى موطنهم ويضعوه في كنيستهم. علسى أن الآثار الرئيسية بقيت في الشرق، فظلت آثار المسيح في القدس حتى نقلت إلى القسطنطينية، وبقيت أغلب آثار القديسين في أماكنها الأصلية. ورغم ذلك بدأت الآثار الأقل شأنًا تسرب إلى الغرب مع حاج محظوظ أو تاجر مغامر، أو ترسل كهدايا إلى بعض ذوي الشأن، وسرعان ما لحقت بها أجزاء صغيرة من الآثار الرئيسية التي نقلت بكاملها بعد ذلك. وساعد كل ذلك في جذب انتباه الغرب إلى الشرق. فمواطنو لاخير الذين كانوا يفخرون بميازهم لأصبع من أصابع القديس ماماس كان لابد لهم من أن يستشعروا الرغبة في زيارة قيصرية في كابادوكيا<sup>(١)</sup> حيث عاش هذا القديس<sup>(٢)</sup>، وراهبات شامالير اللاتي كن يحتفظن بعظام تكلا في كنيستهن، كن يستشعرن اهتماما شخصيا بحسب رأس تلك القديسة في المنطقة الأيزورية في سيلوشيا<sup>(٣)</sup>. وعندما عادت إحدى سيدات موريين من رحلاتها ومعها إمام القديس يوحنا المغتسل دفع ذلك جميع معارفها إلى أن يرحلوا إلى السامرة ليروا جسده وإلى دمشق ليرؤوا رأسه<sup>(٤)</sup>. وكانت البعثات ترسل على أمل الحصول على شيء من هذه الكنوز ربما يتمثل في قبة من الدم المقدس أو قطعة من الصليب الحقيقي نفسه. وأقيمت الكنائس في الغرب

(١) (المترجم) : كابادوكيا : مملكة قديمة وفيما بعد إقليم روماني ( شرقي آسيا الصغرى ) .

(٢) *Historia Translationum Sancti Mamantis vel Mammetis, in Acta Sanctorum, 17 August, vol. iii, pp. 441-3*

(٣) (المترجم) : سيلوشيا : اسم مدينة من عدة مدن قديمة جنوب غرب آسيا شيدها \* ميلوسيسوس الأول \* لاسيما المدينة الرئيسية للإمبراطورية السيلوسية علي بحر دجلة .

(٤) *Mabillon, Annales Ordinis Sancti Benedicti, vol. 1, p. 481*

(٥) Gregory of Tours, *De Gloria Martyrum*, in M.P.L. vol. lxxi, cols. 719-20  
See Delchaye, *Les Origines du Culte des Martyres*, p. 99

وأطلقت عليها أسماء القديسين الشرقيين أو القبر المقدس، وغالبا ما كان يخصص جزء من عوائدها لإرساله إلى الأماكن المقدسة التي أخذت عنها أسمائها.

وساعدت التجارة، التي كانت ما تزال قائمة على شواطئ البحر المتوسط، على الترابط بين الشرق والغرب، وإن كانت قد أخذت في الاضمحلال نتيجة للفقر الذي بدأ يتزايد في الغرب، وكانت تنقطع بين الحين والآخر كما هي الحال عندما أحال القراصنة الواندال (١) البحار، في منتصف القرن الخامس، إلى مناطق غير آمنة لا يستطيع أن يجوها التجار غير المسلحين. كما أسهمت المروقة والتذمر في الشرقي في إضافة مزيد من الصعوبات. على أن هناك مدونات كتبها حجاج غربيون ارتحلوا شرقا في القرن السادس في سفن تجارية سورية أو يونانية. وكان التجار ينقلون الأخبار والقصص الدينية عند نقلهم المسافرين والبضائع. وبفضل المسافرين والتجار، أصبح للمؤرخ جريجوري التوري (٢) على دراية جيدة بالشعوب الشرقية. ويوجد سجل لخادنة دارت بين القديس سيميون ستايلايتس وتاجر سوري رآه على عموده (٣) بالقرب من

---

(١) (المترجم) : حاليا الضفة الغربية لهر الأردن .

(٢) (المترجم) : التوري : نسبة إلى مدينة تور التي تقع غربي وسط فرنسا على نهر اللوار .

(٣) (المترجم) : يعني اسم القديس Symen Stylites : سيميون العمودي ، من لفظة Stylos اليونانية

أي العمود التي أخذت عنها اللغة الإنكليزية لفظة Stylite بمعنى الناسك أو الراهب الذي يعيش على قمة عمود . والقديس سيميون العمودي (حوالي ٣٩١-٤٥٩) هو أول ناسك يشدع فكرة العيش فوق عمود ، وقضى عشرين عاما من شبابه الميكرو متقلبا بين الصوامع والأديرة في شمال سوريا ثم بدأ سنة ٤٢٣ ميلادية في العيش فوق عمود منخفض ، تزايد ارتفاعه على مر السنين حتى بلغ حوالي ستين قدما، وكانت تعلوه منصة تبلغ مساحتها حوالي اثنين عشر قدما مربعا . وقضى فوق ذلك العمود ستة وثلاثين عاما هي بقية عمره ويعمل القديس سيميون هذه الطريقة الغريبة فسي العيش برغبته في احتساب

حلب، وسأله القديس سيمون خلالها عن أخبار القديسة حنييف الباريسية وأرسل لها رسالة شخصية (١). ورغم الخلافات الدينية والسياسية بين السلطات الأعلى ظلت العلاقات بين المسيحيين الشرقيين والغربيين ودبة ووثيقة للغاية.

وانتهى هذا العصر بمقدم الفتوحات العربية. فلم يعد التجار السوريون يأتون إلى الشواطئ الفرنسية والإيطالية ومعهم البضائع والأخبار، وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط، وكان الحكام المسلمون يرتابون في المسافرين المسيحيين القادمين من الخارج. وكانت الرحلة شاقة وباهظة التكلفة بعد أن تضاعفت الثروة في الغرب المسيحي، بيد أن الصلة لم تنقطع تماماً. فكان المسيحيون الغربيون ما يزالون يفكسون في الأماكن المقدسة في الشرق بتعاطف وحنين، وعندما اتهم البابا مارتين الأول سنة ٦٨٢ ميلادية بالتعامل الودي مع المسلمين، علل ذلك بأنه كان مدفوعاً برغبته في الحصول على إذن بإرسال الهبات إلى القدس (٢). وفي سنة ٦٧٠ ميلادية شرع الأسقف الفرنجي أركولف في رحلته إلى الشرق وتمكن من أن يتم جولة شملت مصر وسوريا وفلسطين وأن يعود عن طريق القسطنطينية، ولكن تلك الرحلة استغرقت عدة سنوات قابل خلالها صعوبات كثيرة (٣). ونحن نعرف أسماء حجاج آخرين ينتمون إلى ذلك العصر مثل فالدي أوف روو من بيكاردي وأوبر كسم أوف مونتيه — ان —

---

— أولئك الذين كانوا يقدون إليه ليصلي من أجلهم لئلا يصيبهم النصب لهم وحدث عكس ما كان يتوقع ،

إذا زاد عدد الوافدين إليه ، وجاءه الكثيرون من الناس إما حاجين إليه أو متفرحين عليه وتجاوزت

شهرته سوريا ، وكثر مقلدوه في الشرق .

(١) Vita Genovefae Virginis Parisiensis, p. 226

(٢) Martin I, letter to Theodore, in M.P.L. vol. lxxxvii, cols. 199-200

(٣) Arculf's narrative, written by Adamnan, is given in the P.P.T.S. vol. iii,

trans. By J.R. Macpherson

دير من برجندي وصديقه وإيمار (١). غير أن أقاصيصهم تبين أن المغامرين وغير المرفهين من الناس هم وحدهم الذين كان يمدوهم الأمل في بلوغ القدس، وأن النساء فيما يبدو لم يكن يجازفن بالحج.

#### حجاج القرنين الثامن والتاسع

وزاد عدد الحجاج خلال القرن الثامن. وجاء بعضهم من إنجلترا، أشهرهم ويليالد الذي مات سنة ٧٨١ ميلادية وهو أسقف إيشستاد في بافاريا وكان قد ذهب إلى فلسطين في شبابه بادئا رحلته من روما سنة ٧٢٢ ميلادية ولم يرجع إليها إلا في سنة ٧٢٩ ميلادية (٢) بعد كثير من المغامرات الكريهة. ويبدو أنه كانت هناك محاولة عند نهاية القرن لتنظيم الحج تحت رعاية شارل العظيم، الذي استعاد النظام وبعض الرخاء إلى الغرب وأقام علاقات حسنة مع الخليفة هارون الرشيد. ومُظهر الأنزال التي شُيدت بمساعدته في الأراضي المقدسة أنه لابد وأن يكون عدد كبير من الحجاج قد وصل إلى القدس في عهده ومن بينهم بعض النساء. وأُرسلت راهبات من إسبانيا المسيحية للخدمة في القبر المقدس (٣) لكن هذا النشاط لم يدم طويلاً، إذ تدهورت الإمبراطورية الكارولنجية، وعاد قراصنة من المسلمين إلى الظهور في شرق البحر المتوسط، وجاء القراصنة النرويجيون من الغرب. وعندما قام برنارد الحكيم، من

(١) De Sancti Wiphalgio, in As. Ss. 7 June, June, vol. ii, pp. 30-1

(٢) Willibald's Hodoeporicon, trans. By Brownlow, is given in the P.P.T.S. vol. iii

(٣) Commemorationum de Cases Dei vel Monasteriis', in Tobler and Molinier, Itinera Hierosolymitana vol. 1, 303



بريتان (١) ، بزيارة فلسطين سنة ٨٧٠ ميلادية وجد أن المنشآت التي أنشأها شارل ما تزال في حالة تسمح لها بالعمل غير أنها خاوية وأخذة في الانهيار. ولم يستطع برنارد القيام بالرحلة إلا بعد أن حصل على جواز مرور من السلطات الإسلامية التي كانت آنذاك تحكم باري في جنوب إيطاليا وإن لم يمكنه ذلك من المرور في الإسكندرية. (٢)

### عصر عظيم للحج

وبدأ العصر العظيم للحج مع القرن العاشر. ففي خلال ذلك القرن فقد العرب آخر أوكار القراصنة في إيطاليا وجنوب فرنسا، وأخذت منهم كريت سنة ٩٦١ ميلادية، وكانت البحرية البيزنطية قبل ذلك ببعض الوقت تسيطر على البحار بالفعل على نحو يكفل اكتمال انتعاش التجارة البحرية في البحر المتوسط؛ فسأبحرت السفن التجارية اليونانية والإيطالية دونما عائق بين موانئ إيطاليا وموانئ الإمبراطورية، وبدأت في فتح مجال التجارة مع سوريا ومصر برضا السلطات الإسلامية. وكان من اليسير على الحاج أن يجد طريقا مباشرا للحج من فينيسيا أو من باري في جنوب إيطاليا إلى طرابلس أو الإسكندرية، رغم أن أغلب المسافرين كانوا يفضلون أن يزورا القسطنطينية ليروا مجموعات الآثار العظيمة الموجودة فيها، ثم يواصلون الرحلة بعد ذلك بالبحر أو بالطريق البري الذي أصبح آنذاك آمنا بفضل النجاح العسكري البيزنطي. وفي فلسطين نفسها، نادرا ما أثارت السلطات الإسلامية، سواء أكانت عباسية أم إحيديية أم فاطمية أية صعوبات، وإنما كانت تنحى إلى الترحيب بالمرتحلين لما يجلبونه من ثروة إلى المنطقة.

(١) (المترجم) : شبه جزيرة ومقاطعة قديمة تقع في الشمال الغربي من فرنسا بين القناة الإنجليزية (المانش) وخليج إسكاي.

(٢) .The Itinerary of Bernard the Wise, trans. By J. H. Bernard, is given in the P.P.T.S. vol. iii

وكان لتحسن ظروف الحج آثاره على الفكر الديني الغربي. ولنا نعرف على وجه اليقين التاريخ الذي قضى فيه القانون الكنسي لأول مرة بجعل الحج كفارة. ففي مطلع العصور الوسطى أوصت البينينشاليا (١) بالحج، دون تحديد هدف له في واقع الحال. بيد أن الناس أخذوا يعتقدون أن لبعض الأماكن المقدسة فضيلة روحية معينة تؤثر في زائريها ويمكن أن تقيهم من اغتفار خطاياهم. ومن ثم عرف الحاج أنه لم يكن بوسعهم أن يجعل ما تركه الرب والقدوسون على الأرض والبيئة التي عاشوا فيها بحيث يتصل بهم اتصالاً وجدانياً وحسب، بل ربما تجاوز ذلك وحظي بعفو الرب عما أتاه من شرور. وساد الاعتقاد منذ القرن العاشر بأن أربعة مزارات معينة تتميز بهذه الخاصية: مزار القديس جيمس في كومبوستيللا بإسبانيا، ومزار القديس ميكائيل في مونت حارجانو بإيطاليا، والمزارات المقدسة الكثيرة في روما، وفوق ذلك الأماكن المقدسة في فلسطين. وأصبح بلوغ تلك الأماكن أسير بكثير عن ذي قبل بسبب ابتعاد المسلمين عنها أو سماحهم بزيارتها، بيد أن الرحلة الطويلة إليها كانت ما تزال يعترضها من المشقة ما يجعلها لا تسوغ في فكر إنسان العصر الوسيط أو تستثير شعوره الديني. وكان من الحكمة إبعاد من يقترف جرماً عن المكان الذي ارتكب فيه جرماً لفترة عام أو أكثر بتكليفه بالحج. ذلك أن ما كان يتحشمه من مشقة وتكلفة في تلك الرحلة كان بمثابة عقوبة له فضلاً عن أن قيامه بالحج على هذا النحو وما يحيط بذلك من جو عاطفي يؤدي به إلى إحساس بالظهور والقوة الروحية فيعود وهو إنسان أفضل عن ذي قبل. (٢)

(١) (الشرح) : بينينشاليا (من اللاتينية Poenitentialia) : قائمة أو كتاب بالقواعد التي تحكم الكفارة الدينية ، أي العقوبة التي يرضاها الله بنفسه تعبيراً عن توبته وخاصة بتوجيه من الكاهن .

(٢) See de Rozière, *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs*, vol. ii, pp. 939-41 وهناك فرنجي يدعي Fromond ذهب مع إسنوته إلى فلسطين==

وهناك إشارات عارضة في السجلات التاريخية عن رحلات متعددة للحج، وإن كانت أسماء الحجاج التي في حوزتنا الآن لا تعدو بالضرورة أن تكون أسماء الشخصيات المرموقة دون غيرها. فمن بين كبار النبلاء والنبيلات في الغرب الذين ورد ذكرهم كحجاج نجد هيلدا، كونتيسة سوابيا (١) التي ماتت سنة ٩٦٩ ميلادية أثناء رحلتها، وجوديت دوقة بافاريا (٢)، شقيقة زوجة الإمبراطور أوتو الأول، التي قامت برحلتها سنة ٩٧٠ ميلادية، ودوق أرديش، ودوق فيينا، ودوق فردون، ودوق آركي، ودوق أمالت، ودوق حوريزا، وكان كبار رجال الدين أكثر مثابة: إذ قام القديس كونراد أسقف كونستانس بثلاث رحلات منفصلة إلى القدس، وقام القديس جسون أسقف يارماغا لا يقل عن ست رحلات، وقام أسقف أوليقولا بالحج سنة ٩٢٠ ميلادية، ومن بين رؤساء الأديرة الذين قاموا بالحج، رئيس دير سانت سيار، وفلاقيني، وأريلاك، وسانت أويين دي أنجر، ومونتير - إن - در. واصطُحِت تلك الشخصيات البارزة معها مجموعات من الرجال والنساء غير ذوي الشأن الذين لم تكن لأسمائهم أهمية عند كتاب ذلك العصر.

ويرجع هذا النشاط في الأساس إلى الجهد الخاص. على أنه كانت هناك قوة جديدة أخذت في الظهور في السياسة الأوروبية وتولت هذه القوة، فيما تولت، البدء في

---

==للتكثير عن حرمة وذلك في منتصف القرن التاسع، وهو أول تائب يعرف اسمه. ويرد  
Aa. Ss. 24 October, Oct., vol.x, pp. 847 ff. في *Peregrinatio Frotmundi*  
انظر أيضاً: van Cauwenbergh, *Les Pélerinages expiatoires et judiciaires, passim*,  
and Villezy, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie*  
*juridique*, pp. 141 ff.

(١) (الترجم): إقليم يقع جنوب غرب ألمانيا.

(٢) (الترجم): ولاية تقع جنوب ألمانيا عاصمتها ميونخ كانت دوقية، فمملكة، فجمهورية.

تنظيم نقل الحجاج. وفي سنة ٩١٠ ميلادية أسس الكونت وليم الأول أوف أكتيان الدير المسمى دير كلان. وفي نهاية القرن أصبحت مدينة كلان، التي تعاقب في حكمها عدد من رؤساء الأديرة المرموقين، مركزاً لحفلة كنسية واسعة، حيدة التنظيم وعكسة الترابط وعلى صلة وثيقة بالبابوية. وكان أبناء مدينة كلان يرون أنهم يتولون الحفاظ على ضمير العالم المسيحي الغربي. وأخذ مذهبهم بالحج، ورغبوا في أن يهيئوا السبيل العملية لأدائه، وبحلول القرن التالي كانت بعثات الحج إلى المزارات الإسبانية العظيمة تحت سيطرتهم الكاملة، أو تكاد. وأخذوا في نفس الوقت يرتبون رحلات إلى القدس ويعملون على انتشارها. واستجابة لإقتناعهم ارتحل رئيس دير ستافيليون إلى الأرس المقدسة سنة ٩٩٠ ميلادية، وكونت فيردون سنة ٩٩٧ ميلادية. وبين تأشيرهم، في القرن الحادي عشر، من الزيادة الكبيرة في عدد حجاج فرنسا واللورين والمناطق القريبة من كلان والأديرة التابعة لها. وبرغم أن الحجاج الألمان كانوا كثيرين بين حجاج القرن الحادي عشر، وكان بينهم رئيس أساقفة ترير وميتز وأسقف بامبرج، وكثيرون من الحجاج الإنجليز، فإن أعداد حجاج فرنسا واللورين فاقت أعداد الحجاج الألمان والإنجليز إلى حد كبير. وكانت الأسرطان الحاكمة الكبريتان في شمال فرنسا، من أشرف أنجو ونورماندي على ما بينهما من تنافس، صديقتين حميمتين لمدينة كلان، وترعيان رحلة الحج إلى الشرق. وذهب فولك نيرا أوف أنجو المرعب إلى القدس سنة ١٠٠٢ ميلادية ثم عاد إليها مرتين فيما بعد. وأرسل الدوق ريتشارد الثالث أوف نورماندي الصدقات إليها، وقاد الدوق روبرت جمعاً غفيراً ذهب به إلى هناك سنة ١٠٣٥ ميلادية، وسجل المؤرخ الكلان الراهب جلابر بأمانة جميع تلك الرحلات إلى

---

(١) See Bréhier, *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age*, pp. 32-3, and Ebersolt, *Orient et Occident*, vol. 1, pp. 72-3, who gives references for these journeys.

الحج. (١)

#### الحجاج الاسكندنافيون

وحذا النورمانديون حذو دوقهم، وكانوا يحلون القديس ميكائيل تبجيلا خاصا، وقامت أعداد كبيرة منهم بالرحلة إلى مونت حرجانو ومن هناك كان المقصد منهم يذهب إلى فلسطين. وفي منتصف القرن، بلغت نسبتهم، بين الحجاج الزاهبين إلى فلسطين، من الكبر والتحمس حدا جعل حكومة القسطنطينية، التي كانت غاضبة من إغارة النورماندين على إيطاليا البيزنطية، تبدي شيئا من عرقلة مرورهم إلى الأراضي المقدسة (٢). وأظهر أبناء عمومهم من اسكندنافيا حماسا يكاد يبلغ حماسهم، وكان الاسكندنافيون قد اعتادوا زيارة القسطنطينية منذ أمد بعيد وتأثروا بثروتها وعجائبها إلى حد كبير. وكانوا يتحدثون عند عودهم إلى منازلهم في الشمال عن الحديقة الكبيرة، وذلك هو الاسم الذي أطلقوه على المدينة العظيمة القسطنطينية والتي كانوا يعرفونها

(١) Radulph Glaber in Bouquet, R.H.F. vol. x, pp. 20, 32, 25, 74, 106, 108.

See Bréhier, op. Cit. pp. 42-5; Ebersolt, op. Cit. pp. 75-81

(٢) يفترض Bréhier أن "انشقاق" Michael Cerularius قد أوجد سوء الفهم بين البيزنطيين

والحجاج. وأما Riant مؤلفه p. 125 *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves*.

فيمضي شلوا بعيدا بحيث يقول إن السلطات البيزنطية تعمدت إغلاق الطريق إلى فلسطين. ومن

الواضح أن ذلك يقوم على أساس تفسيره لتحرية Lietbert of Cambrai (أنظر ص ٧٨ والخاشية

رقم ١)، والظروف التي كانت سائدة في سوريا هي التي تفسر ذلك قسي واقع الأمر. عني أن

خطاب البابا فيكتور Victor (أنظر ص ٧٨ والخاشية ٣) يسوي شأن مسؤولي الإمبراطورية لم

يكونوا ومدون دائما في معاملتهم للحجاج. إن سبب الوجود كان كراهية النورماندين وليس أي

انشقاق.

أحياناً بآسحارد أي بيت الآلهة. وفي سنة ٩٣٠ ميلادية كان جيش الإمبراطور يضم بالفعل جنوداً اسكندنافيين، وفي مطلع القرن الحادي عشر زادت أعدادهم زيادة كبيرة بحيث شكلت منهم فرقة اسكندنافية خاصة اشتهرت باسم الحرس الفارانجي (الاسكندنافي). وسرعان ما اعتاد الفارنجيون أن يقضوا عطلة في رحلة إلى القدس، وأول من جاء ذكرهم من بين هؤلاء شخص يدعى كوليسكسجر كان في فلسطين سنة ٩٩٢ ميلادية، وذهب هارولد هاردرادا، وهو أشهر الفارانجين، إلى فلسطين سنة ١٠٣٤ ميلادية. وخلال القرن الحادي عشر كان هناك الكثير من النرويجيين والأيسلنديين والدانمركيين ممن قضوا خمس سنوات أو أكثر في الخدمة الإمبراطورية ثم قاموا بالهجرة قبل أن يعودوا إلى أوطانهم في الشمال ومعهم مدخراتهم بعد أن أثثروا. وكانت أقاصيصهم التي يروونها لأصدقائهم تستحث هؤلاء الأصدقاء فيرتحلون حينئذٍ بقصد الحج. وذهب المصلح الأيسلندي ثورفالدي كوردرانزسون فيدغوري إلى القدس سنة ٩٩٠ ميلادية تقريباً. وزعم حجاج نرويجيون كثيرون أنهم شاهدوا أولاف تريفاث هناك، وهو أول ملك مسيحي نرويجي، بعد اختفائه الغامض سنة ١٠٠٠ ميلادية. ولقد انتوى أولاف الثاني أن ينجو حذوه، بيد أن رحلته لم تتم مطلقاً إلا في الأساطير. وكان هؤلاء الأمراء الشماليون رجالاً يتصفون بالعنف وكثيراً ما يقتربون إثم القتل، ويتألم شعور دائم بالحاجة إلى التكفير عن آثامهم. فنجس أن سوين حودوينسون، وهو نصف دانماركي، خرج سنة ١٠٥١ ميلادية مع مجموعة من الإنجليز للتكفير عن جريمة قتل ارتكبتها، لكنه مات لتعرضه لسوء الأحوال الجوية في جبال الأناضول في الحريف التالي، وكان يرتحل حافي القدمين تكفيراً عن آثامه. ولوجان حودودسون، وهو ملك مان النرويجي الذي قتل أخاه، التمس غفراناً من الرب بنفس الطريقة. ومعظم الحجاج الاسكندنافيين كانوا يفضلون الهجر إلى بيت المقدس عن طريق البحر عبر مضيق جبل طارق ثم يعودون عن طريق البحر عبر

روسيا. (١)

وكان حجاج القرن العاشر القادمون من الغرب يضطرون قبل ذلك إلى السفر عن طريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية أو إلى سوريا، على أن تكاليف السفر كانت عالية، ولم يكن من اليسر الحصول على أماكن. وفي سنة ٩٧٥ ميلادية تحول حكام انجر إلى المسيحية، وافتتح طريق بري يتجاوز الدانوب ويعبر البلقان إلى القسطنطينية. وبقي ذلك الطريق عميقاً بالأخطار إلى أن أحكمت بيزنطة سيطرتها على شبه جزيرة البلقان كلها في سنة ١٠١٩ ميلادية.

#### السفر عبر الحدود

ومنذ ذلك التاريخ، كان باستطاعة الحجاج أن يسافر ماراً بالبحر بأقل قدر من المخاطرة، ويعبر الحدود البيزنطية عند بلجراد ثم يمضي عبر صوفيا وأدرينوبل إلى العاصمة. وكان بوسعه عندئذ أن يسلك طريقاً آخر، فيذهب إلى إيطاليا البيزنطية ويقوم برحلة بحرية قصيرة يعبر فيها البحر من باري في جنوب إيطاليا إلى درهاكيوم ثم يسلك الطريق الروماني القديم إلى نيسالونيكاً ثم البسفور. وكانت هناك ثلاثة طرق رئيسية جيدة يمكنه استخدامها لعبور آسيا الصغرى إلى أنطاكية حيث يمضي جنوباً بمحاذاة الشاطئ إلى اللاذقية ثم ينحرف داخل الأراضي الفاطمية بالقرب من طرطوس وكانت هذه هي الحدود الوحيدة التي كان عليه أن يعبرها بعد وصوله إلى بلجراد أو إلى تروموني في إيطاليا، وكان باستطاعته بعدئذ أن يمضي إلى القدس دون عوائق أخرى. وهكذا كان السفر بالطريق البري رغم البطء أقل تكلفة بكثير وأيسر من السفر بحراً، ويناسب الجماعات الكبيرة إلى حد كبير.

(١) بررد Riant, *op. cit.*, pp. 97-129 رواية كاملة عن الحجاج الإسكندراني.

وكان الحجاج يلاقون من مزارعي الإمبراطورية معاملسة مضيافة إذا استزموا بالنظام. وكان الجزء الأول من رحلة الحج يتم في يسر لأن أهل كلاني كانوا يقيمون آنذاك عددا من الأنزال على ذلك الجزء من الطريق، وكان هناك عدد من الأنزال في إيطاليا يقتصر استخدام بعضها على الترويجيين، كما كان هناك نزل ضخم في مدينة ميلك في النمسا (١)، وعصص نزل سامسون في القسطنطينية للحجاج الغربيين، واحتفظ أهل كلاني بمؤسسة في ضواحي رودوستو (٢). وفي القدس نفسها كان بوسع الحجاج أن يقيموا في مضيقة القديس جون التي أسسها تجار أمالقي (٣). ولم يكن ثمة اعتراض على أن يصطحب سادة الغرب العظام حاشية مسلحة على أن تلتزم بالانضباط، وكان معظم الحجاج يحاولون أن يذهبوا في معية أولئك السادة. على أن ارتحال الرجال فرادى أو في مجموعات من رجلين أو ثلاثة رجال لم يكن من غير الشائع أو بالغ الخطورة. وربما حدثت صعاب أحيانا، ولم تكن الإقامة الطويلة في فلسطين مريحة للحجاج إبان اضطهاد الحاكم، بيد أن تدفق الحجاج لم ينقطع كلية في أية حال. وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان عبور الحدود إلى أراضي المسلمين أمرا خطرا. ولم يوافق حاكم اللاذقية على أن يأذن بالرحيل لأسقف كامباري يتبرت، فأضطر إلى الذهاب إلى قبرص (٤). وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية منع المسلمون الغربيين من دخول القبر المقدس

(١) Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica* iii, 4, vol. ii, p. 64.

(٢) See Riant, *op. cit.* p. 60.

(٣) William of Tyre, xviii, 4-5, 1, pp. 822-6; Aimé, *Chronicon*, p. 320.

(٤) Vita Lietberti, in d'Achéry, *Spicilegium*, vo. IX, pp. 706-12.

الحج الألمانية الكبيرة في الفترة ١٠٦٤-١٠٦٥ م، والتي كانت تضم ٧٠٠٠ حاج، ظروفها غير

مريحة للغاية جنوب الحدود البيزنطية. وتُسرَد السرواية في *Annales Altahenses*

*Majores*, p. 815. See Joransen, "The Great German Pilgrimage of 1064-5



وأخرجوا حوالي ثلاثمائة منهم من القدس وربما تغاضى الإمبراطور عن ذلك (١) . وقد أساء كل من بازل الثاني وإبنة أنجييه الإمبراطورة ثيودورا عندما أمرا ضباط حماركهما بفرض ضريبة على الحجاج وحيلهم؛ فكتب البابا فيكتور الثاني إلى الإمبراطورة في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٥٦ ميلادية راجيا إلغاء ذلك الأمر، ويوحى خطابه بأن موظفي الإمبراطورة كانوا يوحدون آنذاك في القدس نفسها (٢).

على أن هذه المتاعب كانت نادرة. فطوال القرن الحادي عشر وحتى آخر عقدين فيه كان تيسر المسافرين إلى الشرق لا ينقطع، وكانوا يرتحلون في جماعات تبلغ الآلاف من الرجال والنساء، من كل الأعمار ومن كل الطبقات، وقد تمهتوا في عصر يتميز بالفراغ لقضاء عام أو أكثر في تلك الرحلة. وكانوا يتوقفون في القسطنطينية إعجابا بتلك المدينة الهائلة التي كانت تتجاوز في ضخامتها عشر أمثال أية مدينة أخرى يعرفونها في الغرب، وليحلوا المخلفات المقدسة الموجودة فيها. فكان بإمكانهم مشاهدة تاج الأشواك والرداء غير المحيط وكل المخلفات الرئيسية التي خلفتها آلام المسيح، وكان هناك نسيج من مدينة الرها طبع المسيح وجهه عليه، ولوحة العذراء التي رسمها القديس لوقا بنفسه، وشعر رأس يوحنا المعمدان، ودثار إيليا، وحشيت لا حصر لها للقديسين والأنبياء والشهداء، وقدر هائل من أقدم الأشياء في العالم المسيحي. ومن هناك كانوا يذهبون إلى فلسطين، والناصرية وجبل

(١) *Miracula Sancti " Wolframni Senonensis "*, in *Acto sanctorum Ordinis Sancti Benedicti*, saeculum iii, pars I, pp. 381-2.

وقد قابل Lietbert مسافرين أخرجوا من فلسطين (Vita Lietberti', loc. cit.)

(٢) خطاب فيكتور الثاني Victor II, in *M.P.L.* vol. cxlix, cols. 961-2 يعري خطأ إلى

فيكتور الثالث *Riant Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades*, pp. 50-3

طابور (١) والأردن وبيت لحم وكل مزارات القدس. وكانوا يحملون في ذلك كله، ويصنّون أمام ذلك كله، ثم يشرعون في رحلة العودة الطويلة إلى الوطن وقد تهدبوا وتطهروا، فيستقبلهم أبناء وطنهم ويحتفون بهم على أهم حجاج المسيح الذين قاموا بأقدس رحلة.

وكان نجاح الحج يتوقف على شرطين: أولهما، أن تكون الحياة في فلسطين مسن الانتظام بحيث يستطيع المسافر الذي لا حول له ولا قوة أن يتحرك ويمارس عبادته في أمان. وثانيهما، أن يظل الطريق مفتوحًا وقليل التكاليف. وكان الشرط الأول يقتضي أن يسود السلام وحسن الإدارة الحكومية في العالم الإسلامي، ويستلزم الشرط الثاني أن تكون بيزنطة مزدهرة وخصيرة.

---

(١) (الترجم): حبل طابور، في شمال فلسطين في التحليل الأسفل. ورغم أنه لم يرد ذكر هذا الحبل في العهد الجديد، فهو الموقع الذي يري التراث الكنسي أن المسيح تعلّى فيه.

(٢) Elbersolt, *Les Sanctuaires de Byzance*, pp. 105 ff.



## الفصل الرابع :

### صوب الكارثة

\_\_\_\_\_

1994

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

## صوب الكارثة

"في ساعة سلام يأتيه المخرّب"

(أيوب : ١٥ — ٢١)

بنا من المؤكد في منتصف القرن الحادي عشر أن الهدوء سوف يسود منطقة شرق البحر المتوسط لسنوات كثيرة قادمة. ذلك أن القوتين العظيمتين فيها: مصر الفاطمية وبيزنطة كانتا على وفاق فلم تعتد أيهما على الأخرى وكانتا ترغبان في كبح جماح الدول الإسلامية الواقعة إلى الشرق منهما حيث كان المغامرون الأتراك يسيرون المتاعب دون أن يعكروا صفو حكومتَي القسطنطينية أو القاهرة على نحو خطير. وكان الفاطميون على ودّ مع المسيحيين الذين لم ينلهم اضطهاد منذ موت الخليفة الحاكم.

وكان الفاطميون يفتحون موانئهم للتجار القادمين من بيزنطة ومن إيطاليا، ومسّن ثم استفاد التجار والحجاج على حد سواء من حسن معاملتهم.

وكانت قوة بيزنطة تكفل هذه المعاملة الحسنة. ويرجع الفضل في امتداد الإمبراطورية آنذاك — من لبنان إلى الدانوب ومن نابولي إلى بحر قزوين — إلى مجموعة من الأباطرة المحاربين العظماء، الذين أديرت الإمبراطورية في ظلهم على نحو أفضل غيرها من الممالك المعاصرة، برغم ما قد يعرض لها من فساد أو شغب. ولم يسبق للقسطنطينية أن حظيت بمثل هذا الثراء من قبل، ذلك أنها أصبحت عاصمة العالم التي لا تبارى في شئون التجارة والمال. وكان التجار يتوافدون عليها من كل حذب وصوب، من إيطاليا وألمانيا، ومن روسيا، ومن مصر والشرق، ليتساعوا ما تنتجه مصانعها من أشياء نفيسة وليبادلوا بضائعهم الأقل جودة. وكانت تلك المدينة الشاسعة، التي تفوق القاهرة وبغداد في سعتها وازدهارها وصخب الحياة فيها، تدهش زائرها بمينائها المزدحم وأسواقها الحافلة وضواحيها الممتدة وكنائسها وقصورها الماثلة. وكان البلاط الإمبراطوري يبدو للزائر وكأنه مركز الكون كله، وإن سيطرت عليه آنذاك أمرتان متقدمتان في العمر جامعتا الطبع.

وإذا كان الفن مرآة الحضارة، فإن الحضارة البيزنطية بلغت مكانة رفيعة فيه. ذلك أن فنانيها، في القرن الحادي عشر، أظهروا ما كان يتصف به أسلافهم الكلاسيكيون من اعتدال واتزان؛ وأضافوا إلى ذلك ميزتين راعتين من التراث الشرقي وهما التشكيلة الزخرفية الثرية عند الإيرانيين، والتركيز الوجداني في الشرق القديم. والأعمال الباقية من ذلك العصر — كقطع العاج الصغيرة أو لوحات الفسيفساء الكبيرة أو الكنائس المحلية ككنيسة دافني أو كنيسة القديس لوقا في اليونان — تُظهر في اقتدار الجمع بين عناصر التراث التي تأتلف في كل متكامل. وبالرغم من أن أدب ذلك العصر يتسوارى وراء ما تعطيه لنا العصور الكلاسيكية السابقة عليه من منجزات، فإنه يعطينا مجموعة متنوعة من الأعمال التي يتصف مستواها جميعاً بالامتياز. فلدينا التاريخ الرائق لسجون

دياكوناس، والشعر الغنائي الرقيق لكرستوفر الميثيليني، وملحمة ديجينيس أكرينساس ذات الشعبية المكسحة، والأقوال الماثورة السائرة للجندي سيكاومينوس، ومذكرات البلاط التي تتسم بالانتقاد والفطنة لسميثاتيل بسلوس. ويكاد يتسم الجو العام في بيزنطة آنذاك بالرضا عن النفس الذي كان سائدًا في القرن الثامن عشر لولا شيء من الانشغال بالأمور الأخروية وشيء من التشاؤم اللذين لم يخلص منهما البيزنطيون في أية حال.

وللإغريقي شخصية تتسم بخفاء وتعقيد لا تلمسهما في الصورة التي يرسمها في الوقت الحاضر دارسو القرن الخامس السابق على الميلاد. وزادت هذه الشخصية تعقيدًا عند البيزنطي، بما داخلها من صفات يتسم بها الدم الشرقي الذي حالطها وجعلها تتميز بالتناقض التام. فعلى حين كان البيزنطي عمليًا إلى حد بعيد وذا قابلية للعمل وتوافقًا إلى أن يعطى بالأبعاد الدنيوية، فإنه كان على استعداد لأن يهجر الدنيا ويغلو إلى حياة التأمل والرهبة. وكان يؤمن إيمانًا حارًا بالرسالة الإلهية للإمبراطورية وبالسلطة الإلهية للإمبراطور، بيد أنه اتسم بالرغبة الفردية وبالشمر على أية حكومة لا ترضيه. دون إبطاء. وكان يفرغ من المرطقة، على أن دينه، وهو أشد أشكال المسيحية المستقرة جنوحًا إلى الباطنية، أتاح له — سواء أكان رجل دين أو دنيا — رحابة فلسفية كبيرة. واحتقر جبرانه على أهم برابرة وإن سهل عليه تبني عاداتهم وأفكارهم. وهو متقلب الطبع برغم درايته بشؤون الدنيا وما له من كبرياء. وتزعزعت ثقته نتيجة لما احتاج بيزنطة من كوارث أو شكت أن تودي بها، فالأزمة المياغنة تروعه وتجعله يمنح إلى ضرب من الوحشية يستنكره، هو نفسه، عندما تعاوده لحظات الهدوء. ولربما كان حاضره واعدًا متآلقًا، ولكن نبوءات عديدة تنذره بأن مدينته سوف تملك ذات يوم، ويحسب أن هذه النبوءات صادقة. فالسعادة والدعة لا محل لهما في هذا العالم العابر للنعم وإنما يروحان في ملكوت السماء وحده.



#### أخبار الاقتصاد البيزنطي

وكان لمخاوفه ما يبررها. فلم تكن دعائم القوة البيزنطية وطيدة بالقدر الكافي، فتنظيم الإمبراطورية العظيمة قائم على الدفاع، والمسؤولون العسكريون يكمسون المقاطعات ويخضعون هم أنفسهم للإدارة المدنية في القسطنطينية. وهيا هذا النظام رديفاً محلياً قادراً من الجند يحكمه أن يدافع عن منطقة في أوقات الغزو وأن يعزز الجيش الإمبراطوري الرئيسي في حملاته الكبيرة. وأن يضي مزيداً من القوة على حاكم الإقليم عند انتهاء الغزو، خاصة إذا كان هذا الحاكم من الثراء بحيث يستطيع أن يتجاهل من يتولى الإنفاق في العاصمة. فضلاً عن أن الرخاء كان مفسدة لنظام الزراعة في آسيا الصغرى. وكان العمود الفقري لبيزنطة يتمثل في مجتمعات المزارعين الأحرار الذين يحصلون على أراضيهم من الدولة مباشرة في مقابل أداء خدمات عسكرية في أغلب الأمر. على أن الحال هناك لم تكن تختلف عنها في أي مكان آخر في العصور الوسطى، فالأرض هي الاستثمار الوحيد الآمن للثروة، وكان كل غني يسعى للحصول عليها، وحرصت الكنيسة من يتحمسون لها على أن يورثوها الأرض، وكانت الأرض هي الجائزة المعتادة التي تُمنح للقادة العسكريين الأكفاء أو للمستحقين من الوزراء. وبدت الأمور على ما يرام، فالإمبراطورية مازالت تستعيد الأراضي التي استولى عليها العدو، أو تعيد إعمار المناطق التي أحلتها الحروب أو خربتها؛ بيد أن النجاح في ذلك في حد ذاته أدى إلى احتدام شهوة مملك الأرض، ولم يكن يوسع الأعيان والقائمين على الإدارة إلا أن يزدوا من ضياعهم بشراء الأرض من الفلاحين الذين كانوا في حاجة إلى المال أو بالاستيلاء على قرى بأكملها إما بأخذها على سبيل الهدية من الدولة أو بتوليهم مسئولية سداد الضرائب المستحقة عليها. وسعى الحكماء من الأباطرة إلى أن يحولوا دون ذلك، لأن المالك الجديد لم يكن يقاوم الرغبة في تحويل أرضه إلى مزرعة للأغنام إلا فيما ندر، ولأن نقل الحيازات من الفلاحين الذين يودون خدمات عسكرية كان يهيئ للمالك — وذلك هو الأهم — القدرة على أن يجمع جيشاً خاصاً مما يضعف

جيش الدولة. بيد أن ما وضعه أولئك الأباطرة من تشريعات لم يحقق نجاحاً في هذا السبيل، ففي خلال القرن العاشر نشأت في بيزنطة أرستقراطية وراثية مملكت الأرض بلغت من الغنى والقوة ما يكفي لتحدي الحكومة المركزية واستطاع الإمبراطور بازل الثاني، أعظم أباطرة العائلة المقدونية، أن يئخذ بمشقة عمداً قام به أولئك الأرستقراطيون في مستهل حكمه. وبانتصار الإمبراطور بازل الثاني ظلت هيئته باقية إلى أن انتهى حكم أسرته في سنة ١٠٥٦ ميلادية بوفاة ابنة أخيه ثيودورا. ولو أن السلالة المقدونية أُنقبت ورثة للعرش من الذكور لترسخ مبدأ وراثة العرش الإمبراطوري، ولتوفرت لبيزنطة قوة خليقة بكبح جماح الأرستقراطية. ولكن الولاء للأسرة الحاكمة مكن الأميرة زو وأزواجها المتعاقبين من الاستمرار في حكم يتسم بالفجور والتفريط لما يقرب من ثلاثين عاماً، كما مكن الأميرة العجوز ثيودورا من الحكم بمفردها، وكانت القوى الهدامة تنمو طوال الوقت. وعندما ماتت ثيودورا كانت في بيزنطة قوتان تواجه كل منهما الأخرى في معارضة مريرة، وهما زمرة البلاط التي تسيطر على الإدارة المركزية، وعائلات النبلاء التي تسيطر على الجيش. بينما حاولت الكنيسة - التي كان لها موطئاً في كل من المعسكرين - أن تحافظ على التوازن. (١)

(١) عن الحضارة البيزنطية في هذه الفترة أنظر :

Iorga, *Histoire de la Vie Byzantine*, vol. ii, pp. 230-49 ; Vasiliev, *Histoire de L'Empire Byzantin*, vol. i, pp. 476-92

وعن مشكلة الزراعة في بيزنطة أنظر :

Ostrogorsky, 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire', in *The Cambridge Economic History of Europe*, vol. 1, pp. 204 ff.

ومن التاريخ السياسي أنظر :

Bury, 'Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenos', in *Selected Essays*, pp. 126-214; Ostrogorsky, *Geschichte des byzantinischen Staates*, pp. 224-40.

#### كومنينوس ودوكاس

ولم تكد الأميرة — التي بلغت العقد السابع وهي ما تزال تؤمن بنبوءة تقول أنها ستحكم لسنوات عديدة — تروح في غيبتها الأخيرة حتى دفع البلاط إلى العرش بمسئول مدني متقدم في السن هو ميخائيل ستراتيكوس. ورفض الجيش أن يقبل الإمبراطور الجديد، فزحف على القسطنطينية عاقدا العزم على تنصيب قائده، فتنحى ميخائيل دون مقاومة وأصبح الجنرال اسحق كومنينوس إمبراطورا، وهكذا كسبت الأرستقراطية العسكرية الجولة الأولى.

وكان اسحق كومنينوس أرستقراطيا من الجيل الثاني وحسب، شأنه في ذلك شأن الكثير من أقرانه نيلاء بيزنطة. فأبوه جندى من تراكييا (١)، أو ربما فلاحشي (٢)، استحوذ على رضاء الإمبراطور بازل الثاني فأعطاه بعض الأراضي في بافلاجونيا (٣)، حيث شيد حصنا عظيما عرف باسم (كاسترا كومنينون) وما يزال يعرف في أيامنا باسم (كاستاموني). وورث اسحق وأخوه جون أراضي والدهما وحرأته العسكرية. وانتسب كلاهما إلى الأرستقراطية البيزنطية بالزواج، فزوجة اسحق أميرة من أميرات البيت الملكي السابق في بلغاريا، وزوجة جون وريثة عائلة دالاسيني العظيمة. على أن سوء طويرة الإدارة المدنية أدى باستمرار إلى إفشال حكم اسحق برغم ثروته وسيطرته وتأيد الجيش له، فكف عن الصراع بعد عامين وانزوى في أحد الأديرة. ولما لم يكن له ولد، رشع كونستنتين دوكاس خلفا له، ولم تغفر له زوجة أحيه أنا دالاسينا ذلك. وكان كونستنتين دوكاس رأس أسرة ربما كانت من أعرق أسر الأرستقراطية

(١) (المترجم) : تراكييا : حاليا الجزء الأوربي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الفلاشي : أحد أبناء جنوب شرق أوروبا المتحدثين بالرومانية .

(٣) (المترجم) : بافلاجونيا : مقاطعة في الأناضول تطل على البحر الأسود .

البيزنطية وأكثرها ثراء، على أنه هياً لنفسه مكاناً في البلاط، ومن ثم كان اسحق يأمل في أن يقبله الجاثبان؛ ولكنه سرعان ما أظهر أن ميوله تنأى عن طبيعته. وكانت حزائنه خاوية والجيش بالغ القوة والخطر، فكان الحل الذي ارتأه ممثلاً في تخفيض القوات المسلحة، وكان من الممكن الدفاع عن هذا التخفيض كإجراء تقتضيه السياسة الداخلية، ولكن لم يحدث في أي وقت في التاريخ البيزنطي أن كان إضعاف القوة الدفاعية للإمبراطورية أمراً مأموناً، وكان الإقدام على ذلك في تلك الأونة وعيم العاقبة، إذ كانت سحب العاصفة تتجمع في الشرق بعد أن هبت عاصفة من الغرب بالفعل. (١)

#### أبناء تانكريد دي هوتفيل

فلبضعة عقود خلت كانت دولة جنوب إيطاليا مسرحاً للشغب والاضطراب. وكانت الحدود الرسمية للإمبراطورية البيزنطية تمتد من تراسينا على الساحل التيراني إلى ترمولي على البحر الأدرياتيكي، غير أنه، في نطاق تلك الحدود، لم يخضع لحكم بيزنطة المباشر سوى مقاطعتي أبوليا وكلايريا اللتين كان أغلب سكانهما من اليونانيين، وعلى الشاطئ الغربي تقع ثلاث من دول المدينة التجارية (٢)، هم جايتا ونابولي وأمالفي،

(١) Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 238-42; Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, pp. 523-31

(٢) يعود مصطلح دولة المدينة أو city-state أو polis في الأصل على المدن الإغريقية القديمة التي كانت تمثل في أي منها دولة صغيرة. ويرجع ظهور هذه المدن إلى طبيعة بلاد اليونان الجغرافية، وانقسامها إلى أجزاء تفصل بينها الجبال والبحر من ناحية، وإلى أسباب قبلية وعرقية ودينية من ناحية أخرى. وكانت توجد في القدم بعض مئات من دول المدينة التي لا يكاد يعرف تاريخ معظمها إلا--

التي كانت تتبع الإمبراطور اسحقيا. ووجد أهل أمالفي، الذين كانت لهم آنذاك تجارة ضخمة مع الشرق المسلم، أن نية الإمبراطور الحسنة تفيدهم في تفاوضهم مع السلطات الفاطمية، وكان للأمالفيين اتصال دائم في القسطنطينية. أما أهل نابولي وجانيئا، وبرغم استعدادهم للتجارة مع الكفار، كانوا أقل كياسة تجاه الإمبراطور. وسيطر على داخل البلاد أمراء بنيفنتو وساليرنو اللومبارديون، الذين اعترفوا بسيادة كل من الإمبراطور الشرقي والغربي في آن وإن لم يحترموا أيا منهما، وكانت جزيرة صقلية ما تزال في أيدي المسلمين برغم تعدد محاولات بيزنطة لاستعادتها، وتسببت الغارات التي يشنها المسلمون من صقلية ومن أفريقيا على طول الشواطئ الإيطالية في زيادة اضطراب البلاد.

وجاءت إلى هذه المناطق أعداد غفيرة من المغامرين النورمانديين القادمين من شمال فرنسا، في طريقهم إلى بيت المقدس ليحجوا أو ليزوروا ضريح القديس ميكايل على جبل حارجانو — الذي كانوا يفضلون زيارته، وكثير منهم جنود مرتزقة

---

—سلمان—. ومن ثم برز معظم تاريخ اليونان القديمة من خلال تواريخ أثينا واسمرطه وقيل من دول المدينة الأخرى.

وكانت دولة المدينة تتمركز في مدينة واحدة يضمها سور في العسادة، وإن كانت المناطق المحيطة بها تتبعها. وتضم المدينة قلعة على أرض مرتفعة acropolis وسوقا agora. وكانت حكومة دولة المدينة تتمركز في داخلها، بينما يعيش مواطنوها في نطاق المدينة وعلى الأراضي التابعة لها. ويشارك المواطنون في الحكم بدرجات مختلفة تتفق وشكل الحكم السدي كان إما أرسقراطيا أو أوليغاركيا (أي حكم قلة) أو ديمقراطيا. ولما كانت درجات المواطنة في كثير من تلك المدن تتدرج اشتد الصراع وطال من أجل المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين عامة المواطنين على اختلاف أوضاعهم وبين الخاصة من ذوي المكانة المتميزة.

بقوا في تلك المناطق ليعملوا في خدمة الأمراء اللومباردين. ذلك أن الرغبة في تملك الأرض كانت حارفة في نورماندي، التي ضاقت ضياعها بسكانها ولم يعد فيها متسع لصغار أبنائها ذوي الطموح الذين يساورهم القلق أو للفرسان الذين لا يملكون أرضاً. وهذا الدافع إلى التوسع — الذي أوشك أن يدفعهم إلى غزو إنجلترا — حول أنظارهم إلى الشرق وكل ثرواته؛ ونظروا إلى جنوب إيطاليا على أنه مفتاح إمبراطورية البحر المتوسط، وأتاح لهم الاضطراب الذي كان سائدا فيه الفرصة التي انتظروها.

في سنة ١٠٤٠ ميلادية استولى ستة أخوة — أبوهم فارس نورماندي مغرور هو تانكريد دي هوتفيلد — على مدينة ميلفي في تلال أبوليا وأسسوا إمارة هناك. ولم تعبأ بهم السلطات البيزنطية المحلية؛ ولكن النورماندين وجدوا مساندة من الإمبراطور الغربي هنري الثالث الذي كان تواقاً للسيطرة على مقاطعة تصارعت عليها الإمبراطوريتان منذ وقت طويل؛ ومن البابا الألماني الذي عينه ذلك الإمبراطور والذي كان مستاء من أن يرأس بطريق القسطنطينية أي دائرة اختصاص كنسية إيطالية. وخلال اثني عشر عاماً تسيد أبناء تانكريد على الإمارات اللومباردية ودفعوا بالبيزنطيين إلى أقصى نقطة في كلابريا وإلى شاطئ أبوليا، واتجهوا إلى الشمال عبر كامبانيا وأوشكوا أن يبلغوا روما، فشعرت الحكومة البيزنطية بالخطر فاستدعت ماريانوس أرجيروس حاكم أبوليا للوقوف على حقيقة الأمر وأعادته مزوداً بسلطات أوسع ليعالج الموقف. على أنه لم يحقق شيئا من الناحية العسكرية إذ صد النورمانديون جيشه الصغير، وإن حقق شيئا من النجاح من الناحية الدبلوماسية لأن البابا ليون التاسع، وهو من اللورين، كان متوتراً مثله. فنجاح النورماندين كان أعظم مما توقعه البابا وهنري الثالث الذي كان مشغولاً بحملة هونغارية، لكنها لم تحمل دون إرساله عوناً للبابا الذي اتجه إلى الجنوب في صيف ١٠٥٣ ميلادية مع جيش من الألمان والإيطاليين معلناً أن تلك الحرب حرب مقدسة، وكان على قوة بيزنطية أن تلحق به، وبينما كان ينتظرها خارج مدينة سيفيتات

الصغيرة الواقعة في أبوليا هاجمه النورمانديون وقضوا على جيشه وأخذوه أسيرا. واقتدى نفسه بأن تغلى عن سياسته كلها.

وكانت هذه آخر محاولة حادة لكبح جماح أبناء تانكريد. ومات هنري الثالث سنة ١٠٥٦ ميلادية وخلفه الطفل هنري الرابع، وكان الوصي على العرش أجنس أوف بويتو مشغولا للغاية في ألمانيا فلم يستطع أن يولي الجنب اهتماما. وقررت البابوية أن تنحى منحى واقعي، ففي سنة ١٠٥٩ ميلادية اعترف البابا نيكولاس الثاني في مجلس ميلفي بـروبرت جيسكارد (روبرت الماكر) أكبر أبناء تانكريد الباقيين على قيد الحياة باعتباره "دوق أبوليا وكلايريا، وبفضل الرب والقدس بطرس، وبعماسا، دوق صقلية." وهذا الاعتراف الذي كان يقتضيه، في رأي روما وليس في رأي روبرت، التبعية لورث القديس بطرس، أي للبابا، مكّن النورمانديين من إتمام غزوهم في بسر، وسرعان ما خضعت لهم الجمهوريات البحرية؛ وبحلول سنة ١٠٦٠ ميلادية كان كل ما تبقى للبيزنطيين في إيطاليا هو عاصمتهم، قلعة باري الساحلية. وفي أثناء ذلك بدأ روجر شقيق روبرت الأصغر يحقق نجاحا بطيئا في الاستيلاء على صقلية من العرب. (١)

وصمدت باري إلى حين، واستطاع البيزنطيون بذلك أن يحولوا إلى حد ما دون أن يتوسع النورمانديون في اتجاه الشرق، غير أنه كان من المحتسم أن تؤدي القلاقل السياسية في إيطاليا إلى قلاقل دينية؛ وأدى وجود الغزاة اللاتينيين في جنوب إيطاليا إلى إثارة مسألة الكنيسة اليونانية الموجودة في تلك المنطقة والخلاف القديم بين القسطنطينية

(١) إن أفضل ما كتب عن التعلل النورماندي في جنوبي إيطاليا وغزو البلد يرد في : Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile*, vol 1, chs. ii -vii, and Gay, *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*, bk. v, chs. ii-v

وروما حول ولائها الكنسي. وترتب على الإصلاحات التي أجريت في روما أن عزمت البابوية على ألا تسمح بأنصاف الحلول فيما لها من مطالب. وكان يشغل كرسي البطريركية في القسطنطينية آنذاك ميكايل سريولاريوس، وهو من أكثر ساسة الكنيسة اليونانية طموحاً وأشدّهم عدوانية. إن القصة الثعسة للزيارة التي قام بها البابا ليو التاسع إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية ينبغي أن تسرد مع ما ترتب عليها من علاقات بين الكنيستين الغربية والشرقية؛ فلما انتهت بمشاهد من "العزل الكنسي" المتبادل، على الرغم من محاولة الإمبراطور إيجاد نوع من المصالحة؛ كما أنها جعلت أيّ تعاون صادق بين روما والقسطنطينية بشأن حاجات إيطاليا العاجلة، أمراً مستحيلاً. لكنها لم تسبب في الانقسام النهائي الذي يعزوه المؤرخون المتأخرون إلى هذه الزيارة. وساءت العلاقات السياسية بين البلاطين الإمبراطوريين، لكنها لم تنقطع. وسرعان ما فقد سريولاريوس نفوذه. بعد أن ازدرت الإمبراطورة ثيودورا التي حاول أن يقصصها عما آل إليها، وخلعه الإمبراطور اسحق، فمات منفياً لا حول له ولا قوة. ولكنه انتصر في نهاية الأمر، ذلك أن أجيال بيزنطة اللاحقة رأت فيه بطل استقلالها؛ وعندما عاود الإمبراطور والبابا رسائل الود، استطاعت الإمبراطورة أبودوسيا ماكريمبوليتسا إضافة اسمه إلى قائمة القديسين. (١)

ومن وجهة نظر مؤرخي بيزنطة الذين عاصروا تلك الأحداث، فإن حكام الإمبراطورية لم يكادوا يلاحظون ذلك الخلاف، إذ كانت المشاكل التي تحدثت في الشرق تحجب عن عيونهم متاعب الغرب.

إن اضمحلال الخلافة العباسية لم ينطو على نفع كامل لبيزنطة. ذلك أن ما كان يفتقر العراق من فقر بدأ يؤدي إلى تغيير طرق التجارة في العالم، فلم يعد تجار الشرق

---

(١) انظر ما يلي الصفحات ١٧١ - ١٧٣ .



الأقصى يأتون إلى أسواق بغداد ببضائعهم التي كان الكثير منها ينقل إلى الإمبراطورية كي يعاد شحنه من موانئ آسيا الصغرى أو من القسطنطينية نفسها إلى الغرب؛ وأصبحوا يفضلون آنذاك أن يتخذوا طريق البحر الأحمر إلى مصر، ومن مصر كانت تنتقل بضائعهم إلى أوروبا على السفن التجارية الإيطالية، ومن ثم لم تعد بيزنطة تقع على طريق التجارة، وأدت غيبة القانون في أطراف الإمبراطورية العباسية إلى إغلاق طريق القوافل القديم من الصين والذي كان يمتد عبر تركستان وشمال فارس إلى أرمينيا والبحر عند طربزون (١)، ولم يبق الطريق البديل الممتد إلى شمال بحر قزوين آمناً لفترة طويلة. وبالنسبة لمنطقة البحر المتوسط لم تعد القوة العباسية، كما كانت من قبل، عاملاً من عوامل الدفاع الخارجي ضد برايرة أواسط آسيا من الساحتين السياسية والعسكرية على السواء.

#### الأتراك يتحركون غرباً

إن سبل الدفاع المهارت؛ وتمكنت آسيا الوسطى مرة أخرى من أن تتعدى نطاقها إلى أراضي الحضارة القديمة. ولقد لعب الأتراك دوراً هاماً في التاريخ لفترة طويلة، فالإمبراطورية التركية في القرن السادس كانت، على قصر عمرها، قوة استقرار وإشعاع حضاري في آسيا. والشعوب التركية البعيدة — مثل شعوب الخزر (٢) اليهودية على

---

(١) طربزون : مدينة في الشمال الشرقي من تركيا ، تقع على خليج في الجنوب الشرقي للبحر الأسود وحلفها سلسلة جبال مرتفعة تفصلها عن هضبة الأناضول .

(٢) الخزر : شعب يتكلم من اتحاد قبائل تركية إيرانية ، أنشأ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي إمبراطورية تجارية رئيسية في القسم الجنوبي الشرقي لروسيا الأوروبية حالياً .

ضغاف الفولجا (١) أو الأوجور النساطرة المسيحية، التي استقرت فيما بعد على حدود الصين — أظهرت قدرتها على التكيف والتقدم الحضاري، على أنه لم يكن هناك أي تقدم في تركستان نفسها منذ القرن السابع. ونشأ قليل من المدن على طرق القوافل، ومع ذلك بقي التركمانيون في غالب الأمر رعاة وأشباه بدو، وأدى تزايد عددهم إلى رغبة ملحة في الترحال إلى ما وراء حدودهم. وفي القرن العاشر حكم تركستان أبناء الأسرة السامانية الفارسية (٢) الذين مثل دورهم في التاريخ في تحويل أتراك أواسط آسيا إلى الإسلام. ومنذ ذلك الوقت تحولت. أنظار الترك إلى أراضي جنوب غربي آسيا وشرق المتوسط.

واستولى محمود الغزنوي (٣) — وهو أول عظماء المسلمين الأتراك — على الحكم من السامانيين. وفي العقود الأولى من القرن الحادي عشر أقام إمبراطورية عظيمة امتدت من أصفهان إلى بخارى ولاهور. وفي تلك الأثناء كان المرتزقة الترك يتوغلون في العالم الإسلامي ككله، بنفس القدر الذي كان يتوغل به النورمانديون في أوروبا

- 
- (١) نهر الفولجا : أو نهر أوروبا : أطول نهر في القارة الأوروبية والنهر الرئيسي في الاتحاد السوفياتي ينبع من تلال فالديي شمال غرب موسكو ويجري إلى الجنوب الشرقي ليصب في بحر قزوين .
- (٢) الأسرة الحاكمة السامانية (٨١٩-٩٩٩م) : أول أسرة حاكمة وطنية في إيران بعد الفتح الإسلامي . أسسها سامان غودا ، وحصل أسفاده الأربعة من الخليفة العباسي المأمون في مقابل خدماتهم المخلصة على مقاطعات سمرقند وخرغانة وشاه وحررات .
- (٣) الأسرة الحاكمة الغزنوية (٩٧٧-١١٨٦م) : حكمت خراسان شمال إيران وأفغانستان وشمال الهند . وبلغت القوة الغزنوية ذروتها أثناء حكم محمود الذي أقام إمبراطورية امتدت من نهر جيحون (أمو دريا حاليا ) إلى وادي أندوس والمحيط الهندي وشرق إيران ، وانتقل بالأسرة من الأحسل الوتني إلى العقيدة الإسلامية ووسع الرقعة التي ساد فيها الإسلام .

المسيحية. وكان للخليفة في بغداد، ولكثيرين من الحكام المسلمين، كتابات تركية؛ وكان من بين رعايا الغزنويين عشيرة الغز، وهم أتراك من سهول الآرال الفسيحة، أطلق عليهم السلاجقة، نسبة إلى اسم حدهم شبه الأسطوري. وكان أمراء السلاجقة مجموعة من المغامرين الذين يغارون من بعضهم البعض وإن كانوا يتحدثون حفاظا على صالح العائلة، ولا يكادون يختلفون في ذلك عن أبناء نانكريد دي هوتفيل، وإن كانوا أوفر حظا من النورمانديين من حيث عدد أشياعهم، ذلك أنه كان بوسعهم أن يعولوا على عون حشود التركمان الهائلة التي لا تكاد تقرر في مكان. وبعد موت محمود سنة ١٠٣٠ ميلادية، ثار السلاجقة على الغزنويين؛ وبحلول سنة ١٠٤٠ ميلادية كانوا قد طردوهم واضطروهم إلى أن يلوذوا بمقاطعاتهم الهندية. وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية، دخل طغرليك (١)، وهو أكبر أمراء البيت السلجوقي، أصفهان وجعلها عاصمة دولة تضم فارس وخراسان، بينما استقر إخوته وأبناء عمومته على حدوده الشمالية في تحالف مفكك يعترف بسلطته العليا، وراحوا يغفرون على البلدان المخاورة كما يعمل لهم. وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان الخليفة العباسي في حالة من الرعب بسبب المؤامرات السيئة كان يديرها وزيره البساسيري مع الفاطميين، فاستنجد بطغرليك الذي دخل بغداد كيطلب سني ومنح لقب ملك الشرق والغرب، وصار صاحب السلطة العليا الدنيوية على كل الأراضي التي تدن للخليفة بالولاء الروحي. (٢)

(١) (المترجم) : طغرليك : مؤسس الأسرة السلجوقية التي حكمت إيران والعراق وسوريا

والأناضول خلال القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر .

(٢) أنظر موحز للتاريخ التركي المذكر بردي مادة "Turks" التي كتبها Barthold

في Houtsma في *Encyclopaedia of Islam* أنظر أيضا مادة " Seljuks " ال كتبها  
*Encyclopaedia Britannica*, 11th ed. وعن محمد الغزوي ، أنظر : Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 18 ff

#### لخاية أرمينيا

وكانت هناك غارات تركية داخل أرمينيا ترجع إلى عهد بازل الثاني في الوقت الذي كان فيه السلاجقة ما يزالون تحت الحكم الفرنسوي. ولكسي بحمي بازل إمبراطوريته من الأتراك، شرع في سياسته ضم أرمينيا قطعة قطعة، وبعد غزو السلاجقة لقارس تكررت الغارات التركية على أرمينيا، واشترك طغرل بك بنفسه مرة واحدة سنة ١٠٥٤ ميلادية وحرب البلاد حول بحيرة فان، ولكنه فشل في الاستيلاء على مزيكيرت الحصينة. وكان إبن عمه، حسن وإبراهيم إينال، يتوليان في العادة قيادة الجيوش المغيرة التي هزمها البيزنطيون سنة ١٠٤٧ ميلادية أمام مدينة أرزروم، وخلال الأعوام التالية تركزت جهودهما على مهاجمة حلفاء الإمبراطورية في جورجيا (١)، ففي سنة ١٠٥٢ ميلادية احتلحا مدينة قرص، وعادا في سنتي ١٠٥٦ و ١٠٥٧ ميلادية إلى أرمينيا مرة أخرى، وفي سنة ١٠٥٧ ميلادية هبّت مدينة ملطية، وفي سنة ١٠٥٩ ميلادية تقدم الجنود الأتراك للمرة الأولى إلى مدينة سيفاس الواقعة في قلب الأراضي الإمبراطورية. (٢)

ومات طغرل بك سنة ١٠٦٣ ميلادية، ولم يكن يولي اهتماما كبيرا بتحدوده الشمالية الغربية. لكن خليفته وابن أخيه ألب أرسلان سعي إلى حماية نفسه من البيزنطيين، إذ كان في حالة من التوتر من إمكان تحالف البيزنطيين والفاطمين، فقرر غزو أرمينيا قبل المضى في هدفه الرئيسي ضد الفاطمين. وكثفت الغارات على الإمبراطورية؛ ففي سنة ١٠٦٤ ميلادية دُمرت العاصمة القديمة لأرمينيا (مدينة آني)،

(١) (المترجم) : جورجيا : مدينة إلى الشرق من القسطنطينية .

(٢) Laurent, *Byzance et les Turcs Seldjoucides*, pp. 16-24; Cahen, 'La première Pénétration turque Asie Mineure', pp. 5-21, in *Byzantion*, vol. xviii. See also Mukrimin Hail, *Turkize Tarihi*, vol. 1, *Anadolium Fethi*, passim .

ولما أمر مدينة فرس الذي كان آخر حكام أرمينيا المستقلين فقد سره أن يسلم أراضيها للإمبراطورية في مقابل بعض الضياع في جبال طوروس ورافقته أعداد كبيرة من الأرمن إلى موطنه الجديد. ومنذ سنة ١٠٦٥ ميلادية راح الأتراك يهاجمون قلعة إيديا العظيمة على الحدود كل عام، لكنهم كانوا غير متمرسين في أعمال الحصار الحربي. وفي العام التالي ١٠٦٦ ميلادية احتلوا مجرات جبال أمانوس، وفي الربيع التالي غيروا مدينة قيصرية التي كانت حاضرة كبادوكيا، وفي الشتاء التالي هزموا الجيوش البيزنطية في ملطية وسيفاس. ومكنتهم هذه الانتصارات من السيطرة على أرمينيا سيطرة كاملة. وخلال السنوات التالية أغساروا على أعماق الإمبراطورية: قيصرية الجديدة وعمورية سنة ١٠٦٨ ميلادية، وقونية سنة ١٠٦٩ ميلادية، وخونيا سنة ١٠٧٠ ميلادية، القرية من شواطئ بحر إيجه. (١)

واضطرت الحكومة الإمبراطورية إلى التصرف. وفي سنة ١٠٦٧ ميلادية مات الإمبراطور كونستنتين العاشر، وكانت سياسته في خفض القوات المسلحة مسؤولة بدرجة كبيرة عن هذا الموقف الخطير، وترك ابنه الصغير ميكائيل السابع تحت وصاية أمه الإمبراطورة أبوديسيا التي تزوجت في العام التالي من رومانوس ديوجينيسوس القائد العام ورفعه إلى العرش. وكان رومانوس جنديا بارزا ووطنيا مخلصا، غير أن المهمة التي كانت تنتظره تتطلب رجلا ذا عبقرية. ولقد ارتأى أن سلامة الإمبراطورية تستلزم إعادة غزو أرمينيا، لكن الجيش البيزنطي لم تعد له القوة الهائلة التي كان عليها قبل خمسين سنة مضت، ولم تكن قوات المقاطعات تكفي لحماية أراضيها من المغيرين، وإذن لا يمكنها توفير حدود لحماية الإمبراطورية، والعائلات النبيلة القادرة على تأمين الرحائل من ضياعها ساورها الشكوك فكفت أيديها، وفصائل الفرسان وعددها ستون ألف فارس تفرقت الآن وهي التي كانت دورياتها تحبب الحدود السورية حين

(١) Laurent, *op. cit.* pp. 4-6; Cahen, *op. cit.* pp. 21-30

منتصف القرن، والحرس الإمبراطوري المكون من نوعيات منتقاة من الأناضول والمدرّب تدريباً عالياً أقل بكثير مما كانت عليه قوته في الأيام الغابرة. وأصبح سواد الجيش يتكون من مرتزقة أحياناً: ثرويين من الحرس الفارسي، ونورمانديين وفريسيين من غرب أوروبا، وسلافيين من الشمال، وأتراك من سهول روسيا الجنوبية، وبشتنج، وكومان، وغز، وانتي رومانوس من هذه العناصر قوة تقرب من مائة ألف رجل، ربما كان نصفها من مواليد بيزنطة، لكن الجنود المحترفين منهم كانوا أقلّة ضئيلة ولم يكن أحد منهم مجهزاً تجهيزاً جيداً، وكانت أكبر فصيلة من المرتزقة تتكوّن من الكومان والأتراك يقودها حوزيف تاركانبوت التركي المولد، وكانت الكتيبة الرئيسية تضم أبرز الفرسان النورمانديين بقيادة روسيل أوف بيلوبل النورماندي، وكان لهذه الكتيبة من قبل قائدان من الفرنج هما هيري وكريسين، اللذان خُليعا واحداً بعد الآخر لخياتتهما البئنة، ولم يكن الرجال يعملون إلا تحت إمرة رجل وطني، أمّا كبير القادة البيزنطيين التابع للإمبراطور مباشرة — وهو أندرونيكوس دوكاس، ابن أخي الإمبراطور المتوفى — فكان كباقي أفراد عائلته عدواً لدوداً لرومانوس الذي لم يجرؤ على تركه في القسطنطينية. وخرج رومانوس في ربيع ١٠٧١ ميلادية على رأس هذا الجيش، الذي لا يعول عليه وإن كان كبيراً، لاستعادة أرمينيا. وبينما هو يغادر العاصمة جاءت الأنباء من إيطاليا بأن باري، وهي آخر ما يملكه البيزنطيون في شبه الجزيرة الإيطالية، سقطت في أيدي النورمانديين.

#### معركة مانزكيرت

ويتناول مؤرخو ذلك العصر بتفصيل مأسوي مسيرة الإمبراطور شرقاً بطول الطريق العسكري الضخم. وكان ينوي الاستيلاء على القلاع الأرمينية ويضع فيها حامياته قبل وصول الجيش التركي من الجنوب. وكان ألب أرسلان في سوريا بالقرب

من حلب حينما سمع بالتقدم البيزنطي، وتحقق من مدى خطورة التحدي، فأسرع شمالاً لمقابلة الإمبراطور. ودخل رومانوس أرمينيا عن طريق الفرع الجنوبي للفرات الأعلى، وقسم قواته بالقرب من مانزكيرت التي ذهب إليها هو نفسه بينما أرسل قواته من الفرقة والكومان لاحتلال قلعة الأحلاط على شاطئ بحيرة فان. وفي مانزكيرت جاءت الأنباء باقتراب ألب أرسلان، فالتحق إلى الجنوب الغربي لكي يعيد توحيد الجيش قبل أن ينقض عليه الأتراك، لكنه أهمل إرسال المستكشفين ناسياً بذلك أول مبادئ التكتيكات البيزنطية. وفي يوم الجمعة ١٩ أغسطس (آب)، وبينما كان في أحد الأودية على طريق الأحلاط في انتظار أتباعه من المرتزقة، انقض عليه ألب أرسلان ولم يأت المرتزقة لنجده، وفي الليلة السابقة على المعركة، تذكر الكومان أنهم أتراك وأن رواتبهم قد تأخر دفعها، فتوجهوا جميعاً إلى الأعداء وانضموا إليهم، وقرر روسل والفرقة عدم الاشتراك في المعركة، وهكذا لم يطل التنبؤ بنتيجتها. ولقد حارب رومانوس نفسه بشجاعة، وأما أندرونيكوس دوكاس فقد تحقق من الهزيمة ورأى بشاقب نظره أن القسطنطينية ستشهد الفصل الثاني من المسرحية، فسحب القوات الاحتياطية التي كانت تحت إمرته من ساحة القتال وسار بها غرباً تاركاً الإمبراطور لمصيره. وما أن حل المساء حتى كان الجيش البيزنطي قد دمر وجرح رومانوس واقتيد في الأسر. (١)

(١) برود Cahen أكمل الروايات وأفضلها تزويداً بالمراجع في

"La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Musulmanes", in *Byzantion*, vol. ix, pp. 613-42. See also Laurent, *op. cit.* p. 43 and n. 10.

وبرود وصف جيد لاستراتيجية المعركة وتكتيكاتها في *Oman, History of the Art of War*, pp. 217-19 أما Delbrück في *Lot و Geschichte der kriegskunst*, vol. iii, p. 206 في *L'Art Militaire* et *les Armées du Moyen Age*, vol. 1, pp. 71-2 من *Oman* لقوله الأعداد الغفيرة التي أوردتها المؤرخون الشرقيون للدلالة على قوة جيش رومانوس الرابع - بدأ من مائة ألف رجل وأكثر - على أن الجيش كان بلا شك ضخماً بصورة غير عادية سوى أنه، كما يؤكد Laurent, *op. Cit.* pp. 45-59 نظراً لإقتصاديات قسطنطين العاشر بشأن الجيش، لم تكن تجهيزاته كافية وكانت نسبة الجنود المدربين ضئيلة جداً.

## الفصل الخامس :

### اضطراب في الشرق





## إضطراب في الشرق

"إني وإن كانوا يستأجرون بين الأمم  
أنا أحسنهم فيتفكون قليلاً من ثقل  
ملك الرؤساء"

(هوشع : ٨ — ١٠)

كانت معركة مكرت أشد الكوارث الحاسمة في التاريخ البيزنطي، ولم يغالب البيزنطيون أنفسهم أية أوهام في ذلك، وما فتح مورخوهم يذكرون ذلك اليوم الرهيب. وبدأ للصليبيين المتأخرين أن البيزنطيين خسروا في ساحة القتال لقبهم كحماسة للعالم المسيحي، ومن ثم كان لتدخل الغرب بعد مكرت ما يبرزه (١).

---

(١) يحتمل المؤرخ وليم الصوري (William of Tyre) أن تلك الكارثة كانت مبرراً لتحرك الصليبي مادامت بيزنطة لم تستطع حماية العالم المسيحي الشرقي أكثر من ذلك . ولما المؤرخ الأثاني (ديلموك) .. فيعتبر أن أهمية المعركة مبالغ فيها علي أنه يتضح من الشواهد أن المعركة أسفرت عن عجز الإمبراطورية عن أن تدفع بجيش هجومي إلي الميدان لسنوات كثيرة بعد ذلك .

ولم يستفد الأتراك استفادة عاجلة كبيرة إثر ذلك النصر. وحقق ألب أرسلان ما كان يهدف إليه، وتوفرت الحماية لجناحه، وأزال خطر التحالف البيزنطي الفاطمي. ولم يطلب من الإمبراطور الأسير سوى إخلاء أرمينيا وقديّة كبيرة نظير إطلاق سراحه، ثم سار في حملة إلى بلاد ما وراء النهر حيث مات سنة ١٠٧٢ ميلادية، ولم يدخل ابنه وخليفته ملكشاه - الذي كان لإمبراطوريته أن تمتد من البحر المتوسط إلى تخوم الصين - آسيا الصغرى مطلقاً. لكن أتباعه التركمان اعتادوا على التنقل، ولم يكن يرغب في توطينهم في الأراضي القديمة للخلافة، بيد أن سهول الأناضول الوسطى التي أحلها وجهاء بزنطة أنفسهم وحولوها إلى مزارع أغنام كانت تناسيهم عماء، فعهد إلى ابن عمه سليمان بن قتلмыш أمر إخضاع تلك البلاد للشعب التركي. (١)

وبسر البيزنطيون أنفسهم الغزو على الأتراك، إذ انقضت السنوات العشرون التالية من تاريخهم في مضطرب التمرد والتأمر. فعندما وصلت إلى القسطنطينية أنباء الكارثة وأمر الإمبراطور أعلن ميكائيل دو كاس - ابن زوجته - أنه بلغ من الرشد واستولى على الحكم، وعزز موقفه وصول ابن عمه اندرونيكوس ومعه بقايا الجيش. وكان ميكائيل السابع شاباً مثقفاً ذكياً، وحريراً به أن يكون حاكماً مقتدرًا في زمن أهدأ،

---

(١) Article 'Suleiman ben Qutalmush' by Zettersteen in *Encyclopaedia of Islam*; Laurent, *op. cit.* pp. 9 - 11; Cahen, 'La première Pénétration turque', in *Byzantion*, vol. xviii, pp. 31-2. See also Wittek, 'Deux Chapitres de l'Histoire des Ramsay, 'Intermixture of Turks de Roum', in *Byzantion*, vol. xi, pp. 285-319; Races in Asia Minor', in *proc. Brit. Acad.* vol. vii, pp. 23 - 30, and Yakubovsky, 'Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *proc. Acad. Sci. U.S.S.R.* 1936.

غير أن المشاكل التي واجهته كانت تتطلب رجالاً أعظم منه بكثير. وعباد رومانوس ديوجينيس من أسره ليجد نفسه مخلوعاً، فحاول أن يجارب دفاعاً عن عرشه السليب لكنه هُزم بسهولة واقتيد سجيناً إلى القسطنطينية حيث اقتلعت عيناه في وحشية أدت إلى موته بعد ذلك بأيام قليلة. ولم يكن يوسع ميكايل أن يتركه على قيد الحياة، لكن النهاية الوحشية التي انتهت بها حياته صدمت أقاربه الأقرباء وأصدقاءه الذين أسرهم شهامته وأخذت منهم النعمة كل مأخذ، وسرعان ما وجد استياؤهم متنفساً في الخيانة.<sup>(١)</sup>

#### دخول الأتراك آسيا الصغرى

وبدأت الغزوات التركية لآسيا الصغرى بصورة جدية سنة ١٠٧٣ ميلادية دون تناسق أو وحدة. ورغب سليمان في إقامة سلطنة منظمة يحكمها تحت سيادة ملكشاه، ولكن بعض الأمراء الأتراك الأقل شأنًا، مثل دغمشند و شاكا و منجشك، كانوا يستهدفون الاستيلاء على بعض المدن الصغيرة أو القلاع التي تمكنهم من الإغارة على السكان أيا كانوا وتولى أمرهم، وآزرهم في ذلك، البدو التركمان الذين كانوا يرتحلون على ظهور خيولهم بما خف من السلاح ومعهم خيامهم وعائلاتهم وهم يتقدمون في البراري. وولى المسيحيون الأدبار تاركين الغزاة من ورائهم يترقون قراهم ويجمعون أسراهم وقطعاتهم. وكان التركمان يتجنبون المدن الكبيرة، ولكن وجودهم وما أحدثوه من دمار قطع الاتصالات في أنحاء البلاد مما فرض العزلة على حكام المقاطعات، ويمكن

(١) إن المصدر الرئيسي الأصلي لهذه الفترة المعقدة من التاريخ البيزنطي هو Nicephorus Bryennius الذي يغطيها تفصيلاً .Modern résumés in Diehl and Marçais, *op.cit.* pp. 554 ff. And Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 243-7

زعماء الأتراك من تحقيق رغباتهم، ومن ثم شكلوا عاملاً يعمل دون أن يعاود البيزنطيون محاولة الغزو.

وحاول الإمبراطور ميكايل أن يعترض التقدم التركي. وكان لما دبره روسيل أوف بيلويل من خيانة أثره في تمكين الكتيبة الفرعية النورماندية من الإفلات من كارثة مؤكدة، وبرغم ما تبين من أن روسيل لا يعتمد عليه اضطر ميكايل إلى الاستفادة به، فعهد إليه بجيش محلي صغير يقوده اسحق كومنينوس، وهو ابن أخي الإمبراطور السابق. وكان اختياراً حكيماً، ذلك أنه وأخوه ألكسيوس الذي صحبه بتميان إلى أسرة تكره عشيرة دو كاس كراهية مريرة، غير أنهما، وبرغم إلحاح أمهما ظلّا مخلصين لميكايل ولعهده وأثبتا حذارهما في القيادة. ولكن غدر روسيل لم يدع مجالاً لإخلاص اسحق، فقبل أن يقابل الجيش البيزنطي الأتراك، تغلى روسيل وقواته غسن ولائهم. وتعرض اسحق لهجوم الأتراك والفرقة الذين جاوزت أعدادهم عدد جنوده إلى حد يدفع إلى اليأس، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في أسر السلاجقة.

#### روسيل أوف بيلويل

واتضحت عندئذ نوايا روسيل الذي التهب خياله بما فعله بنو جلده في جنوب إيطاليا، فوطد نفسه على إرساء دعائم دولة نورماندية له في الأناضول، ولم يكن معه سوى ثلاثة آلاف رجل لكنهم يدينون له بالولاء وكان تسليحهم جيداً، وكذلك تدريبهم، وبإمكان أي منهم أن يغلب أي تركي أو بيزنطي إذا واجهه على حدة. وتحقق الإمبراطور من أن روسيل أصبح آنذاك أشد خطورة من الأتراك، فندارس مع عمه القيصر جون دو كاس ما يمكن جمعه من الجنود وأرسلهم في نهاية الأمر تحت إمرة عمه بنفسه، وقابلهم روسيل بالقرب من عمورية حيث احتش شأفتهم بسهولة وأسسر القيصر. ولكي يضي على ملكه ميراثاً شرعياً أعلن تنويع القيصر الأسير إمبراطوراً رغماً عنه وسار إلى القسطنطينية ووصل إلى الشاطئ الآسيوي لمضيق البسفور دون

عائق وأحرق ضاحية كريسوبوليس (سكوتاري) وعسكر بين أطلاخسا. ولبأ ميكائيل اليانس إلى القوة الوحيدة القادرة على مساعدته فأرسل وقتاً إلى السلطان السلجوقي سليمان الذي وعد بالمساعدة — بموافقة سيده ملكشاه — في مقابل التنازل عن المقاطعات الشرقية للأناضول التي كانت محتلة بالفعل. واستدار روسيل ليواجهه لكن الأتراك أحاطوا بمنوده على جبل سوفون في كابادوكيا، وتمكن روسيل من الهرب مع قلة من رجاله وتحصن في مدينة أماسيا الواقعة في الاتجاه الشمالي الشرقي. وأرسل ميكائيل إليها ألكسيوس كومنينوس الذي نجح في المزايدة لدى الزعيم التركي الرئيسي في المنطقة وفاز بعونه، وأدى ذلك إلى استسلام روسيل. وكانت حكومة روسيل من الكفاءة والشهرة بحيث بذل مواطنو أماسيا جهدهم لإنقاذه ولم يكفوا عن ذلك إلا عندما علموا أن عينية قد فقتنا. وحقيقة الأمر أن ألكسيوس لم يكن ليضع نفسه في موضع التمثيل بروسيل، وفي ذلك سر حاذبته التي جعلت الإمبراطور يسعد بأن يسمع أن ألكسيوس لم يتدن إلى السماح بمثل هذا الانعطاف. (١)

ويختفي روسيل من التاريخ. ولكن الأحداث ترك أثرها على البيزنطيين وتعلمهم أن النورماندين ليسوا أهل ثقة، وأن طموحهم لا تحده شواطئ إيطاليا الجنوبية، وإنما يرغبون في إقامة إمارات في الشرق. وبمضي أثر هذه الأحداث فيفسر السياسة البيزنطية بعد ذلك بعشرين عاماً. وفي ذات الوقت تثبط همّة النورماندين عن الانغماس في الخدمة الإمبراطورية، ومن ثم يصبح أبناء عمومتهم الاسكندنافيون موضع شك. ومنذئذ يصبح اختيار الحرس الفارنجي من الذين عانسوا من النورماندين، وهم الأنغلوساكسون

(١) Roussel's career is told by Bryennius, pp. 73-96, And Attaliates, pp. 183 ff  
See Schlumberger, Deux Chefs normands, in Revue Historique, vol. xvi

البريطانيون. (١)

وتسبب الخوف من النومانديين والحاجة الدائمة إلى مرتزقة أحانب في أن يسرع ميكائيل إلى اتباع سياسة استرضاء الغرب. ولم يكن هناك من سبيل لاسترجاع جنوب إيطاليا ولم يكن بوسعهم أن يستمر في الحرب هناك، فأرسل جون إيتالوس، الفيلسوف الإيطالي المولد، إلى النورمانديين سفيرا للاتفاق على السلام معهم رغم أن الكثير ممن البيزنطيين يعتبرونه خائنا لمصالح الإمبراطورية، ولكن ميكائيل لم يعبأ بذلك وكان على دراية برغبة آل هونفيل الذين يتطلعون إلى عقد أحلاف كبيرة عن طريق الزواج، فاقترح عليهم إرسال هيلين ابنة حيسكار لتكون عروسا لابنه الفاضل قسطنطين، وفي الوقت نفسه سعى إلى التقرب من البابا العظيم جريجوري السابع ونال صداقته الحميمة. وهكذا تحقق السلام على حدوده الغربية بفضل سياسته. (٢)

على أن الاضطراب ازداد سوءا في الأناضول، وفقدت الحكومة الإمبراطورية السيطرة على مجريات الأمور هناك. برغم وجود قليل من القادة المخلصين الذين حافظوا على استبقاء سلطة الإمبراطور، مثل اسحق كومنينوس حاكم أنطاكية آنذاك، فإن انقطاع سبل الاتصال أدى إلى إفقار تنسيق السياسة. وفي نهاية الأمر، تمرد نسفورس بونتياتس في سنة ١٠٧٨ ميلادية الذي كان محافظا لإحدى المقاطعات الكبرى للأناضول في الجزء الأوسط الجنوبي لآسيا الصغرى، مدفوعا من تاحية بطموح

---

(١) For the English in the Varangian Guard, see Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 355-77; Vasiliev, 'Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium', in *Seminarium Kondakovianum*, vol. 39-70.

(٢) Chalandon, *op. cit.* vol. 1, pp. 264-5; Gay, *Les Papes du XIe Siècle*, pp. 311-12.

شخصي، ومن ناحية أخرى بضيق متأصل من ضعف حكم ميكائيل، لكنه كان قائدا بلا حيل، ولذا جند أعدادا كبيرة من الأتراك، واستخدمهم كحاميات للمدن التي كان يستولي عليها وهو في طريقه إلى العاصمة، مثل مدن سيزيكوس، ونيقية، ونيكوميديا، وخلقيدونية، وكريسوبوليس. وهكذا وحدث الحشود التركية نفسها لأول مرة داخل المدن العظيمة غربي الأناضول، وربما أصبحت مرتزقة للإمبراطور الجديد، وإن صعب عليه بعد ذلك اقتلاعهم. وعندما دخل نيسفورس العاصمة لم يظهر ميكائيل أي مقاومة، وإنما دخل أحد الأديرة حيث وجد فيه سبيله الحقيقي. وكان أسعد حظا من أغلب الأباطرة المخلوعين: ففي غضون سنوات قليلة اعتلى كرسي رئيس الأساقفة بفضل مزاياه وحدها. وأما زوجته التي هجرها، وهي ماريا القوقازية من ألاتيا، والتي كانت أجمل أميرات عصرها، كانت من التعقل بحيث مدت يدها للمغتصب.

ووجد نيسفورس أن حياة المتمردين أسهل من حياة الحاكم. وحذا قادة آخرى حذوه: ففي غرب البلقان أعلن نيسفورس برينيسوس، حاكم ديرهياكيوم، نفسه إمبراطورا، واحتشد جنود انقطاعات الأوروية إلى لوائه، فأرسل الإمبراطور نيسفورس إليه ألكسيس كومنينوس على رأس قوة صغيرة تتكون من جنود يونانيين غير مدربين وقليل من الفرنج الذين تخلفوا عن مهمتهم كعادتهم. ولم يتأت له هزيمة نيسفورس برينيسوس إلا بوصول المرتزقة الأتراك في اللحظة الملائمة. وما أن انتهت هذه الحملة حتى اضطر ألكسيس إلى الذهاب إلى نيسالي ليسحق معتصبا آخر هو بيازولاكيوس، وفي نفس الوقت تمردت الحامية التركية في نيقية. وعندما سمع البابا حريجوري بأنباء سقوط حليفه ميكائيل أصدر قرارا بطرد الإمبراطور الجديد من الكنيسة، أما روبرت جيسكار فقد خطط لعبور البحر الأدرياتيكي، مدفوعا بتشجيع من البابوية وبحقنه لفسخ خطوبة ابنته، فحل إلى البر في شهر مايو (أيار) في مدينة أفلونسا بكامل قواته وسار إلى ديرهياكيوم. ومرد أبرز القادة في آسيا، نيسفورس ميليسينيوس هو الآخر في أوائل فصل الربيع نفسه، وتحالف مع السلطان التركي سليمان الذي استطاع بفضل هذا التحالف



أن يتقدم دون مرد إلى بيشنيا حيث رحبت به الحامية التركية التي تركها بوتينيئاتس، ولما فشل ميليسيبيوس في الاستيلاء على القسطنطينية رفض سليمان إعادة المدن التي احتلها، وبدلاً من ذلك نصب نفسه في مدينة نيقية التي كانت أكثر المدن قداسة في العالم المسيحي. وهكذا أصبحت مدينة نيقية، التي تبعد عن القسطنطينية بأقل من مائة ميل، عاصمة للسلطنة التركية.

وفي القسطنطينية أضاع الإمبراطور نيسفورس فرصته الوحيدة في البقاء بتشاحره مع عائلة كومنيكوس بعد أن حذمه اسحق وأليكسيوس كومينيوس بإخلاص، وكانسا بأملاً في الاحتفاظ بمودته؛ فبينهما وبين الإمبراطورة صداقة وثيقة، لاسيما وأن اسحق تزوج ابنة خالتهما، وأنه كان يظن أن أليكسيوس عشيقها. غير أنها لم تستطع شيئا حيال دسائس البلاط التي دفعت نيسفورس إلى أن ينقلب عليهما. واضطر الشقيقان إلى التمرد لتأمين نفسيهما، وأعلن أليكسيوس نفسه إمبراطوراً مستنداً إلى اعتراف الأسرة به على أنه أقدر الاثنين. وهكذا سقط نيسفورس بنفس القدر من السهولة التي حلح بها سابقه، وأخذ بنصيحة البطريق فتقاعد منهوكاً مهاناً لينتهي أيامه في الرهينة. (١)

#### أليكسيوس كومينيوس يعتلي العرش

وقدر لـأليكسيوس كومينيوس أن يحكم سبعة وثلاثين عاماً، وأن يثبت أنه أعظم رجل دولة في عصره، على الرغم مما بدا سنة ١٠٨١ ميلادية من أنه سيعجز عن البقاء هو وإمبراطوريته؛ وربما كان شاباً لم يتجاوز الثلاثين من عمره على أنه خير الحيازة لسنوات عدة كقائد عسكري يفتقد القوات الكافية في غالب الأحيان ويتوقف نجاحه

(١) بورد Chalandon أفضل موزع لحكم Boteniates في *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 35-50

على فطنته ودبلوماسيته، وكان لوجوده وقع خاص، ولم يكن طويل القامة، وإنما قوي البنية في مهابة. وكان كيس الطبع بسيطاً بادي القدرة على ضبط النفس، بيد أنه كان يجمع إلى لطف المعشر والاستعداد اليقظ لأن يلجأ إلى الخديعة والإرهاب إذا اقتضت مصلحة البلاد ذلك، ولا تكاد تتجاوز مزاياه صفاته الشخصية وحب حننه له. ولا شك أن أسرته ذات الصلات المتشعبة في الأرستقراطية البيزنطية أعانتة على الوصول إلى السلطة، وعزز مركزه بأن تزوج من سيدة من آل دو كاس وزاد من مشاكله دسائس أقاربه وغيرهم، وخاصة الكراهية التي كانت أمه المسيطرة تكنها لزوجته وكل عشيرتها. وكان البلاط يزخر بأفراد عائلات إمبراطورية سابقة، أو عائلات تفكر في اغتصاب العرش، فعمل أليكسيوس على ربطها به بأواصر الزواج، فهناك الإمبراطورة ماريا التي كانت تنهشها الغيرة من الإمبراطورة الجديدة إيرين، وكذلك ابن ماريا قنسطنتين دو كاس الذي قربه أليكسيوس واتخذ رفيقاً يصغره وعمل خطيبته لابنته الكبرى أنسا، وهناك أبناء رومانوس ديوجينيس الذي زوج أحدهم من أخته ثيودورا، وهناك ابن نيسفورس برينيوس الذي تزوج بالفعل أنا كومينا بعد أن مات زوجها قنسطنتين دو كاس في سن مبكرة، وهناك نيسفورس ميليسينوس الذي تزوج من أخته إيروشيا التي جعلته يتحلى لأخيها عن مطالبته بالإمبراطورية في مقابل لقب قيصر. فكان لزاماً على أليكسيوس أن يداوم مراقبتهم جميعاً بعين يقظة، يهدئ خلافاتهم ويحيط خياناتهم، وابتدع نظام ألقاب وافيا لإرضاء أهوائهم. ولم تكن طبقة النبلاء يعتمد عليها، وكذلك كبار موظفي الدولة على السواء، فكان يكتشف مؤامرات لا تنتهي ضد حكومته، ويتهدهده دائماً خطر الاغتيال، لكنه كان رفيقاً في عقابه من منطلق السياسة ومنطلق نزوعه الشخصي معاً<sup>(١)</sup>. وهذا الحلم الذي اتصف به، وبصيرته البعيدة في كل أفعاله،

(١) أوردت المؤرخة أنا كومينا وصفاً للمظهر الشخصي لأبيها بألفاظ الإطراء والمديح في تاريخها

Chalandon, op. cit. pp. 106 Alexiad. 7-III, ii, 5, vol. 1, pp. 106 وأورد

كانا الميزتين الملحوظتين البارزتين بالنظر إلى الظروف غير المأمونة المحيطة بحياته كلها.

#### الإمبراطور أليكسيوس

وكانت حالة الإمبراطورية في سنة ١٠٨١ ميلادية هي الحالة التي لا يمكن أن يضطلع بحكومتها سوى رجل فائق الشجاعة أو رجل شديد الغباء. فالخزنة خاوية، وكان الأباطرة الذين سبقوه مسرفين متلافين، وتسببت خسارة الأناضول وحالات التمرد التي حدثت في أوروبا في تقليص عوائد الإمبراطورية على نحو يثير الأسى، وانهار نظام جمع الضرائب القديم. ولم يكن أليكسيوس عيباً مالياً، لكن رحل الاقتصاد العصري يقف مشدوهاً أمام الطرق التي اتبعها؛ إذ أنه بطريقة أو بأخرى فرض على رعاياه أقصى حد من الضرائب تتسع له مواردهم، وأحجم الأعيان والكنيسة على منحه قروضاً وصادر ممتلكاتهم، واستبدل عقوبة السجن بعقوبة الغرامة المالية، وباع الامتيازات، وطوّرت تقاليد القصور وعاداتها، ويمكن بذلك من تحمل تكاليف تنظيم إداري ضخم، وإعادة بناء الجيش والبحرية، ويمكن في ذات الوقت من الاحتفاظ بفخامة البلاط الإمبراطوري، واستطاع أن يخلع الهدايا على رعاياه المخلصين والمبعوثين الزائرين والأمراء، فقد تحقق من أن الهيبة في الشرق تتوقف على العظمة والجلال، وأما الشح فهو الرذيلة التي لا تغتفر. على أن أليكسيوس ارتكب خطأين كبيرين: فقد منح التجار الأجانب امتيازات تجارية في مقابل معونات عاجلة مما أضّر برعاياه؛ كما أنه خفض قيمة العملة الإمبراطورية في إحدى اللحظات الحرجة، وهي العملة التي ظلت وحدها طوال سبعة قرون مستقرة في عالم من الفوضى.

---

-- لشخصيته . أما التاريخ " Synopsis Chronico " الذي وضعه مؤرخ برنسان مجهول ، والذي يتخذ موقفاً ودياً منه ، فيصفه بأنه " عظيم الإرادة والقدرة في العمل " .

وأما في الشؤون الخارجية فكان الوضع باعثا على اليأس بصورة أكبر — هذا إذا كانت كلمة "خارجية" لا تزال وصفا قابلا للتطبيق آنذاك، إذ أن الأعداء توغّلوا في داخل الإمبراطورية من كل جانب، ففي أوروبا كانت قبضة الإمبراطورية على شبه جزيرة البلقان محفوفة بالمخاطر، وكان السلافيون في صربيا وبلغاريا في حالة تمرد، وكثيرا ما كانت قبيلة البشنج التركية المتحولة وراء الدانوب تعبر النهر للإغارة، وفي الغرب احتل روبرت جيسكار والنورمانديون مدينة أفلونا وحاصروا ديرهاكيوم، وأما في آسيا فلم يبق لبيزنطة سوى شواطئ البحر الأسود، والقليل من المدن المعزولة على الشاطئ الجنوبي، وحاضرة أنطاكية العظيمة المحصنة، لكن الاتصالات مع هذه المدن البعيدة كانت نادرة وغير مضمونة، كما بقيت عدة مدن في الداخل في أيدي المسيحيين، لكن الصلة بين حكامها وبين الحكومة المركزية كانت مقطوعة تماما. وكان سواد البلاد في قبضة السلطان السلجوقي سليمان الذي حكم من نيقية دولة تمتد من البوسفور إلى الحدود السورية، ورغم عدم توفر الإدارة المنظمة للدولة، التي لم تكن لها حدود ثابتة، وكانت هناك مدن أخرى في قبضة أمراء أتراك أقل شأنًا، اعترف بعضهم بسيادة سليمان بينما لم يعترف أغلبهم بسيد آخر غير ملكشاه. وكان أكثرهم أهمية آل دانيشمند الذين كانوا يملكون قيصرية وسافوس وأماسيا، فكان منحشك حاكما على أرزنكان وكوتونيا، وكان أخطرهم جميعا هو المغامر شاكا الذي استولى على أزمير وساحل بحر إيجه. واستتب الأمر لزعماء الأتراك على نحو أو آخر حول مدتهم الرئيسية، بينما بقي سائر البلاد غيا لجحافل التركمان الرحل وتسيبت جماعات اللاهثيين اليونانيين والأرمن في زيادة اضطراب الأمور. ودخلت أعداد غفيرة من المسيحيين في الإسلام وذابت شيئا فشيئا في الجنس التركي، وبقيت جماعات يونانية ضئيلة العدد في مناطق الجبال، أما المسيحيون الأتراك الذين استقروا حول قيصرية في كابادوكيا قبل ذلك ببضعة قرون فقد احتفظوا بهويتهم ودينهم حتى العصور الحديثة، إلا أن أغلب

السكان اليونانيين شقوا طريقهم بقدر الاستطاعة إلى شواطئ البحر الأسود ونهر

إيجة. (١)

#### الأرمن في طوروس

وكانت هجرة الأرمن مدروسة ومنظمة بشكل أكبر. ذلك أن الأمراء الأرمن الذين حردهم البيزنطيون من ممتلكاتهم حصلوا على ضياع في كابادوكيا، وعاصمة في الجنوب ناحية جبال طوروس، وصاحبهم الكثير من أتباعهم. وعندما نفذت غزوات السلاجقة شكلاً جدياً تركت أعداد كبيرة من الأرمن منازلها لتلحق بهذه المستعمرات الجديدة وأصبح نصف سكان أرمينيا في طريقهم إلى الجنوب الغربي. ودفعهم التغلغل التركي إلى مزيد من التقدم داخل جبال طوروس وجبال طوروس المقابلة، ثم انتشروا في وادي الفرات الأوسط إذ لم يكن الترك قد وصلوا إليه بعد. وسرعان ما امتلأت المقاطعات التي هجروها بالترك وغيرهم من الأكراد المسلمين القادمين من تلال آشور

---

(١) عن التشنح أنظر : Vasilievsky , *Works* (in Russian) , vol . 1 , pp . 38 ff .  
و عن سليمان أنظر : *art. cit. in the Encyclopaedia of Islam* , and the article :  
e 'Iznig' , *ibid.* by Honigmann  
و عن الدانشمند أنظر : article ' Danishmend ' by Mukrimin Halil in the Turkish  
*Islam Ansiklopedisi* , and Cahen , ' La première Pénétration turque ' , *op. cit.*  
pp . 46 -7 , 58-60  
عن منحوشيك أنظر : article ' Menguchek ' by Houtsma in the *Encyclopaedia of*  
*Islam* و عن شاكنا الذي لا تعرفه إلا من أنا كومينا غورد في . *Alexiad* , VII , VIII , 1-8 , vol . II , pp .  
110-16 ؛ و عن سيرة حياته المكملة أنظر : article ' Izmir ' by Mordtmann , vol . I , pt . 1 ,  
*passim* , and Köprülü , *Les Origines de l'Empire Ottoman* , pp . 48 ff

وشمال غرب إيران. وكان آخر أمير أرميني ينتمي إلى الأسرة البحرانية (١) — وهي الأسرة التي كانت تفخر بادعائها أنها من سلالة داوود وبتشيع (٢) — قد قتل سنة ١٠٧٩ ميلادية بناء على أوامر بيزنطية بعد أن ارتكب جريمته البشعة الشاذة وهي قتل رئيس أساقفة قيصرية. وترتب على مقتل ذلك الأمير أن مررد أحد أقربائه (روبين) على الإمبراطورية ونصب نفسه في التلال الواقعة شمال غرب كيليكيا. وفي نفس الوقت تقريباً أنشأ أوشين — وهو ابن هيثوم — إمارة مشابهة تبعد قليلاً ناحية الغرب، وكان لكل من الأسرتين الحاكميتين الروينية والهيثومية دور تلعبه في التاريخ اللاحق، لولا أن أدى تألق فاهران الأرميني — الذي يسميه اليونانيون فلاريتوسوس — إلى حجبهما في الظل.

وكان فلاريتوس يعمل في خدمة بيزنطة، وقد عينه رومانوس ديوجينيس حاكماً لمدينة كهرمان ماراس (٣). وعندما سقط رومانوس رفض الاعتراف بسميكائيل

- 
- (١) (المترجم) : الأسرة الحاكمة البحرانية : هي الأسرة التي أسستها عائلة بيزنطية في أرمينيا وحواربها في القرن التاسع وحافظ ملوكها على بقاء أرمينيا مستقلة عن كل من الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية. ونتيجة لغزوات الأتراك السلاجقة والبيزنطيين في القرن الحادي عشر قضى على ما تبقى من البحرانيين والمملكة الأرمينية .
- (٢) (المترجم) : بتشيع : (أنظر العهد القديم : سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١ و ١٢) : زوجة أوربا الحق - ابنة سليمان تزوجها داوود بعد أن قتل زوجها وأنجبت له سليمان .
- (٣) (المترجم) : كهرمان ماراس : مدينة جنوب تركيا على حافة سهل خصب جنوب جبال أهير داغ إلى الشمال الشرقي من أدنا . والمدينة قريبة من ثلاثة ممرات هامة في جبال طوروس وهي جوكسن، البستان، ملطية . وتعرف المدينة تاريخياً أيضاً باسم حرمانيشيا أو كاركاسي ، ويطلق عليها أيضاً مرعش .

دوكاس وأعلن استقلاله عنه؛ وأثناء الفوضى التي سادت حكم ميكايل استولى على المدن الرئيسية في كيليكيا وهي طرسوس ومامسترا وعين زرة (١). وفي سنة ١٠٧٧ ميلادية استولى أحد قادته على أورفا من البيزنطيين بعد حصار دام ستة أشهر، وفي العام التالي ١٠٨٧ ميلادية توسل إليه أهل أنطاكية أن يستولي على المدينة إنقاذاً لها من الأتراك لاسيما وألها يلا حاكم، إذ قُتل حديثاً حاكمها وكان خليفة اسحق كومنينوس. وكانت سيطرة فيلاريتوس آنذاك تمتد من طرسوس إلى ما وراء القسرات وأمسى كل من روين وأوشين من أتباعه. لكنه كان يشعر بعدم الأمان، إذ كان أرثوذكسياً على خلاف أغلب معاصريه ولم يرغب في الانفصال تماماً عن الإمبراطورية. وبعد أن اعتزل ميكايل أعلن ولاءه لستيفورس بونتيانيس الذي تركه حاكماً على ما استولى عليه من أراضٍ. ومن الواضح أنه اعترف بأنكسيوس كذلك، غير أنه اتخذ جانب الخيطة بتقليد نوعاً من التكريم لعظام الشخصيات العربية في حلب (٢).

وكان لزاماً على أليكسيوس، بعد توليه السلطة، أن يحدد العدو الذي يجب أن يبدأه بالحرب. وبعد دراسة مستفيضة وجد أنه لا يستطيع أن يرد الأتراك إلا بجهود طويلة متصلة لم يكن قد استعد لها بعد، وفي نفس الوقت كان الأقرب إلى التصور أن

---

(١) (المترجم): عين زرة: مدينة في كيليكيا في الأناضول تقع في منطقة مقاطعة أدنا. ولا يزال يوجد في موقعها حتى الآن قلعة بيزنطية أرمنية على أطلال الموقع، وكذلك بقايا كنائس بيزنطية وقوس تحسّر ومسرح وملعب ومدرج. وتعرف تاريخياً باسم أنازاريوس.

(٢) Laurent, *op. cit.* pp. 81 ff.; *idem*, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 368-403; Grousset, *Histoire des Croisades*, pp. x1-xliv.

أما سورة حياة Philareus فنعرفها من الرواية المعادية التي يرويها من الأور في الذي كان يكرهه لأنه مسيحي أرثوذكسي. (ii, cvi, ff. pp. 173 ff.) Matthew of Edessa

يتشاحنوا فيما بينهم، ولذلك اعتبر أن التصدي للهجوم النورماندي هو الأكثر إلحاحاً. لكن الأمر استغرق أكثر مما كان يقدر؛ ففي صيف سنة ١٠٨١ ميلادية ضرب روبرت جيشكار حصاراً حول ديرهاكيوم، وكان بصحبته زوجته المخارية سيجيلجاتيا أوف ساليرنو وابنه الأكبر بوهيموند، وفي أكتوبر (تشرين أول) (حف) أليكسيوس لنجده القلعة ومعه جيش تتكون قوته الأساسية من الحرس الفارانجي الأتغولسكسون، لكن حدث هناك ما حدث في هاستنجز قبل ذلك بخمسة عشر عاماً — فلم يكن الأتغولسكسون في كفاءة النورماندين، وهزم أليكسيوس هزيمة حاسمة، وصعدت ديرهاكيوم طوال الشتاء، لكنها سقطت في فبراير (شباط) سنة ١٠٨٢ ميلادية، وهكذا تمكن روبرت من التقدم في الربيع عبر الطريق الرئيسي الكبير فيأجنايا في طريقه إلى القسطنطينية، ولكن سرعان ما اضطره ما يحدث في إيطاليا إلى العودة إلى موطنه تاركا جيشه تحت إمرة ابنه بوهيموند لتأمين مقدونيا واليونان. وهزم بوهيموند أليكسيوس مرتين فاضطره إلى الاستعانة برجال من الأتراك وسفن من فينيسيا لقطع خطوط مواصلات النورماندين. ومكن الأتراك الإمبراطور من أن يخلص نيساي. وفي سنة ١٠٨٣ ميلادية تراجع بوهيموند إلى إيطاليا، لكنه عاد مع أبيه في العام التالي ودمرا أسطول فينيسيا على مقربة من ميناء كورفو. ولم تنته الحرب إلا بمسوت روبرت في سيفالونيا سنة ١٠٨٥ ميلادية، وتناحر أبنائه على الميراث.<sup>(١)</sup>

#### الغزو السلجوقي لسوريا

واستقرت سلطة الإمبراطور أخيراً على المقاطعات الأوروبية، لكنه فقد المقاطعات الشرقية أثناء تلك السنوات الأربع. وتورط فيلاريتوس في دسائس تركية مهلكة؛ ففي أوائل سنة ١٠٨٥ ميلادية غدر به ابنه وسلم أنطاكية ومدن كيليكيا إلى السلطان

(١) For the Norman War, see Chalandon, *op. cit.* pp. 58-94



سليمان. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية سقطت أورفا في قبضة يوزان الزعيم التركي، ولكن ثوروس الأرمني، الذي كان من أتباع ملكشاه والذي كانت تكبح جماحه حامية تركية في القلعة بادئ الأمر، استعاد المدينة سنة ١٠٩٤ ميلادية. وفي تلك الأثناء احتل أرمني آخر هو حابرييل هو ثوروس مدينة ملطية، وكان يتمشى إلى عقيدة أرثوذكسية، شأنه شأن ثوروس، وتسببت الخلافات بين الكنائس الأرثوذكسية واليعقوبية والأرمنية في زيادة الفوضى التي سادت سائر أنحاء سوريا الشمالية. وكان اضمحلال القوة البيزنطية أمرا سارا للكنيسة الأرمنية التي كانت تفضل الحكم التركي.<sup>(١)</sup>

واكتملت حينئذ السيادة السلجوقية على جنوب سوريا، فمنذ أن دخل طغرل بك بغداد سنة ١٠٥٥ ميلادية باتت ممتلكات الفاطميين في سوريا مهددة، ونتج عن تزايد الخطر والترقب هناك أن تفشت الفوضى، كما حدثت حالات تمرد صغيرة. وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية رفض موظفو الحدود البيزنطية في اللاذقية السماح لأسقف كمباري وهو في طريقه للحج بالتقدم جنوبا، ولم يكن السبب — كما تشكك الغربيون — هو مجرد مضايقة أحد اللاتينيين (رغم احتمال وجود حظر على الحجاج النورمانديين)، وإنما أخطروا بأن سوريا غير مأمونة للمسافرين المسيحيين. وأكدت حادثة الأساقفة الألمان، الذين أصروا — بعد ذلك بثماني سنوات — على عبور الحدود برغم النصيحة المحلية، أن المسؤولين البيزنطيين كانوا على صواب.<sup>(٢)</sup>

وفي سنة ١٠٧١ ميلادية، وهو عام مانزكرت وسقوط باري، قام المغامر التركي عزيز بن أبق، التابع لآلب أرسلان استأ، بالاستيلاء على القدس دون صراع،

(١) Laurent, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 403-10 (references); also article 'Malatya' by Honigmann in the *Encyclopaedia of Islam*

(٢) أنظر ما سبق ص ٩٩ الحاشية ٤ و ص ١٠٠ حاشية ١ .

وسرعان ما احتل فلسطين كلها حتى قلعة عسقلان على الحدود الجنوبية، وفي سنة ١٠٧٥ ميلادية استولى على دمشق بن فيسها. وفي سنة ١٠٧٦ ميلادية استعاد الفاطميون القدس، ثم أخرجهم عزيز منها مرة أخرى بعد حصار دام عدة أشهر وبعد مذبحه للسكان المسلمين ولم ينج سوى المسيحيين الذين ظلوا آمنين وراء أسوار حبيهم. ومع ذلك، استطاع الفاطميون مهاجمة عزيز في دمشق مما اضطره إلى طلب مساعدة الأمير السلجوقي تنش شقيق ملكشاه الذي كان يحاول أن يقيم لنفسه سلطنة في سوريا بموافقة أخيه. وفي سنة ١٠٧٩ ميلادية دبر تنش مقتل عزيز وأصبح الحاكم الوحيد للدولة تمتد من حلب إلى حدود مصر التي ظلت تحت حكم أسرتها الحاكمة العربية. ويبدو أن تنش وضابطه أرتق حاكم القدس أقاما حكومة منظمة، فلم تكن هناك عداوة ضد المسيحيين خاصة، برغم أن بطريرك القدس الأرثوذكسي ربما أمضى كثيرا من وقته في القسطنطينية التي بدأ الإقامة فيها آنذاك قرية بطريرك أنطاكية (١).

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية حول الإمبراطور أليكسيوس انتباهه إلى المشكلة التركية بعد أن تحرر من الخطر النورماندي. وحتى ذلك الحين لم يستطع صدهم إلا بالدساتيس

---

(١) أنظر مسادن 'Tutush' by Houtasma و 'Ortoqids' by Honigmann في *Encyclopaedia of Islam*. ويقارن التاريخ القبطي *History of the Patriarchs of Alexandria* الحاكم التركي بصورة محابية جدا للحكم القرغني الذي تلى في فلسطين (pp. 181, 207). والسهم الشهير الذي أطلقه أرتق على سطح كنيسة القبر المقدس لم يكن المقصود منه الإهانة، وإنما كعلامة على السيادة. أنظر - Cahen, La 'Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. cxxxiv, pp. ١٠٨٧. عندما ذهب إلى نيسالونكا في سفارة إلى بوهيموند وكان حليفته Symeon في مجمع سنة ١٠٨٦ الذي لعن Leo of 167-73 Chalcedon (وللاطلاع على مجمع الكنيسة في ذلك العام انظر *Bibliotheca Coisliniana*, pp. 102 ff Dölger, *Rgesten*, no. 1087, vol. ii, p. 30 and Montfaucon.

عن أنه عاد إلى القدس سنة ٨٩. كان بطريرك أنطاكية موجودا في هذا المجمع أنظر ما يلي ص ١٨٠ الحاشية ١

المستمرة، وبضرب أمير تركي بآخر. أما الآن فقد جمع بين الدبلوماسية واستعراض القوة، واستطاع التوصل إلى معاهدة تقضي باحتفاظ الإمبراطورية بنيكوميديا وسواحل الأناضول الواقعة على بحر مرمرة. وفي العام التالي ظل يمين ثمار صبره؛ ذلك أن سليمان بن قلمش الذي استولى على أنطاكية سار إلى حلب، فأرسل حاكمها العربي إلى تش مستنجدا: ودارت معركة خارج المدينة انتصر فيها تش وقتل سليمان.

#### الدانشمند وشاكا

تسبب موت سليمان في تفشي الفوضى بين أتراك الأناضول. وأما أليكسيوس، الذي كان في أفضل ظروفه، فكان ما يفتأ يلعب على أحقادهم المتبادلة ويعرض على كل منهم الرشوة ويلمح لهم بالمصاهرة من أجل التحالف. وكان المتمرد التركي أبو القاسم، قد استولى على نيقية لستة أعوام حلت، لكن ملكشاه استطاع في سنة ١٠٩٢ ميلادية أن يستبدله بابن سليمان — قلع أرسلان الأول. وفي تلك الأثناء استطاع أليكسيوس تعزيز مركزه، ولم يكن ذلك يسيرا؛ فالأراضي الوحيدة التي تمكن من استردادها هي مدينة سيزيكوس، ولم يستطع منع الدانشمند من التوسع غربا والاستيلاء على كستمون وهي موطن عائلته في بافلجونيا، وكانت دسائس القصر تعوقه. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية كان عليه أن يجابه غزوا خطرا من أعلى الدانوب قاده البشنج بمساعدة هنغارية، ولم يتحرر لهاتيا من تهديد غارات برابرة الشمال إلا في سنة ١٠٩١ ميلادية بفضل دبلوماسيته التي عززها انتصار رائع عليهم.

وظل شاكا، أمير أزمير التركي، يمثل إنذارا أكبر بالخطر، ذلك أنه كان أكثر طموحا من أغلب أبناء جلدته، ولذا كان يسعى إلى الاستيلاء على الإمبراطورية، ولاحتياجه إلى القوة البحرية استخدم اليونانيين بدلا من الأتراك، على أنه حاول في نفس الوقت تنظيم الأتراك في تحالف، فزوج ابنته من قلع أرسلان الصغير، وفيما بين عامي ١٠٨٠ و ١٠٩٠ ميلادية جعل نفسه سيدا على ساحل بحر إيجه، وحزر لسبوس،

وكايوس، وساموس، ورودى. ولكن أليكسيوس استطاع أخيراً — وكان من أولويات اهتمامه إعادة بناء الأسطول البيزنطى — أن يلحق به الهزيمة بحراً عند مدخل بحر مرمرة. على أن الخطر بقي قائماً حتى سنة ١٠٩٢ ميلادية عندما قتل شاكا بوساطة زوج ابنته قلعج أرسلان في وليمة أولمت له في نيقية. وقد تم القتل بناء على نصيحة الإمبراطور للسلطان الذي كان يخشى أن يرى تركيا آخر يعلو نجمه فوقه<sup>(١)</sup>.

وموت سليمان وشاكا غداً بإمكان أليكسيوس أن يفكر في سياسة أكثر عدوانية؛ إذ صار هو نفسه آمناً الآن في القسطنطينية، وقد هدأت المقاطعات الأوروبية، وأصبح أسطول له ذا كفاءة، وحزائنه قد امتلأت مؤقتاً، لكن جيشه كان ضعيفاً جداً، وجنوده من المواطنين الذين يمكن الاعتماد عليهم قليلو العدد بعد أن فقد الأناضول. فكان في حاجة إلى المرتزقة الأجانب المدربين.

وفي حوالى سنة ١٠٩٥ ميلادية بدا مؤكداً أن القوة السلجوقية تنهار أخيراً؛ فقد مات ملكشاه سنة ١٠٩٢ ميلادية، وهو الذي كان مسيطراً على الإمبراطورية التركية كلها، وبعد موته شبت حرب أهلية بين أبنائه الصغار. وطوال السنوات العشر التالية تحول حل اهتمام الأتراك نحو هذا الصراع بعد أن استطاعوا الاتفاق على تقسيم ميراثهم. وفي ذات الوقت برز زعماء العرب والأكراد في العراق. وعندما مات تنش سنة ١٠٩٥ ميلادية، لم يستطع ولده رضوان ودقاق في كل من حلب ودمشق إثبات القدرة على حفظ النظام في سوريا، وانتقلت القدس إلى أبناء أرتق، وكانت حكومتهم ظالمة غير فعّالة، وعاد البطريرق الأرثوذكسى سيمون وكبار قساوسته إلى قبرص، وفي

---

(١) يرد وصف موت شاكا في تاريخ Anna Comnena, IX, iii, 3, vol. II, pp. 165-6. لكن هناك "شاكا" جديد يظهر في تاريخها (IX, v, 3, vol. III, pp. 24-5). وربما كان ابن شاكا الأول وعرف باسم ابن شاكا وقد بسطته أنا كومنينيا على أنه شاكا. وبالمثل يطلق الكتاب الغربيون على قلعج أرسلان إسم "سليمان" لأنهم اعتادوا على معرفته باسم "ابن سليمان" وترد حرب شاكا مع ألكسيوس في Chalandon, op. cit. pp. 126 ff.

طرابلس أقامت عشيرة بني عَمَّار الشيعة إمارة خاصة بها، وبدأ الفاطميون يستعيدون جنوب فلسطين، وفي الشمال بدأ كربوقا، القائد التركي وأتابغ الموصل التابع للحليفة العباسي، في التعدي شيئاً فشيئاً على أراضي رضوان في حلب. وبدأ للمرتحلين آنذاك أن لكل مدينة سيداً مختلفاً<sup>(١)</sup>.

### مصاعب الحجاج

ويلاحظ أن المرتحلين لم يكونوا من المسلمين وحسب، بل كان هناك حجاج مسيحيون قادمون من الغرب، ولم يحدث مطلقاً أن توقفت حركة مرور الحجاج، لكن الرحلة كانت بالغة الصعوبة. ويبدو أن حياة المسيحيين في القدس، وحتى موت أرتق، لم تتأثر إلا في القليل النادر، وكانت فلسطين هادئة دائماً باستثناء الفترة التي شهدت الحرب بين الأتراك والمصريين هناك، في حين أن عبور الأناضول كان عسيراً، وكان على المسافر أن يصطحب معه حرساً مسلحاً، وحتى مع الحرس المسلح كان الطريق محفوفاً بالأخطار، وكانت الحروب، أو السلطات المعادية، دائماً ما تعبره على التوقف. وكانت سوريا أفضل بقليل، وكان قطاع الطرق في كل مكان، وفي كل مدينة صغيرة كان حاكمها يحاول فرض ضريبة على المارين. والحجاج الذين نجحوا في التغلب على كل هذه الصعاب رجعوا إلى الغرب متعين معدمين ليقتصوا أقاصيص رهيبة.

(١) أنظر مادة 'Sukman ibn Ortok' by Zettersteen in the *Encyclopaedia of Islam*

ويصف وليم الصوري William of Tyre, 1, 8, vol. 1, pp. 25-6 انطباعات الحجاج في ذلك الوقت. وقد تقاعد Symeon of Jerusalem في قبرص قبل وقت طويل من بداية الحملات الصليبية ، يد أن التاريخ الفعلي غير معروف .

## الباب الثاني :

### التبشير بالحرب الصليبية



## الفصل الأول :

السلام المقدس  
والحرب المقدسة





## السلام المقدس والحرب المقدسة

"انتظرونا السلام وَلَمْ يَكُنْ خَيْرٌ"

(لرميا ٨ — ١٥)

إن المواطن المسيحي يواجه مشكلة أساسية هي: هل يحق له أن يحارب من أجل بلده؟ ودينه دين سلام وليس الحرب إلا القتل والدمار. ولم تكن الشكوك تساور الآباء المسيحيين الأول في عدم مشروعية الحرب، فهي في نظرهم قتل بالجملة. غير أنه بعد انتصار الصليب، أي بعد أن أصبحت الإمبراطورية عالميا مسيحيا، ألا ينبغي لمواطنيها أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحمل السلاح من أجل رفاهتها؟

لم تكن الكنيسة الشرقية ترى ذلك، فبينما اعترف كبير قساوستها — القديس بازل — بأن الجندي إطاعة الأوامر فإنه يؤكد، مع ذلك، أنه يجب على مرتكب

إثم القتل في الحرب أن يمتنع عن تناول (١) الذي هو علامة التوبة مدة ثلاث سنوات (٢). وهذا الرأي صارم للغاية؛ فلم يكن الجندي البيزنطي في الواقع يعامل كقاتل، وإن لم تضاف عليه مهنته جاذبية خاصة، فليس الموت في ساحة القتال شيئاً مجيداً، كما أن الموت في معركة مع الكفار ليس استشهاده، وإنما الشهيد هو من مات وهو مسلح بإيمانه وحسب. وكانت محاربة الكفار شيئاً يبعث على الأمل رغم عدم إمكان تجنبها أحياناً، وأما محاربة الرفاق المسيحيين فكان شراً مضاعفاً. وحقيقة الأمر أن التاريخ البيزنطي كان حلواً من الحروب العدوانية بصورة ملحوظة. فقد انطلقت حملات جستنيان لتحرير الرومان من الحكم البرابرة المظلمة (٣)، واستهدفت حملات بازل الثاني ضد البلغار استعادة المقاطعات الإمبراطورية وإزالة خطر يتهدد القسطنطينية. وغالباً ما كانت الطرق السلمية هي المفضلة حين وإن كانت تشتمل على دبلوماسية ملتوية أو دفع أموال. ويرى المؤرخون الغربيون ممن اعتادوا الإعجاب بالشجاعة العسكرية أن المسالك التي كان يسلكها رجال الدولة البيزنطيون تنصف بالجن أو الخيث، غير أن الدافع كان الرغبة الأصلية في تجنب سفك الدماء. وتوضح الأميرة أنسا كومنينيا — وهي واحدة من أكثر النماذج المعبرة عن الشخصية البيزنطية — في تاريخها أنه يقدر عمق اهتمامها بالمسائل العسكرية، ويقدر تقديرها البالغ لانتصارات والدها في المعارك الحربية، فإنها تعتبر الحرب شيئاً مشيناً، وملاًذاً أخيراً عندما تعجز باقي السبل

(١) (المترجم): تناول أو العشاء الرباني (communion or Eucharist): طقس كنسي يمارس فيه سر من الأسرار الكنسية السبعة، ويتم فيه تناول الخبز والنبيذ إحياء لذكرى العشاء الرباني وتعبيراً عن التوبة.

(٢) Saint Basil, letter no. 188, in *M.P.G.* vol. xxxii, col. 681.

(٣) (المترجم): الهرطقة: Herecy: هي عقيدة، أو الخروج عن، القواعد الدينية الأساسية التي تتلزم بها كنيسة معينة.

الأخرى، وألما — أي الحرب — في حد ذاتها اعتراف بالقشل في حقيقة الأمر. (١)  
كانت وجهة النظر الغربية أقل استنارة، إذ اعترف القديس أوجاستين نفسه  
بإمكان شن الحروب بأمر من الرب (٢)، ولم يجد المجتمع العسكري الذي ظهر في الغرب  
نتيجة للغزوات البربرية بدا من أن يبحث عن مبرر لما اعتاد عليه من ترجية فراغه.  
وأضفت مبادئ الفروسية المتنامية، والتي عززتها الملاحم الشعبية، هيبة على البطل  
العسكري، وأما المناادي بالسلام فقد نالته سمعة سيئة لم يبرأ منها مطلقاً. ولم تستطع  
الكنيسة شيئاً حيال تلك العاطفة، وإنما سعت إلى توجيه تلك الطاقة ذات الرعة  
القتالية إلى دروب تقضي إلى المنفعة الخاصة بها؛ فأصبحت الحرب المقدسة — أي  
الحرب التي تحارب لمصلحة الكنيسة — مسموحاً بها، بل ومرغوباً فيها، وأعلن البابا  
ليو الرابع في منتصف القرن التاسع أن من يقتل في معركة دفاعاً عن الكنيسة سينال  
ثوابه من السماء (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة رفع البابا جون الثامن ضحايا الحرب  
للمقدسة إلى مصاف الشهداء، وإذا ماتوا بسلاحهم في المعركة تغفر لهم خطاياهم، بيد  
أنه ينبغي للمحندي أن يكون نقي القلب (٤). وأعلن نيكولاس الأول أنه لا ينبغي لمسن  
تدينه الكنيسة بسبب خطاياها أن يحمل السلاح إلا لمحاربة الكفار. (٥)

- 
- (١) عن مرقف أنا كومنا أنظر 97-9. Buckler, *Anna Comnena*, pp. 97-9.  
(٢) Saint Augustine, *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. xii, col. 35.  
(٣) Mansi, *Concilia*, vol. xiv, p. 888.  
(٤) John VIII, letters, in *M.P.L.* vol. cxxvi, cols. 696, 717, 816; Mansi, *Concilia*, vol. xvii, p. 104.  
(٥) خطاب Nicholas في *Monumeta Germania Historica, Epistolae*, vol. vi, p. 658 وقد أرفق هذا الخطاب في مجموعة القوانين الكنسية التي جمعها Burchard and Gratian.

### حركات من أجل السلام

بيد أنه برغم أن أعلى السلطات الكنسية لم تعلن إدانتها للقتال على هذا النحو، فإن بعض مفكري الغرب صلبوا لذلك؛ إذ أن برونو أوف كويرفورت الألماني، الذي قتلته البروسيون الوثنيون شهيداً سنة ١٠٠٩ ميلادية، شعر بمهانة عظيمة من جرّاء الحروب التي شنتها أباطرة عصره ضدّ الرفاق المسيحيين: حرب أوتو الثاني ضد الملك الفرنسي، وحرب هنري الثاني ضد البولنديين (١). وبدأت في فرنسا حركة من أجل السلام؛ فأثناء انعقاد مجلس شارو سنة ٩٨٩ ميلادية، حيث اجتمع أساقفة أكيتين لحماية الحصانة الممنوحة لرجال الدين، اقترح المجلس أن تضمن الكنيسة للفقراء حياة سلام (٢)، وفي العام التالي — أثناء انعقاد مجلس لوبوي — أُعيد تأكيد الاقتراح بصرامة أشد، وأعلن أسقف لوبوي، وهو جدي أوف أنجو، أنه لن يتأني لأحد أن يرى الحرب بدون تحقيق السلام، ولذلك حثّ جميع الرجال على أن يصبحوا أبناء السلام (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة مضى وليم العظيم دوق حوين بالفكرة قُدماً، ذلك أنه في مجلس بُوانيه، الذي دعى إلى انعقاده سنة ١٠٠٠ ميلادية، تقرر الكشف عن حل الخلافات عن طريق الحرب واللمحوء بدلاً من ذلك إلى العدالة، وأن يُطرد من الكنيسة كل من يرفض الإذعان لهذه القاعدة، وتعهد الدوق ونبلاؤه بالالتزام بها، وحذا حذوه روبرت الورع، ملك فرنسا، بالأخذ بقاعدة مماثلة في مملكته (٤). وظلت الكنيسة

(١) أنظر Erdmann, *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, p. 97 n. 35 الذي

يورد مراجع للتصوّص ذات الصلة.

(٢) Mansi, *Concilia*, vol. xix, p. 89-90.

(٣) *Cartulaire de Saint-Chaffre*, p. 152.

(٤) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 267-8; Fulbert of Chartres, letter in Bouquet, *Historiens de la France*, vol. x, p. 463.

مهمة أساسا بهذه الحركة لكي تحافظ على ممتلكاتها من غراب الحرب ومتطلباتها، وعقدت سلسلة من المجالس لتحقيق هذه الغاية. ففي سنة ١٠١٦ ميلادية صدرت في (فيردون سير لو دوب) صيغة أقسم النبلاء بمقتضاها ألا يكرهوا رجال الدين والفلاحين على الانضمام إلى قواتهم وألا يغيروا على محاصيلهم وألا يصادروا ماشيتهم. وشاع القسم في أرجاء فرنسا بينما كان الجمع والقساوسة والمؤممرون يصيحون: "السلام، السلام، السلام".<sup>(١)</sup>

ودفع هذا النجاح بعض الأساقفة المتحمسين إلى المضي أبعد من ذلك. ففي سنة ١٠٣٨ ميلادية أمر أبون رئيس أساقفة يورج كل مسيحي بزيد عمره على خمس عشرة سنة أن يعلن عداؤه لكل من يعتدي على السلام وأن يكون على استعداد لحمل السلاح لمحاربتهم إذا اقتضى الأمر. ونظمت هيئات للسلام كانت فعالة أول الأمر، غير أن الشق الثاني من أمر رئيس الأساقفة كان أشد جاذبية من الشق الأول، فتزعم رجال الدين جنودا من الفلاحين المسلحين وحطموا قلاعاً للنبلاء المعاندين، وسرعان ما أصبحت هذه الميليشيات المعتمدة تتصرف بلا مسئولية وبلغت أعمال التخريب التي اقترفتها الحد الذي اضطر السلطات إلى قمعها. وقامت جماعة السلام الكبرى بحرق قرية بينيس، وطبقا للمعلومات التي نعرفها فإن ما لا يقل عن سبعمئة من رجال الدين لقوا حتفهم في المعركة.<sup>(٢)</sup>

---

(١) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vol. iv, pt. 2, p. 1409; Radulph Glaber, in Bouquet, *R.H.F.*, vol. x, pp. 27-8. See Pfister, *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux*, p. ix; Huberti, *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*, p. 165

(٢) *Miracles de Saint-Benoît*, ed. By de Certain, p. 192

#### الهدنة في الأيام المقدسة

وفي ذات الوقت كانت هناك محاولة أكثر فعالية للتقليل من أعمال الحرب. ففي سنة ١٠٢٧ ميلادية عقد أوليا أسقف فيش ممعنا كنسيا في تولسوج، في روزيلون، أسفر عن فرض حظر على أعمال الحرب في أيام السبت (١). وبتشجيع من رئيس دير رهبان مدينة كلان العظيم أوديلو قام أساقفة بروفانس — الذين ادعوا أنهم يتحدثون باسم كنائس الغال كلها — بإرسال خطاب في سنة ١٠٤١ ميلادية إلى كنيسة إيطاليا طالبين أن تمت هدنة الرب لتشمل الجمعة الحزينة (٢) وسبت النور (٣) وعيد الصعود (٤). وهكذا كبرت هذه الفكرة، أي فكرة هدنة تشمل الأيام المقدسة، وحذت كنيسة أكتيان بالفعل حذو كنيسة بروفانس الرائدة، إلا أن دوقية بورجاندني مضت إلى أبعد من ذلك بأن خصصت الهدنة لكامل الأسبوع من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين وأضافت الفترة من عيد المحيي (٥) إلى يوم الأحد الأول بعد عيد الغطاس

(١) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 483-8.

(٢) (المترجم) الجمعة الحزينة : السابقة على عيد الفصح ونهى فيه الكنائس ذكرى صلب المسيح .

(٣) *Ibid.* pp. 593-6 (المترجم) سبت النور : السابق على عيد الفصح .

(٤) (المترجم) عيد الصعود : خميس الصعود الذي يعقب عيد الفصح بأربعين يوما والذي نحا فيه ذكرى صعود المسيح إلى السماء .

(٥) (المترجم) عيد المحيي : هي الفترة التي تسبق عيد ميلاد المسيح بأربعة أيام أحسد وتعتبرها بعض الكنائس فترة صلاة وصوم . وتعني كلمة "المحيي" كذلك : يحيى المسيح متجسدا أي ظهوره على هيئة بشر وتعني كذلك : "المحيي الثاني" ويقصد به يحيى المسيح يوم القيامة .

(أو الظهور) (١) وكذا فترة الصوم الكبير (٢) وأسبوع الآلام واليوم الثامن بعد عيد الفصح (٣). وفي سنة ١٠٤١ ميلادية، عندما كان ولیم الغازي يشرع لنورماندي، أدرج كذلك الفترة من أيام الإتهال (٤) إلى اليوم الثامن من عيد الخمسين (أو العنصرة) (٥). وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية أوصى مجلس عُقد في تولوج بضم عيد الأييام الثلاثة الخاص بالعدراء وأيام القديسين الرئيسيين (٦). وفي منتصف القرن بدت فكرة الهدنة الإلهية وقد ترسخت، وحاول مجمع ناربون الكبير المعقود سنة ١٠٥٤ ميلادية التنسيق بينها وبين فكرة سلام الرب لحماية بضائع الكنيسة والفقراء من ويلات الحرب، وكان من الضروري مراعاة احترام كل من الهدنة الإلهية وسلام الرب خوفاً

- 
- (١) الفطاس أو الظهور : أي ظهور المسيح المقلع هوس المشرق الذين أتوا إلى القدس . (أنظر إميل من : ١ - ٢) .
- (٢) الصوم الكبير : فترة صوم مقدارها أربعون يوماً ، تقع بين أربعاء الرماد (ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى العادة القديمة التي كانت تقضي بتر الرماد فوق رجوس التائبين ) وعشية عيد الفصح ، مخصصة للصيام والتوبة تحليداً لذكرى صيام المسيح في البرية ( يستبعد منها أيام الأحد في الكنيسة الغربية السبت والأحد في الكنيسة الشرقية ) .
- (٣) M.G.H., *Constitutiones et Acta Publica Imperatorum et Regum*, vol. 1, p. 303. See Huberti, *op. cit.* pp. 296, 303 (المترجم) : عيد الفصح : يحتفل فيه بذكرى قيام المسيح ، ويختلف موعده بحسب اختلاف التقاويم .
- (٤) (المترجم) : أيام الإتهال : الأيام الثلاثة السابقة على عيد الصعود .
- (٥) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 597- 600. (المترجم) : عيد الخمسين أو العنصرة : يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تحليداً المهيوط الروح القدس ( أنظر العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل الإصحاح الثاني ) .
- (٦) *Ibid* . p. 1042



من عقوبة الطرد من الكنيسة، وفضلاً عن ذلك، أعلن أنه لا ينبغي للمسيحي أن يقتل مسيحياً آخر، باعتبار أن "من يقتل مسيحياً يسفك دم المسيح" (١)

ويندر أن تكون حركات السلام مؤثرة في عالم الواقع كما هي في عالم النظرية، ولم تشذ حركات السلام في القرن الحادي عشر عن هذه القاعدة، ذلك أن أكثر الأمراء المناصرين هدنة الرب لم يلتزموا بنصوصها، ففي يوم السبت حارب وليم الغازي رفيقه المسيحي هارولد في هاستور، كما ذكرت آنا كومينا وهي فرعة أنه في الوقت الذي حاولت فيه كنيستها أن تتوخى الأمانة في اجتناب أعمال الحرب في الأيام المقدسة حاحم فرسان الغرب القسطنطينية في أسبوع الآلام وقد احتشد في جيوشهم القساوسة المسلحون المحاربون (٢). وعرف البابوات أنفسهم من التجربة أن مثل تلك الكنيسة لم تسلم من هجمات العامة، ولم يكن من اليسر في الغرب إجماع السروع إلى القتال واستمرارها المجد العسكري؛ وكان من الأصوب العودة إلى السياسة القديمة والانتفاع بمقدرة الطاقة بتحويلها إلى محاربة الوثنيين.

وبالنسبة إلى الغرب، كان الخطر الإسلامي أكثر تهديداً بكثير عما عليه بالنسبة للبيزنطيين إلى وقت الغزوات التركية، وانزعج البيزنطيون من الأتراك على أنهم برابرة وليسو كفاراً. ومنذ أن فشل العرب أمام القسطنطينية في بداية القرن الثامن بدأت الحرب داء متوطناً على الحدود الشرقية للعالم المسيحي، بيد أنها لم تكن من الخطورة بحيث تهدد وحدة الإمبراطورية، ولم يحدث مطلقاً أن انقطع التبادل التجاري والفكري لأمد طويل، فكان العربي وريثاً للحضارة اليونانية الرومانية بنفس القدر تقريباً كالبيزنطي، كما لم تكن طريقة حياته تختلف اختلافاً كبيراً. وعندما يزور البيزنطي

(١) Ibid. pp. 827-32

(٢) Anna Comnena, *Alexiad*, x, viii, 8, vol. ii, pp. 218-19; x, ix5-6, vol. ii, p. 222

القاهرة أو بغداد كان يشعر بأنه في وطنه على نحو يتجاوز كثيرًا شعوره وهو في باريس أو حوسلار (١) أو حتى روما. وباستثناء بعض الأزمات النادرة وبعض حالات الشَّار، اتفقت السلطات في كل من الإمبراطورية والخلافة على عدم الإكراه في الدين والسماح بحرية العبادة للدين الآخر. وربما كان بعض الخلفاء المتفاهرين يتحدثون باستخفاف عن الأباطرة المسيحيين، وربما فرضوا عليهم الإتاوات أحيانًا، ولكن باقتراب القرن العاشر من نهايته غدت بيزنطة عدوًّا مخيفًا حسن التنظيم.

ولم يستطع المسيحي في الغرب مشاركة البيزنطي في التسامح والشعور بالأمان، إذ يفخر الأول بمسيحيته ويظن أنه وريث روما، بيد أنه كان يعي على مضض أن الحضارة الإسلامية تسمو على حضارته في معظم الجوانب. ولقد هيمنت القوة الإسلامية على غرب البحر المتوسط من قطلونيا (٢) إلى تونس، وهاجم قراصنة من المسلمين سفنه، وهبوا روما، وحصنوا أنفسهم في إيطاليا وبروقانس، وبدأ ألهم يستطيعون أن يخرجوا من معقلهم في إسبانيا ويعبروا الحدود ويتدفقوا على فرنسا عبر جبال البرانس، ولم يكن للعالم المسيحي تنظيم يمكنه من التصدي لمثل ذلك الهجوم، وإنما كان آحاد الأبطال يصدون غارات العرب منذ أيام تشارل مارتل (٣) وما بعدها، كما كانت الإمبراطورية الكارولنجية (٤) لبعض الوقت بمثابة الحائط الواقي من هذه الغارات. وفي سنة ٩١٥ ميلادية تعاون البابا حنون العاشر مع بلاط القسطنطينية في

---

(١) (المترجم) : حوسلار : مدينة تقع حاليا شمال ألمانيا .

(٢) (المترجم) : قطلونيا : إقليم شمال شرق إسبانيا يغزل على البحر المتوسط .

(٣) (المترجم) : تشارل مارتل : جد شارلمان ، حكم ما يعرف الآن بشمال شرق فرنسا وبلجيكا وألمانيا .

(٤) (المترجم) : الإمبراطورية الكارولنجية : أسسها سنة ٧٥١ ميلادية " بين " ابن تشارل مارتل .

تكوين تحالف من الأمراء المسيحيين لطرد المسلمين من معقلهم في كاريليانو (١). وفي سنة ٩٤١ ميلادية اشترك البيزنطيون مع هيو أوف بروفانس في الهجوم على قلعتهم في فريجوس، لكن الهجوم فشل بسبب ارتداد هيو في آخر لحظة، غير أنه في سنة ٩٧٢ ميلادية نجح تحالف من البروفنساليين والإيطاليين في إخماد المهمة (٢)، وكانت هذه التحالفات محلية متفرقة سريعة الزوال، وكان من الضروري وجود تنسيق أكبر وجهد أكثر تركيزاً. ولم تتحقق تلك الضرورة على نحو أفضل مما تحققت في روما التي لا يغيب عن إدراكها مطلقاً تخريب كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ميلادية.

#### المنصور

وكان مسلمو إسبانيا في القرن العاشر يهددون العالم المسيحي تهديداً حقيقياً بالغا، إذ أن المسيحيين كانوا قد فقدوا الأراضي التي حصلوا عليها من قبل، وفي منتصف القرن كان الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث سيد شبه جزيرة أيبيريا بلا منازع، وصاحب موته سنة ٩٦١ ميلادية بعض الشعور بالراحة، إذ كان خليفته الحكم الثاني مسالماً وشغله الحروب مع الفاطميين والأدارسة في مراكش، ولكن بعد موت الحكم سنة ٩٧٦ ميلادية سيطر على مسرح الأحداث الوزير الخارب محمد بن أبي أمير الملقب بالمنصور والذي يعرفه الأسبان بالمنظور. وكانت مملكة ليون هي القوة المسيحية الرئيسية في إسبانيا، وهي التي تحملت صدمة هجمات المنصور، وفي سنة ٩٨١ ميلادية استولى على زامورا في جنوب المملكة؛ وفي سنة ٩٩٦ ميلادية دمر ليون نفسه وحرق

(١) Liudprand, *Antapodosis*, pp. 61-2; Leo of Ostia, pp. 50ff. See Gay, *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*, p. 161, who establishes the date 915; Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 184-5.

(٢) Liudprand, *op. cit.* pp. 135, 139; Poupardin, *Le Royaume de Bourgogne*, pp. 94 ff.

في العام التالي مدينة القديس جيمس في كومبوستيلا التي يأتي ترتيبها ثالث أماكن الحج بعد القدس وروما، ومع ذلك كان حريصاً على احترام المزار نفسه. وكان قد استولى بالفعل على برشلونة سنة ٩٨٦ ميلادية، وبدأ أنه سرعان ما سيعبر البرانس لكنه مات سنة ١٠٠٢ ميلادية (١). وبحوته بدأت قوة الإسلام في الاضمحلال، واستطاع القراصنة القادمون من أفريقيا أن يذهبوا أنتيب سنة ١٠٠٣ ميلادية، وبيزا سنة ١٠٠٥ ميلادية، ومرة أخرى سنة ١٠١٦ ميلادية، وناربون سنة ١٠٢٠ ميلادية، في حين أن المحجوم الإسلامي المنظم كان قد انتهى آنذاك وحان الوقت لمحجوم مضاد (٢).

وخطط سانكو الثالث، ملك نافار، الملقب بالعظيم للهجوم المضاد؛ ففي سنة ١٠١٤ ميلادية حاول تنظيم تحالف من الأمراء المسيحيين لمحاربة "الكفرة"، وكان رفاقه في ليون وكاستيل على استعداد للمعاونة، ووجد في سانكو وليام، دوق جاسكوني، حليفاً متلهفاً، ولكن روبر ملك فرنسا لم يرد على ندائه. ولم يتحقق شيء ملموس، بيد أنه في نفس الوقت اجتذب سانكو اهتمام حليف له قيمته البالغة، ألا وهو منظمة كَلان التي حكمها راهبان كبيران امتد حكمهما لمدة ١١٥ عاماً وهما: أوديلو الذي تولى الحكم سنة ٩٩٤ ميلادية ومات سنة ١٠٤٨ ميلادية، وهيسو الذي خلفه وعاش حتى سنة ١١٠٩ ميلادية، وبدأت هذه المنظمة تولي انتباهاً خاصاً للشؤون الإسبانية، فكانت كَلان دائمة الاهتمام برفاهية الحجاج، وبسعددها أن يكون لها رأي في تدبير طريق الحجاج الزاهين إلى كومبوستيلا وأن تساعد في حماية العالم المسيحي الإسباني كله. فحينما هدد المسلمون الكونتيسة إيرسلند أوف بارشلونه سنة ١٠١٨ ميلادية، كان نفوذ كَلان هو الذي جعل روبر أوف توسني يأتي من نورماندي

(١). For Almanzor see Dozy, *Histoire des Musulmanes en Espagne*, rev. vol. ii, pp. 235 ff.

(٢). Ballesteros, *Historia de España*, vol. ii, pp. 389 ff.

مدفوعاً بروح المغامرة النورماندية التي ربما حفّزته أيضاً على المضي. وقويت قبضة كلّان على الكنيسة الإسبانية أثناء حكم سانكو وخلفائه مما جعلها تنصدر الحركة الإصلاحية، ومن أجل ذلك لم يفت البابوية أن توافق على أية محاولة لتوسيع حدود العالم المسيحي في إسبانيا. وعندما اشترك سانكو وليم أوف جاسكوني مع سانكو أوف نافارو في الهجوم على أمير سرقوسة صاحبتها بركات البابوية وبركات كلّان التي شجعت كذلك ريموند برنغار الأول في برشلونه على دفع المسلمين إلى الجنوب.<sup>(١)</sup>

#### الحرب المقدسة في إسبانيا

وهكذا اكتسبت محاربة الكفرة في إسبانيا شكل الحرب المقدسة، وسرعان ما كان للبابوات أنفسهم يد في توجيهها. وفي سنة ١٠٦٣ ميلادية قُتل أحد المسلمين رامسيرو الأول ملك أراجون في بداية هجوم كبير على المسلمين في جرادوس، وأُغيب مقتله عيال أوروبا كلها، وفي الحال وعد البابا الكسندر الثاني باغتفار خطايا كل من يحارب من أجل الصليب في إسبانيا وشرع في جمع جيش لاستكمال ما بدأه راميرو، وقام وليم أوف مونتروي وهو من الجنود النورمانديين العاملين في خدمته بتحديد الجنود في شمال إيطاليا، وفي شمال فرنسا قام الكونت إيبيل أوف روسي — وهو شقيق الملكة فيليسيا

---

(١) Boissonnade, *Du nouveau sur la Chanson de Roland*, pp. 6-22. لما Fliche في مؤلفه Boissonnade *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, pp. 551-3 فإنه يعتبر أن Hatem يبالغ في دور Cluny في تنظيم حرب مقدسة في أسبانيا حينما جاء في مؤلفهما *Les Poèmes Épiques de Croisades*, pp. 43-63. وها Halphen في سلسلة محاضرات ألقاها في مدرسة الدراسات العليا وباريس (Ecole des Hautes Etudes et Paris) لم تنشر بعد - بمناقشة كاملة للمسألة ويعتبر أن دور Cluny كان دوراً هاماً لكنها لم تنظم حملة عسكرية في الواقع أنظر أيضاً Rousset, *Les Origines et les Caractères de la première Croisade*, pp. 31-5.

الأراجونية — يجمع جيش، أما أكبر فرقة جمعها جوي — جيوفري كونست أكيثان الذي تم تعيينه أمرا للحملة. ورغم كل ذلك لم يتحقق سوى القليل، فقد تم الاستيلاء على مدينة بارباسترو مع الكثير من الغنائم ولكن سرعان ما ضاعت مرة أخرى<sup>(١)</sup>. وتدفع الفرسان الفرنسيون منذ ذلك الوقت على جبال البرانس لمواصلة تلك المهمة، وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية نظم آيبل أوف روسي حملة جديدة دعى البابا حريجيوري السابع أمراء العالم المسيحي للاتضمام إليها، وبينما كان يذكر العالم بأن مملكة إسبانيا هي من توابع الكرسي الرسولي للقديس بطرس أعلن أن للفرسان المسيحيين الحق في التمتع بالأراضي التي ينتزعوها من "الكفرة"<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية قاد هيو الأول، دوق برجاتندي، جيشًا لمساعدة صهره ألفونسو السادس أوف كاستيل<sup>(٣)</sup>، وفي سنة ١٠٨٠ ميلادية منح حريجيوري السابع تشجيعه الشخصي للحملة التي قادها جوي — جيوفري. وسارت الأمور على ما يرام في الأعوام التالية؛ فاستولى الكاستيليون على توليدو سنة ١٠٨٥ ميلادية<sup>(٤)</sup>، واستتب ذلك بعث إسلامي بقيادة المرابطين<sup>(٥)</sup> المتعصين. ومنذ سنة ١٠٨٧ ميلادية بدأت الدعوة لاستدعاء الفرسان المسيحيين بشكل ملح لمقاومتهم، وشجع البابا إيربان الثاني ذلك بحماس، بل طلب ممن كانوا يتوون الحج إلى فلسطين أن ينفقوا أموالهم بشكل أكثر نفعًا في إعادة بناء المدن

(١) Boissonnade, *op. cit.* pp. 22-8; Fliche, *op. cit.* pp. 551-2

(٢) Gregory VII, *Registrum*, I, 7, pp. 11-12 See also Villey, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, p. 71

(٣) Boissonnade, *op. cit.* pp. 29-31

(٤) *Ibid.* pp. 31-2

(٥) (المترجم) : دولة المرابطين : تأسست في شمال غرب أفريقيا والأندلس واستمرت في القرنين

الحادي عشر والثاني عشر .

الإسبانية التي انتزعت من المسلمين بعد أن غلبوها (١). وحتى نهاية القرن استمرت الحملات الإسبانية تجذب المغامرين من فرسان المسيحيين في الشمال إلى أن وصلت سلسلة الحملات إلى زرونها بالاستيلاء على هوسكا سنة ١٠٩٦ وبارباسترو سنة ١١٠١ ميلادية.

وهكذا، وبانتهاء القرن الحادي عشر، تحولت فكرة الحرب المقدسة إلى ممارسة عملية. وحثت سنطات الكنيسة الفرسان والجنود على أن ينسئوا خلافاتهم التافهة ويرتعلوا إلى حدود العالم المسيحي لمحاربة الكفرة، ولتشجيعهم على أداء خدماتهم سمحت لهم بأن يملكوا الأراضي التي يتزعمونها، كما منحتهم مزايا روحانية، ولكن طبيعة هذه المزايا الروحانية لم تكن معروفة بشكل يقين. ويبدو أن الكسندر الثاني منح غفراناً للمشاركين في حملات سنة ١٠٦٤ ميلادية (٢)، ولكن جريجوري السابع لم يمنح سوى ثبوة كنسية لكل من مات في القتال من أهل الصليب (٣)، كما أعطى ثبوة كنسية مماثلة لجنود رودلف أوف سوابيا في الحرب ضد هنري الرابع الجرمان (٤) المطرود من الكنيسة. وأصبحت البابوية تتولى توجيه الحروب المقدسة، فغالباً ما كانت تشنها وغالباً ما كانت تعين قادتها، وكان يتعين أن تكون جميع الأراضي المتزعة تحت السيادة البابوية المطلقة.

ورغم أن كبار الأمراء كانوا يميلون إلى أن ينتحوا جانباً، لبى فرسان الغرب طوعاً نداء الحرب المقدسة، وكانت دوافعهم تصطبغ من ناحية بصبغة دينية، إذ أنهم كانوا يستشعرون الحقد لاستمرار القتال فيما بينهم، وأرادوا أن يقاتلوا من أجل

(١) Riant, *Inventaire critique*, pp. 68-9.

(٢) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 4530, vol. I, p. 573.

(٣) Gregory VII, *loc. cit.*

(٤) *Ibid.* vii, 14B, pp. 480 ff.

الصليب، فضلاً عن أنه كان لديهم حافظاً آخر ألا وهو التلّيف على امتلاك الأرض وخاصة في شمال فرنسا، حيث ترسخ حق الابن الأكبر وحده في الميراث؛ ذلك أنّ مالك الأرض لم يكن على استعداد لتقسيم أملاكه ومتعلقاتها التي تتمركز حول قلعة الشاعمة، فكان على باقي أبنائه أن يبحثوا عن الثروة في مكان آخر. وشاع بين طبقة الفرسان الفرنسيين نوع من القلق والميل إلى المغامرة الذي يلاحظ أكثر ما يلاحظ بين النورمانديين، وهم الذين تركوا منذ عدة أجيال حياة السلب والترحال. وبدأت فرصة الجمع بين الواجب المسيحي واقتناء الأرض في مناخ جنوبي فرصة جذابة للغاية، وكان للكنيسة أسباب تدفعها إلى الابتهاج باستمرار لتلك الحركة: أفليس من الممكن القيام بمثل هذه الحركة عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي ؟





## الفصل الثاني :

### صخرة القديس بطرس



## صخرة القديس بطرس

"إِنِّي تَمْلِكُ السُّلُوكَ وَتَقْضِي الْعُظَمَاءَ  
عَثَلًا".

(أمثال: ٨ — ١٥)

إن انحصار المد الإسلامي في إسبانيا جعل البابا لا يجد صعوبة تذكر في بسط  
سلطانه على كنيسة الأراضي المستعادة. وكانت (منحة قسطنطين) (١)، التي قبلها العالم  
المسيحي الغربي قبولاً واسع الانتشار — وإن كان قبولاً عاطفياً — على أنها شيء أصيل،

---

(١) (المترجم) : منحة قسطنطين : وثيقة تناقش منحة السيادة الروحية التي يفترض أن "قسطنطين العظيم"  
منحها للبابا "سلفستر الأول" (٣١٤ - ٣٣٥ م) وخلفائه ذوي المكانة الروحية العالية على البطارقة  
العظام الآخرين ، وعلى جميع مسائل العقيدة والعبادة ، فضلاً عن السيطرة الدنيوية على روما  
والإمبراطورية الغربية برمتها . ويزعم أن قسطنطين كان مدفوعاً بما يفترض فيه من عرفان للبابا  
"سلفستر" لمحاربه في علاج الإمبراطور من مرض الجذام وتحويله إلى المسيحية . والآن يعترف الجميع  
بأنها مبرورة .

قد ساعدته على بسط سيادته الدنيوية على بلدان كثيرة، أضيفت إليها شبيه جزيرة أيبيريا في غفلة من الزمن، كما لم يكن في إسبانيا أية سلطة كنسية يمكنها أن تحداه. أما العالم المسيحي الشرقي فكان تنظيمه مختلفاً؛ إذ أنّ بطريرقية الإسكندرية التي أسسها القديس مارك، وبطريرقية أنطاكية التي أسسها القديس بطرس، كانتا قديمتين قدم كرسي روما الأسقفية. وكان لبطريرقية القدس، وهي كنيسة القديس جيمس، هيئة حليفة بأكثر مدن العالم المسيحي قدسية وإن كانت أصغر من سابقتها. وكانت بطريرقية القسطنطينية فكانت أعظم ند مهيب لتلك الكنائس جميعاً، وإن لم يكن لها من القدم ما يضفي عليها سلطان الزمن برغم ما يُزعم من أن القديس أندرو هو الذي أنشأها. غير أن القسطنطينية أراغت العاصمة القديمة وأصبحت هي روما الجديدة ومقرّاً لسلسلة متصلة من الأباطرة المسيحيين، فهي أعظم مدن العالم المسيحي، وربما حق لبطريقتها أن يرى أنه يمثل العالم المسيحي كله وأنه أعظم قاض كنسي في العالم المتحضر. وربما كانت المعارضة الدينية في بيزنطة تلحاً أحياناً إلى سلطة روما القديمة كقوة توازن قوة الإمبراطور، بيد أنه لم يكن في الشرق من يأخذ على محمل الجحد أنّ أسقف المدينة الغربية التي تقلّص نفوذها — والتي تقضّع دائماً لسيطرة صغار النبلاء المشاغبين أو زعماء البرابرة الشماليين — له أية ولاية على الكنائس الشرقية ذات التقاليد الباقية المستقرة على مدى الزمان، ومع ذلك بقي لروما احترامها الخاص. وبرغم تجاهل ادّعاءها السيادة، كانت لها أولوية تكاد تكون عامة بين الكراسي الأسقفية للعالم المسيحي، حتى من قبل البطريرق الذي يمثل العالم المسيحي كله. وليس هناك من كان على استعداد لتحدي الاعتقاد بأنّ العالم المسيحي شيء واحد وينبغي أن يكون كذلك.

#### روما والقسطنطينية

وبعد الفتح العربي فقدت بطريرقيات الجنوب الشرقي كثيراً من قوتها، وبرزت

القسطنطينية كأولى الكنائس الشرقية، واثارت مجادلات وخلافات كثيرة بين الكنيستين في روما والقسطنطينية حول الشؤون الكنسية وإن لم تشكل أي منها خطورة أو تستغرق وقتا طويلا على خلاف ما يعتقد الجدليون المتأخرون (١)، وإنما ظلت وحدة العالم المسيحي مقبولة على العموم. غير أنه أجري في القرن الحادي عشر فحص دقيق لنظام الكنيسة الرومانية، وترتبت اقتراحات الإصلاح إلى حد كبير على نفوذ رهبان كلاني والورين، ونقلها في بادئ الأمر السلطات العلمانية المتسيدة على روما آنذاك، وكان الإمبراطور هنري الثالث نشطا بوجه خاص ومنح تلك الإصلاحات قوة دافعة أتاح للكنيسة أن تستمر فيها وتطورها بعد موته مستقلة عن الحكومة العلمانية ومضادة لها في نهاية الأمر. وتولد عن الحركة نظريات برزت وأصرت على السيادة الروحانية الشاملة لروما وتسيدها في النهاية على الأمراء الدينيين، وأثارت هذه النظريات بدورها جدلا جديدا مع الشرق.

وتكمن المسألة الرئيسية في إعادة تأكيد مزاعم روما في السيادة، ولكن الخلافات بدأت حول تفصيلات المعتقد وتفصيلات الأعراف، وانسأقت البابوية وراء رغبتها في ترسيخ سلطانها، فسعت إلى توحيد أعراف الكنيسة. ولم تنوقف رغبتها عنسد إلغاء زواج رجال الدين الدينيين لأسباب سياسية وكذلك روحانية، بل بذلت مساعيها في محاولة وضع معايير للطقوس والشعائر الدينية، وهي إصلاحات ممكنة الحدوث في الغرب، لكن أعراف الكنائس الشرقية شيع آخر، لا سيما وأن هناك كنائس يونانية تقع في النطاق الروماني كلية كما كانت هناك كنائس لاتينية في نطاق القسطنطينية، وكانت الحدود بين النطاقيين في جنوب إيطاليا مثار نقاش لوقت طويل. وفي نفس

(١) أفضل ما كتب عموما عن العلاقات بين روما والقسطنطينية يوجد لدى Every في مؤلفه *The Byzantine Patriarchate, Passim*

الوقت أدى النفوذ الألماني في روما إلى إدخال كلمة (فيليك) (١) بشأن انبعاث الروح القدس، وكان البابوات المهتمون بالإصلاح أقل استعداداً من أسلافهم لقبول الحلول الوسطى، أو للصمت في لباقة، ومن ثم لم يكن من الصدام بد.

وأورد البابا سرجيوس الرابع كلمة (فيليك) في خطابه بإعلان الإيمان الذي يرسل عادة من البابا أو البطريرق إلى زملائه بمناسبة توليه البابوية، وعلى الأثر رفض بطريرق القسطنطينية سرجيوس الثاني تخليد اسمه على اللوح التذكاري المزدوج للكنائس البطريراقية في القسطنطينية، وفهم البيزنطيون ذلك كدلالة على أن البابا نفسه لم يتبع سواء السبيل حول نقطة في المعتقد، وإن لم يكن ذلك طعناً في استقامة الكنيسة الغربية بكاملها. بيد أن ذلك في نظر البابا — فضلاً عن الكنائس الغربية السني — تعتبر البابا مصدراً لاستقامة المعتقد — كان إهانة عامة وبعيدة الأثر وواسعة النطاق. وأدرك البطريرق أن وضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج يتيح له فرصة للمساومة. (٢)

وفي سنة ١٠٢٤ ميلادية تلقى البابا جون التاسع عشر اقتراحاً من القسطنطينية بإمكان تسوية نقاط الخلاف بين الكنائس بقضي بقبول صيغة وضعت ببراعة ممنح روما سيادة اسمية، وترك للقسطنطينية استقلالية شاملة فعلية، وأعلنت هذه الصيغة أنه:

(١) (المترجم): فيليك: المعنى الحرفي باللاتينية: "ومن الآن"، وهي عبارة أضافتها الكنيسة اللاتينية إلى قاننون الإيمان المسيحي في العصور الوسطى، وتعتبر أحد الأسباب الرئيسية التي سببت الصدع بين الكنائس الشرقية والغربية.

(٢) عن هذه الواقعة أنظر: Michel Humbert und Kerularios pp. 20-40, vol. i. وهناك ما يدل على أن كلمة (فيليك) (Relique) أدخلت على إعلان الإيمان في روما في وقت هنري الثاني هناك في سنة ١٠١٤ م.

Berno Libellus de Officio Missae in M.P.L. vol. cxlii col. 1061-2

"بموافقة الخمر الروماني تعتبر كنيسة القسطنطينية كنيسة عالمية في نطاقها، كما كانت كنيسة روما في العالم". وكان البابا جون نفسه على استعداد للموافقة، لولا أن أسرع الراهب الكلاوي، راهب سانت بنجنوس في ديجون (١) بالكتابة إليه مذكراً إياه في صرامة بأن سلطة الإلزام والإطلاق في السماء وعلى الأرض إنما يختص بها القديس بطرس وخلفاؤه دون غيرهم، وحثه على إظهار المزيد من اليأس في إدارة الكنيسة العالمية. وكان على بيزنطة أن تعلم أن البابوية بعد إصلاحها لا تسمح بمثل ذلك الحسل الوسط. (٢)

وفي منتصف القرن أسفر الغزو النورماندي لجنوب إيطاليا عن رغبة في تحالف سياسي بين البابا والإمبراطور الشرقي، ولكن البابوية بعد إصلاحها التزمت بسياسة وضع المعايير، ورغبت في إبطال أعراف معينة سائدة في الكنائس اليونانية في جنوب إيطاليا قلدها كنائس إيطالية كثيرة إلى الشمال حتى ميلانو. وفي سنة ١٠٤٣ ميلادية تولى ميكائيل سيربولاريوس بطريرقية القسطنطينية، وكان رجلاً طموحاً متكبراً، وتوافق بنفس القدر إلى وضع معايير للأعراف داخل حدود نطاقه، وكان دافعه الرئيسي هو أن يستوعب بشكل أيسر كنائس المقاطعات الأرمنية المختلة حديثاً، والتي كانت تمارس أعرافاً مختلفة، كاستخدام الخبز غير المخمر. على أن سياسته أثارت أيضاً في الكنائس اللاتينية الواقعة في إيطاليا البيزنطية والكنائس اللاتينية في القسطنطينية نفسها، وانتفع بها التجار والحجاج وحنود الحرس الفارانجي. وعندما رفضت تلك الكنائس الأخيرة أن تمتثل لذلك أمر البطريق بإغلاقها، وبدأ مجلسه في إصدار كتيبات دينية تنكر أعراف اللاتينيين.

(١) (المترجم) : ديجون : مدينة في وسط فرنسا ناحية الشرق .

(٢) Radulph Glaber in Bouquet R.H.F. vol. x pp. 44-5. ليست هناك مصادر يونانية

تذكر هذه المفاوضات غير أنه ليس هناك من سبب يدعو للشك في حدوثها .



#### صدع سنة ١٠٥٤ ميلادية

ويبدو أن سيريلاريوس لم يكن مهتمًا بالمسألة اللاهوتية، وكان على استعداد لأن يضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج في مقابل أن تكون المعاملة مع روما على قدم المساواة. وتركز الخلاف حول أعراف الكنيسة، وبذا أثبتت مشكلة الحدود الكنسية في إيطاليا، وزادت حدة المشكلة بالغزو الذي قام به النورمانديون، وهم أنفسهم من أتباع الكنيسة اللاتينية. وتولى حاكم إيطاليا البيزنطية المفاوضات — وهو أرحم من النورماندي الذي كان من أتباع بيزنطة ويدين بالشعيرة اللاتينية — وقد فاز بنقطة الإمبراطور لكنه كان من المحتم أن يرتاب فيه سيريلاريوس الذي خدمته الظروف: ففي سنة ١٠٥٣ ميلادية، وقبل تعيين السفراء الرسولين للذهاب من روما إلى القسطنطينية، اعتقل النورمانديون البابا ليو التاسع، وعندما وصل سفراؤه إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية وعلى رأسهم الكاردينال هومبرت أوف سيلفا كانديرا، استقبلهم الإمبراطور بمظاهر التشريف، ولكن سيريلاريوس تساءل هل عيّنهم البابا حقًا، وهل بمقدوره وهو رهبنة تنفيذ الوعود التي بقطعها على أنفسهم؟ وقبل أن تتسع المناقشات مات ليو فجأة في إبريل (نيسان)، وهكذا فقد السفراء كل صفة أو موازنة رسمية مُنحت لهم. وانقضى عام بكامله قبل انتخاب البابا التالي، ولم يكن أحد يعلم السياسة التي سببها، ورفض سيريلاريوس الاستمرار في المفاوضات، وعلى الرغم من رغبة الإمبراطور في التوصل إلى اتفاق، حميت المشاعر وانتهى الأمر بأن رحل السفراء الرسوليون وهم مغضوبون وقد تركوا على مذبح القديسة صوفيا أسرى بابويًا رسميًا محتومًا بالرصاص بطرد البطريرق ومستشاريه من الكنيسة ويعترف في نفس الوقت باستقامة الكنيسة البيزنطية. وحيال ذلك، عقد البطريرق مجمعًا مقدسًا لعن فيه ذلك الأمر البابوي على أنه من عمل ثلاثة أشخاص غير مسئولين، وأعرب عن أسفه لإضافة (فيليكس) إلى المذهب، وأدان زواج رجل الدين، لكنه لم يذكر الكنيسة الرومانية

على عمومها ولا الأعراف الأخرى المختلف عليها. وفي واقع الأمر، لم يكن هناك تغيير مطلقاً سوى أن المرارة أطلت برأسها.

ولم تشترك كنائس الإسكندرية والقدس في هذه الحادثة، وأيقن بطريق أنطاكية بطرس الثالث أن سيريلاريوس رجل صعب المراس دون داع، واستمرت كنيسسته في تقليد اسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج الموجود لديها، إذ لم يجد سبباً يدعو إلى التحلي عن تلك الممارسة، وربما كان يخشى أن تكون لدى سيريلاريوس — السذي حامت الشكوك حول طموحاته — مخططات ضد استقلالية كرسيه الأسقفي، وربما كان متعاطفاً مع سياسة الإمبراطور. وفضلاً عن ذلك، لم يكن بوسع أن يؤيد وضع معايير للطقوس والأعراف الكنسية؛ فكانت أبرشيته تضم كنائس ممارس فيها الطقوس السيريانية، والكثير من تلك الكنائس وراء الحدود السياسية للإمبراطورية، فلا يستطيع فرض أعراف موحدة حتى وإن رغب في ذلك؛ فانتحى بنفسه بعيداً عن الشجار. (١)

#### مخطط جريجوري السابع لحرب صليبية

وتحسنّت العلاقات خلال العقد الثاني تحسّناً طفيفاً؛ إذ خلع ميكائيل سيريلاريوس سنة ١٠٥٩ ميلادية، وباختفائه عادت الكنائس اللاتينية في

---

(١) فيما يتعلق بما يسمى "انشقاق" سيريلاريوس أنظر Michel, *op. cit. passim, especially* vol. 1, pp. 43-65; Jugie, *Le Schisme Byzantin, especially* pp. 187 ff.; Leib, *Rome, Kiev et Byzance*, pp. 27 ff.; Every, *op. cit.* pp. 153-72. ويستنتج Jugie, *op.cit.* 188 أن الطريق كان راغياً في الإبقاء على اسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج وذلك من خطاب ليو التاسع إلى سيريلاريوس في 773-4 *M.P.L.* vol. cxliii, cols. 773-4. ومن خطاب سيريلاريوس إلى بطرس الأنطاكي في 784 *M.P.G.* vol. cxx, col. 784 ولا بد أن يبقى النافع لدى بطري الأنطاكي نغمياً، بيد أن موقفه واضح من مراسلاته مع سيريلاريوس. أنظر خطابهم في *M.P.G.* vol. cxx, cols. 756-820.

القسطنطينية تفتح أبوابها مرة أخرى. وفي جنوب إيطاليا كان النورمانديون يحققون تقدما متزايدا، وهم الحلفاء المخلصون للبابوية منذ سنة ١٠٥٩ ميلادية، ولذلك وجدت بيزنطة أن ممارسة الضغوط من أجل مطالبها الكنسية هناك أمر غير عملي. وفي سنة ١٠٦١ ميلادية أبحر روجر النورماندي لغزو صقلية وانتزاعها من العرب، فقد شجع البابا الحرب المقدسة. وكان على بيزنطة أيضا أن تواجه انعدام السيطرة على الجامع المسيحية هناك. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية قرر الإمبراطور ميكايل السابع ضرورة التوصل إلى تفاهم ودي مع روما؛ ذلك أن الإمبراطور - بعد الغزو النورماندي لباري في جنوب إيطاليا سنة ١٠٧١ ميلادية - أصبح يخشى المزيد من العدوان، فرمما يمنعه البابا بنفذه. وبدأ غزو التركمان لآسيا الصغرى، وكان ميكايل في ميسس الحاجة إلى الجنود، فإذا ما أصبحت العلاقة بالبابوية علاقة ودية، ففي الإمكان تجنيد الجنود من الغرب بسهولة. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية تم انتخاب الكاردينال هيلد براند ليشغل منصب البابا تحت اسم جريجوري السابع الذي كان ذائع الصيت بالفعل لما يتصف به من بأس واستقامة، وكان مقتنعا بسيادة كرسية البابوي ولذا لم يرسل خطاب إعلان الإيمان لأي من بطارقة الشرق، على أن الإمبراطور ميكايل رأى من الحصافة أن يبادر بإشارة ودية؛ فأرسل إليه خطاب تمتة أُلح فيه إلى رغبته في توثيق الصلة بينهما؛ فما كان من جريجوري الذي أسعدته تلك المبادرة إلا أن أرسل بطريق فينيسيا دومينيكس في سفارة بابوية إلى القسطنطينية ليستطلع الأحوال هناك. (١)

ومن المعلومات التي أدلى بها البطريق دومينيكس، توصل البابا جريجوري إلى

(١) See Gregory VII's letters in his *Registra*, I, 49, ii, 37, vol. I, pp. 70, 75, 173  
وترد زيارة Dominicus إلى القسطنطينية في نفس المراجع 2-31, pp. 18, *ibid.* I, 18, pp. 31-2. ومن المرجح  
أن جريجوري فشل في إرسال خطاب إلى البطارقة الشرقيين بعد توليه. أنظر Dvornik, *The Photian Schism*, pp. 327-8

إقناع نفسه بأن الإمبراطور ميكايل رحل مخلص، كما علم بالموقف في آسيا الصغرى الذي كان يشكّل خطورة على طريق الحج. ولم تكن فلسطين نفسها قد أُغلقت بعد أمام الحجاج، لكن سرعان ما ستصبح الرحلة عبر الأناضول مستحيلة ما لم تتوقف غزوات التركمان. وبخسبة سياسية خيالية خطط جريجوري سياسة جديدة؛ فالحرب المقدسة التي كانت تحقق نجاحاً في إسبانيا ينبغي أن تمتد حتى آسيا، لاسيما وأن أصدقاءه في بيزنطة يفتقرون إلى المساعدة العسكرية، وسوف يعارب جيشه ويدحر الكفار من آسيا الصغرى، وسوف يعقد حينئذ مجلساً في القسطنطينية حيث يكفّ مسيحي الشرق عن خلافاتهم وينهونها وهم صاغرون شاكرون، وسوف يعترفون بسيادة روما. (١)

ولا نعرف ما إذا كان الإمبراطور ميكايل على علم بنوايا البابا وما إذا كان سيرحبها. إذ لم يستطع جريجوري مطلقاً أن يضع خطته موضع التنفيذ؛ وقادته استقامة سياسته التي لا تليّن إلى متاعب أكثر فأكثر في الغرب مما اضطره إلى أن يتخلّى عن طموحاته في الشرق وإن لم ينسها أو يفقد اهتمامه بها يجري هناك.

وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية شلّع الإمبراطور ميكايل السابع. وما أن سمع جريجوري بالنبأ حتى حكم على الغاصب نيسفوراس بوتنياتس بالطرد من الكنيسة. وبعد ذلك بفترة قصيرة ظهر أحد المغامرين في إيطاليا وأعلن أنه هو الإمبراطور المخلوع، وادّعى النورمانديون أنهم يصدّقونه لفترة من الزمن، ومدّ له جريجوري يد العون. وجاء الدور على المعتصب نيسفوراس، فأطاح به ألكسيوس كومنينوس سنة ١٠٨١ ميلادية، وامتد قرار الطرد من الكنيسة ليشمل الإمبراطور الجديد. وفي يونيو (حزيران) كتب ألكسيوس إلى البابا في محاولة لاستعادة وده وطلب مساعدته في كفّ عدوان روبرت

---

(١) Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, I, 46, 49, ii, 3, 37, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. ii, pp. 64-5, 69-70, 111 112, 150-1

جيسكار، ولكن دون جدوى، ووجد في هنري الرابع الألماني حليفًا يبشر بالخير، وفي ذات الوقت أغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية. وبدأ واضحًا للبيزنطيين أن البابا كان متحالفًا مع النورماندين الغادرين الملحدين، وراحوا يتناقلون الحكايات الخيالية حول تكبره وافتقاره إلى المحبة المسيحية. وعندما سقط ميتًا في شبكة الكوارث التي نسجتها سياسته تلقوا النبأ بترحاب واعتبروا ذلك حكمًا نزل عليه من السماء. (١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية، وهو العام الذي مات فيه حريجوري، كانت العلاقات بين العالم المسيحي الشرقي والغربي باردة بصورة لم تحدث أبدًا من قبل؛ فالبابا طرد الإمبراطور من الكنيسة، وكان يشجع المغامرين متعدي الضمير علانية على مهاجمة رفاقهم المسيحيين، بينما كان العدو الرئيسي للبابا، وهو ملك ألتانيا، يتلقى الإعانات من البيزنطيين، فتزايدت مشاعر الاستياء والمرارة بين الجانبين، ولكن لم يكن هناك صدع حقيقي بينهما حتى ذلك الحين، وربما كانت الحلقة السياسية لا تزال تحفظ وحدة العالم المسيحي؛ ففي الشرق رجل دولة يمتاز بالبرونة والحكمة الكافيتين وهو الإمبراطور ألكسيوس، وتصادف أن ظهر في الغرب حينئذ رجل دولة له نفس الوزن.

#### تنصيب البابا إيربان الثاني

ولد أودوي لاجيري لعائلة نبيلة في شاتيلو — سير — مارن حوالي سنة ١٠٤٢ ميلادية، والتحق بمدرسة الكاتدرائية في ريم لتلقي العلم، وكان ناظر مدرسته القديس

---

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, iii, x, 1-8, vol. I, pp. 132-6; Malaterra, *Historia* op. cit. 1, xiii, 1-10, vol. I, pp. 1192-1193. وتورد أنا كومنين *Scitula*, in *M.P.L.* vol. cxlix, 1192-1193. وصفا عنوانها تشهيرا للحلاف بين حريجوري وهنري الرابع.

برونو الذي أصبح فيما بعد مؤسس النظام الكارثوزي (١)، وبقي في ريم ليصبح كاهنا ثم رئيسا لشمامسة الكاتدرائية، لكن ذلك لم يرضه، وفجأة قرر الاعتزال والانضمام لجماعة كلاني. وفي سنة ١٠٧٠ ميلادية تم تثبيت إيمانه على يد الراهب هيسو الذي تحقق من قدراته، وبعد فترة قام فيها بأعمال رئيس الدير نقل إلى روما التي سرعان ما أصبح فيها متهما، وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية عينه البابا حريجوري السابع (أسقفنا - كاردينال) في أوستيا، وفي الفترة من ١٠٨٢ إلى ١٠٨٥ ميلادية كان قاصدا رسوليا في فرنسا وألمانيا، ثم عاد ليبقى إلى حوار حريجوري أثناء السنوات الأخيرة التعيسة من فترة بابويته. وعلى أثر موت حريجوري، في المنفى ووجود البابا الزائف حيرت يحكمهم في روما، انتخب الكرادلة المخلصون للكرسي البابوي راهب موت كاسينو الضعيف الذي كان عازفا عن المنصب والذي اتخذ لنفسه اسم فيكتور الثالث. ولم يوافق كاردينال أوستيا على هذا الانتخاب وأظهر عدم موافقته، ولكن فيكتور لم يضمن له شرا، بل أنه وهو على فراش الموت في سبتمبر (أيلول) ١٠٨٧ ميلادية أوصى به لدى الكرادلة كخليفة له، كما كان معروفا أن حريجوري السابع قد رغب هو الآخر في استخلافه، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث حتى مارس (آذار) ١٠٨٨ ميلادية عندما أمكن عقد مجمع مقدس في تيراسينا لانتخابه تحت اسم إيربان الثاني. (٢)

كان إيربان مناسبا لمهمته؛ فكان يترك انطبعا مؤثرا في غيره، طويل القامة مليح الوجه واللحية، دمث الخلق، مقنع في حديثه. وإذا كان يفتقد ما كان يتميز به

(١) (المترجم) : نظام دين للرهبان ، لعب دورا هاما في حركة إصلاح الرهبنة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يجمع بين حياة الباسك في عزلة والحياة العامة داخل أسوار الدير وهو الشكل الوحيد ، لحياة دينية ذات صبغة اجتماعية بسيطة ، ولم يتطلب أي إصلاح مطلقا .

(٢) Leib, op. cit. pp. 1-4, and Gay, *Les Papes du XIe siècle*, pp. 356-8

جريتوري من حماس ووضوح الهدف، فقد فاقه في سعة النظرة والقدرة على معاملة الرجال، ولم يكن بنفس تكبر جريتوري وعناده، لكنه لم يكن ضعيفاً. ولقد عان الشَّحْن في ألمانيا عندما سجنه هنري الرابع لإخلاقه للبابا ولعقيداته، وكان بوسعه أن يكون صارماً قاسياً، لكنه فضّل أن يكون لطيفاً وأن يتجنب الجدل الذي قد يثير المراهرة والصراع.

وقد آلت إليه تركة ثقيلة؛ فهو لا يستطيع أن يعيش آمناً إلا في الأراضي النورماندية دون غيرها، لكن النورمانديين حلفاء أنانيون لا يعتمد عليهم، وروما في قبضة البابا الزائف جبيرت، فكان بوسع إيربان أن يتغلغل في الضواحي لكنه لا يستطيع أن يجاوزها دون إراقة الدماء، وهذا ما رفض إثارته. وفي الشمال ساندته ماتيلدا أوف توسكاني مساندة مخلص في سائر أنحاء أراضيها الشترامية، وفي سنة ١٠٨٩ ميلادية عززت مركزها بزواج عايت من الأمير الألماني ويلف أوف بافاريا، وهو صبي يصغرها بأكثر من نصف عمرها. على أنه في عام ١٠٩١ ميلادية هزم هنري الألماني جيشها هزيمة منكرة في موقعة تريزونتاي، وكان هنري في أوج قوته بعد أن تَوَسَّه البابا الزائف إمبراطوراً في سنة ١٠٨٤ ميلادية، فصار الآن سيد ألمانيا والظافر في شمال إيطاليا. ولم يكن في مأمول البابا إيربان أن يأمر فيقطاع في تلك الأراضي الشاسعة وهو في ذلك الوضع غير المأمون.

على أن إيربان واصل العمل بثبات ولباقة إلى أن تغير كل شيء سنة ١٠٩٣ ميلادية؛ إذ تمكن بالمال وليس بالسلاح أن يقضي عيد الميلاد من ذلك العام في روما، وفي الربيع التالي اتخذ لاتيران (١) مقراً لإقامته. وضعف الإمبراطور هنري من جرّاء تمرد ابنه كونراد الذي كان إيربان يشجع سحقه تشجيعاً هادئاً، وأما نجاحه في موطنه

(١) (المترجم) : لاتيران : كنيسة القديس "جون لاتيران" وكندراتية البابا باعتباره أسقف روما وملحق بها القصر الذي أصبح الآن متحفاً.

فرنسا فبرجع إلى ملكاته التنظيمية في جمع الهيكل الكنسي كله تحت سيطرته، وبلغ نفوذه في إسبانيا ذروته، وشيخاً فشيخاً توالى اعتراف بلاد الغرب البعيدة بسلطانه الروحاني. ونبذ الإصرار على المطالبة بالسيادة السياسية التي نادى بها جريجوري السابع من قبل، وأظهر للأمرءة الدنيويين المنتشرين في كل مكان، باستثناء من جاهره بالعناء، حلماً بالغ المدى. وفي سنة ١٠٩٥ ميلادية أصبح السيد الروحاني للعالم المسيحي الغربي. (١)

وفي تلك الأثناء حوّل انتباهه إلى العالم المسيحي الشرقي. وبعد أن مات روبرت حيسكار برز أخوه روجر الصقليّ معلناً أنه القوة الرئيسية للنورماندين، ولم يكن يرغب في الإساءة إلى بيزنطة أكثر من ذلك. واستغل إيربان انعقاد مؤتمر ملفسي في سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٨٩ ميلادية — وحضور سفراء الإمبراطور — فرفع إعلان الطرد من الكنيسة الصادر ضد الإمبراطور ألكسيوس. واستجاب ألكسيوس لهذه اللقطة بأن عقد في نفس الشهر مجمّعاً في القسطنطينية انتهى إلى أن اسم البابا حُذف من اللوح التذكاري المزدوج "دون صدور قرار كنسي وإلما، كما قيل، نتيجة الإهمال"، واقترح في هذا المجمع إعادة وضع الاسم بمحرد استلام خطاب إعلان الإيمان من البابا. واعتبر المجمع أنه ليس ثمة سبب حقيقي لأي خلاف بين الكنائس، وأوصى باستشارة بطريرقي الإسكندرية والقدس، وأما بطريرق أنطاكية فكان حاضراً بنفسه. وكتب بطريرق القسطنطينية نيكولاس الثالث إلى إيربان يخبره بتلك القرارات ويرجوه إرسال خطاب إعلان الإيمان في غضون ثمانية عشر شهراً، وأكد له حرمة الكنائس اللاتينية في القسطنطينية في ممارسة أعرافها، ولم يذكر له أية خلافات لاهوتية. ولم يلق ذلك قبولاً حسناً من سفراء الإمبراطور في إيطاليا وهم: بازل مطران تران، ورومانوس رئيس أساقفة رومانو، ورجال الدين اليونانيين الذين شعروا بالخطر من التعدي البابوي داخل

(١) Gay, *op. cit.* pp. 358-63



أراضيهم، وقد صدمتهم ادعاءات البابا بأن أسقفيته — بعض المسيررات التاريخية — يجب أن تشمل في الواقع ثيسالونيكا، وكانوا يفضلون لو أن أليكسيوس ساند البابا الزائف. لكن أليكسيوس استقر رأيه على تفضيل أحد الرجلين، وكان ممن الواقعية بحيث قبل ضياع الجزء البيزنطي في إيطاليا، بينما أسرع بحيرت — البابا الزائف — بالإساعة إلى أصدقائه اليونانيين بأن عقد مجلسا في روما أدان فيه زواج رجل الدين. (١)

وفي واقع الأمر أن إيربان لم يرسل خطاب إعلان الإيمان في أي حال، وربما كان مرجع ذلك إلى عزوفه عن إثارة أية مسائل لاهوتية؛ كما لم يرد اسمه مطلقاً في اللوح التذكاري المزدوج في القسطنطينية. ولكن العلاقات الحسنة بقيت. وفي سنة ١٠٩٠ ميلادية أرسل أليكسيوس سفارة إلى إيربان تحمل رسالة صداقة ودية. وتنعكس وجهة نظر بيزنطة الرسمية في مقال كتبه ثيوفيلكت رئيس أساقفة بلغاريا، رجا فيه القراء ألا يبالغوا في أهمية توحيد الأعراف الكنسية، وتأسى على إضافة كلمة فيليوك إلى قانون الإيمان المسيحي، لكنه فسر أن الفقر الذي تعانیه اللغسة اللاتينية في المصطلحات اللاهوتية خلق بأن يسبب سوء الفهم، ولم يتناول بشكل حدي الادعاء البابوي بفرض السلطة على الكنائس الشرقية (٢). ولم يكن هناك في حقيقة الأمر أي سبب يدعو إلى

(١) يرد تقرير المجمع مع الرسائل ذات الصلة في :  
Holtzmann, ' Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089 ', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. xxviii, pp. 60-7.  
والصيغة المتصلة بما توصل إليه المجمع المقتبسة أعلاه لا بد أن تعني أن الطريق Sergius II تصرف سنة ١٠٠٩م دون إحالة الموضوع إلى المجمع أو استشارة رسالة البطارقة. وعن  
Loewenfeld, *Guibert Regesta*, vol. - Jaffé 1.p. 652

(٢) عن تقرير سفارة أليكسيوس إلى إيربان أنظر-64 pp. in Holtzmann, *op.cit.*  
phyllact's treatise is published M.P.G. vol. cxxvi, cols. 222-50

أن يتطور الصدع، واستمر لاهوتيون شرقيون آخرون في مناقشة الفروق بين الأعراف بنمرة هادنة. ومن بين هؤلاء الكتاب بطريق القديس سيميون الثاني الذي أدان الاستخدام اللاتيني للحبز غير المخمر في تناول العشاء الرباني، ولكن بألفاظ لا تشوبها الخدعة بأي حال. (١)

#### المجلس الكنسي في بياتشوا

وفي أوائل سنة ١٠٩٥ ميلادية ارتحل البابا إيربان الثاني من روما باتجاه الشمال، واستدعى ممثلي جميع الكنائس الغربية لمقابلته في المحفل العظيم الأول ليايونته الذي قرر عقده في مارس آذار في بياتشوا. وفي المحفل أصدر رجال الدين المؤمنون قرارات تدين السيمونية (٢)، وزواج الكاهن، وتعارض الصدع داخل الكنيسة، كما ناقشوا ما اقترقه ملك فرنسا من الزنا ولكن تقرر عدم اتخاذ أي إجراء حتى يتمكن إيربان من زيارة فرنسا بنفسه. وجاء رسل من كونراد — ابن الإمبراطور هنري — لترتيب لقائه مع البابا في كريمونا، وجاءت الإمبراطورة زوجة هنري بنفسها — براكسيديس الروسية — ومن بيت اسكندنافيا حكم في كييف — لتشكو المهانات التي عانتها من زوجها. وكان المحفل بمثابة المحكمة العليا للعالم المسيحي الغربي والبابا بمثابة رئيس للقضاة.

---

(١) Symeon's treatise is published by Leib, *Deux Inéélits Byzantins sur les*

*Azymites*, pp. 85-107 ويرتاب Leib في أصالة رسالة Symeon إذ يدوا أن هذا الرسالة

تقابل رسالة أخرى كتبها Bruno of Segni حوالي سنة ١١٠٨ م. غير أن Michel, *Amalfi und Jersalem im griechischen Kirchenstreit* ويظهر أن الرسالة تقابل رسالة أسعري

كتبها من يدعى Laycus يتحلها برونو.

(٢) (المترجم) السيمونية : بيع المناصب الكهنوتية أو شرائها .

وكان من بين الحضور في المجلس مبعوثو الإمبراطور أليكسيوس الذي كانت حروبه مع الأتراك تحقق نجاحًا بالنظر إلى التدهور الواضح في القوة السلجوقية، وما هي إلا حملات قليلة محكمة التوقيت وبنهزم السلاجقة إلى الأبد. ولكن إمبراطوريته تفتقر إلى الجنود، ولم تكن أماكن تجنيد الجنود في الأناضول منتظمة كما كانت من قبل وقد ضاع الكثير منها؛ ولذا كان أليكسيوس يعتمد بدرجة كبيرة على المرتزقة الأجانب وعلى فصائل تتألف من البشنيق، وقبائل أخرى من السهول استخدمها أساسًا كحرس للحدود وكشرطة عسكرية، والحرس الفارنجي الذي يتألف أساسًا من الأأنجلوساكسون الهاريين من إنجلترا النورماندية، وجماعات من مغامري الغرب الذين التحقوا بالخدمة في جيشه بشكل مؤقت، وكان أبرز هؤلاء جميعًا هو الكونت روبرت الأول من فلاندرز الذي حارب من أجله سنة ١٠٩٠ ميلادية. وبرغم قدرة الإمبراطور على تجنيد الجنود من مواطنيه، كانت احتياجاته لا تزال تطلب المزيد؛ إذ كان عليه أن يحرس حدود الدانوب الطويلة من هجمات برايرة الشمال، وفي الشمال الغربي كسان الصربيون متململين. ونادرًا ما يهدأ رعاياه البلغاريون لفترة طويلة، ودائمًا ما كان خطر العدوان النورماندي يهدده من إيطاليا. وأما في آسيا الصغرى فإن الدفاع عن الحدود غير المحددة بدقة، وعن تغورها، والحفاظ على النظام العام، والمواصلات، استنفد ما تبقى له من موارد. فإذا كان له أن يأخذ زمام المبادرة فليس هناك بد من تجنيد المزيد من الجنود. ولسوف تشر سياسته تجاه البابوية إذا تمكن من استخدام النفوذ البابوي لكي يجد له هؤلاء الجنود. وكان إيربان متعاطفًا؛ وكان البرنامج البابوي يشمل تخريبض فرسان الغرب للمشاكسين على استخدام فصائل جنودهم في قضية بعيدة وأكثر قداسة. ودُعي السفراء البيزنطيون لمخاطبة المؤتمر.

وليس لدينا ما أقوى من عخطب. ولكن يبدو أنهم لكي يقتنعوا سامعهم بأن الخدمة مع الإمبراطور جذيرة بالتقدير ركّزوا تركيزًا خاصًا على الصعاب التي يعانيها مسيحيو الشرق إلى أن يتم طرد الكفرة. وإذا كان على الكنيسة أن تقوم بتشجيع

تجنيد الجنود، فإن عرضها للأحور العالية وحدها لم يكن كافياً، وكان عليها أن تلجأ إلى الحجة الأقوى التي تتمثل في استشارة الواجب الديني. ولم تكن تلك اللحظة هي التي يمكن فيها تقييم منجزات بيزنطة تقييماً دقيقاً، وإنما كان لابد من أن يرجع الأساقفة إلى أوطانهم وقد أدخل في روعهم أن سلامة العالم المسيحي ما تزال مهددة، ومن ثم يكونون تواقين إلى إرسال أفراد من رعاياهم إلى الشرق لينضموا إلى الجيش المسيحي. وتأثر الأساقفة، وكذلك البابا. فعندما كان في طريقه إلى كرمونا ليلقى تيجيل كونراد الصغير، وبينما هو يعبر ممرات جبال الألب إلى فرنسا، راح يقلب في ذهنه مخططاً أوسع وأجند، متخيلاً حرباً مقدسة.<sup>(١)</sup>

---

(١) Bernold of Constance, ad ann. 1095, p. 161; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vol. v, pt. 1, pp. 394-5. See also Munro in *American Historical Review*, vol. xxvii, pp. 731-3

\_\_\_\_\_

## الفصل الثالث :

# الدعوة



## الدعوة

«اسمَعُوا لِي يَا أَشِدَّاءَ الْقُلُوبِ الْبَعِيدِينَ  
عَنِ الْبَرِّ».

( إشعياء: ٤٦ — ١٢ )

وصل البابا إيربان إلى فرنسا في أواخر صيف ١٠٩٥ ميلادية، وفي الخامس من أغسطس (آب) كان في فالينس، وفي الحادي عشر وصل إلى لوبوى، ومن هناك أرسل رسائل إلى أساقفة فرنسا والأراضي المجاورة طالبا منهم مقابته في كليرمونت في نوفمبر (تشرين الثاني) . وفي تلك الأثناء اتجه جنوبا لقضاء سبتمبر (أيلول) في إقليم بروفانس، في أفينيون وسانت جيل، وفي أوائل أكتوبر (تشرين أول) كان في ليون، ومن هناك



واصل رحلته إلى برجاندي. وفي ٢٥ من نفس الشهر كان في كَلان حيث أضافى القداسة على مذبح الكاتدرائية الكبيرة التي كان الراهب هيو قد بدأ بناءها، ومن كَلان ذهب إلى سوفيين بالقرب من مولان لتبجيل مقبرة القديس مايولويس أقدس رهبان كَلان، وهناك لحق به أسقف كليرمونت لمرافقته إلى مدينته الأسقفية استعداداً للمؤتمر.<sup>(١)</sup>

وكان إيربان أثناء ترحاله منشغلاً بشؤون الكنيسة في فرنسا، ينظم ويصحح، ويمدح ويؤنب، بحسب ما تقتضي به الأحوال، ولكن ترحاله مكَّنه أيضاً من متابعة عطلته. ولا نعرف ما إذا كان قد قابل وهو في الجنوب ريموند أوف سانت جيل، كونت تولوز، ومركز إقليم بروفانس، الذي ذاعت شهرته لقيادته الحرب المقدسة في إسبانيا، لكنه كان على اتصال به ولابد أنه سمع بغيرته. وكان أهل كَلان من المهتمين بطريق الحج إلى كومبوستيلا أو إلى القدس على السواء، وأخبروه بالصعاب القاهرة التي يعانيها الحجاج الآن مع تفسخ السلطة التركية هناك، وعلم أن الطرق عبر آسيا الصغرى ليست مغلقة وحسب، بل أن الأراضي المقدسة هي الأخرى موصدة بالفعل.

#### مؤتمر كليرمونت

وانعقد مؤتمر كليرمونت من ١٨ إلى ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٠٩٥ ميلادية، وحضر حوالي ثلاثمائة من رجال الدين، وشملت أعمال المؤتمر نطاقاً واسعاً؛ وبوجه عام تكررت المراسيم التي تحظر الاحتفالات بتقليد المناصب الدنيوية، والتي تدين السيمونية

(١) عن تحركات إيربان، انظر Gay, op. cit. pp. 369-72; Chalandon, *Histoire de la première Croisade*, pp. 19-22

وزواج رجال الدين، وناصر المؤمنين هذنة الرب (١)؛ وبوجه خاص، طرد الملك فيليب من الكنيسة بسبب الزنا وأسقف كامبراي بسبب السيمونية، وتأسست سيادة كرسي ليون الأسقفى على الكراسى الأسقفية في سين وريم (٢). على أن البابا كان يرغب في استغلال تلك المناسبة لهدف أحط؛ فأعلن عن عقد اجتماع عام في يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ليذيع إعلاناً هاماً؛ فكانت الحشود من رجال الدين والعوام التي تجمعت من الضخامة بحيث لم تسعها الكاتدرائية التي انعقد فيها المؤتمر، لذا وُضع العرش البابوي على منصة في الخلاء خارج البوابة الشرقية للمدينة، وهناك، وبعد أن تجمعت الحشود، لخص إيربان على قدميه مخاطبتها.

ولقد دون لنا كلمات البابا أربعة مؤرخين معاصرين له. ويزعم أحدهم، وهو روبرت الراهب أنه شهد الاجتماع، وجاءت رواية كل من بودري أوف دول وفولشر أوف تشارتر كما لو كانا حاضرين الاجتماع، وأما الرابع جيمس أوف نوجنت فيحتمل أن يكون قد نقل روايته عن غيره، لكن لم يدّع أحد منهم بأنه يسرد سرّداً لفظياً دقيقاً، وكتب كل منهم تاريخه بعد ذلك بسنوات قلائل، ولَوْن روايته على ضوء الأحداث التي تلت، وليس بوسعنا أن نعرف حقيقة ما قاله إيربان إلا على وجه التقريب. ويبدو أنه قد بدأ خطبته بأن أخبر سامعيه بضرورة مساعدة إخوانهم في الشرق، فالعالم المسيحي الشرقي يستغيث من أجل المساعدة، والأثرak يتقدمون إلى قلب الأراضي المسيحية، ويُسيثون إلى السكان، ويستبيحون مزارعهم المقدسة. ولكن حديثه لم يكن منصباً على بيزنطة وحسب، وإنما ركّز على القداسة الخاصة للقدس،

(١) (الترجم) هذنة الرب ، أو الهذنة الإلهية : وقف الحرب أو العداوات الخاصة في أيام معينة لتتفل بها الكنيسة .

(٢) Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v, pt. 1, pp. 399-403; Mansi, *Concilia*, vol. xx, pp. 695-6, 815 ff.

ووصف ألوان المعاناة التي يعانيها الحجاج في سفرهم إلى هناك. وبعد أن رسم تلك اللوحة الكئيبة أعلن مناشدته العظمى: "فليهب العالم المسيحي الغربي لإنقاذ الشرق، يجب أن يذهب الغني والفقير على السواء، وينبغي لهم أن يكفوا عن ذبح بعضهم البعض، وأن يجاربوا بدلاً من ذلك حرباً مقدسة فيكونوا بذلك فاعلين عمل السرب، وسوف يقودهم الرب، ومن يمت في المعركة يفزّ بالفران ويمحو الذنوب، وما الحياة على الأرض إلا حياة البؤس والشر، يهرق الناس أنفسهم فيحصدوا دماراً أبدانهم وأرواحهم، هنا الناس فقراء تعساء، وهناك متمتعون مزدهرون، وأصدقاء الرب بمحق، ولا ينبغي أن يكون هناك تأخير، فليكونوا على أهبة الاستعداد للانطلاق عندما يحل الصيف، وسيكون الرب مرشدكم." (١)

وتحدث إيربان بحمية وبكل فنون الخطيب البارع، وكانت الاستجابة فورية وهائلة؛ فكم من مرة يقاطع الناس الخطبة بصرخات: "الرب يشاؤها!". وقبل أن ينهي

(١) لورد خطبة إيربان حصة من المؤرخين :

Fulcher of Chartres, 1, iii, pp. 130-8; Robert the Monk, 1, i-ii, pp. 727-9; Budri, Historia Jezosolimitanan, 1, iv, pp. 12-15; Guibert of Nogent, II, iv, pp. 137-40; and William of Malmesbury, *Gesta Regum*, vol. II, pp. 393-8. وكان ولیم قد كتب بعد ذلك بموالي ثلاثين سنة ؛ أما الأربعة الباقون فقد كتبوا كما لو كانوا حاضري الخطبة ، ويدعي Baudri في الواقع أنه كان هناك قطعاً . لكن كلا من Baudri و Guibert يعترف بأن النص الخاص به ربما لم يكن صحيحاً تماماً . وتختلف النصوص الأربعة اختلافاً كبيراً . ويحمل Munro في مؤلفه " خطبة البابا إيربان الثاني في كلمه مونت The Speech of Pope Urban II at Clermont " السواردي في *American Historical Review*, Vol. xi, pp. 231 ff. الاختلافات بين النصوص ويأمل أن يجد النص الفعلي عن طريق تجميع النقاط التي يتفق عليها هؤلاء المؤرخون. غير أنه من الواضح أن كل مؤرخ كتب الخطبة التي ظن أن البابا لابد وأن ألقاها وأضاف إليها ألفاظه البلاغية التي يفضلها.

البابا كلمنته أو بكاد، خفض أسقف لوبري من مقعده، وركع أمام العرش متوسلاً السماح له بالانضمام إلى الحملة المقدسة، وتراجع المئات ليحذوا حذوه، ثم ركع الكاردينال حريجوري وردد بصوت مرتفع صلاة الاعتراف، ورددها وراءه الخشوع المختلدة، وعندما انتهت الصلاة خفض إيربان مرة أخرى ونطق بالغفران الكنسي، وطلب من الحاضرين الانصراف.<sup>(١)</sup>

وفاق الحماس كل توقعات إيربان. ولم تكن خططه لتوجيه ذلك الحماس قد اكتملت بعد، ولم يكن أحد من كبار القوم حاضراً في كليرمونت، إذ كان الحاضرون كلهم من بسطاء الناس، ومن الضروري ضمان مساندة دينوية أكثر صلابة. وفي الوقت نفسه جمع إيربان أساقفته مرة أخرى لإحراء مزيد من المشاورات. وأصدر المؤتمر بالفعل مرسوماً عاماً، ربما بناء على طلبه، بالعفو عن الجزاءات الدينية لكل من تتوفر لديه النوايا الورعة للاشتراك في الحرب المقدسة. وأضيف إلى ذلك وضع المتعلقات الدينية للمشاركين تحت حماية الكنيسة أثناء غيبتهم في الحرب، فيكون الأسقف المحلي مسئولاً عن حفظها وإعادةها سليمة إلى المحارب حال عودته إلى الوطن. وينبغي لكل من يشارك في الحملة أن يضع علامة الصليب كرمز لتفانيه، على أن يكون الصليب من مادة حراء تحاك على كتف معطفه، وينبغي لكل من يأخذ الصليب أن يقسم على الذهاب إلى القدس، فإذا ما تعجل العودة، أو قتل في القيام بالرحلة، يكون مصيره الطرد من الكنيسة. وأما رجال الدين والرهبان فلا يأخذون الصليب دون إذن من أسقفهم أو راهبهم الذي يرأسهم، ويتعين تثبيت همة كبار السن والضعفاء عن الانضمام إلى الحملة، ولا يجب أن يذهب أحد مطلقاً دون الترحيوع إلى مستشاره الروحاني. ولن تكون الحرب مقصورة على الغزو؛ ففي كل المدن التي يتم الاستيلاء عليها من الكفرة يتعين استعادة حقوق الكنائس الشرقية وممتلكاتها، وينبغي لكل

(١) Robert the Monk. I ii-iii, pp. 15-16; Baudri, I, v, p. 15

مشترك أن يتأهب لمغادرة منزله بحلول عيد الصعود (١٥ أغسطس/آب) من العام التالي بعد جمع الحصاد، ويجب أن تتجمع الجيوش في القسطنطينية. (١)

#### تنظيم الحملة الصليبية

وكانت الخطوات التالية هي ضرورة تعيين قائد للحملة، وأراد إيربان أن يوضح أن الحملة تحت سيطرة الكنيسة، ويجب أن يكون رئيسها كنسيًا - قاصده الرسولي - وعين أسقف لوبوي رئيسًا للحملة بإجماع المجلس.

ويتمي أسقف لوبوي، وهو أديمار دي مونتي إلى أسرة كونتات فالنتوا، وهو رجل متوسط العمر، سبق له الحج إلى القدس قبل ذلك بتسع سنين، وقد قساز بقيادة الحملة لأنه كان أول من لبى نداء إيربان، على أنه نظرًا إلى استضافته لإيربان من قبل في لوبوي في أغسطس (آب)، فلا بد وأن يكون قد حادثه هناك عن الشؤون الشرقية، وعلى ذلك من الممكن ألا تكون حركة المبادرة لتلبية نداء إيربان تلقائية تمامًا. ولقد كان تعيينه قائدًا للحملة تعيينًا حكيمًا؛ إذ أثبتت الأحداث التي تلت أنه واعظ بارع، ودبلوماسي لبق، وواسع الأفق وهادئ وشفوق، ورجل يحترمه الجميع، يسعى إلى الإقناع بدلًا من إصدار الأوامر. وقد استعمل نفوذه بشكل لا يعرف الكلل في كبح الأهواء وبث الحماس، على أن نفوذه هذا لم يكن دائمًا من الثبات بحيث يؤثر في

---

(١) القرارات الكنسية مجمع كلير مونت يوردها Mansi, *Concilia*, vol. في Lambert of Arras xx, pp. 815-20 ولا يتعلق بالحملة الصليبية بصورة مباشرة سوى القرار الأخير الثالث

والثلاثين، وعلى الرغم من أن Gratian ينسب إلى المجمع فهو غير موجود في قرارات مجمع Rouen

الذي استنسخ قرارات مجمع كلير مونت. أنظر Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v. p. 339.

ويطلق Chalandon, *op. cit.* pp. 44-6 ترتيبات البابا من شتّى المصادر التي تعتبر مشوشة نوعاً ما.

وجهاء القوم الذين كانوا يتبعونه من الناحية الاسمية فقط. (١)

وكان أول الوجهاء الذين طلبوا الاشتراك في الحملة هو الكونت ريموند أوف تولوز، ففي أول ديسمبر (كانون الأول)، وأثناء وجود إيربان في كليرمونت، جاءه الرسل تخبره بأن الكونت وكثيرا من نبلائه توافقون لأخذ الصليب، ولم يكن ريموند الذي كان في تولوز، قد سمع بأنباء الخطاب العظيم في كليرمونت، فلا بد وأن يكون قد علم به قبل وصول الرسل، ولأنه كان أول من علم بالمشروع، وأول من أقسم القسم، فقد رأى ضرورة توليه القيادة الدنيوية على اللوردات العظام الآخرين، فأراد أن يكون هو موسى وأدهمار هو هارون. ولم يكن إيربان ليقبل ذلك الادعاء، لكن ريموند لم يتحل عنه البتة، وفي ذات الوقت خطط للتعاون المخلص مع أدهمار.

وفي الثاني من ديسمبر (كانون الأول) غادر إيربان كليرمونت. وبعد زيارته لشيء بيوت كلان أمضى عيد الميلاد في ليموج حيث قام بالتبشير بالحرب الصليبية في الكاتدرائية، ثم مضى شمالا خلال بواتيه إلى وادي اللوار، وفي مارس (آذار) وصل إلى تور حيث عقد مجلسا، وفي يوم من أيام الأحد دعا إلى عقد مجمع لمقابلته في ناحية من الأراضي الخضراء على ضفاف النهر، ومن فوق منصة متواضعة ألقى موعظة طويلة وقورة حاضا مستمعيه على التوبة والذهاب إلى الحرب الصليبية، ومن تور تحول جنوبا مرة أخرى خلال أكتيان مارا بمدينة سينت وبوردو إلى تولوز التي كانت مقر رئاسته في مايو (أيار) ويونيه (حزيران)، وأتيحت له مناسبات عديدة لمناقشة الحرب الصليبية مع مضيقة الكونت ريموند، وفي وقت متأخر من يونيه (حزيران)، انتقل إلى

(١) Robert the Monk, I, iv, p. 731; Guibert, II, v, p. 140 وعن تاريخ

Adhemar السابق أنظر النصوص المجمعة في Chevalier, *Cartulaire de Saint-*

*Chaffre*, pp. 13-14, 139, 161-3

بروفانس، ورافقه ريموند في رحلته إلى نيم.

#### إيربان يعود إلى إيطاليا

وفي شهر أغسطس (آب) عبر البابا حبال الألب مرة أخرى إلى لومباردي، ولم تكن رحلته لقضاء عطلة؛ إذ أمضى الوقت كله في مقابلات مع رجال الكنيسة، وفي كتابة الرسائل، ساعياً لإتمام تنظيم الكنيسة في فرنسا، وفوق كل ذلك واصل خططه من أجل الحملة الصليبية، وأرسل إلى كل أساقفة الغرب رسائل مجمعة بالقرارات التي تم اتخاذها في كليرمونت. وفي بعض الحالات عقدت مجالس إقليمية لاستلام تلك الرسائل والنظر فيما يمكن عمله على المستوى المحلي، ومن المحتمل أن تكون القوى الدنيوية الرئيسية قد أخطرت هي الأخرى برغبات البابا (١). وفي نهاية سنة ١٠٩٥ ميلادية كتب إيربان من ليموج إلى جميع المخلصين في فلاندرز مشجعاً إلى قرارات مؤتمر كليرمونت، وطالباً موازرتهم، (٢) وكانت الاستجابة التي أتته من فلاندرز والأراضي المجاورة باعثة على الرضا الكامل. وفي يولييه (تموز) سنة ١٠٩٦ ميلادية تلقى وهو في نيم رسالة من الملك فيليب يعلن فيها خضوعه التام في مسألة الزنا الذي اقترقه،

(١) Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, IX, 3, vol. III, p. 470.,

*Inventaire*, p. 109 ويقتبس Riant, op. cit. p. 113 نصا كتب في القرن السادس

عشر، يرتكز على مستند ما ضائع فيما يبدو، يخبر فيه البابا عوام اللوردات برغباته. وترد

لحركاته بالتفصيل لدى Crozet في مؤلفه *Le Voyage*

' d'Urban II', in *Revue Historique*, vol. CLXXX, pp. 271-310

(٢) برد الخطاب في Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 136-7 وفيه هنا

الخطاب بمحدد إيربان الخامس عشر من أغسطس تاريخاً لرحيل الحملة الصليبية.

وربما أخيره كذلك بانضمام أخيه هيو أوف فرماندوا للحملة الصليبية. (١) وفي نفس الشهر برهن ريموند أوف تولوز على صدق نواياه بتنازله عن الكثير من ممتلكاته لدير سانت جيل. (٢) وربما بناء على نصيحة ريموند قرر إيربان الاستعانة بقوة بحرية للمحافظة على إمدادات الحملة؛ فذهب قاصدان رسوليان برسائل إلى جمهورية جنوا طلبا لتعاونها، ووافقت الجمهورية على تقديم اثني عشر قادسا (٣)، وكذا تقديم تسهيلات النقل، لكنها توعدت الحذر وأرسلتها متأخرة إلى أن تيقنت من مدى جدية حركة الحرب الصليبية، ولم يبحر ذلك الأسطول من جنوا إلا في سنة ١٠٩٧ ميلادية، وفي نفس الوقت انضم كثيرون من أهل جنوا وأخذوا الصليب. (٤)

وعند عودة إيربان إلى إيطاليا تأكد من نجاح مخططة؛ فقد قبلت نداءاته بطاعة وحماس، وأسرع الرجال من كل مكان بعيد كبعد إسكتلندا والدانمرك وإسبانيا إلى أخذ العهد، ورهن البعض ممتلكاتهم وأراضيهم للحصول على المال اللازم للرحلة، ووهب البعض كل ممتلكاتهم للكنيسة لتوقعهم عدم العودة مطلقا، وانضم عدد كبير من عظام النبلاء إلى الحملة الصليبية ليوفروا لها مساندة عسكرية هائلة؛ فبالإضافة إلى ريموند أوف تولوز، وهيو أوف فرماندوا، كان روبرت الثاني أوف فلاندرز، وروبرت دوق نورماندي، وستيفن زوج أخته، وكونت بلوا، يعدون العدة للانطلاق، والملفت للنظر على نحو أكبر انضمام رجال يدينون بالولاء للإمبراطور هنري الرابع. وكانت الشخصية الرئيسية من بين هؤلاء هسي جودفري أوف بويلون دوق

(١) Philip Jaffé-Loewenfeld, *Regesta*, vol. 1, p. 688 لم يفي Philip برعده بالثبوت .

(٢) Document given in d'Achéry, *Spicilegium*, 2<sup>nd</sup> ed. Vol. 1, p. 630, and *Mansi, Concilia*, vol. xx, p. 938.

(٣) Caffaro, *De Liberatione*, pp. 49-50

(٤) (الترجم) ، القادسي : نوع من السفن القديمة التي تبحر بالشراخ والمجاديف



اللورين الأسفل الذي أخذ الصليب مع أخويته إيوسناس — كونت بولونيا —  
وبالدوين. والتف حول هؤلاء القادة كثير من النبلاء الأقل منزلة، والقليل من رجال  
الكنيسة البارزين مثل أسقف بايو. (١)

ووجد إيربان في إيطاليا تحمسًا مائلاً. ففي سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٩٦ ميلادية  
كتب إلى مدينة بولونيا شاكرًا مواطنيها على حماسهم، وحذرهم من الارتحال إلى  
الشرق دون الحصول على إذن من قساوستهم، كما لا ينبغي للمستزوجين حديثًا أن  
يرحلوا دون موافقة زوجاتهم. وفي تلك الأثناء وصلت أخبار الحملة إلى جنوب إيطاليا،  
فرحب بها كثير من النورماندين ترحيبًا حارًا، فقد كانوا دائمًا متأهبين ليبتدعوا مغامرة  
جديدة. وفي أول الأمر تمهل الأمراء، ولكن بوهيموند ابن جيسكار وأمير تسارانتو —  
وقد أحبط أخوه روجر بورصا وعمه روجر الصقلي طموحاته في إيطاليا — سرعان ما  
تحقق من الإمكانيات التي ستفتحها له الحرب الصليبية، فأخذ الصليب مع كثيرين من  
عائلته وأصدقائه، وحلب اشتراكهم في الحركة العديد من أكثر الجنود تمرسًا وإقدامًا في  
أوروبا. وعندما عاد إيربان إلى روما في احتفالات أعياد الميلاد سنة ١٠٩٦ ميلادية  
كان يشعر شعور اليقين بأن الحرب الصليبية قد شنت بالفعل. (٢)

وحقيقة الأمر أن إيربان أطلق العنان لحركة أضخم مما كان يتصور. وربما كان  
من الأفضل لو استجاب لندائه عدد أقل من عظماء اللوردات؛ فربما أن الحمية الدينية  
الأصلية كانت هي الدافع الأقوى بالنسبة لهم جميعًا فيما عدا بوهيموند، فإن مشاريعهم  
الدينيوية، والخلافات التي سادت بينهم سرعان ما خلقت صعابًا تجاوزت سيطرة

(١) للإطلاع على قوائم كاملة للصليبيين، أنظر ما يلي، الجزء الثالث، الفصل الأول.

(٢) Urban II, *Letter to the Bolognese*, in Hagenmeyer, op. cit. pp. 137-8.

وعن النورماندين أنظر ما سبق الصفحات ١١٠-١١٣.

القاصد الرسولي البابوي تعاوذا بعيدا، كما كان أكثر عجزا أمام الصعوبات التي حلقها العوام البسطاء الذين أتوا من سائر أنحاء فرنسا وفلاندرز وأراضي نهر الراين الألمانية.

#### بطرس الناسك

وطلب البابا من أساقفته أن يبشروا بالحرب الصليبية. على أن التبشير الأبلغ أثرًا كان تبشير الرجال الأكثر فقرًا؛ فقد بشر بالحرب الصليبية أتباع الكنيسة الإنجيلية مثل روبرت أوف آربرميل، مؤسس دير رهبان وراهبات فوتيفرولت، بل كان الأكثر نجاحًا في التبشير راهب متحوّل يدعى بطرس. وكان بطرس رجلاً متقدمًا في السن، وُلد في ناحية ما قريبة من أميان، ويُحتمل أنه حاول الحج إلى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة، لكن الأتراك عاملوه معاملة سيئة وأجبروه على العودة. ويعرفه معاصروه على أنه بطرس الصغير (شتو) أو (كيوكيو) في حجة بيكار، بيد أنه فيما بعد اشتهر بكنية "الناسك"، بسبب غطاء الرأس الذي اعتاد أن يرتديه، وهي الكنية التي اشتهر بها تاريخيًا. وكان رجلاً قصير القامة، أسمر اللون، له وجه طويل نحيل شديد الشبه — على نحو يثير الذعر — بالحمار الذي يركبه دائمًا، والذي يكاد أن يلقي نفس التحجيل الذي يلقاه راكبه، يمشي حافي القدمين، فخر الثياب، وقد حرّم على نفسه أكل الخبز واللحم، لكنه كان يأكل السمك ويشرب النبيذ. وبرغم مظهره الوديع كانت له قوة تحسرك الرجال، وكان هناك جوّ غريب من السلطان يحيط به، ويُخبرنا جيبيرت أوف نوجنت، الذي كان يعرفه معرفة شخصية: "ما من شيء يقوله أو يفعله إلاّ ويبدو شيئًا شبه إلهي." (١)

(١) Guibert, I, vii, p. 142 وتزد أكثر المناقشات اكتمالا عن أصل بطرس وسورة حياته المبكرة في :

Hagenmeyer, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite*, trans. By Furcy Raynaud, pp. 17-63. Guibert describes him in II, viii, p. 142; Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, p. 477 ويندد العدد بأنه ١٥٠٠ من التابعين الذين تبعوه

والأرجح أن بطرس لم يساعد في مؤتمر كليرمونت، لكنه كان يبشر بالفعل بالحرب الصليبية قبل انتهاء سنة ١٠٩٥ ميلادية. وبدأ جولته في بري، ثم تحول أثناء شهري فبراير (شباط) ومارس (آذار) في أنحاء أورليانز وتشامباني إلى اللورين، ومن هناك مر بمدينتي ميوس وآشين إلى كولونيا حيث أمضى عيد الفصح. وجمع حوله مجموعة من التلامذة وأرسلهم إلى المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، وكان من بينهم الفرنسيون: والتر سان - أفوار ورينالد أوف بريز وجيوفري بوريسل، والستر أوف بريتول، وكذلك الألمان: أوريل وجوتشوك. وحيشا ذهب هو أو نوابه، ترك الرجال والنساء منازلهم وتبعوه، وعندما وصل إلى كولونيا كانت حاشيته تقدر بحوالي ١٥٠٠ شخص، وانضم إليه آخرون كثيرون في ألمانيا. (١)

ويعزى نجاحه غير العادي في التبشير إلى أسباب عديدة. إذ كانت حياة الفلاح في شمال غرب أوروبا حياة قاسية غير آمنة. وأثناء الغزوات البربرية وغارات أهل الشمال، لم تعد أراض كثيرة صالحة للزراعة، فقد تهدمت السدود وطمغ البحر والأهوار على الحقول. ودائما ما كان اللوردات يعارضون قطع أشجار الغابات لأنهم يمارسون فيها رياضة الصيد، وكانت القرية التي لا تحميها قلعة أحد اللوردات هدفاً لأن يسرقها أو يحرقها الخارجون على القانون أو الجنود المشتركين في الحرب الأهلية المحدودة. وسعت الكنيسة إلى حماية فقراء الفلاحين وإلى إنشاء المدن المسورة (2) *bourgs* في الأراض بالخالية، إلا أن مساعيها لم تكن منتظمة وغير مبدية. وربما كان

(١) Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 127-51; Chalandon, *op. cit.* pp. 57-9.

(٢) (المترجم)، البورج *Bourg* : واحدة من المدن المسورة التي نشأت في القرون الوسطى وضمت أصحاب الخرف المختلفة من غير الفلاحين. وقد أدى تطور هذه المدن فيما بعد إلى ظهور طبقة أصحاب الأعمال الذين عرفوا بـ (البرجوازيين) نسبة إلى (بورج)؛ وقد أذن نمو هذه المدن بالقيام النظام الإقطاعي.

عظام للوردات يشجعون نحو المدن، وإن كان صغار البارونات يعارضونه. كما كان تملك الأرض في الحيار ولم يكن هناك نظام آخر يحمل عمله. وعلى الرغم من الاحتفاء الفعلي لطبقة عبيد الأرض، كان الناس مرتبطون بالأرض بالتزامات لا سبيل إلى الحرب منها بسهولة، بينما عدد السكان يتزايد، وليس من الممكن تجزئة الحيازات في القرية إلا في حدود معينة. واستنادا لرواية روبرت الراهب، قال إيربان في كليرمونت: "في هذه الأرض تستطيعون بالكاد إطعام السكان، وهذا هو السبب في أنكم تستنفدون نتائجها ثم تتبرون حروبا لا نهاية لها وتقتلون بعضكم البعض." وكانت السنوات الأخيرة تصنف بصعوبة خاصة؛ إذ شهد عام ١٠٩٤ ميلادية فيضانات وأوبئة، أعقبها جفاف وبجاعة، فكانت لحظة بدت فيها المحرقة شيئا حجابا للغاية، وفي إبريل (نيسان) سنة ١٠٩٥ ميلادية سقطت نيازك كثيرة، واعتبر ذلك نذيرا بحدوث تحركات كبيرة للشعوب. (١)

#### حماس "الرؤيا"

وإلى جانب الدوافع الاقتصادية، أضيفت التعاليم الرؤيوية، فقد كان العصر عصر الرؤى، وظن الناس أن بطرس شخص كثير الرؤى. وكان رجل العصور الوسطى مقتنعا بأن الجميع الثاني للمسيح وشيك الوقوع، فينبغي له أن يتوب وفي الوقت متسع، كما ينبغي له أن يرحل ليفعل الخير، لاسيما وأن الكنيسة قد علمته أن الحج نحو الخليفة، وأعلنت النبوءات ضرورة استعادة الأراضي المقدسة إلى حظيرة الإيمان قبل عودة المسيح مرة أخرى. وفضلا عن ذلك، لم يكن التفريق بين القدس و"القدس

(١) Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1094, p. 207; Sigebert of Gembloux, *Chronicon*, ad ann. 1095, p. 367; Robert the Monk, I, I, p. 728

الأسقف Gislebert of Lisieux البارز الكثيرة على أنها تبسبب بتحركات ضخمة نحو

الأماكن المقدسة، وقد لورد ذلك Orderic Vitalis, ix, 4, vo. iii, pp. 461-2.

الجديدة<sup>(١)</sup> محددًا تحديدًا واضحًا في أذهان الجهلاء، وقد اعتقد الكثير ممن سامعي بطرس أنه يعدهم بإخراجهم من تعاساتهم الحالية إلى الأرض التي تفيض لبنا وعسلا التي تحدثت عنها الأسفار المقدسة. إن الرحلة شاقة، وهناك الحشود المناهضة للمسيح التي ينبغي التغلب عليها أولاً، لكن الهدف هو "القدس الذهبية".<sup>(٢)</sup>

ولا يعلم أحد الآن رأي البابا إيربان في بطرس ومدى نجاح تبشيره. ويوحى خطاب البابا إلى أهل بولونيا بأنه كان عصيباً بعض الشيء بسبب حماسهم غير المنضبط، لكنه لم يمنعه، من الانتشار في إيطاليا، أو لم يستطع منعه. وطوال صيف ١٠٩٦ ميلادية بدأ سيل مستمر من الحجاج يتدفق إلى الشرق دون قيادة أو أي شكل من أشكال التنظيم، ولا شك في أنه كان يأمل في وصول الحجاج وأتباع بطرس إلى القسطنطينية بسلام وأن ينتظروا هناك مجيء قاصده الرسولي والقادة العسكريين لتنظيم صفوفهم وتكوين الجيش المسيحي الكبير.

وأصر البابا إيربان على أن تجتمع الحملة في القسطنطينية، وهذا يظهر مدى ثقته البالغة في ترحيب الإمبراطور أليكسيوس بها؛ فقد طلبت بيزنطة جنوداً من الغرب، وها هم الآن يلبون النداء، لا كمرتزقة من أفراد قلائل، وإنما كجيوش قوية كاملة. ولكن ثقته لم تنسم بالحنكة، فالحكومات ترحب في العادة بأن يكون لها حلفاء؛ ولكن حينما يرسل هؤلاء الحلفاء جيوشاً كبيرة لا يمكن السيطرة عليها لتستقر في أراضي تلك

(١) (المترجم)، القدس الجديدة : المدينة المقدسة في السماء : " وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة لأورشليم

الجديدة تازلة من السماء من عند الله مهيأة كمروس مزينة لرحلها " (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٢١) .

(٢) الرؤيا الإنجيلية لـ Robert of Arbrissel (الذي يورد Baudri سورة حياته في 23. Ad. Sr.)

تعتبر مطابقة لروح ذلك العصر .

كما أن Robert كان يشرح بالحملة الصليبية iii February, vol. iii بناء على طلب إيربان

(ibid.p.695).

الحكومات مع ما يتطلبه ذلك من إطعام وإيواء وتوفير كل أسباب الراحة، فسان هنا يشكك في جدوى تحالف من ذلك النوع. ومن ثم، ثارت مشاعر القلق والتوجس عندما بلغت القسطنطينية أنباء التحرك الصليبي.

#### استعدادات الإمبراطور

في سنة ١٠٩٦ ميلادية أمضت بيزنطة، لبضعة أشهر نادرة من الراحة؛ فقد صد الإمبراطور لتوه غزوا قرميا في البلقان وكانت الهزيمة حاسمة بحيث لم يكن من المحتمل أن تفكر أية قبيلة من برابرة السهول في محاولة عبور الحدود. وفي آسيا الصغرى كانت الإمبراطورية السلجوقية في بداية تفككها بسبب الحروب الأهلية التي نشبت فيها الدبلوماسية البيزنطية. وكان أليكسيوس يأمل في سرعة المبادرة بالهجوم، لكنه شاء أن يختار الوقت الملائم له، وكان ما يزال في حاجة إلى متنفس يستطيع من خلاله أن يصلح موارده المستنفدة. وكانت مشكلة نقص الجنود تؤرقه، فرغب في الحصول على مرتزقة من الغرب، ولا شك في أنه كان يعلق الآمال على نجاح سفرائه في إيطاليا في تجنيد الجنود، والآن علم أنه بدلا من أحاد الفرسان أو المجموعات الصغيرة التي يريده إلحاقها بجيشه، ها هي جيوش فرنجية بكاملها تتحرك، فلم يسعده ذلك لعلمه من واقع التجربة أن الفرنج جنس مزعزع ذو شراهة للمال ولا ضمير له في حفظ العهد. ورغم مميزهم بمسارعة المحرم في الحرب إلا أنها ميزة تحيط بها الرعب في مثل هذه الأحوال، وجاء فيما كتبه الأميرة أنا كومنينيا أن البلاط الإمبراطوري عرف بشيء من الخوف أن "الغرب كله وجميع القبائل البربرية من وراء البحر الأدرىاتيكي وحتى عمودي هرقل<sup>(١)</sup> كانوا يتحركون في كيان واحد عبر أوروبا باتجاه آسيا مصطحبين معهم عائلات

(١) (المترجم) : عمودا هرقل : لسانان على جانبي مضيق جبل طارق : أحدهما عند جبل طارق ،

والثاني عند جبل موسى على الشاطئ الإفريقي .

يكاملها". ولم يكن الإمبراطور وحده الذي ساوره القلق، إنما شعرت رعيته بالقلق كذلك. وحدث أن اكتسح الإمبراطورية أعداد غفيرة من الجراد التسهمت الكروم وتركت الحبوب، فكان ذلك نذير شوم وتعتير، وكانت السلطات البيزنطية حريصة على ألا يشيع اليأس بين الناس، فاستلهم المنجمون الشعبيون تلميحاً من السلطات، وفسروا هجوم الجراد بأن الفرثجة لن يُلحقوا أذى بالمسيحيين الطيبين الذين يرمز لهم بالحبوب التي هي مصدر عيش الحياة، لكنهم سيدمرون العرب وهم أناس لهم رغبات حسية يناسبها غاما رمز الثبيذ، وكانت الأميرة أنا كومنينيا متشككة بعض الشيء في هذا التفسير، لكن من المؤكد أن تشبيه الفرثجة بالجراد كان واضحاً. (١)

وشرع الإمبراطور أليكسيوس في عمل ترتيباته بهدوء، فلابد من إطعام جيوش الفرثجة أثناء عبورها الإمبراطورية، ويتعين اتخاذ الاحتياطات اللازمة حتى لا ينهبوا الريف ويسلبوا المواطنين، فكندست المئون في مخازن في كل مركز رئيسي من المراكز التي سيمرون بها، وخصصت قوة شرطية لمقابلة كل فرقة حال وصولها داخل الإمبراطورية واصطحابها إلى القسطنطينية. وكان هناك طريقان كبيران يعبران شبه جزيرة البلقان: الطريق الشمالي الذي يعبر الحدود عند بلجراد ثم ينحرف إلى الجنوب الشرقي ليمر بمدن نيش، وصوفيا، وفليبوبوليس، وأدرينوبل، والطريق الآخر وهو طريق فيلأجناتيسا من ديرهاكيوم الذي يعبر أوكريدا، وأيديسافودينا إلى نيسالونيكيا ويمتد ليعبر موسينوبوليس وسيليميريا إلى العاصمة. ومنذ وقت الحج الأثاني الكبير سنة ١٠٦٤ ميلادية، نادراً ما كان مسافرو الغرب يستخدمون الطريق الأول؛ إذ تقلص عدد الحجاج، ومن حاول الرحلة كان يفضل الطريق البديل. وفضلاً عن ذلك، كان

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, v, 4-7, vol. II, pp. 206-8  
لاستطاعته تنظيم الحملة الصليبية، وربما كان ذلك لأن أول اتصال لها بالصليبيين كان مع غوغالين بطرس الذي كانوا يندحونه هم أنفسهم.

أليكسيوس قد تلقى المعلومات المتعلقة بالصليبيين من إيطاليا، ولذا توقع أن تعبر جيوش الفرقة البحر الأدرياتيكي وأن تستخدم طريق فيبأحناتيا، فأرسل المون إلى ديرهاكيوم والمدن الداخلية على الطريق، وصدرت التعليمات إلى حاكم ديرهاكيوم - وهو جون - بأن يظهر الود في ترحيبه بقيادة الفرقة، وأن يتسوخى أن يكونوا هم وجيوشهم تحت مراقبة الشرطة العسكرية كومنينوس ابن أخي الإمبراطور طوال الوقت، وسيصل مسن القسطنطينية مبعوثون على مستوى عالٍ لتحية كل قائد بدوره، وفي نفس الوقت أخذ أمير البحار نيكولاس مافروتاكالون أسطولاً صغيراً إلى ميساه الأدرياتيكي لمراقبة السواحل ويعطي إشارة الإنذار باقتراب ناقلات الفرقة.

وبقى الإمبراطور في القسطنطينية منتظراً ما تأتي به الأخبار، ولما كان يعلم أن البابا قد حدد يوم ١٥ أغسطس (آب) لمبارحة الحملة فإنه لم يتعجل ترتيباته. ولكن حضر رسول فجأة في نهاية مايو (أيار) سنة ١٠٩٦ ميلادية من الشمال حاملاً البريد بوصول أول جيش من جيوش الفرقة من هنجاريا ودخوله الإمبراطورية عند بلحراد.





## الباب الثالث :

# الرحلة إلى الحرب



## الفصل الأول:

# حملة الشعب



## حملة الشعب

"الرَّبُّ لَمْ يَغْلِبْ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْأَرْضَ

الَّتِي كَلَّحَهُمْ عَلَيْهَا "

(سفر التثنية ٩ — ٢٨)

وصل بطرس الناسك مع أتباعه إلى كولونيا الألمانية يوم سبت النور ١٢ إبريل  
(تيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية (١) وهناك بدأت تتضح له الصعاب التي تزعم قائد حملة

---

(١) الرواية الوحيدة التفصيلية المتصلة برحلة بطرس وولتر المفلس هي التي أوردتها Aibert of Aix

وما يتصف به تأكيد صحة الأحداث كان ولا يزال موضوع مسالة شديدة ( أنظر ما يلي المرفق

الأول ص ٣٣٢ ) ؛ غير أنه يبدو واضحا تماما أنه استقي معلوماته من شاهد عيان ربما كان يدون

ملاحظاته أثناء الأحداث . وبعض أرقامه غير مقنعة ، وتظهر تصرفات بطرس المتناقض

في بعض الأحيان ؛ لكن المؤلف ربما كان يريد أن يظهره دائما ؛ يظهر الحسن بغض النظر عن

تناقض التصرفات . ويقدم تاريخ *Chronicle of Zimmern* بعض المعلومات الإضافية ، وإن

بدا أنه يخلط بين الحملات الصليبية في سنة ١٠٩٦ وسنة ١١٠١ وهناك إشارة غامرة في تاريخ

باري *Chronicle of Bari* p 147 ، وقد أورد . Hagenmeyer op. cit. pp. 151-241

دراسة تفصيلية للقصة كلها . وأنا أقبل بصورة أساسية ما توصل إليه .

تتألف من عوام الناس، فكان ذلك النسيج الكبير من المتحمسين يتألف من رجال من مناطق كثيرة ومن أنواع أكثر، أحضر البعض نساءهم، بل أحضر بعضهم حتى الأطفال. وكان أغلبهم من الفلاحين، كما كان من بينهم أبناء المدن، ومن بينهم شباب ينتمون إلى عائلات الفرسان، ومنهم قطاع طرق سابقون ومجرمون. وكانت الصلة الوحيدة التي تربطهم بعضهم ببعض هي حمية معتقدتهم، وقد تخلّوا جميعًا عن كل شيء ليتبعوا بطرس، وأخذ منهم الشوق للاستمرار في طريقهم كل مأخذ. وفضلاً عن ذلك، كان لا بد لهم أن يستمروا في الحركة كي يتوفر لهم الطعام؛ فقسي أوروبا في العصور الوسطى كان هناك عدد ضئيل من المقاطعات ذات الفائض الغذائي الذي يكفي احتياجات مثل هذا الجمع الفقير لمدة طويلة، لكن كولونيا تقع في بقعة غنية ذات مواصلات بحرية جيدة، فأراد بطرس استغلال هذه التسهيلات ليتوقف فترة من الزمن يمارس فيها التبشير بين الألمان، وربما كان تواقاً لاحتساب بعض النبلاء المحليين إلى حملته الصليبية، وكان الفرسان في فرنسا وفلاندرز يفضلون الانضمام إلى جماعة تضم عظماء اللوردات، ولم يكن هناك لورد ألماني كبير ذاهب إلى الحرب الصليبية. ولقد نجح تبشيره؛ فمن بين الألمان الذين لبوا دعوته عديد من النبلاء الأقل شأنًا بقيادة الكونت هيو أوف توينغن والكونت هنري أوف شوارزنبرغ والستر أوف تيك، وأبناء كونت زيمرين الثلاثة.<sup>(١)</sup>

#### والسر (المفلس)

وكان الفرنسيون متعجلين، وقرر والتر (المفلس) ألا ينتظر في كولونيا وغادر مع آلاف قليلة من الرفاق عقب انتهاء عيد الفصح، وربما في ثلثاء الفصح، وانطلق في

(١) عن اللوردات الألمان الذين رافقوا بطرس، أنظر Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-60 خاصة

ص ١٦٠ الحاشية ٢، صفحة ١٦٦ الحاشية ١ ويقول Ekkehard, *Hierosolymita*, pp. 18-19

إن الحملة الصليبية لم تحدث لها تبشير رسمي باللغة الألمانية بسبب الصدع.

طريق هنجاريا وسار أعلى نهرى الراين ونيكار ثم أسفل الدانوب فوصل إلى الحدود النجارية يوم ٨ مارس (آذار)، وهناك أرسل إلى الملك كولومان طالبا الإذن في عبور المسلكة وراجيا الحصول على المساعدة في تزويد رجاله بالمؤن. وأحابه الملك كولومان بترحاب ودود. وعبر الجيش هنجاريا دون حادثة سيئة. وفي منتصف الشهر وصل مدينة سيملين على الحدود المقابلة، وعبر نهر ساف، ودخل الأراضي البيزنطية عند بلجراد.

وبوغت القائد العسكري في بلجراد، فلم تكن لديه أية تعليمات عن كيفية التعامل مع مثل هذا الغزو، فأرسل بريدا عاجلا إلى نيش حيث يقم حاكم المقاطعة البلجارية نيتاس بغيره بوصول والتر، وكان هذا الحاكم رجلا حي الضمير، وليست له ميزة أخرى، كما لم تكن لديه تعليمات هو الآخر، فأرسل بدوره رسولا على وجه السرعة إلى القسطنطينية. وفي تلك الأثناء طلب والتر وهو في بلجراد طعاما لأتباعه، لكن الحصاد لم يكن قد جمع بعد، وليس لدى الحامية فائض تعطيه، فراح والتر وأتباعه ينهبون الريف، وقد وقعت حادثة سيئة في سيملين أشعلت ثورة غضبه، ذلك أن ستة عشر رجلا من رجاله لم يعبروا النهر مع رفاقهم وحاولوا أن ينهبوا السوق، فالتقى النجاريون القبض عليهم وحردوهم من أسلحتهم، وعلقوا ملابسهم على أسوار مدينة سيملين من قبيل التحذير، وأرسلوهم عرابا إلى بلجراد. وعندما بدأ السلب والنهب حول بلجراد لجأ الحاكم إلى السلاح، وقتل العديد من رجال والتر، وحرق آخرون وهم أحياء في إحدى الكنائس.

واستطاع والتر ورفاقه أن يصلوا أخيرا إلى نيش حيث استقبله نيتاس استقبالا حسنا، وقدم لهم الطعام، واستبقاهم إلى أن يتلقى رد القسطنطينية. واضطر الإمبراطور إلى أن يسرع في ترتيباته بعد أن كان يظن أن الحملة الصليبية لن ترحل الغرب قبل عيد الصعود، وطلب من نيتاس أن يرسلهم مع الحرس، فواصل والتر وحيشه رحلتهم في



سلام، وفي وقت مبكر من يولييه (تموز) وصلوا إلى فيليببوليس، حيث مات عم والتر (والتر أوف بومبي)، وفي حوالي منتصف الشهر وصلوا إلى القسطنطينية. (١)  
ولابد أن نستأس علم من والتر أن بطرس كان وراءه على مسافة غير بعيدة ومعه  
صحبة أكبر بكثير، فذهب إلى بلجراد لمقابلته، وأجرى اتصالا مع حاكم سيملين  
الهنجاري.

وغادر بطرس كولونيا في ٢٠ إبريل (نيسان)، وسجر الألمان من تبشره بسائد  
الأمر، ولكن آلافا كثيرة التحقت به بعد ذلك، وربما قارب عدد أتباعه عشرين ألفا من  
الرجال والنساء. وأشعلت حميته حماس ألمان آخرين، فحفظوا للحاق به فيما بعد تحت  
قيادة جوتشووك والكونت إيميش أوف ليزنغن. واتخذ بطرس الطريق المعتاد أعلى لمجري  
الراين ونيكار إلى الدانوب. وهناك قرر بعض أتباعه مواصلة الرحلة بالقوارب أسفل  
النهر، ولكن بطرس وجُلُّ أتباعه ساروا في الطريق الذي يمضي جنوب بحيرة فيمرو  
ودخلوا هنجاريا عند أويدينج. وكان بطرس على ظهر جواره، والفرسان الألمان  
على خيولهم، بينما كانت المون التي معهم وصندوق النقود التي جمعها من أحل الرحلة  
على عربات مكتظة بالناس، على أن الكثرة الغالبة كانت ترتحل سيرا على الأقدام،  
وكانوا يقطعون خمسة وعشرين ميلا في اليوم إذا كانت الطرق جيدة.

واستقبل الملك كولومان رسل بطرس بنفس القدر من الترحاب الذي أظهره  
لسوالتر، وحذرهم بأن العقاب سيزل بكل من يحاول السلب والنهب، وعبر الجيوش  
هنجارية بسلام في أواخر مايو (أيار) وأوائل يونيو (حزيران). وفي مكان ما، ربما  
بالقرب من كارلوفسي، انضمت إليه الفصائل التي كانت مرتحلة بالنهر، ووصل

(١) ترد رحلة Walter في تاريخ Albert of Aix, I, 6, pp. 274-6 وبصورة أكثر إيجازا في  
Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, pp. 478-9

الجيش إلى سيملين في ٢٠ يونيو (حزيران). (١)

وهناك بدأت المتاعب. وما حدث في حقيقة الأمر يشوبه الغموض؛ فيبدو أن حاكم سيملين، وهو من أصل تركي غزي، شعر بالخطر من حجم الجيش، فساختم بنظيره غير الحدود وحاولا تشديد لوائح الشرطة، مما أثار شكوك جيش بطرس، لاسيما وأنهم قد سمعوا شائعات عن معاناة رجال والتر، وخشوا أن يكون الحاكم قد تآمرأ ضدهم، وصدمتهم رؤية ملابس رجال والتر اللام الستة عشر التي كانت معلقة على أسوار المدينة. وكان من الممكن أن تسير الأمور على غير ما يرام لولا أن خلافا على بيع زوج من الأحذية أدى إلى شغب، انتهى بدوره إلى معركة تم الإعداد لها سلفا، رما ضد رغبة بطرس، فقام رجال من أتباع بطرس يقودهم حيوفري بوريل بمهاجمة المدينة ونجحوا في اقتحام القلعة، وقتل في تلك المعركة أربعة آلاف من المنجاريين وتم الاستيلاء على كم هائل من مخزونات اللون. ثم انتابهم الذعر من انتقام الملك المنجاري، فهرعوا على جناح السرعة ليعبروا نهر ساف.

وأخذوا كل الأخشاب التي استطاعوا جمعها من المنازل لينوا لأنفسهم أطواقا يعبرون عليها النهر، وحاول نيسناس الذي كان يراقب الأحداث بقلق من بلجراد أن يتحكم في عبور النهر ليحيرهم على استخدام مخاضة واحدة فقط، وكان جنوده يتألفون أساسا من المرتزقة البتشنج الذين يتق في طاعتهم العمياء لأوامره، فأرسلهم على نقالات مائية لمنع أي عبور إلا من المكان المناسب، لكنه تحقق من عدم كفاية جنوده للتعامل مع مثل هذا الحشد الهائل، فانسحب إلى نيش حيث موقع القيادة العليا

(١) Alebert of Aix, I, 7, p.276. Malavilla is certainly to be identified with Semlin ( Hagenmeyer, op. cit. p. 169 n.1) Guibert, II, viii, pp. 142-3

يقول إن بطرس لقي مصاعب عند عبوره منجاريًا ويبدو أنه تغلط بينه وبين إميش - Emich

العسكرية للمقاطعة، وعلى أثر رحيله هجر مواطنو بلجراد المدينة ولاذوا بالجلال. (١)

#### بطرس يدخل الإمبراطورية

وفي يوم ٢٦ يونيه (حزيران) شق جيش بطرس طريقه بصعوبة عبر لمر ساف. وحينما حاول لبتشنيج تقييد عبورهم من معبر واحد هاجمهم، وغرقت عدة قوارب، وألقي القبض على راكبيها من الجنود وقتلوا. ودخل الجيش بلجراد وراح ينهبها بالجملة وأشعل فيها النيران، ثم سار سبعة أيام عبر الغابات ووصل إلى نيش في ٣ يوليه (تموز)، حيث أرسل بطرس على الفور إلى نيسناس طالباً منه إمدادات الطعام. (٢)

وكان نيسناس قد أخبر القسطنطينية باقتراب بطرس، وكان ينتظر حضور المسئولين والحرس العسكري لمرافقة الغربيين إلى العاصمة، وكانت هناك حامية كبيرة

- 
- (١) Albert of Aix, I, 7, 8, pp. 276-8 يعمل المؤرخ ألبرت من بطرس - الذي تظهر شخصيته في التاريخ الأخرى بصورة مسالة - شخصية متعلقة للإنتقام، ربما لأن من أحبره - أي المؤرخ - كان يظن أن الشراسة تضفي على بطرس مزيداً من الفضائل. The recurrent number 7, in connection with the Petcheneg frontier guards, is equally not to be taken literally. ساف.
- (٢) Alebert of Aix, I, 9, 9.278. وأنا أتابع التاريخ التي لوردها Hagenmeyer (Achronology, p. 30-1).

في نيش، زاد من قوتها بأن استحلب لها عدداً إضافياً من التشنج والمترقة المتحارين،<sup>(١)</sup> وربما لم يستطع توفير رجال لمصاحبة بطرس إلى أن يأتى الجنود القادمون من القسطنطينية، ومن الناحية الأخرى كان السماح لمثل هذا التحشد الغير بالتريث طويلاً في نيش أمراً غير عملي وخطيراً في الوقت نفسه؛ ولذلك طلب نيستاس من بطرس أن يقدم رهاثن إلى أن يتم جمع الطعام لرجالهم على أن يواصلوا المسيرة بعد ذلك بأسرع ما يمكن. وسار كل شيء على ما يُرام في أول الأمر،

---

(١) الحرس المرسل من القسطنطينية لمقابلة بطرس انضم إليه في صوفيا يوم ٩ أو ١٠ يوليو قاطعاً مسافة تزيد كثيراً على ٤٠٠ ميل وربما كان من الحرس الخيالة ومن ثم كان سفره أسرع، فلا بد وأنه قد غادر العاصمة قبل أن يتمكن أي مبعوث-مرسل من نيش بعد وصول بطرس إليها يوم ٣ يوليو - من الوصول إلى البلاط الإمبراطوري واستناد لما أورده Jirecek في مؤلفه *Die Heerstrasse von Belgrad nach Cnstantinopel*, p. 9 كان التار الذين يحملون البريد الإمبراطوري النمساوي في أوائل القرن التاسع عشر يستغرقون في المرحلة حصة أيام، متطلقين بأقصى سرعة على ظهور الخيل وباستخدام الجياد البديلة. (المسافة تزيد في الواقع على ٦٥٠ ميلاً) وكانت الطرق في العصر البيزنطي أفضل حالاً منها في العصر العثماني وإن لم يكن تبديل الجياد منظماً تنظيمًا جيدًا؛ وفي ذلك الوقت ربما كان المبعوث الخاص يستطيع أن يستغرق حصة لؤسة أيام ليقطع المسافة من نيش إلى القسطنطينية في ذلك الوقت. وترتبط على ذلك، لا بد وأن Nicetas قد أرسل مبعوثاً لإخطار العاصمة بحجى بطرس قبل أن يعبر الحدود. ونحن نعرف Nicetas - الذي تطلق عليه المصادر الغربية Nichita - من إحدى الوثائق المسجلة في Schlumberger, *Sigillographie de l'Empire Byzantin*, p. 239 ولا ينبغي الخلط بينه وبين Leo، وهو دوق Paristrum، الذي يذكره شالاندون خطأً في Chalandou, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, p. 167 n. 4

وتم تسليم جيوفري بوريسل وولتر أوف بريتول كرهائن، وسمح السكان المحليون للصليبيين بالحصول على الإمدادات وكل ما يحتاجون إليه، ليس هذا وحسب، وإنما تزع الكثير منهم بصدقات للحنجاء الفقراء، بل طلب البعض الاشتراك في الحج.

وفي الصباح التالي شرع الصليبيون في مسيرهم على الطريق الناهب إلى صوفيا، وبينما كانوا يغادرون المدينة أشعل بعض الألمان العائنين النيران في بعض الطواحين على جانب النهر، وكانوا قد تشاحروا مع أحد المواطنين في الليلة البارحة، ومما أن سمع نيتاس بذلك حتى وأرسل جنودا ليهاجموا حرس المؤخرة، وبأسروا بعضهم، وكان بطرس على حماره في المقدمة على مسافة ميل تقريبا ولم يعلم بشيء من كل هذا إلى أن أسرع رجل يدعى لاميرت من المؤخرة وأخبره بما حدث، فكر راجعا لمقابلة نيتاس ولترتيب فدية الرهائن، بيد أنه حدث أثناء محادثتهما أن انتشرت بين صفوف الجيش شائعات عن القتال والخيانة، فاستدارت جماعة من المشهورين وأغار على حصون المدينة، فدفعتهم الحامية وشتت عليهم هجوما مضادا، وعندما ذهب بطرس لكبح جماح رجاله ومحاولة إعادة الاتصال بنيتاس، أصرت جماعة أخرى على تعذيب المحكوم، مما اضطر نيتاس إلى إطلاق قواته كلها على الصليبيين، فهزمهم هزيمة نكراء وشتت شملهم. وقتل كثيرون، وأسر آخرون من الرجال والنساء والأطفال، وأنفقوا بقية أياهم في الأسر في المناطق المجاورة. وفقد بطرس ضمن ما فقد خزائنه أمواله، وهرب بطرس نفسه مع رينالد أوف بري ووالتر أوف بريتول وحوالي خمسمائة من رجاله بجانب أحد الجبال وقد غنوا أنهم هم فقط الباقون على قيد الحياة، ولكن لحق بهم سبعة آلاف آخرون في الصباح التالي وأكملوا مسيرهم على الطريق. وتقد منهم الطعام، فتوقفوا في مدينة بيلابالانكا الملهجورة لجمع المخصص المحلي وهناك لحق بهم مشردون كثيرون آخرون، ولما عاودوا مسيرهم اكتشفوا أنهم فقدوا ربع عددهم (١).

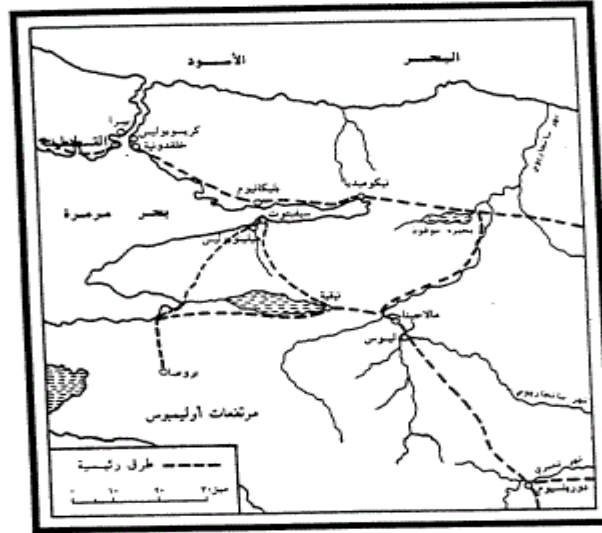
(١) . يذكر Albert of Aix, I, 9-12, pp. 278 أن الباقين كانوا ثلاثين ألفا من أصل أربعين ألفا .

#### وصول بطرس إلى القسطنطينية

وفي ١٢ يولييه (تموز) وصلوا إلى صوفيا حيث قابلوا المبعوثين والخرس القادمين من القسطنطينية لمرافقتهم، ومعهم تعليمات من الإمبراطور بتزويدهم بكامل ما يلزمهم والعمل على ألا يتأخروا مطلقاً لأكثر من ثلاثة أيام في مكان واحد، ومنذ ذلك الحين ورحلتهم تسير سيرا يسيراً. وكان أبناء البلاد المحليون يستقبلوهم بمظاهرة السود، وفي مدينة فيليبوبوليس تأثرت مشاعر اليونانيين تأثراً عميقاً بأفاديص معاناتهم حتى أنهم تبرعوا لهم بالمال والخيول والبعال. وقيل وصوهم إلى مدينة أدرينوبل بمسيرة يومية قابلهم مبعوثون آخرون حيوا بطرس برسالة كريمة من الإمبراطور، وتقرر أن يغفر للحملة ما ارتكبته من جرائم، إذ أنها عوقبت بالفعل بما فيه الكفاية، فبكى بطرس فرحاً لذلك المعروف الذي أنعم به عليهم عاهل عظيم كهذا. (١)

---

(٢) Ibid. I, 13-15, pp. 282-3; Anna Comnena, *Alexiad*, x, v-vi, vol. II, p. 210



خريطة رقم (١٦) : ضواحي القسطنطينية وبنية في وقت الحملة الصليبية الأولى

و لم يتوقف الاهتمام العليبي الذي يكنه الإمبراطور عند وصول الصليبيين إلى القسطنطينية في أول أغسطس (آب). وملكه الفضول لرؤية قائد الحملة، فاستدعى بطرس لمقابلة حيث منح المال والنصح. وأدرك ألكسيوس بعينه الخيرة، أن الحملة لم تكن بذات وزن، بل كان يخشى إن عبرت إلى آسيا أن يدمرها الترك على الفور، على أن الفوضى الضاربة بين أفراد الحملة دفعته إلى أن يعجل بمغادرتها القسطنطينية؛ فقد ارتكب الغربيون سرقات لا حصر لها، واقتحموا القصور والدور في الضواحي، بل أنهم سرقوا الرصاص من أسطح الكنائس. ورغم أن دخولهم القسطنطينية ذاتها ساهم الانضباط الصارم، وعلى الرغم من السماح لمجموعة صغيرة فقط بعبور البوابات لمشاهدة المدينة، كان من المستحيل على الشرطة أن تحرس الضواحي كلها.

وبينما كان والتر المفلس ورجاله في القسطنطينية وصلت إلى هناك جماعات شتى من الحجاج الإيطاليين، وانضموا إلى حملة بطرس، وفي ٦ أغسطس (آب) نقلت قواته كلها عبر مضيق البوسفور. وساروا على الشاطئ الآسيوي ينهبون المنازل والكنائس دون أن يكتح شيء. هاجهم بطول بحر مرمرة وحتى مدينة نيكوميديا التي كانت مهجورة منذ أن هاجمها الأتراك قبل خمسة عشر عاما. وهناك نشب شجار بين الألمان والإيطاليين من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى؛ فقد شق الأولون عصا الطاعة على قيادة بطرس وانتخبوا قائدا لهم لوردا إيطاليا يدعى رينالد. ومن مدينة نيكوميديا تحول الجزعان المكونان للحيش باتجاه الغرب وبطول الساحل الجنوبي لخليج نيكوميديا إلى أن وصلا إلى معسكر حصين يطلق عليه اليونانيون سيبوتوس ويسميه الصليبيون سيفيتوت، وكان ألكسيوس قد جهزه لمرتزقة من الإنجليز الموحدين في حوار



هيلينوبوليس، وكان المكان ملائماً لإقامة معسكر لحصص المنطقة ولإمكان إحضار الإمدادات من القسطنطينية بسهولة عن طريق البحر.<sup>(١)</sup>

#### غارات الصليبيين

وكان أنكسيوس قد حث بطرس على الانتظار وعدم محاولة الهجوم على الكفرة إلى أن تأتي الجيوش الصليبية الرئيسية، وتأثر بطرس بهذه النصيحة، لكن سلطته كانت تتضاءل، وبدلاً من أن يستجمع الصليبيون قوتهم في هدوء، انقسموا إلى الألمان والإيطاليين برئاسة رينالد من جهة، وأبناء جلدته الفرنسيين، ويبدو أن جيوفري بورييل أصبح صاحب السيطرة الفعلية عليهم من جهة أخرى وراح الفريقان يتنافسان في الإغارة على المناطق الريفية، وبادروا بنهب المنطقة المجاورة مباشرة، ثم توغلوا بخذر في الأراضي التابعة للأتراك، يغزون على القرى وينهبون القرويين الذين كانوا كلهم مسيحيين يونانيين. وفي منتصف سبتمبر (أيلول) تجاسر عدة آلاف من الفرنسيين بالتوغل حتى بوابات مدينة نيقية وهي عاصمة السلطان السلجوقي، قلع أرسلان إيسن سليمان، وخرّبوا القرى الواقعة في الجوار وحاصروا قطعان وأسراب الماشية واستولوا عليها، وعذبوا وقتلوا المواطنين المسيحيين في وحشية مفرغة، وقبل إنهم كانوا يشعرون الأطفال على السفود، وأرسلت فصيلة تركية من المدينة لكنها انسحبت بعد قتال مرير.

(١) Albert of Aix, I, 15, pp. 283-4؛ ويرد في *Gesta Francorum*, I, 2, p. 6 ذكر  
تصريفات الجيوش الصليبية. الصاحبة: Anna Comnena. *loc. cit.* Orderic Vitalis, ix, 5, vol. III, pp. 490-1  
ويذكر المورخ "أوردريش فيتاليس" أن أنكسيوس أعد سيفيتوت Civetot  
بجسوده الإنجليزي. أنظر Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 363-4  
وعن التواريخ أنظر Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 32

ثم عاد الصليبيون إلى سيفيتوت حيث باعوا الأسلاب لرفاقهم وللبحارة اليونانيين الذين كانوا يحوار المعسكر. وثار نوازع الغيرة لدى الألمان من تلك الغارة الفرنسية الغامضة، فانطلقت في أواخر سبتمبر (أيلول) حملة بقيادة رينالد قوامها ستة آلاف رجل تضم قساوسة بل وأساقفة، وحاولوا نيقية ناهيين محربين أينما ذهبوا، لكنهم كانوا أكثر شفقة من الفرنسيين فأبقوا على المسيحيين، إلى أن وصلوا إلى قلعة كسيريموردون، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، ووجدوها مكدسة بالإمدادات من كل نوع، ففرروا أن يتخذوها قاعدة يغيرون منها على داخل البلاد. وما أن سمع السلطان بما اقترفه الصليبيون من فساد حتى أرسل قائدا عسكريا على مستوى عالٍ على رأس قوة كبيرة لاستعادة القلعة التي كانت تقع على تل، وتحصل على إمدادات المياه من بئر خارج الأسوار مباشرة بالإضافة إلى ينبوع أسفل الوادي. وظهر الجيش التركي أمام القلعة في ٢٩ سبتمبر (أيلول)، وهو يوم عيد القديس ميخائيل، وهزم كميننا بقيادة رينالد واستولى على الينبوع وبئر الماء، وبذا أحكم الحصار على الألمان داخل القلعة، وسرعان ما أدى العطش إلى أن يذب اليأس في نفوسهم، وحاولوا امتصاص الرطوبة من الأرض، وقطعوا شرايين وأوردة حيوتهم وحميرهم ليشربوا دماءها، بل وشربوا بول بعضهم البعض، وحاول قساوستهم عبثا تهدئتهم وتشجيعهم. وبعد ثمانية أيام من المعاناة قرر رينالد الاستسلام، وفتح البوابات للأعداء بعد أن حصل على وعد بالإبقاء على حياته إذا ما تخطى عن المسيحية، وقتل كل من بقي على دينه. أما رينالد ومن ارتد معه فأرسلوا في الأسر إلى أنطاكية وحلب وبعيدا داخل خراسان.

#### كارثة في سيفيتوت

وفي أوائل أكتوبر (تشرين الأول) وصلت أنباء استيلاء الألمان على كسيريموردون إلى المعسكر في سيفيتوت، وأعقبتها شائعة أطلقها اثنان من الجواسيس الأتراك بأنهم

استولوا على نيقية نفسها، وغاصوا في الأسلاب بغترةولها. وكما توقع الأتراك تسببت تلك الشائعة في نشوة صاحبة في المعسكر، وتصايح الجنود مطالبين السماح لهم بالإسراع في السير إلى نيقية، في طرق أعد فيها السلطان المكامن بعناية، ولقي قسادهم مشقة كبيرة في كبح جماحهم، إلى أن اكتشفت الحقيقة فجأة حول مصير حملة رينالد، فتحولت النشوة الصاحبة إلى دعر، واجتمع رؤساء الجيش للتشاور فيما يمكن عمله بعد ذلك. وكان بطرس قد ذهب إلى القسطنطينية بعد أن انتهت سلطته على الجيش، وكان يأمل في إحيائها بالحصول على بعض المعونات العينية الهامة من الإمبراطور. وتحرك البعض في الجيش مطالبين بالخروج للتأثر من فاجعة كسيرتيوردون، لكن والتر المفلس أقنع رفاقه بالتريث حتى عودة بطرس التي يمين موعدها في غضون ثمانية أيام. ومع ذلك لم يرجع بطرس، وفي تلك الأثناء جاءت الأنباء باقتراب قوة من الأتراك بأئمه سيفيتوت، فاجتمع مجلس الجيش مرة أخرى، وظل قاداته من ذوي المسؤولية الأكبر — وهم والتر المفلس، ورينالد أوف بري، ووالتر أوف بريول، وفولك أوف أورليانز، ومن الألمان هيو أوف توبنغن، ووالتر أوف تيك — يقنعون الباقين بألا يفعلوا شيئا إلى أن يعود بطرس، لكن جيوفري بويريل ومن ورائه الرأي العام في الجيش، أصر على أنه من الجين والحقاقه عدم التقدم لملاقاة الأعداء، وتم له ما أراد. وفي فجر الحادي والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) انطلق جيش الصليبيين كله وقد تحسّأوز عدده عشرين ألف رجل، تاركا وراءه في سيفيتوت المنسنيين والنساء والأطفال والمرضى.

وعلى بعد ثلاثة أميال تقريبا من المعسكر، حيث يدخل طريق نيقية واديا ضيقا مليئا بالأشجار، وبالقرب من قرية دراكون، كان الأتراك يترهبون في مكانهم. وسار الصليبيون بلا ميالة يسبقهم صخبهم وقد تقدمهم الفرسان على ظهور خيولهم. وفجأة انهمر سيل السهام من الأشجار وقتل الخيول أو أعجزها، فراح تكبو مضطربة وهي تقذف راكبيها من فوق ظهورها، وهنا هاجم الأتراك، وتعقبوا الفرسان الذين تقهقروا إلى صفوف المشاة. وحارب فرسان كثيرون بشجاعة، لكنهم لم يستطيعوا إيقاف الدعر

الذي أخذ من الجيش كل مأخذ، وفي دقائق قليلة كان الحشد كله يولسى الأدبار في فوضى عارمة إلى سيفيتوت. وفي المعسكر كانت الأعمال اليومية قد بدأت لتوها، فكان البعض من المسنين ما يزالون نائمين في الفراش، وهنا وهناك كان القساوسة يتسهبأون لإقامة قداس مبكر، واندفعت إلى المعسكر جموع الفارين المذعورين والعدو في أعقابهم. ولم تكن هناك مقاومة حقيقية؛ إذ قتل الجنود والنساء والقساوسة قبل أن يمدوا وقتلوا لينتحرروا، وهرب البعض في الغابات المغطاة والبعض الآخر في البحر، ولكن القليل منهم هرب لفترة طويلة، ودافع البعض عن أنفسهم للحظات بإشعال النيران التي دفعتها الرياح إلى أوجه الترك، ولم يبق الأتراك على أحد سوى الصبية والبنات حسني المظهر، مع قليل من الأسرى الذين أسروا بعد أن حبت جذوة القتال الأولى، وقد سيقوا كلهم إلى الرق. وكان هناك نحو ثلاثة آلاف أسعد حظا ممن سواهم تمكنوا من الوصول إلى قلعة قديمة مهجورة على البحر، وقد تفككت أبوابها ونوافذها، وعلى عجل تولدت لديهم طاقة دفعها اليأس، فأقاموا تحصينات من الأحشاب الملقاة ودعموها بالعظام واستطاعوا أن يصدوا هجمات الأعداء.

#### فشل حملة الشعب

وصمدت القلعة، على أنه في منتصف النهار كان كل شيء في الميدان قد انتهى فكانت الجثث تغطي الأرض من مر دراكون إلى البحر، وكان من بين القتلى والشر المنفلت، وريئالد أوف بري، وفولك أوف أورليانز، وهيو أوف توبنغن، ووالستر أوف تيك، وكوتراد أوف زيمرن، وكثيرون من الفرسان الألمان. وكان القادة الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة جيوفري بورييل — الذي كان تموره سيبيا في الكارثة — ووالتر أوف بريتل، ووليم أوف بويزي، وهنري أوف شوارزنبرج، وفريدريك أوف زيمرن، ورودولف أوف برانديس، وقد أصيبوا جميعا تقريبا بجروح خطيرة.

وحينما حلّ الظلام، تمكن يونانيّ كان مع الجيش من العثور على قارب أبحر به إلى القسطنطينية لينقل أخبار المعركة إلى بطرس والإمبراطور. وليس لدينا شيء مكتسوب يصور مشاعر بطرس، لكن أليكسيوس أمر في الحال أن تبهر بعض السفن الحربية إلى سيفيتوت ومعهما قوات قويّة. وعندما شاهد الأتراك الأسطول البيزنطي الصغير رفعوا الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل، ويُقفل الأحياء إلى السفن وأُعيدوا إلى القسطنطينية وخُصص لهم مكان إقامة في الضواحي، لكنهم جُردوا من أسلحتهم.<sup>(١)</sup>

وانتهت حملة الشعب التي راح ضحيتها ألوف كثيرة واستنفدت صبر الإمبراطور ورعيته، وبنيت أن الإيمان وحده بلا حكمة ولا نظام لا يفتح الطريق إلى القدس.

---

(١) كلا التاريخين روايات عن المحطات والكارثة النهائية لجيش بطرس ويقول صاحب تاريخ *Gesta* -الذي لا بد وأن استقى روايته التاريخية من أحسد الباقيين عسلي قيد الحياة قابله في القسطنطينية - في كل مكان من روايته إن ألكسيوس كان عدائياً إزاء بطرس وأنه انتهج للمذعة التي حدثت لسرحاله ، رغم أنه يعود ويعترف بأنهم أساءوا التصرفوا وأحرقوا الكنائس أما رواية *Albert* فتظهر الإمتناع للإمبراطور لكرمه ولنصيحة الطيبة والميادته بانقاذ من بقوا على قيد الحياة وتورد للتاريخة *Anna Comnena*, X, vi, 1-6 رواية أقصر تشكو فيها من تصرفات الفرنج وتقول إن بطرس - الذي تفترض خطأ أنه كان مع الجيش - ألقي باللوم على التصرفات الشريرة التي أتتها من كانوا في الجيش من لم يطعمونه . ويرد تاريخ *Chronicle of Zimmern* قائمة بالألمان الذي قتلوا في سيفيتوت (p. 29).

---

## الفصل الثانى:

### الحملة الصليبية الألمانية



## الحملة الصليبية الألمانية

"آه يا سيّد الربُّ، هل أنت مُهلكٌ بقيّة  
إِسْرَائِيلَ كُلِّهَا؟"

(حزقيال ٩ — ٨)

لم يتوقف الحماس الصليبي في ألمانيا برحيل بطريرك الناسك إلى الشرق؛ إذ ترك  
وراءه حواريه جوتشووك ليجمع حيثما آخر، وبدأ مبشرون وقادة آخرون كثيرون  
يتأهبون ليحذوا حذوه، على أنه برغم أنّ الألمان لبوا النداء بالألوف فقد كانوا أقل  
تلهفاً من الفرنسيين في الإسراع إلى الأرض المقدسة، فهناك ما يتعيّن إنجازه في الوطن.



كانت المستعمرات اليهودية قد أنشئت لقرون مضت بطول الطرق التجارية في أوروبا الغربية، وكان قاطنوها من اليهود السفردم (١) الذين انتشر أسلافهم من حوض البحر المتوسط على مدى العصور المظلمة، وحافظوا على الروابط مع أقرانهم في الدين في بيزنطة والأراضي العربية، الأمر الذي مكّنهم من أن يلعبوا دوراً كبيراً في التجارة الدولية، لاسيّما التجارة بين البلدان الإسلامية والمسيحية. وأفسح لهم حظير الربا في البلدان المسيحية الغربية، ومراقبته مراقبة صارمة في بيزنطة، الخبال لإنشاء بيوت لإقراض النقود في سائر أنحاء العالم المسيحي. كما مكّنتهم مهاراتهم الفنية وتقاليدهم المستقرة من أن يحتلوا مكان الصدارة في ممارسة الطب. ولم يعانون مطلقاً من أي اضطهاد حقيقي في الغرب إلا في إسبانيا القوطية (٢) الغربية منذ أمد بعيد. ولم تكن لهم حقوق مدنية، ولكن السلطات — الدنيوية والدينية على السواء — كان يسرها أن تضفي حماية خاصة على من وراءه تقع من أمثالهم، ودائماً ما كان ملوك فرنسا وألمانيا يصادقونهم، كما كان رؤساء الأساقفة في المدن الكبيرة في أراضي الراين يحاربونهم بحماسة خاصة، على عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت حاجتهم إلى مثال بعد أن حلّ الاقتصاد النقدي محل اقتصاد الخدمات، فغرقوا في الديون أكثر فأكثر. وزاد استيائهم من اليهود أكثر فأكثر، بينما رفع اليهود أسعار الفسائدة عوضاً عما يفتقدونه من الأمن القانوني، وكانوا كلما ساندتهم الحكام المحليون يفتقدون أرباحاً فاحشة.

---

(١) (المترجم) يهود السفردم : أو يهود الفرع الغربي الأوروبي الذين استوطنوا إسبانيا والبرتغال ، ثم

اليونان وشرق البحر المتوسط وإيطاليا وهولندا والأمريكتين .

(٢) (المترجم) القوط Goth : شعب جرمان احتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد .

والقوط الغربيون Visigoth : فرع القوط الذي استقر في إسبانيا وفرنسا من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلادي .

#### الاستيلاء من اليهود

وعطوال القرن الحادي عشر، وبازدياد طبقات المجتمع التي شرعت في الاقتراض من اليهود، تزايد مقت الشعب لهم. وزادتهم بدايات الحركة الصليبية مقتًا على مقت؛ إذ كان استعداد الفارس للذهاب إلى الحرب الصليبية وتجهيز نفسه أمرًا يتطلب أموالاً كثيرة، فإن لم يكن لديه أراض أو ممتلكات، فلا مفر له من الاقتراض من اليهود. ولكن أمن الصواب، كي يخرج هذا الفارس ليحارب من أجل العالم المسيحي، أن يقع في براثن أبناء الجنس الذي صلب المسيح؟ إن الصليبي الفقير كان دائمًا مدينًا لليهود، فهل من الصواب أن يُعاقب وأجبه المسيحي بالتزامات نحو واحد من الجنس الذي يقتصر إلى التقوى؟ إن التبشير الإنجيلي بالحرب الصليبية يركز على القدس التي شهدت الصلب، وكان لابد من أن تجذب ذلك التبشير الانتباه إلى من عان المسيح على أيديهم. والمسلمون هم العدو الآن لأنهم يضطهدون أتباع المسيح، ولكن المؤكد أن اليهود هم الأسوأ لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه.<sup>(١)</sup>

وقد سبق أن كان لدى الجيوش المسيحية إبان الحروب الإسبانية بعض الميل إلى إساءة معاملة اليهود؛ ففي زمن الحملة إلى باباسترو كتب البابا ألكسندر الثاني إلى أساقفة إسبانيا يذكرهم بالفرق الشاسع بين المسلمين واليهود، فأنسلمون أعداء للمسيحيين لا يمكن التصالح معهم، بينما اليهود على استعداد للعمل من أجل المسيحيين. على أن اليهود في إسبانيا كانوا يحفظون بما أضفاه عليهم المسلمون من معروف بحيث لا يستطيع الغزاة المسيحيون أن يولّوهم ثقتهم.<sup>(٢)</sup>

في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٩٥ ميلادية راسلت الجماعات اليهودية في شمال فرنسا يهود ألمانيا بحذروهم من أن الحركة الصليبية ربما تسبب المتاعب

(١) عن وضع اليهود في هذه الفترة أنظر 89 ff. *Graetz, Geschichte der Juden*, vol vi, pp. pp.

(٢) Letter in *M.P.L.* vol. clxvi, col. 1387.

لجنسهم.(١) ونقلت روايات عن مذبة لليهود في روين(٢)، ويستبعد أن تكون هذه المذبة قد حدثت في الواقع. بيد أن اليهود بلغوا من التوحش حدا يتيح لسبطرس الناسك أن يحقق مأربا منهم. وألح لهم. دون شك، أنه إذا سارت الأمور على غير ما يرجو فقد تجد صعوبة في السيطرة على أتباعه. وبذا حصل من اليهود الفرنسيين على خطابات تقدم موجهة إلى المجتمعات اليهودية في سائر أنحاء أوروبا تدعوهم إلى الترحيب به. وتقدم كل الإمدادات التي قد يطلبها هو وجيشه.(٣)

وفي تلك الأثناء تقريبا بدأ دوق اللورين الأسفل جودفري أوف بويلون ترتيباته للخروج في الحملة الصليبية. وسرت شائعة في أرجاء المقاطعة بأنه أقسم قبل رحيله أن يتأثر لموت المسيح بدم اليهود؛ فقام اليهود الفرعين في أراضي الراين بحث حاخامهم الأكبر كالونيموس كي يكتب إلى الإمبراطور هنري الرابع — وهو السيد الإقطاعي الذي يتبعه جودفري، والذي دائما ما كان يظهر الود لجنسهم، ليدعوه إلى منع ذلك الاضطهاد. وفي ذات الوقت، ولكي تكون الجماعات اليهودية في ميسر وكولونيا في جانب الأمان، قدمت كل منها إلى الدوق مبلغ خمسمائة قطعة فضية. وكتب هنري إلى أتباعه الرئيسيين، من الدنيويين والكنسيين، يأمرهم بأن يضمنوا سلامة جميع اليهود في أراضيهم. ولما رأى جودفري أنه لنجح بالفعل في ابتزازهم أحاب بأنه لم يفكر في الاضطهاد على الإطلاق، وأعطى الضمان المطلوب عن طيب خاطر.(٤)

(١) Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 11; Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. ii, p. 169

(٢) (المترجم) روين : مدينة وميناء شمال شرق فرنسا علي نهر السين .

(٣) Salomon bar Simeon, *Relation*, in Neubauer and Stern, *op. cit.* pp. 25, 131

(٤) The *Notitiae Duae Lemovicenses de praedicatione Crucis in Aquitania*, p. 351  
وفي هذا التاريخ الأخير إلّاع عبارات غامضة إلى مذابح حدثت في مختلف المدن الفرنسية .

(٤) Salomon bar Simeon, p. 87; Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1098, p. 208

وإذا كان في مأمول اليهود إنقاذ أنفسهم من تهديدات الحمية المسيحية بمثل هذا الثمن اليحس فسرعان ما يكتشفون أنهم قد خدعوا؛ ذلك أنه في نهاية إبريل (نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية انطلق المدعو فولكمار، الذي لا نعرف شيئا عن أصله، من أراضي الراين وبصحته ما يزيد على عشرة آلاف رجل ليلحقوا ببطرس في الشرق. وسلك الطريق الناهب إلى البحر عبر بوهيميا<sup>(١)</sup>، وبعد ذلك بأيام قليلة رحل تلميذ بطرس القديم جوتشوك مع مجموعة أكبر قليلا عبر الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس أعلى لهر الراين وعبر بافاريا<sup>(٢)</sup>، وفي نفس الوقت قام لورد صغير في أراضي الراين هو الكونت إيمش أوف ليزنغن بجمع جيش ثالث، وكان قد اكتسب شهرة معينة تتصف بالفوضى وقطع الطرق. على أنه زعم أن الصليب قد ملئ على لحمه بمعجزة. وفي ذات الوقت استطاع، وهو الجندي المعروف بعنكته، أن يجتذب إلى لوائه نوعية ضخمة وهائلة من المندمين ويتحكم فيها بشكل يفوق ما يستطيعه الواعظان فولكمار وجوتشوك، وانضم إليه حشد من الحجاج المتحمسين البسطاء، تتبع البعض منهم "أوزة" زعموا أن الوحي هبط عليها من الرب. لكن حينئذ كان يضم كذلك بعضا من النبلاء الفرنسيين والألمان مثل لوردات زوييروكن، وسالم، وفيرنيرجر، وهاريمان أوف ديلينجن، ودوجو أوف نيسل، وكلارامبالد أوف فيندوبيل، وتوماس أوف لافير، ووليم فايكونت أوف ميلون الذي اكتسب لقب النجار بسبب قوته البدنية الهائلة<sup>(٣)</sup>.

(١) Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 20; Cosmas of Prague, *Chronicon*, III, 4, p. 103

(الترجم): بوهيميا : تشيكوسلوفاكيا الحالية .

(٢) Albert of Aix, I, 23, pp. 289-90; Ekkehard, *op. cit.* p. 20

(٣) Albert of Aix, I, 27, 28, pp. 292-4, 30, p. 295, 31, p. 299; Ekkehard, *op. cit.* p. 20-1



### المذابح الأولى

وربما كان صنيع بطرس والدوق جودفري هو الذي أوحى إلى إيميش بمسعى سهولة استغلال الحمية الدينية لتحقيق مصلحته الذاتية ومصلحة رفاقه، فتحاول الأوامر الخاصة التي أصدرها الإمبراطور هنري، وحث أتباعه على الشروع في حملتهم الصليبية في الثالث من مايو (آيار) بحوم على الأقلية اليهودية في ناحية سباير القريبة من منزله. ولم يكن هجومه مؤثراً، فقد أسبغ أسقف سباير حمايته على اليهود الذين استأثروا بتعاطفه معهم بعد أن قدموا إليه هدية قيمة. ولم يقع في أسر الصليبيين سوى اثني عشر يهودياً ذبحوا بعد رفضهم اعتناق المسيحية. وانتحرت واحدة من اليهوديات لتحافظ على عفتها، وأنقذ الأسقف الباقين، بل واستطاع القبض على عدد من القتلة وقطعت أيديهم جزاء ما فعلوا.<sup>(١)</sup>

وبرغم ضالة مذبح سباير إلا أنها فتحت الشهية؛ فقد وصل إيميش وجنوده إلى ورمز في الثامن عشر من مايو (آيار)، وسرعان ما انتشرت شائعة بأن اليهود عطفوا مسيحياً وأغرقوه واستخدموا الماء الذي حفظوا فيه حثته في تسميم آبار المدينة. ولم يكن اليهود محبوبين في ورمز ولا في المناطق الريفية المحيطة، وترتب على الشائعة أن انضم أبناء المدينة والفلاحون إلى رجال إيميش في هجومهم على حي اليهود، وقتل كل من ألقي القبض عليه من اليهود. وكما حدث في سباير، تدخل الأسقف وفتح قصره ليلوذ به اليهود، على أن إيميش والجموع الغاضبة اقتحمت البوابات واندفعت إلى

---

Salomon bar Simeon, Eliezerbar Nathan and Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Ncubauer and Stern, *op. cit.* vol. ii, pp. 84, 154-6, 171; Bernold, *Chronicon*, p. 465

(١)

الكنيسة حيث قتلوا — رغم اعتراضات الأسقف — كل ضيوفه البالغ عددهم نحو خمسمائة. (١)

#### مذابح في مير وكولونيا

وقعت مذبة ورمز في العشرين من مايو (أيار)، وفي الخامس والعشرين وصل إيميش أمام مدينة مير العظيمة، ووجد بواباتها مغلقة دونه بأوامر من رئيس الأساقفة روثارد، إلا أن أخبار مجيئة أثارت أعمال الشغب المناهضة لليهود داخل المدينة وقُتل أثناءها أحد المسيحيين. وهكذا فتح أصدقاء إيميش بوابات المدينة من الداخل في السادس والعشرين من مايو (أيار)، وأرسل اليهود المتجمعين في معبد هدايا عبارة عن مائتي مارك فضي لرئيس الأساقفة ورئيس المدينة اللورد الدينوي متوسلين أخذهم إلى قصرهم. وفي نفس الوقت ذهب مبعوث يهودي إلى إيميش وابتاع منه وعدًا بالإبقاء على حياتهم في مقابل سبعة حنفيات ذهبية. لكن النقود ذهبت هباءً فقد هاجم في اليوم التالي قصر رئيس الأساقفة روثارد الذي أسرع بالفرار مع مساعديه كلهم بعد أن استشعر الخطر من حماس المهاجمين الذين اقتحموا المبنى فور رحيله، وحاول اليهود المقاومة لكنهم سرعان ما غلبوا وقتلوا. وربما كان حاميمهم الدينوي الذي اندثر اسمه أكثر شجاعة، ولكن إيميش نجح في إشعال النيران في قصره وأجبر نزلاءه على إخلائه، وأنقذ العديد من اليهود أرواحهم بالارتداد عن دينهم وقتل الباقون. واستمرت المذبحة ليومين آخرين، بينما كان يجري جمع الثمارين. وتدم بعض المرتدين على ضعفهم فانتحروا، وقام أحدهم قبل أن يقتل نفسه وعائلته بحرق المعبد اليهودي ليدراً عنه المزيد من التخريب، وهرب الخاخام الأكبر كاثونيموس من المدينة ومعه نحو خمسين يهوديًا

---

(٢) Salmon bar Simeon, p. 84; Eliezer bar Nathan, pp. 155-6; Anonymous of Mainz-Darmstadt, p. 172

إلى مدينة روديشيم، وتوسلوا إلى رئيس الأساقفة — الذي كان في القصر الريفسي الخاص به — أن يحميهم، ولمّا رأى رئيس الأساقفة الفزع بادئاً على زائريه بدا له أنّ اللحظة مواتية ليراودهم عن دينهم، وكان ذلك فوق ما يتحمّله كالونيموس، فاحتطف سكيناً وانقض على مضيقه، غير أنه حيل بينه وبين ذلك، ودفع هو ورفاقه أرواحهم ممّا للتهور. وبلغ عدد الذين قتلوا في ميع نحو ألف من اليهود. (١)

وتقدم إيمش بعد ذلك باتجاه كولونيا التي حدثت فيها بالفعل أعمال شغب مناهضة لليهود في شهر إبريل (نيسان). وأصيب اليهود بالهلع لدى سماع أنباء ميسر، فتبعثوا في القرى المجاورة وفي منازل أصدقائهم من المسيحيين الذين أخفّوهم يوم عيد العنصرة، أول يونية (حزيران)، واليوم التالي له، أثناء وجود إيمش في الجسوار. وقد أحرق المعبّد اليهودي وقتل يهودي ويهودية رفضاً الارتداد، ولكن نفوذ رئيس الأساقفة حال دون التماذي في الاضطهاد. (٢)

وفي كولونيا قرر إيمش أن مهمته في أراضي الراين قد اكتملت، فانطلق في أوائل يونية (حزيران) مع سواد قواته أعلى نهر مين إلى البحر. ولكن جماعة من أتباعه رأّت أن وادي نهر موسيل ينبغي تطهيره هو الآخر من اليهود، وانفصلوا عن جيشه في مدينة ميسر وواصلوا السير إلى تراير في أول يونية (حزيران)، حيث كان أغلب اليهود آمنين لاثنتين بقصر رئيس الأساقفة. وما أن اقترب الصليبيون حتى أصيب بعض اليهود بالذعر فشرعوا يتقاتلون فيما بينهم، بينما ألقى آخرون بأنفسهم في نهر موسيل

(١) Salomon bar Simeon, pp. 87-91; Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 178-180; Albert of Aix, I, 27, pp. 292-3. 80: تعدد المورخ ألبرت أوف آيخس مذمعة ميسر بعد مذمعة كولونيا.

(٢) Salomon bar Simeon, pp. 116-17; *Martyrology of Nuremburg*, p. 109; Albert of Aix, I, 26, p. 292



وغرقوا. ثم تحرك مضطهدوهم إلى ميتز حيث قضوا على اثنين وعشرين يهوديًا. ورجعوا إلى كولونيا في حوالي منتصف يونية (حزيران) آمليين الانضمام إلى لميش مرة أخرى، ولما وجدوه قد رحل تقدموا أسفل نهر الراين وراحوا يقتلون اليهود في نبوس، ووفيلنجوفن، وإللار، وكساتين في الفترة من الرابع والعشرين إلى السابع والعشرين من يونية (حزيران)، ثم تفرقوا فرجع البعض إلى بيوتهم، وربما التحق آخرون بجيش حودفري أوف بويلون.<sup>(١)</sup>

ووصلت أنباء أعمال القتل الجيدة التي حققها لميش إلى الجماعات التي كانت قد رحلت بالفعل من ألمانيا إلى الشرق. ووصل فولكمار وأتباعه إلى براغ في نهاية مايو (أيار). وفي الثلاثين من يونية (حزيران) بدأوا في تقتيل اليهود في المدينة. ولم تكن السلطات الدنيوية قادرة على السيطرة عليهم، كما لم يكن لاعتراضات الأسقف كوسماس العنيفة أيّ صدى. وسار فولكمار من براغ إلى داخل النهر، ويبدو أنه حاول في مدينة نيترا، وهي أول مدينة كبيرة عبر الحدود، أن يسير على نفس السدرب، لكن المجرين لم يسمحوا بمثل هذه التصرفات، ولما وجدوا الصليبيين على هذا النحو من المشاكسة التي تستعصي على الإصلاح هاجمهم وشتتوا مثلهم، فقتل كثيرون ووقع آخرون في الأسر، ولم يُعرف مصير فولكمار والباقيين على قيد الحياة.<sup>(٢)</sup>

وأما جونشوك ورجاله، الذين اتخذوا الطريق الذي يمضي خلال بافاريا، فقد توقفوا في راتيسبونند ليذهبوا اليهود هناك. وبعد ذلك بأيام قليلة دخلوا النهر عند فيسلبورج (موسون)، وأصدر الملك كولومان أوامره بمنحهم تسهيلات لإعادة تمويهم طالما كانوا ملتزمين بالنظام. لكنهم كانوا قد بدعوا غب البلاد منذ البداية، وراحوا

(١) salomon bar Simeon, pp. 117-37; Eliezer bar Nathan, pp. 160-3

(٢) Cosmas of Prague, *loc. cit.*

يسرقون النبلذ والغلال والأغنام والثيران، وقاوم الفلاحون المجرمون هذا النهب. وحدث قتال وسقطت أعداد كثيرة، وقتل الصليبيون صبيًا بحرًا صغيرًا بالخازوق. فأرسل كولومان جنودًا للسيطرة عليهم، وأحاطوا بهم في قرية ستولفيزنجر الواقعة إلى الشرق قليلًا، وأرغموهم على تسليم أسلحتهم والأمتعة التي سرقوها كلها. ولكن المتعصب استمر، فرمى حاولوا المقاومة، وربما سمع كولومان آنذاك بأحداث نيترا، ومن ثم لم يمكنه أن يتق بهم حتى وإن ألقوا سلاحهم. وانقض عليهم الجيش المجري وهم تحت رحمته وكان جوتشوك أول المجرين ولكنه سرعان ما وقع في قبضتهم وقُتل وتم القضاء على جميع رجاله في المذبحة.<sup>(١)</sup>

#### نهاية حملة إيميش

وبعد تلك الأحداث بأسابيع قليلة، اقترب جيش إيميش من الحدود المجرية، وكان أعظم من جيش جوتشوك وأكثر هولًا، واستشعر الملك كولومان الخطر الجسيم بعد تجاربه تلك بالأمس القريب، ولذا رفض السماح بعبور إيميش خلال مملكته حينما طلب الإذن بذلك، وأرسل جنودًا لحماية الجسر الموصل إلى فيسليجرج فوق رافد لنهر الدانوب. ولم يكن إيميش بالرجل الذي يحيد عن قصده وحارب المجرين على مدى ستة أسابيع في سلسلة من المناوشات الصغيرة أمام الجسر بينما كان يبني جسرًا بديلًا آخرًا، وفي نفس الوقت كان رجال إيميش ينهاون البلاد في ضفة النهر التي في حوزتهم. وأخيرًا تمكن الصليبيون من شق طريقهم عبر الجسر الذي بنوه، وحاصروا قلعة فيسليجرج ذاتها، وكان جيشهم جيد التجهيز، ولديهم من أسلحة الحصار القوية ما جعل سقوط المدينة يسيرًا وشيكًا. غير أنه يُعتمد أن شائعة انتشرت بأن الملك قادم بكامل قواته،

(١) Ekkehard, *op. cit.*, pp. 20-1; Albert of Aix, I, 23-4, pp. 289-91

فأصاب الصليبيين دعر مفاجئ تركهم في فوضى عارمة، وعلى الأثر خرجت الحامية وانقضت على معسكرهم، ولم يستطع ليميش أن يعيد تنظيم رجاله، ودارت معركة قصيرة اجتثت فيها شأفتهم تماماً، وسقط أغلبهم في الميدان، واستطاع ليميش نفسه وقليل من الفرسان الهرب على خيلهم السريعة. وأخيراً عاد ليميش ورفاقه إلى بيوتهم. أما الفرسان الفرنسيون كلارامبالد أوف فيندويل، وتوماس أوف لافير، ووليم النحار فقد التحقوا بحملات أخرى متجهة إلى فلسطين.<sup>(١)</sup>

وكان لانهيار حملة ليميش الصليبية، في أعقاب انهيار حلفي فولكمار وجوتشوك، اثر عميق في العالم المسيحي الغربي. وبدا الأمر للمسيحيين الطيبين على أنه عقاب نزل عليهم من السماء جزاء قتلهم اليهود. وأما الآخرون الذين كانوا يسرون أن الحركة الصليبية كلها حق وخطأ، فقد رأوا في هذه الكوارث استنكاراً صريحاً من الرب للحركة الصليبية كلها. ولم يحدث بعد أي شيء يبرر الصيحة التي ترددت أصداؤها في كليرمونت "الرب يشاؤها".<sup>(٢)</sup>

(١) Ekkehard, *op. cit. loc. cit.*; Albert of Aix, 1, 28-9, pp. 293-5

(٢) Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 21 ويقول Albert of Aix, 1, 29, p. 259 إن أساس كثيرين ظنوا أن فكرة الحملة الصليبية فكرة حقاء لا طائل من ورائها.

## الفصل الثالث:

### الأمراء والإمبراطور



## الأمراء والإمبراطور

«أَكْثَرُ الضَّرْعَاتِ إِلَيْكَ أَمْ يَتَكَلَّمُ  
مَعَكَ بِاللِّسَنِ، هَلْ يَقْطَعُ مَعَكَ  
عَهْدًا»

(سفر أيوب: إصحاح ٤١، ٣ — ٤)

كان الأمراء الغربيون الذين أخذوا الصليب أكثر صمًا من بطرس وأصدقائه. وكانوا على استعداد للالتزام بالجدول الزمني الذي وضعه البابا؛ إذ كان يجب تجميع جنودهم وتجهيزهم ، وينبغي جمع الأموال لهذا الغرض، وعليهم أن يضعوا الترتيبات

لإدارة الحكم في أراضيهم أثناء غيبتهم التي قد تطول لسنوات، ولم يكن أحد منهم على استعداد للرحيل قبل نهاية شهر أغسطس (آب).

وكان أول من غادر موطنه هو هيو، كونت فيرماندوا، المعروف باسم الأصغر. وهو الابن الأصغر للملك هنري الأول الفرنسي، وابن الأميرة آن أوف كييف ذات الأصل الإسكندنافي، وقد تجاوز عمره آنذاك الأربعين بقليل. ويتميز بالثروة أكثر مما يتميز بالثروة، وقد حصل على مقاطعته الصغيرة بزواجه من وريثها، ولم يكن له أي دور بارز في السياسة الفرنسية، وكان فقيراً نسبياً، ولم يكن من ذوي القدرة على العمل الفعال. ولا نستطيع أن نستشف دوافعه للانضمام إلى الحملة الصليبية، ولا شك في أنه ورث قلق أسلافه الإسكندنافيين، وربما شعر أن باستطاعته في الشرق الحصول على القوة والثراء الخليقيين بمئنة الرفيع. وربما شجعه أخوه الملك فيليب على اتخاذ قراره هذا لتفوز الأسرة بالخطوة لدى البابوية. ولقد ترك أراضي في رعاية الكونتيسة، وانطلق في أواخر أغسطس (آب) إلى إيطاليا على رأس جيش صغير من أتباعه وبعض الفرسان التابعين لأخيه. وقبل رحيله أرسل رسولا خاصا يسبقه إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور أن يتهاى لاستقباله بمظاهر الحفاوة التي تليق بأمر بحري في عروقه دماء ملكية. وفي طريقه إلى الجنوب انضم إليه دروجو أوف نيسل، وكلارامبالد أوف فندويل، ووليم النجار وغيرهم من الفرسان الفرنسيين العائدين من كارثة حملة لميش.<sup>(١)</sup>

ومرّ هيو وصحبته بروما، ووصلوا باري في أوائل أكتوبر (تشرين الأول)، وفي

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, vii, II, p.213; *Gesta Francorum*, p.14; Fulcher of Chartres, p. 144-5 of Chartres، ونحونا أنا كومنيا أن كونتا يونانيا صاحب الحملة (x, vii, 3, p. 213)، ويقول لبرت لوف أيكس إن Drogo and Carambald كانا معه. وتطلق أنا كومنيا على هيو Hugh إسم "أوفروس Uvos"

جنوب إيطاليا وجدوا الأمراء النورمانديين يستعدون للحرب الصليبية. وقرر ولیم — ابن أخت بوهيموند — ألا ينتظر أقاربه وأن يعبر البحر مع هيو. ومن باري أرسل هيو سفارة من أربعة وعشرين فارساً بقيادة ولیم النحار إلى ديرهاكيوم لإخطار حاكمها بأنه على وشك الوصول، وأعاد طلبه بإعداد استقبال يليق به، وهكذا استطاع الحاكم جون كومنينوس إخطار الإمبراطور بقدمه، واستعد هو نفسه لاستقباله. بيد أن وصول هيو لم يحظ بالتكريم الذي منى نفسه به؛ إذ هبت عاصفة حطمت أسطوله الصغير الذي استأجره للعبور وغرقت بعض سفنه بجميع ركانها، ولفظ اليم هيو على الشاطئ عند كاب باني إلى الشمال من ديرهاكيوم بأميال قليلة حيث وجده مبعوث الحاكم ذاهلاً غطاء الوحل، ورافقوه إلى سيدهم الذي أعاد تجهيزه على الفور وأولم له وأحاطه بكامل الرعاية، لكنه وضعه تحت مراقبة دقيقة. واغتبط هيو لما وجده من رعاية ومثلق، وإن بدا لبعض أتباعه وكأنه سجين. وبقي هيو في ديرهاكيوم إلى أن جاء من قبل الإمبراطور مسئول على مستوى عال هو أمير البحار متنبول بوتوماتيس لصاحبه إلى القسطنطينية. وكانت رحلته مريحة رغم أنه اضطر إلى أن يسلك طريقاً دائرياً حول فيليبوبوليس؛ إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالبحر الإيطاليين المتزاحمين على طريق فياجناتيا. وفي رحلته مريحة رغم أنه اضطر إلى أن يسلك طريقاً دائرياً حول فيليبوبوليس؛ إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالبحر الإيطاليين المتزاحمين على طريق فياجناتيا. وفي القسطنطينية حياة ألكسيوس بمسرة وأغرقه بالهدايا، لكنه استمر في تقييد حريته. (١)

(١) Anna Comnena, x, vii, 2-5, vol. II, pp. 213-15 ، التي تعرف بأن جون كومنينوس لم يترك هيو في كامل حريته وقصتها كاملة ومقنعة. أما المصادر الغربية - *Gesta Francorum* و Fulcher و Albert - فتعلن أنه احتجز سجيناً سحناً مطلقاً لا حول له ولا قوة. ولا تبدل تصرفاته اللاحقة على ذلك.



خريطة رقم (٣) : أسيا الكبرى في وقت الحملة الصليبية الأولى

وعند وصول هيو اضطر أنكسيوس إلى الإعلان عن سياسته تجاه الأمراء الغربيين. فقد اقتنع من المعلومات التي توفرت لديه، وتذكره لمصير روسيل أوف بيلويل، أنه مهما تكن الأسباب الرسمية المعلنة للحرب الصليبية، فإن الهدف الحقيقي للفرنج هو أن يعصلوا على إمارات في الشرق. ولم يكن ليعترض على ذلك. ومادامت الإمبراطورية قد استردت جميع الأراضي التي كانت في حوزتها قبل الغزوات التركية، فهناك تفكير آنذاك في أن تكون تلك الدويلات مستقلة. ذلك أن الكسيوس أراد التأكد من أنه سيكون من الواضح أنه السيد الأعلى لأية دولة قد تنشأ. ولعلمه أن الولاء في الغرب يؤخذ بقسم غليظ، فقد قرر أن يطلب من جميع القادة الغربيين أن يقسموا هذا القسم كي يساندهم في غزواتهم المقبلة. ولكي يضمن التزامهم بالقسم كان على استعداد لأن يغمهم بعطايا وإعاناته مما يؤكد ثراه. وبمجه فلا يشعرون انتقاصاً لكرامتهم إذا ما أصبحوا رجال الإمبراطور. وانبهر هيو بعظمة الإمبراطور وكرمه، فوافق على خططه عن طيب خاطر. على أنه لم يكن من اليسير إقناع من جاء بعده من الغرب بذلك.

#### جودفري أوف لورين

وأما جودفري أوف بويلون، دوق اللورين الأسفل، فيظهر في الأساطير المتأخرة على أنه الفارس المسيحي المثالي والبطل الفذ في الملحمة الصليبية بكاملها. بيد أن الدراسة المدققة للتاريخ لا بد لها من أن تعدل هذا الحكم. ولد جودفري سنة ١٠٦٠ ميلادية تقريباً وهو الابن الثاني للكونت إيبوستاس الثاني أوف بولونيا وإيذا، ابنه جودفري الثاني دوق اللورين الأسفل الذي ينحدر من ناحية أمه من شارلمان. واحتير وريثاً لممتلكات عائلة أمه، ولكن بعد موت والدها صادر الإمبراطور هنري الرابع الدوقية، ولم يترك لجودفري سوى كونتية أنتويرب ولوردية بويلون في آردن(١).

(١) (الترجم) آردن (Ardennes): هضبة مشجرة شمال شرق فرنسا وجنوب بلجيكا ولوكسمبورج .

ومع ذلك كان جودفري مخلصا للإمبراطور في حملته الألمانية والإيطالية سنة ١٠٨٢ ميلادية ، حتى خلع عليه الإمبراطور الدوقية ولكن كمنصب وليس كإقطاعية موروثة . وكانت اللورين غارقة في النفوذ الكلاسيكي، ومن الجائز أن تكون التعاليم الكلوونية بما فيها من تعاطف بابوي قوي، بدأت تسبب الاضطراب في ضمير جودفري، برغم إخلاصه للإمبراطور. ولم تكن إدارته للورين إدارة تتصف بالكفاءة، ويبدو أنه كانت هناك بعض الشكوك فيما إذا كان الإمبراطور هنري الرابع سوف يستمر في استخدامه. وهكذا، فإن تليته لنداء الحرب الصليبية تبع من يأسه من مستقبله في اللورين من ناحية، ومن مشاعر القلق المتعلقة بإخلاصه الديني من ناحية أخرى، ومن حماسه الأصيل من ناحية ثالثة. وأعد ترتيباته إعدادا شاملا؛ فيعد أن جمع الأموال ابتزازا من اليهود باع ضياعه في روزاي وستيناي الواقعة على نهر ميوز<sup>(١)</sup>، ورهن قلعته في بويلون لدى أسقف لييج. وبذا تمكن من تجهيز جيش ضخم، فكان ذلك بالإضافة إلى منصبه الرفيع السابق يسبغان عليه هبة زاد منها طبعه اللطيف ومظهره الوسيم، إذ كان طويل القامة، قوي البنية، أشقر اللون، أصفر شعر اللحية والرأس، أي الصورة المثالية للفارس الشمالي. ولكنه كان جنديا غير مكثرت، وأما شخصيته فقد توارت في ظل شخصية أخيه الأصغر بالدوين.

وأخذ أخوه الصليب أيضا. فأما الأكبر إيستاس الثالث كونت بولونيا، فكان صليبيًا غير متحمس، في شوق دائم إلى العودة إلى أراضيه الخصبة على جانبي القنال الإنجليزي، وكان عدد الجنود الذين قدمهم يقل بكثير عما أسهم به جودفري، واكتفى بأن يتطلع إلى جودفري على أنه القائد. ربما ارتحل بمفرده عبر إيطاليا. وأما الأخ الأصغر بالدوين الذي صاحب جودفري، فكان من غط مختلف؛ إذ كان مُقدراً له من قبل أن يصبح قسيساً، ولذا لم تخصص له أي شيء من ممتلكات الأسرة. وعلى الرغم

(١) «الترجم» ميوز Meuse: نهر يتدفق من شمال شرق فرنسا عبر بلجيكا وهولندا إلى بحر الشمال .

من أن تدريبه في المدرسة الكبرى في ريم أكسبه تنوعاً للثقافة، فلم تكن طباعه طباع رجل الكنيسة. فعاد إلى الحياة الدنيوية ومن الواضح أنه التحق بالخدمة مع أخيه جودفري في اللورين. وكان الأخوان يشكلان تناقضاً مذهلاً؛ فكان بالدوين أطول من جودفري، وكان شعره داكناً بقدر ما كان شعر أخيه أشقراً، ولكن جلده أبيض شديد البياض، وبينما نجد جودفري كريم الطبع كان بالدوين متعالياً بارداً، وكانت ميول جودفري تنصف بالبساطة على عكس بالدوين الذي يحب الأبهة والترف برغم إمكانه تحمل الشاق الهائلة. وكانت حياة جودفري الخاصة هي حياة العفة، أما بالدوين فكان يطلق لنفسه العنان لتتغمس في الملذات الجنسية. ورحب بالدوين بالحرب الصليبية باغتياب؛ فلم يكن له مستقبل في وطنه، أما في الشرق فرمما يجد لنفسه مملكة. وعندما شرع في الرحلة إلى الشرق اصطحب معه زوجته النورماندية جودفسير أوف توسني وأطفاله الصغار، فلم يكن ينوي العودة.

وانضم إلى جودفري وأخويه الكثير من الفرسان البارزين من أراضي والون ولوثارينج<sup>(١)</sup>: فانضم ابن خالتهم بالدوين أوف ريثيل لورد لوبورج، وبالدوين الثاني كونت هينولت، ورينالد كونت تول، ووارنر أوف جراي، ودودو أوف كسونز -

---

(١) (المترجم): والون ولوثارينج : جنوب وجنوب شرق بلجيكا بالقرب من فرنسا .

ساربرج وبالدوين أوف ستافيلوت، وبطرس أوف ستيناي، والأخوان هنري وجيوفري أوف إيش.<sup>(١)</sup>

#### جودفري في البحر

ولم ينشأ جودفري أن يسلك طريق إيطاليا الذي يسلكه القادة الصليبيون الآخرون. ربما لأنه شعر ببعض الخرج من البابوية لما له من مواقف مساندة للإمبراطور، وبدلاً من طريق إيطاليا قرر الذهاب عن طريق البحر، بحيث يسلك الطريق الذي سلكه "حملة الشعب"، ليس ذلك وحسب، وإنما أيضاً — وطبقاً للأسطورة التي كانت تنتشر آنذاك في الغرب كله — الطريق الذي سلكه جده شارلمان نفسه في طريق حججه إلى القدس. وغادر اللورين في نهاية أغسطس (آب)، وبعد مسيرة أسابيع قليلة أعلى بحر الراين وأسفل بحر الدانوب، وصل في بداية أكتوبر (تشرين الأول) إلى الحدود المغربية على بحر ليشا. ومن هناك أرسل سفارة يرأسها جودفري أوف إيش، الذي كانت له تعارب سابقة في البلاط المغربي، إلى الملك كولومان بطلب الإذن لعبور أراضيه.

---

(١) عن سيرة حياة Godfrey of Lorraine المبكرة، انظر: Breysig, 'Gottfried von Boullion vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte* vol. xvii, pp. 169 ff. وورد Albert of Aix, II, I, p. 229 قائمة برفاقه. ويرد وصف مظهره لدى William of Tyre (IX, 5, p. 371) and Baldwin's *ibid.* (X, 2, pp. 401-2) وطبقاً لما أورده المؤرخ Albert (ii, 21, p. 314) خرج Eustace من Boulogne مرتحلاً مع جيش فرنسي شمالي؛ لكن Fulcher، الذي ارتحل مع ذلك الجيش ولديه معلومات كاملة عنه لا يذكر حضوره. وربما كان أحد الفرسان الذين وصلوا بجراً إلى القسطنطينية بعد جودفري مباشرة.

لكن كولومان عانٍ مؤخرًا أشدَّ المعاناة من الصليبيين بحيث لم يكن يوسعه الترحيب بغزو جديد، فاحتجز السفارة ثمانية أيام، ثم أعلن أنه سيلتقي مع جودفري في أويدينج. وجاء جودفري مع بعض فرسانه، ودعاه الملك لقضاء بضعة أيام في البلاط النحري. وتولد لدى كولومان من هذه الزيارة انطباع بالموافقة على مرور جيش جودفري عبر النهر شريطة أن يبقى بالدوين وزوجته وأولاده عنده كرهائن، بعد أن استنح بقراسه أنه أخطأهم. وعندما عاد جودفري إلى جيشه رفض بالدوين أولاً تسليم نفسه، لكنه رضى آخر الأمر. ودخل جودفري وجنوده المملكة عند أويدينج، ووعد كولومان أن يمددهم بالمون بأسعار معتدلة بينما أرسل جودفري المنادين في أنحاء جيشه معلناً أن الموت سيكون جزءاً من يقترف عملاً من أعمال العنف. وبهذه الاحتياطات الأمنية سار الصليبيون بسلام خلال النهر وهم تحت المراقبة الدقيقة من الملك وجيشه طوال الطريق، وتخلفوا في مانتيلوز بالقرب من الحدود البيزنطية لإعادة تموينهم بالمون. وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) وصل جودفري إلى سيميلين، واقتاد جنده بنظام عبر نهر ساف إلى بلجراد، وما أن عبروا الحدود عاد الرهائن.

وكانت السلطات الإمبراطورية مهيأة للترحيب بالجيش، وربما علمت سلفاً بوصوله من النحريين. وكانت بلجراد ذاتها مهجورة منذ أن انتهبها بطرس قبل ذلك بخمسة أشهر. وأسرع البعض من حرس الحدود إلى نيش حيث يقيم الحاكم نيساس ومعه الحرس في انتظار جودفري، وانطلق الحرس في الحال وقابلوه في الغابة الصربية الواقعة في منتصف الطريق بين نيش وبلجراد. وكانت الترتيبات قد اتخذت بالفعل لتموين الجيش. وهكذا تقدم الصليبيون عبر شبه جزيرة البلقان بلا مشاكل. وفي فيليبوبوليس علم الصليبيون بأنباء وصول هيو أوف فيرمندوا إلى القسطنطينية، وعن الهدايا الرائعة التي تلقاها هو ورفاقه. وكان لتلك الأنباء أعمق الأثر لدى بالدوين أوف هينولت وهنري أوف إيش حين أنهما قررا الإسراع ليسيما الجيش إلى العاصمة ليضمنا

نصيبهما من الهدايا قبل وصول رفاقهم، ولكن ترددت شائعة — لا تخلو تمامًا من الصحة — بأن هيو محتجز كسجين مما سبب بعض القلق لسجودفري.<sup>(١)</sup>

#### وصول جودفري إلى القسطنطينية

وفي الثاني عشر من ديسمبر (كانون الأول) توقف جيش جودفري في سيليمريا على بحر مرمرة. وهناك انفرط عقد نظامه فجأة بعد أن ظل منضبطًا تمامًا حتى تلك اللحظة. ولثمانية أيام أخذ الجنود يعيشون في الأرض فسادًا، وأما سبب هذه الفوضى فليس معروفًا رغم أن جودفري حاول تبريرها كعمل من أعمال الثأر لسجن هيو. وعلى الفور أرسل الإمبراطور ألكسيوس اثنين من الفرنسيين كانسا في خدمته هما رادولف بيلدلو وروجر ابن داجوبرت للاحتجاج لدى جودفري ولحثه على الاستمرار في مسيرته بسلام. ونجحوا في مهمتهما ووصل جيش جودفري إلى القسطنطينية في الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون الأول)، وبناء على طلب الإمبراطور عسكر الجيش خارج المدينة أعلى مياه القرن الذهبي.<sup>(٢)</sup>

واعتبرت الحكومة الإمبراطورية أن وصول جودفري على رأس جيش كبير جيد التجهيز يشكل معضلة عسيرة. فسياسة الإمبراطور تقضي بالتأكد من ولاء جودفري وإخراجه على وجه السرعة من العاصمة درعًا للمخاطر، ومن المشكوك فيه ما إذا كان ألكسيوس قد ارتاب حقًا في أن يكون لدى جودفري مطامع في القسطنطينية، لكن

(١) يرد وصف رحلة جودفري وصفًا كاملاً في تاريخ Albert of Aix, II, 1-9, pp. 299-305 ويرد وصف قصير في تاريخ زيمرن The Chronicle of Zimmern, pp. 21-2 ولا ترد الرحلة الفعلية في أية مصادر يونانية.

(٢) (الترجم): القرن الذهبي: جزء من اسطنبول يعتبر "اسطنبول الحديثة" ولا يزال يعتبر "حي الأحياء" كما كان منذ القرن العاشر.

ضواحي المدينة سبق وأن عانت الأمرين من أتباع بطرس الناسك المنفسدين، ومن الخطورة أن تتعرض تلك الضواحي لجيش لا يقل فوضوية عن سابقه ويفوقه تسليحًا.

وكان على الإمبراطور أن يحصل أولاً على بيمين الولاء من جودفري الذي ما أن استقر في معسكره حتى أرسل إليه الإمبراطور هيسو أوف فرمندوا يدعوه لمقابلة الإمبراطور، وقد قبل هيو القيام بهذه المهمة وهو أبعد ما يكون عن الاستياء من معاملة الإمبراطور له.

ورفض جودفري دعوة الإمبراطور. لقد استعصت الأمور عليه. إذ شعر بالحيرة من موقف هيو، واتصل جنوده ببقايا قوات بطرس، الذين عزا أغلبهم الكارثة التي لحقت بهم مؤخراً إلى الخيانة الإمبراطورية مما كان له أثر عليه. وقد سبق أن أقسم جودفري قسم ولاء شخصي للإمبراطور هنري الرابع باعتباره دوقاً للورين الأسفل، وربما ظن أن ذلك يحول دون القسم بالولاء للإمبراطور الشرقي الغريم، وفضلاً عن ذلك، فإنه لم يرغب في اتخاذ أية خطوة هامة قبل استشارة القادة الصليبيين الآخرين وهو يعلم أنهم على وشك الوصول، فرجع هيو إلى القصر دون أن يعمل معه رداً لـ ألكسيوس.

وغضب ألكسيوس. وبحركة تخلو من الحكمة أوقف الإمدادات التي سبق أن وعد جودفري بها حتى يمتثل. وبينما تردد جودفري في الإغارة على الضواحي شرع بالدوين على الفور في ذلك إلى أن وعد ألكسيوس برفع الحظر عن الإمدادات، ووافق جودفري على نقل معسكره إلى جنوب الرأس الذهبي عند بيرث حيث المناوى من رياح الشتاء أفضل وحيث تتمكن الشرطة الإمبراطورية من مراقبته عن كثب بشكل أكبر. ولبعض الوقت لم يتخذ أي من الجانبين أي إجراء آخر، وسمح الإمبراطور بتموين جنود الغرب بما يكفيهم من المؤن، وتمكن جودفري من جانيه من أن يحفظ النظام. وفي نهاية بنسايير (كانون الثاني) أعاد ألكسيوس دعوة جودفري، لكنه كان ما يزال غير راغب في الالتزام قبل أن يشترك معه قادة آخرون من الصليبيين، فأرسل ابن عمه بالدوين أوف



لوبيورج ومعه كونون أوف مونتيجو وكذلك جيوفري أوف إيش إلى القصر ليسمعوا مقترحات الإمبراطور، ولكنه بعد عودتهم لم يرسل أي رد إلى الإمبراطور. ولم يكن ألكسيوس راغبًا في استشارة جودفري حين لا يعاود تخريب الضواحي. وبعد أن استيقن من عزلة أهل اللورين عن العالم الخارجي انتظر آملا أن يفرغ صبر جودفري ويتفقد معه.

#### معركة الأسبوع المقدس

وفي نهاية مارس (آذار) علم ألكسيوس باقتراب وصول جيوش صليبية أخرى إلى القسطنطينية، فلم يجد مثنوثة من تصعيد الموقف، وأمر بتقليل الإمدادات المرسلة إلى معسكر الصليبيين فبدأ بمنع إرسال الأعلاف لخيولهم، وبساقتراب أسبوع الألام منع الكسحاك، وأخيرًا منع الخبز. ورد الصليبيون بشن غارات يومية على القسري المحاصرة، واشتبكوا في نهاية الأمر مع جنود البشنيج الذين كانوا يقومون بدور رجال الشرطة في المنطقة. وانتقم بالدوين بأن نصب كمينًا للشرطة أسر فيه ستين رجلا وأعدم الكثير منهم، وأما جودفري فقد شجعه ذلك النجاح الضئيل وأحس بأنه ملتزم بالقتال فقرّر أن ينقل معسكره وأن يهاجم المدينة نفسها. وبعد أن هب بيوت بيرا، التي كان يقيم فيها رجاله، نهبًا كاملاً وأحرقها، قاد قواته عبر جسر يعلو القرن الذهبي وانتهى بهم إلى أسوار المدينة وبدأ يهاجم الحي الذي يقع فيه قصر بلاتشرن. ومن المشكوك فيه أنه كان يستهدف ما يجاوز الضغط على الإمبراطور، ولكن اليونانيين ظنوا أنه كان يهدف إلى الاستيلاء على الإمبراطورية.

وكان يوم الخميس من أسبوع الألام الموافق للثاني من إبريل (نيسان)، ولم تكن القسطنطينية مهيأة لمثل هذا الهجوم، وقد بدت مظاهر الذعر في المدينة ولم يلقف من حدها سوى وجود الإمبراطور الذي كانت تصرفاته تدل على أنه غير عابئ بذلك

الحجوم. وإنما صدم ألكسيوس صدمة عميقة لاضطراره إلى القتال في مثل هذا اليوم المقدس، فأمر جنوده بالقيام باستعراض عسكري خارج البوابات دون أن يشتبكوا مع العدو بينما أصدر تعليماته إلى الرماة على الأسوار بأن يرموا سهامهم فسوق رؤوس الصليبيين. ولم يشدد الصليبيون هجومهم وسرعان ما تراجعوا ولم يقتلوا سوى سبعة من البيزنطيين. وفي اليوم التالي خرج هيو أوف فرمندوا مرة أخرى ليعاتب حودفري الذي رد عليه بأن غيره بالعبودية التي اتسم بها قبوله أن يكون تابعاً للإمبراطور. وأرسل ألكسيوس بعد ذلك مبعوثين إلى المعسكر يقترحون أن تمضي قوات حودفري في طريقها إلى آسيا، حتى قبل أن يقسم حودفري القسم. لكن الصليبيين تقدموا لمهاجمة المبعوثين دون تريث وقبل أن ينصتوا لما جاءوا به. وعلى ذلك قرر ألكسيوس إلغاء الأمر، واندفع بقوات أكبر للتصدي للهجوم، ولم يكن الصليبيون أئسداً بالجنود الإمبراطورية المتحرسين، فبعد قتال قصير استداروا مولين الأدبار، وتحقق حودفري من ضعفه بعد هزيمته، فرشح للطلبيين: قسم الولاء، وانتقال جيشه عبر البوسفور.

#### احتفال التكريم

وبعد ذلك بيومين على الأرجح، أي في يوم أحد الفصح، أقيمت احتفالات خلف اليمين، فأقسم حودفري وبالدين ولورداتهم الرئيسيون على الاعتراف بالإمبراطور سيداً أعلى في جميع غزواتهم، وعلى أن يسلموا إلى مستولي الإمبراطور جميع الأراضي المستردة التي كانت تابعة للإمبراطور فيما سبق، ثم تسلموا هدايا وفسيرة من الأموال، وبعد ذلك أولم لهم الإمبراطور وليمة أظهر فيها ضروب الخفاوة، وفور انتهاء الاحتفالات انتقل حودفري وجنوده في السفن إلى خلقدونية وواصلوا سيرهم إلى

مضرب عيام في بيليكانوم على الطريق إلى نيكوميديا.<sup>(١)</sup>

ولم يكن لدى ألكسيوس وقت بضيقه، فقد وصل بالفعل إلى ضواحي المدينة حيث عثَّط بتكون على الأرجح من مختلف أتباع جودفري الذين فضلوا الارتحال عن طريق إيطاليا والأغلب أنهم كانوا تحت إمرة كونت تول، ووصلوا إلى بحر مرمرة بالقرب من سوثنيوم. وأظهروا نفس الشراسة التي أظهرها جنود جودفري، ورغبوا في انتظار بوهيموند والنورماندين الآتين وراءهم، وفي ذات الوقت قرر الإمبراطور منعهم من اللحاق بجودفري، لكنه لم يستطع ضبط تحركهم إلا بعد شيء من القتال. وبعدما عبر جودفري البوسفور بسلام نقلهم الإمبراطور بحراً إلى العاصمة حيث انضموا إلى جماعات أخرى من الصليبيين كانت قد هامت على وجهها عبر البلقان. وكان على

(١) هناك روايتان عن سلوك جودفري في القسطنطينية تحسيران الأكثر اكتمالا وهما الواردتان في تاريخين :

Anna Comnena, *Alexiad*, x, ix, 1 - 11, vol. II, pp. 220-6 and Aibert of Aix, II, *Histoire de la première Croisade*, في تاريخه Chalandon, 16, pp. 305-11.

pp. 119-29 فإن رواية ألكومينيس أكثر إقناعا بكثير من رواية ألبيرت ، وفي الإمكان

قوبلا على أنها رواية حقيقية ، بخلاف مبالغتها في قوة جيش جودفري . وتصري رواية أقصر بشوفا

الكثير من التحامل في 14-18, pp. 1,3, *Gesta Francorum* ومسوق بيليكانوم Pelecanum

الدقيق غير يقيني. ويعدده Leib في طبعته لأنا كومينا (vol. II, p. 226 n. 2) بأنه Herek علسي

بعد حوالي ستة عشر ميلا غرب نيكوميديا . ويقول Ramsay ضمنا في *Historical Geography*

of *Ast Minor*, p. 185 إنه كان أقرب إلى Chalcedon ويتضح من أنا كومينا ( أنظر ما

يلي ص ٢٢٦ ) أن الموقع كان قريبا من مكان العبور إلى سيفيتوت وأنه مصمم في ذلك المكان

بصورة ملائمة لدوام الاتصال بالقسطنطينية . والمؤرخ الآخر الوحيد الذي ذكره John

Contacuzenus يحدد مكانه شرقي داسيبزا Dacibya وهي جيب الحديثة (vol. I, pp. 342 ff)--

الإمبراطور أن يستعمل كل ما أوتي من لياقة إلى جانب الهدايا الكثيرة لإقناع قصادهم بأن يقسموا قسم الولاء. وعندما رضخوا في نهاية الأمر زاد ألكسيوس من أهمية المناسبة بأن أحضر جودفري وبالدوين ليشهدا الاحتفال. والوردات الغربيون أهمل غسل ومجرد، إذ جلس أحدهم على عرش الإمبراطور، فانتهره بالدوين بحدة وذكره بأنه أصبح لنوء من أتباع الإمبراطور، وطلب منه أن يراعي تقاليد البلاد، فتمتم الغربي حانقاً أنه من الجلالة أن يجلس الإمبراطور بينما يقف الكثير من الضباط المغاوير. وسمع ألكسيوس تلك الملاحظة، وبعد أن أمر بترجمتها طلب معاذة الفارس، وعندما بدأ ذلك

---

Gebze وتغادر العبارة Aegiali الواقعة في منتصف الطريق بين Gebze و Herek على بعد حوالي ستة أميال من كل منهما . وبحسب رواية أنا كومينا (XI, iii, 1, vol. III, p. 16) استقبل ألكسيوس الصليبيين في بليكاتوم بعد سقوط نيقية ، غير أن ستيفن (أوف بلسوا) يقول (Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe, p. 140) إن ألكسيوس كان على جزيرة عندما قابلته في تلك المناسبة . ويتضح أن Pelecanum ، أيا ما كان موقعها ، لم تكن جزيرة ، ولا يمكن أن تكون هي شبه جزيرة أجيالسي egiali التي تعطيها أنا كومينا اسمها الصحيح . ويعتبر الدليل الذي ساقه ستيفن في هذه النقطة دليلاً يعتمد عليه . ولذلك ، يرجح أن Pelecanum نفسها كانت قريبة من Aegiali ، وأن ألكسيوس قد انتقل عائداً إلى إحدى الجزر المقابلة للساحل ، إما الجزيرة المواجهة لـ تسوزلا Tuzla (على بعد اثني عشر ميلاً غرب Aegiali ) ، حيث لا تزال توجد بقايا كثيرة يرجع تاريخها إلى العصر البيزنطي ، أو جزيرة القديسين بطرس وبولس المواجهة لـ Pendik التي كانت منتجعا بيزنطياً شهيراً .

الفارس يفاخر ببسائه التي لا تقهر في المبارزة الفردية، نصحه ألكسيوس بلطف أن يبحث عن تكتيكات أخرى عندما يقاتل الأتراك<sup>(١)</sup>.

وتمثل هذه الحادثة نمط العلاقة بين الإمبراطور والفرنجية. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الفرسان الأجلاف القادمون من الغرب بأهمة القصر ومراسمه التي تؤدي في عناية وسلاسة، وسجايا رجال البلاط المهذبة والحاذقة، لكنهم تيرموا من ذلك كله، ودفعهم كبرياؤهم الجريح إلى الصخب والغلظة كالأطفال الأشقياء.

وبعدما أقسم الفرسان قسم الولاء ثقلوا مع رجالهم عبر المضيق ليلحقوا بجيش جودفري على شاطئ آسيا. وهكذا تصرف الإمبراطور في الوقت المناسب مما أساء، إذ وصل يوهيموند أوف تارانتو إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان).

---

(١) Anna Comnena, x,x, 1-7, vol. II, pp. 226-30 وهي تطلق على قائد هذه المجموعة

"الكونت راؤل Count Raoul" وهويته غير معروفة إذ لم يذكر في أي مكان آخر. ومن الحقيقة التي مفادها أن الإمبراطور ظن أنه من الأجنبي أن يساعده جودفري في حفل أخذ القسم من هذه المجموعة، اعتقد أنها كانت تتألف من رجال من أجزاء من اللورين وليس من فرنسا، لتوليد الانطباع لديهم بأن حضوره كان مناسباً بصورة أفضل. ونحن تعلم أن رينالد (أوف تول) جاء إلى الحملة الصليبية تحت رعاية جودفري. ويذكره ألوت أوف آيكس على أنه واحد من جماعة جودفري منذ البداية؛ غير أنه ليس من الضروري أن يسوخذ دليله بمخالفته. ولم تكن أنا كومنيناس متسرة في معرفة الأسماء الفرنجية، وكما في حالة ريموند الذي تطلق عليه "إيزانجيليس Isangeles" فلها أحيانا تذكر الكونتات بألقابهم. على أنها ذات خبرة سابقة بالاسم "راؤل Raoul" من سفر جيستار الذي يدهي راؤل كذلك. ولذلك، ربما التقطت عدسة ذاكرتها Rainald de Toul وأحاطته إلى شكل مألوف لديها.

ولم يكن النورمانديون في جنوب إيطاليا قد أولوا بادئ الأمر اهتمامًا كبيرًا لتبشير إيربان بالحرب الصليبية. إذ تواصلت حروب أهلية متقطعة هناك منذ أن مات روبرت هيسكارد الذي كان قد طلق زوجته الأولى، أم بوهيموند، وترك دوقية أبوليا لابنه من زوجته الثانية سيحلحابتا وهو روجر بورصا. فثار بوهيموند على أخيه وتمكن من الاحتفاظ بدوقي تارانتو وترا-دي-أوترانتو الواقعتين في كعب شبه الجزيرة الإيطالية قبل أن يتمكن عمهما روجر الصقلي من عقد هدنة مزعومة بينهما، ولم يقبل بوهيموند بأية حال تلك الهدنة على أنها نهائية، واستمر خفية في مناوشة أخيه روجر بورصا. على أنه في صيف ١٠٩٦ ميلادية تكاثفت الأسرة كلها لمعاينة مدينة أمالفي المنردة، وكانت القرارات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية قد أعلنت بالفعل. كما كانت جماعات صغيرة من الإيطاليين الجنوبيين قد عبرت البحر إلى الشرق، ولكن بوهيموند لم يتحقق من أهمية الحركة إلا عندما وصلت إلى إيطاليا حيرش الصليبيين النحسين من فرنسا. وحينئذ أدرك أن بوسعه استغلال الحركة الصليبية لمصلحته، لاسيما وأن عمه روجر الصقلي لم يكن يسمح له البتة بضم دوقية أبوليا كلها. ولسوف يجني ثماراً أفضل إذا ما وحد لنفسه مملكة في المشرق. وكان لحماس الصليبيين الفرنسيين أثره في الجنود النورمانديين أمام مدينة أمالفي. وشجعهم بوهيموند بأن أعلن أنه سيأخذ الصليب هو الآخر ودعا جميع المسيحيين الطيبين إلى الانضمام إليه. وأمام جيشه المحتشد خلع رداءه القرمزي ومزقه قطعاً صنع منها صليباتاً لضباطه، وأسرع أمراؤه التابعون له فحذوا حذوه ومعهم الكثير من أمراء أخيه وأمراء عمه الصقلي الذي تركوه شاكيًا من أن هذه الحركة قد سلبته جيشه.<sup>(١)</sup>

(١) *Gesta Francorum*, I, 4, pp. 18-20. See Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie*, vol. II, p. 302

#### مسيرة بوهيموند عبر البيندوس

وفي الحال انطلق وليم، ابن أخت بوهيموند، مع الصليبيين الفرنسيين ولكن بوهيموند نفسه كان في حاجة إلى بعض الوقت لتجهيز قواته. فترك أراضيه بضمانات في رعاية أخيه وجمع ما يكفي من أموال للإلتحاق على كل من صحبه، وأبحرت الحملة من باري في أكتوبر (تشرين الأول). وكان مع بوهيموند تانكريد ابن أخته إيسا والمركز أودو وهو الأخ الأكبر لسوليم، وأبناء. حوثة ريتشارد (١) وريتولف أوف ساليرنو وابنه ريتشارد، وجيوفري كونت رومينيولو وإخوته، ومن بين نورماندي صقلية: روبرت أوف أنسا ومغفري أوف مونت سيكايروزو وألسريد أوف كايانو والأسقف جيرارد أوف أريانو، بينما كان روبرت. أوف سيردفال وبويل أوف تشارترز من بين النورمانديين القادمين من فرنسا للتحقق بجيش بوهيموند، وكان جيشه أصغر من جيش جودفري لكنه كان جيد التجهيز والتدريب. (٢)

ونزلت الحملة على الشاطئ في إبيروس على نقاط متفرقة بطول الساحل بين ديرهاكيوم وألونا، ثم جمعت مرة أخرى في قرية دروبولي الواقعة أعلى وادي لمر فيوسا. ولا شك في أن ترتيبات الوصول إلى الشاطئ قد أحرث بعد التشاور مع السلطات البيزنطية في ديرهاكيوم والتي لم ترغب في إجهاد ما تعتمد عليه المدن الواقعة على طول طريق فياجناتيا من موارد غنائية أكثر من ذلك. بيد أن الطريق الذي سلكه الجيش كان من اختيار بوهيموند على الأرجح؛ إذ أن حملاته التي قام بها قبل ذلك بخمسة عشر عاما أكسبته بعض الدراية بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من الطريق الرئيسي، وربما كان يأمل في تجنب مراقبة البيزنطيين حينما اتخذ طريقا أقل استخداما. ولم

(١) Kown as Richard of the Principate.

(٢) Gesta Francorum, I, 4, p. 20.

يكن يوسع جون كومنينوس الاستغناء عن أي من جنوده، ومن ثم بدأ يوهيموند في رحلته دون مصاحبة الشرطة البيزنطية. ويبدو أنه لم تكن هناك مشاعر سلبية، فقد تلقى النورمانديون إمدادات وفيرة في الوقت الذي شدد يوهيموند على جميع رجاله الامتناع عن النهب والفوضى لأنهم سيعبرون أراض مسيحية.

وبارتحال الجيش فوق ممرات البيندوس مباشرة وصل إلى كاستوريا الواقعة غرب مقدونيا قبل عيد الميلاد بزمان وجيز. وليس في الإمكان تتبع الطريق الذي سلكه، وبالقطع لم يكن طريقاً سهلاً، ولابد أن يكون أدى به إلى مرتفعات تزيد على أربعين ألف قدم فوق مستوى سطح البحر. وفي كاستوريا سعى إلى توفير المسكن، لكن السكان كانوا عازفين عن الاستغناء عن أي شيء من مخازنهم الصغيرة لهؤلاء الزائرين الذين هبطوا عليهم فجأة، وقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا أعداءهم الألداء منذ بضع سنوات. وبالنظر إلى أن الكثير من دواب الحمل هلك فوق ممرات البيندوس، فقد استولى الجيش على حاجته من الماشية والخيول والحمير. وأمضى الجيش أعياد الميلاد في كاستوريا، ثم قاد يوهيموند رجاله شرقاً باتجاه لهر فاردار، وأثناء مسيرتهم توقفوا قليلاً وهاجموا قرية المراطقة البوليين (١) القريبة من الطريق، وأشعلوا النار في المنازل وقاطنيتها، وأخيراً وصلوا إلى النهر في منتصف فبراير (شباط). وهكذا أمضوا سبعة

---

(١) المراطقة البوليين : طائفة مسيحية تؤمن بالتثوية ، نشأت في أرمينيا في القرن السابع ، وأصبحت مشتق من أسم بول أو بولس الذي مازال هناك خلاف على شخصيته . ويقوم معتقدها على وجود إله للشر وإله للخير : الأول خلق هذا العالم وبمكمه ، والثاني للحياة الآخرة . ومن ثم استنحوا أن عيسى ليس ابن مريم حقيقة لأن إله الخير لا يمكن أن يصبح بشراً . وهم يحلّسون إتيمل لوقا ورسائل القديس بولس وينكرون العهد القديم ورسائل القديس بطرس كما ينكرون الكنيسة القائمة بأسرارها وعبادتها وهرميتها .



أسابيع تقريبًا ليقطعوا مسافة تزيد قليلا على مائة ميل<sup>(١)</sup>.

#### وصول بوهيموند إلى القسطنطينية

وربما أدى الطريق الذي سلكه بوهيموند عبر إيديسا (فودينا) إلى فيلإجناتيا. ومن هذه النقطة صحبه حرس من جنود البشنج ومعهم أوامر الإمبراطور المعتادة بمنع الإغارة والانتشار والعمل على ألا يبقى الصليبيون في مكان واحد لأكثر من ثلاثة أيام. وعبر القسم الرئيسي من الجيش نهر فاردار دون إبطاء، لكن كونت روزينولو وإخوته تخلفوا على الضفة النهر الغربية ومعهم جماعة صغيرة. لذا هاجمهم البشنج ليستحوهم على المضى، وعندما سمع تانكريد بالمعركة عبر النهر راجعًا لإنقاذهم. وطارد البشنج وأسر بعضهم وأحضرهم أمام بوهيموند الذي استحوهم، وعندما عرف أنهم كانوا يتفدون الأوامر الإمبراطورية أطلق سراحهم على الفور؛ إذ كانت سياسته أن يحسن التصرف تجاه الإمبراطور<sup>(٢)</sup>.

ورغبة منه في أن تكون تصرفاته سليمة أرسل، عندما نزل إلى الشاطئ في إيجروس أول الأمر، سفراء سبقوه إلى الإمبراطور. وعندما كان جيشه مارًا بأسوار نيسالونيكيا وهو في طريقه إلى سيريس قابله هؤلاء السفراء في طريق عودتهم من القسطنطينية، ومعهم مسئول إمبراطوري على مستوى عالٍ سرعان ما أصبحت علاقته ببوهيموند علاقة ودودة. وقُدِّم الطعام للجيش بوفيرة، وإزاء ذلك وعد بوهيموند

(١) *Gesta Francorum*, I, 4, pp. 20-2 وربما اتخذ بوهيموند الطريق الذي يخترق الحدود الألبانية

الحالية، من خلال Premeti and Koritsa ثم اتبع منحني شمالا قبل أن يعبر الحدود ثم هبط باتجاه

الجنوب الشرقي إلى Castoria

(٢) *Ibid.* pp. 22-4

بعدم محاولة دخول آية مدينة في طريقه، ليس هذا وحسب وإنما وافق على إعادة كل الدواب التي استولى عليها رجاله أثناء رحلتهم، وفي أكثر من مرة أظـهـر أتباعه الرغبة في الإغارة على البلاد لكنه منعهم منعاً صارماً.

وفي أول إبريل (نيسان) وصل الجيش إلى روسيا (وهي كيشان الحديثة) في تريس. وهنا قرر بوهيموند أن يسرع الخطى إلى القسطنطينية ليعرف ما الذي يتفاوض عليه الإمبراطور مع القادة الغربيين الذين وصلوا إلى هناك بالفعل، فترك رجاله تحت إمرة تانكريد الذي أخذهم إلى وادٍ خصيب يبعد عن الطريق الرئيسي حيث أمضوا ليلية أسبوع الفصح. ووصل بوهيموند إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان) حيث نزل خارج الأسوار في دير القديسين كوسماس وداميان، وفي اليوم التالي سُـمـح له بالثول بين يدي الإمبراطور.<sup>(١)</sup>

وبدا لـألكسيوس أن بوهيموند هو أخطر الصليبيين جميعاً. فقد تعلم البيزنطيون من التجارب السابقة أن النورماندين أعداء أشداء، طموحون، مـاـكـرون، منعـمو الضمير. وقد سبق أن ظهر بوهيموند في حملات سابقة كفائد ذي كفاءة، وكان جنوده منظمين تنظيمًا جيدًا، ومجهزين تجهيزًا حسنًا، وملتزمين في تصرفاتهم، وقد استحوذ على ثقتهم الكاملة. وربما كان صاحب إستراتيجية، مفرط الثقة بنفسه، وإن لم يتصف بالحكمة دائماً، على أنه كان دبلوماسياً حاذقاً قوي الحجة وسياسياً بعيد النظر، ذا شخصية قوية التأثير؛ ذلك أن المؤرخة آنا كومينا<sup>(٢)</sup> التي عرفت عرقته وكرهته كراهية مريرة لم تملك إلا أن تعترف بمجاذيبته، وكتبت بمرارة عن مظهره الخلاب، إذ

(١) *Gesta Francorum*, II, 5, pp. 24-8 وتأكد تاريخ وصول بوهيموند إلى القسطنطينية في تاريخ

*Hagenmeyer, Chronologie de la Première Croisade*, p. 64

(٢) آنا كومينا : مؤرخة بيزنطية عاصرت تلك الفترة ، وهي إنه الإمبراطور " ألكسيوس كومنينوس " .

كان فاره الطول له هيئة الشباب رغم تغطيه الأربعين، عريض المنكبين، نحيل الخصر، ذا بشرة راققة، وشاح الوجنتين في تورده، وكان شعره أصفر وأقصر مما اعتاده فرسان الغرب، حليق اللحية. واحذودب في طفولته على نحو طفيف دون أن يفقد مساحة الصحة والقوة، وتقول أنا كومنينا إن هناك شيئاً خافاً في ملامحه وبعض الشر في ابتسامته، ولأنها — كشأن اليونانيين منذ القدم — تتأثر بالجمال البشري، لم تستطع أن توارى إعجابها به.<sup>(١)</sup>

واتخذ ألكسيوس الترتيبات لمقاومة بوهيموند بمفرده أولاً لينسحب له اكتشاف موقفه. فلما وحده بالغ الود والاستعداد للمساعدة استقبل جودفري وبالدوين، اللذين كانا ما يزالان في القصر، ليشركا في المناقشة. وكان السلوك «الحسن لذي أبدا» بوهيموند مفتعلاً؛ إذ كان يعرف أكثر من غيره من الصليبيين الآخرين أن بيزنطة لا تزال قوية جداً وأنه لن يتحقق شيء بغير مساعدتها، ولن تؤدي مناطقها إلا إلى كارثة، ولكن حسن استغلالها كحليف يؤدي إلى تحقيق صالحه. وكان يعود قيادة الحملة، ولكن البابا لم يقوله ذلك، ويبقى عليه أن يتصدى لمنافسة الأقطاب الصليبيين الآخرين، وإن استطاع الحصول على تكليف رسمي من الإمبراطور يصبح في وضع يمكنه من إدارة العمليات، ويتأتى له أن يتحكم في تعامل الصليبيين مع الإمبراطور فيما بعد، وأن يكون المستول الذي يتعين على الصليبيين تسليمه الأراضي المستردة للإمبراطورية، ويغدو محور الذي يدور حوله التحالف المسيحي كله، ومن ثم أقسم قسم الولاء للإمبراطور بلا تردد، واقترح تعيينه في منصب الحاكم المحلي الشرقي، أي القائد العام لجميع القوات الإمبراطورية في آسيا.

وشعر ألكسيوس بالخرج من هذا الطلب، وارتاب في بوهيموند وحشي جانبه،

(١) أنظر Anna Comnena, *Alexiad*, XIII, x, 4-5, vol. III, pp. 122-4 للإخلاق على

صورة شكل بوهيموند.

غير أنه كان حريصاً على الاحتفاظ بحسن نواياه ، وقد سبق أن أولاه كرمه وتشريفه واستمر في إغوائه بالمال. بيد أنه راوغه في مطلبه قاتلاً إن اللحظة ليست مواتية بعد مثل هذا التعيين. ولكن لا شك في أن بوهيموند سيناله بمجده وإخلاصه، وكان على بوهيموند أن يرضى بهذا الوعد المهم الذي شجعه على الاستمرار في سياسة التعاون التي رسمها. وفي ذات الوقت وعد ألكسيوس بإرسال جنوده لمصاحبة الجيوش الصليبية لتسديد ما تكبده من نفقات، ولتأمين إعادة تموينها واتصالها.<sup>(١)</sup>

واستدعي جيش بوهيموند بعد ذلك إلى القسطنطينية ونقل عبر البوسفور في السادس والعشرين من إبريل (نيسان) ليلحق بجيش حودفري الرابض في بيليكانوم. وأما تانكريد، الذي لم يستسغ سياسة خاله ولم يفهمها، فقد احتاز المدينة ليلاً مع ابن خاله ريشارد أوف ساليرنو كي لا يضطر إلى أن يقسم قسم السولاء<sup>(٢)</sup>، وفي نفس اليوم وصل الكونت ريموند أوف تولوز إلى القسطنطينية واستقبله الإمبراطور.

---

(١) *Gesta Francorum*, II, 6, pp. 230-4 و *Ibid.*, xi, 1-7, vol. II, pp. 28-32 رواية معادة حناً للإمبراطور . والفقرة التي تذكر معاهدة سرية بين الإمبراطور وبوهيموند حول أنطاكية (autem ...preteriret p.30, II. 14-20, Fortissimo) عبارة عن حشر لاحق في النص ، ثم بناء على أوامر بوهيموند . أنظر Krey, A Neglected Passage in the *Gesta* pp. 57-78 . ويقول ألبرت أوف آيكس II, 18, p. 312 إن بوهيموند أقسم القسم على مضض ويبدو أن ذلك غير صحيح .

(٢) *Gesta Francorum*, II, 7, pp. 32-4; Albert of Aix, II, 19, p. 313

#### ريموند أوف تولوز

كان ريموند الرابع — كونت تولوز — الذي يفضل كونتية سان جيل على غيرها من ممتلكاته، ولذلك كان يسمى عادة (كونت أوف سان جيل)، قد بلغ بالفعل سن النضج وربما كان يقارب عامه الستين. وكانت مقاطعته التي ورثها عن أسلافه واحدة من أغني المقاطعات الفرنسية، وقد ورث مؤخرًا ماركيزيته في إقليم بروفانس الفرنسي والتي لا تقل ثراء عن مقاطعته. وبزواجه من الأميرة ألفيرا أوف أراجون انتسب إلى البيوتات الملكية الإسبانية؛ كما اشترك في عدة حروب مقدسة ضد مسلمي إسبانيا. وكان هو الوحيد من بين النبلاء العظام الذي ناقشه البابا إيربان شخصيًا في محطله عن الحرب الصليبية، وكان أول من أعلن انضمامه لها، ومن ثم فلهذا ما يبرر أهليته لقيادتها غير الدينية. ولكن البابا — الذي كان حريصًا على أن تظل الحركة تحت السيطرة الرومانية — لم يعترف أبدًا بمطلبه هذا، وربما كان ريموند يأمل في أن تتضح الحاجة إلى قائد دنيوي، هذا في الوقت الذي تدبر فيه أمره كمي يخرج إلى الشرق بصحبة الرئيس الروماني أسقف لوبوي.

وأخذ ريموند الصليب في وقت انعقاد مؤتمر كليرمونت، في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٠٥٩ ميلادية، لكنه لم يتمكن من الانتهاء من استعداداته لمغادرة أراضيه إلا في أكتوبر (تشرين الأول) من العام التالي. وأخذ على نفسه عهدًا بأن يقضي بقية أيامه في الأراضي المقدسة، ويمكن أن يكون قد أخذ ذلك العهد مع تحفظ؛ فبينما ترك أراضيه الفرنسية لابنه غير الشرعي برتراند لإدارتها، كان حريصًا على ألا يتنازل عن حقوقه، وصحبه زوجته ووريثه الشرعي ألفونسو، وباع بعض أراضيه أو رهنها لتوفير المال اللازم لحملة، ولكن يبدو أنه اقتصد في تجهيزها على نحو ما. ومن الصعب تقييم شخصيته؛ ففي أفعاله ما يدل على الغرور والعناد وبعض الجشع، على أن سحاياه الملهية أحدثت أثرها في البيزنطيين الذين وجدوه أكثر تحضرًا من زملائه، كما أذهلهم أن يجدوه شخصًا يعتمد عليه ويتصف بالأمانة. وامتدحت آنا كومينا سمو طبيعته

وطهارة حياته كما تبين مما تلى من أحداث. واعتبره أديمار أوف لوبيوي، الذي كان على شُلق رفيع صديقاً حديراً بالصدقة.

وانضم إلى حملة ريموند الصليبية العديد من نبلاء جنوب فرنسا، من بينهم: رامبالد كونت أوف أورانج، وحاستون أوف بيارن، وجيرارد أوف روسيلون، ووليم — هيو أوف موتيل وكل رجاله، وكانت الشخصية الكنسية الرئيسية بعد أديمار هي وليم أسقف أورانج.<sup>(١)</sup>

#### رحلة ريموند

وعبرت الحملة جبال الألب عن طريق كول دي جنيفر وارتحلت عبر شمال إيطاليا إلى رأس البحر الأدرياتيكي. وقرر ريموند عدم السفر بحراً وإنما سار بمحاذاة شاطئه الشرقي عبر إيسيريا ودالماتيا وربما كان مدفوعاً في ذلك بدوافع اقتصادية. ولم يكن ذلك بالقرار الحكيم؛ إذ كانت طرق دالماتيا غاية في السوء ومكائنها غلاظ يفتقرون إلى الكياسة. وعبرت الحملة إيسيريا دون وقوع حادثة، وتلى ذلك أربعون يوماً من أيام الشتاء كافح فيها الجيش في دروب الماتيا الصخرية وهو في مناوشات مستمرة مع القبائل السلافية التي تعلقت بمؤخرته. وبقي ريموند نفسه مع حرس المؤخرة لحمايتها، وفي إحدى المرات لم يستطع إنقاذ رجاله إلا بإقامة حاجز على الطريق من

(١) عن سيرة حياة Raymond المبكرة، أنظر Vaissète, *Histoire de Languedoc*, vol. III, pp. 466-77 and Manteyer, *La Provence du Ier au XIIe Siècle*, pp. 303 ff. وترد أسماء أهم اللوردات الفرنسيين والجنوبيين الذين رافقوا الحملة الصليبية في قائمة مشروحة نوعاً ما في تاريخ Albert of Aix, II, 22-3, pp. 315-16 وعن Adhemar وأسرته أنظر المراجع المذكورة فيما سبق في الصفحتين ١٩٢ و ١٩٣.

الأسرى السلافيين الذين أسرههم ثم مرق أوصالهم في قسوة شعاء. وقد بدأ الرحلة وهو مزود بالطعام الوفير، ولم يهلك أحد من رجاله في الرحلة بسبب الجوع أو القتل. وعندما وصلوا أخيراً إلى سكودورا بدأ محوهم يتناقص، ويمكن من مقابلة الأمير الصربي اغلي بودين الذي وافق، بعد أن حصل على هدايا ثمينة، على السماح للصليبيين بحرية الشراء من أسواق المدينة، على أنه لم يكن هناك طعام متاح، فاضطر الجيش إلى مواصلة مسيرته وهو في حالة من الجوع والبؤس تتزايد يوماً بعد يوم حتى وصل إلى الحدود الإمبراطورية شمال ديرهاكيوم في وقت مبكر من شهر فبراير (شباط). وعندئذ ودَّ ريموند وأدمار أن تكون متاعبهما قد وصلت إلى نهايتها.

ورحب جون كومنينوس بالصليبيين في ديرهاكيوم حيث كان مبعوثو الإمبراطور وحرس البتشنج في انتظارهم لمصاحبتهم عبر طريق فيلإحنايا، وأرسل ريموند سفارة سبقته إلى القسطنطينية للإعلان عن وصوله. وبعد أيام قليلة من الراحة في ديرهاكيوم انطلق الجيش مرة أخرى، وتحلف شقيق أدمار — لورد أوف بيران إلى أن يشقى من مرض أصيب به نتيجة لمشاق الرحلة. وكان رجال ريموند مطبوعين على التمرد وعدم الالتزام. وقد شعروا بالاستياء من شرطة البتشنج التي تحيط بهم من كل جانب. وأدى ميلهم العنيد للنهب إلى صدام تكرر مع حراسهم، وقبل انقضاء فترة طويلة قتل إنسان من بارونات بروفانس في إحدى هذه المناوشات. وبعد ذلك مباشرة ضلَّ أسقف لوبوي نفسه الطريق وحرَّح وأسرَّ البتشنج قبل أن يعرفوا هويته وأعيد على الفور إلى الجيش، ويبدو أنه لم يشعر بالاستياء من الحادثة، غير أن الجنود صدموا صدمة عميقة الأثر. وزادت شرارتهم عندما هوجم ريموند نفسه في ظروف مشابهة بالقرب من إيديسا.

وفي نيسالونكا تحلف أسقف لوبوي عن الجيش كي يجد عناية أفضل بمراحه، وبقي هناك إلى أن تمكن أخوه من اللحاق به من ديرهاكيوم. وفي غيبة الأسقف ومما يتمتع به من قدرة على كبح جماح الجنود، تدهور النظام في الجيش وازداد سوءاً،

ولكن لم تقع حوادث خطيرة إلى أن وصل إلى روسيا في تريس. وسبق لرجال بوهيموند أن انتهجوا للحفاوة التي استقبلتهم بها المدينة قبل ذلك بأسبوعين، أما الآن فرمما لم يكن لدى أهل المدينة مؤن يبيعونها، لذا استاء رجال ريموند، وصاحوا "تولوز... تولوز" وهاجموا الأسوار واقتحموا المدينة وغلبوا البيوت كلها. وبعد ذلك بأيام قليلة قابلهم مبعوثو ريموند في رودوستو في طريق عودتهم من القسطنطينية مع مندوب الإمبراطور ومعه رسائل ودية يستحث فيها ريموند على الإسراع إلى العاصمة، مضيفاً أن بوهيموند وجوده في شوق للقياء. وربما كان الجزء الأخير من الرسالة، وحشية الغياب أثناء اتخاذ قرارات هامة، هما اللذان دفعا ريموند إلى قبول الدعوة، فترك جيشه وأسرع إلى القسطنطينية التي وصلها في الحادي والعشرين من إبريل (نيسان).

وبرحيله لم يبق أحد لحفظ النظام في الجيش الذي بدأ على الفور في الإغارة على الريف. على أن الأحوال تغيرت الآن وأصبح هناك ما يكفي من شرطة التشنج للتصدي له وتحركت فصائل من الجيش البيزنطي كانت متمركزة في الجوار لمهاجمة المغيرين. وأسفرت المعركة عن هزيمة رجال ريموند هزيمة نكراء قولوا الأديار تساركين أسلحتهم وأمتعتهم للبيزنطيين، ولم يعلم ريموند بالكارثة إلا في اللحظة التي كان يتأهب فيها لمقابلة الإمبراطور.<sup>(١)</sup>

#### ريموند والإمبراطور

وقد استقبل ريموند في القسطنطينية استقبالا حسنا ونزل في قصر خارج الأسوار مباشرة وجاءه من يرجوه الذهاب إلى القصر الإمبراطوري بأسرع ما يمكن ليقسم قسم

---

(١) بورد Raymond of Aguilers, I-II, pp. 235-8 رحلة Raymond إلى القسطنطينية بإسهاب

في ملحوظة تقرر مرارة من البيزنطيين .



الولاء. بيد أن ما صادفه في الرحلة والأنباء التي تلقاها لساعته جعلته في حالة مراجعة سيرة، وانتابته الحيرة والامتعاض من ذلك الوضع الذي وجدته في قصر الإمبراطور؛ إذ أن الهدف الذي لا يبارح خياله هو الاعتراف به قائداً عسكرياً للحملة الصليبية كلها. على أن سلطته تنشق من البابا على النحو الذي حدث، ومن علاقته بالمندوب البابوي أسقف لويوي، وبغياب الأسقف وجد ريموند نفسه يفتقد العون والمشورة، ولم يكن ريموند راغباً في أن يلزم نفسه في غيابه، زد على ذلك أنه لو أقسم قسم الولاء كما فعل غيره من الصليبيين فإن ذلك يعني تخليه عن علاقته الخاصة بالبابوية، والمجبوط إلى مستوى الآخرين. وهناك خطر آخر، فقد كان ريموند من الذكاء بحيث أدرك في الحال أن بوهيموند هو أخطر غريم له، وبدأ أن بوهيموند يحظى بود الإمبراطور. وسرت شائعة أنه سيعين في منصب في القيادة الإمبراطورية العليا، فإذا ما أقسم قسم الولاء فإن ذلك لا يعني أن يفقد أولويته وحسب، وإنما سيكون كذلك تحت ولاية بوهيموند باعتباره ممثلاً للإمبراطور. فأعلن أنه إنما جاء إلى الشرق لينفذ عمل الرب، وأن الرب الآن هو سيده الأعلى الوحيد، ملمحاً بذلك أنه المندوب الديني للبابا. على أنه أضاف أنه في حالة ما إذا كان الإمبراطور نفسه سيقود القوات المسيحية المتحدة فإنه يقبل العمل تحت إمرته، وأظهر بهذا التنازل استياءه من بوهيموند وليس الإمبراطور. ولم يسمع الإمبراطور إلا أن يجب بأن حالة الإمبراطورية لا تسمح له — لسوء الحظ — بتركها. وخشى القادة الغربيون الآخرون من أن يتعرض بنجاح الحملة كلها للخطر، فتوسلوا إلى ريموند كي يغير رأيه، ولكن دون جدوى. وأما بوهيموند الذي كان يأمل في القيادة الإمبراطورية والذي كان توافاً إلى إرضاء الإمبراطور، فقد ذهب إلى حد القول بأنه سوف يؤازر الإمبراطور إذا ما دخل معه ريموند في صراع علني. في حين أشار جودفري إلى الضرر الذي سيلحق بالقضية المسيحية نتيجة لموقفه هذا. وابتعد ألكسيوس عن تلك المناقشات ومنع عن ريموند الهدايا التي سبق أن أهداها للأمراء الآخرين. وأخيراً، وفي اليوم السادس والعشرين من إبريل (نيسان) وافق ريموند على أن

يقسم قسمًا معدلاً وعد فيه بأن يحترم حياة الإمبراطور وشرفه، وأن براغي هو ورجاله  
عدم الإضرار به. ولم يكن من غير العادي أن يقسم الأتباع هذا النوع من القسم  
لسادتهم في جنوب فرنسا، وقد ارتضاه ألكسيوس.

وبعد انتهاء المفاوضات عبر بوهيموند وجيشه إلى آسيا. وفي تلك الأثناء تمسّع  
جيش ريموند مرة أخرى في رودوستر وقد أمسى مهيبض الجناح، وانتظر وصول أسقف  
لوبوي الذي كان من المقرر أن يقوده إلى القسطنطينية. ولا ندري شيئاً عن نشاط  
الأسقف أديمار في القسطنطينية، والمفترض أنه قابل رؤساء الكنائس البيزنطية ومن  
المؤكد أنه قابل الإمبراطور. وكانت هذه المقابلات ودية للغاية وربما أسهم في المصالحة  
بين ريموند وألكسيوس؛ إذ سرعان ما تحسنت العلاقة بينهما والأغلب أن ترحيل  
بوهيموند أسهم إسهاماً كبيراً في ذلك، واستطاع الإمبراطور أن يقابل ريموند على  
انفراد وأن يشرح له أنه هو الآخر لا يحب النورماندين، وأن بوهيموند لن يحصل أبداً  
على أية قيادة إمبراطورية في واقع الأمر. وعُثر ريموند بجيشه مضيق اليوسفور بعد يومين  
من أدائه القسم، لكنه عاد لقضاء أسبوعين في البلاط، ورحل وهو على صلة حميمة  
بالإمبراطور الذي وجد فيه حليفاً قوياً ضد بوهيموند. وتغير موقفه من الإمبراطور.<sup>(١)</sup>

---

(١) ترد مفاوضات Raymond مع الإمبراطور عند Raymond of Aguilers, II, p. 238 and *Gesta Francorum*, II, 6, p. 52 وتتفق الروايتان على أن ريموند كان تواقاً لأن ينتقم لنفسه من  
هزيمة جيشه في رودوستر، وأن الأمراء الآخرين ألقوه بصعوبة بأن يقسم قسمًا ما. كما تتفق  
الروايتان على بنود القسم الذي أقسمه. والمؤرخ ريموند آوف أجيلير فقط الذي يذكر المعلومات  
الغامضة التي تفيد بأن الكونت كان على استعداد لأن يعمل في خدمة الإمبراطور شخصياً. واعتقد أن  
التفسير البسيط لذلك الدافع هو غيرته من بوهيموند. أما أنا كومنينا، التي دفعتها الأحداث اللاحقة  
إلى التعامل لصالح ريموند، فلا تذكر شيئاً فقط حول تلك المفاوضات وإنما تقول فقط إن والدعا--

#### روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا

وأما الجيش الكبير الرابع الذاهب إلى الحرب الصليبية فقد رحل من شمال فرنسا في أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٠٩٦ ميلادية بعد رحيل ريموند بفترة وجيزة، تحت القيادة المشتركة لـ روبرت دوق نورماندي - زوج أخت ستيفن كونت أوف بلوا - وابن خاله روبرت الثاني كونت أوف فلاندرز. وروبرت أوف نورماندي هو الابن الأكبر لـ وليم الغازي، وهو رجل في الأربعين من عمره، ذو طباع هادئة، تعوزه الفعالية بعض الشيء، إلا أنه لا يفتقر إلى الشجاعة والجاهزية. ومنذ أن مات أبوه وهو منشغل في حروب بين الحين والآخر مع أخيه وليم روفوس في إنجلترا الذي كان يعاود غزو دوقته مرة بعد مرة. وكان لـ تيشير إيربان بالحرب الصليبية أثر عميق في نفسه، وسرعان ما أعلن انضمامه لها، وفي مقابل ذلك رتب البابا - بينما كان ما يزال في شمال فرنسا - مصالحة بينه وبين أخيه. على أن الإعداد للرحلة إلى الحرب الصليبية استغرق من روبرت عدة أشهر، ولكي يحصل على المال اللازم لها لم يكن يومعه إلا أن يرهن دوقته لدى أخيه وليم في مقابل عشرة آلاف مارك فضي، وتم توقيع الوثيقة التي

---

== كان يعرب عن مشاعر الحب والإحترام لـ 'Isangeles' - أي the Count of Saint-Gilles

لدمائه وأمانته . وتضيف أن ألكسيوس أحري مناقشات مطولة مع الكونت ، وتقنيس خطة لهذا الأخير يحدّر فيها الأمرات من بوهيمند ويعد بأن يعمل مع البيزنطيين . (Alexiad, x, xi, 9, vol. II, pp. 234-5) وليس هناك ما يدعيون لأن أفرض أنما قد خلطت هذه الزيارة مع الزيارة التي قام بها ريموند لألكسيوس سنة ١١٠٠ ويوافق أوبرت أوف آيكس - الذي حصل على معلوماته من أحد جنود Godfrey - على أن ريموند غادر القسطنطينية وهو على أتم حالات الود مع ألكسيوس بعد أن تغلب أسبرعين (II, 20, p. 314). وهناك حالات من استخدام قسم عدم الإنحياز في Vaissète, Histoire de Languedoc, vols. V, pp. 372, 381, and VII, pp. 134 ff.

تعتمد الرهن في سبتمبر (أيلول) ١٠٩٦ ميلادية. وبعد أيام قليلة خرج روبرت بجيشه إلى بونتارليه حيث انضم إليه ستيفن أوف بلوا وروبرت أوف فلاتنرز، وكان معه أودو أسقف بايو، وولتر كونت أوف سانت فاليري، وورثة كونت مونتجمري وكسوت مورتاني وجيرارد أوف جورن، وهير أوف سانت بول، وأبناء هير أوف حرانت ميسنيل، وعدد من الفرسان والمشاة، من نورماندي ومن إنجلترا واسكتلندا وبريتاني كذلك؛ رغم أن النبيل الإنجليزي الوحيد الذي كان مقررا أن يصاحب الحملة الصليبية وهو رالف جودير - إيرل أوف نورفوك - كان آنذاك منفيا يعيش في ممتلكات والدته في بريتاني.<sup>(١)</sup>

وكان ستيفن أوف بلوا عازفا عن الانضمام إلى الحرب الصليبية، لكن زوجته أدبلا ابنة وليم الغازي كانت هي صاحبة القرار في بيتها، وأرادته أن يذهب فذهب. وكان معه من أتباعه الرئيسيين: إفيرارد أوف لوبولوا، وجويران جويرونات، وكارو آسيني، وجيوفري جيون، وواعظ كنيسة ألكسندر. وكان من بين المجموعة القسيس فولشر أوف تشارتر الذي أصبح مؤرخا فيما بعد. ولقد تمكن ستيفن من جمع المال اللازم للرحلة دون صعوبة كبيرة، إذ كان واحدا من أغنى الأثرياء في فرنسا. وقد ترك أراضيه لزوجته لتديرها بما لها من اقتدار.<sup>(٢)</sup>

#### بالدوين أوف ألوست

وكان كونت أوف فلاتنرز شابا في مقتبل الشباب نوعا ما، وكان ذا شخصية

(١) عن Robert of Normandy انظر David, *Robert Curthose, passim*. In Appendix D, pp. 221-9, he gives a full list of Robert's companions

(٢) عن Stephen of Blois انظر Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 48-56

مرهوبة على نحو أكبر. وحج أبوه روبرت الأول إلى القدس سنة ١٠٨٦ ميلادية، والتحق في طريق عودته بخدمة الإمبراطور ألكسيوس لفترة من الوقت، وداوم الإمبراطور الاتصال به إلى أن وافته المنية سنة ١٠٩٣ ميلادية، ولذا كان من الطبيعي أن يرغب روبرت الثاني في مواصلة العمل ضد "الكفرة". وكان جيشه أقل حجمًا من جيش ريموند أو جيش جودفري وإن كان من نوعية تفوقهما، وصحبه جنود من بربانت تحت إمرة بالديوين أوف ألوست كونت جينت، وتقرر أن تقوم زوجته الكونتيسة كليمنتيا أوف برجاندي بإدارة أراضيه أثناء غيابه.<sup>(١)</sup>

وتحرك الجيش المتحد من بونارلييه جنوبًا عبر جبال الألب إلى إيطاليا، وأنشاء مروره بمدينة لوكا في نوفمبر (تشرين الثاني) قابل البابا إيربان الذي كان يقضي هناك أيامًا قليلة وهو في طريقه من كريمونا إلى روما. واستقبل البابا القادة في اجتماع منحهم فيه بركاته الخاصة. وسار الجيش جنوبًا إلى روما لزيارة قبر القديس بطرس، غير أنه رفض التدخل في الصراع القائم بين أتباع البابا إيربان وأتباع البابا الزائف جيبرت، الذين كانوا يسببون الاضطراب في المدينة بسبب ذلك الصراع. ومن روما مرّ الجيش بمدينة مونت كاسينو إلى الدوقية النورماندية في الجنوب حيث لقي استقبالًا حسنًا من روجر بورصا، دوق أبوليا الذي كانت زوجته أديلا — ملكة الدانمارك الأرملة — وأخت كونت أوف فلاندرز، وقد اعترف بورصا بدوق نورماندي زعيمًا لبني جلدته. وقدم روجر بورصا هدايا ثمينة لأخي زوجته، الذي لم يقبل سوى هدية واحدة وهي

(١) عن Robert and Clementia of Flanders أنظر *Ibid.* pp. 247-9. وتزد أسماء الفرسان

الفرنسيين الجنوبيين المشتركين في قائمة الصليبي في قائمة Albert of Aix (II, 22-3, pp. 315-16).

البقايا المقدسة: شعر العذراء، وعظام القديس ماثيو والقديس نيكولاس، وأرسلها إلى زوجته لتضعها في دير واتين.<sup>(١)</sup>

وقرر روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلنوا قضاء الشتاء في كلابريا للاستحمام، ولكن روبرت أوف فلاتندرز تحرك مع رجاله على الفور قاصداً باري حيث عبر البحر إلى إبيروس في وقت مبكر من ديسمبر (كانون الأول)، ووصل القسطنطينية في نفس الوقت الذي وصل فيه بوهيموند تقريبا دون وقوع حادثة سيئة. أما كونت أوف ألوست الذي حاول التوصل بالتقرب من شيمارا الأبعد إلى الجنوب عن الموانئ المعدة لاستقبال سفن الصليبيين، فقد وجد طريقه مسدودا بأسطول بيزنطي صغير، ونشبت معركة بحرية خفيفة ذكرها أنا كومنينيا بإسهاب في تاريخها؛ إذ أن بطل تلك المعركة ماريانوس مافروكاتالكون — ابن الأدميرال البيزنطي — كان صديقا لها. وصدم البيزنطيون صدمة شديدة لدى رؤيتهم قسيسا لاتينيا محاربا من الصليبيين لا يولي اعتبارا لائقا لملابسه الدينية، وعلى الرغم من شجاعته وإقدامه تمكن البيزنطيون من الاستيلاء على السفينة الصليبية بريانسون، وأنزلوا الكونت

---

(١) Fulcher of Chartres, I, vii, pp. 163-8; charter of Clementia, Countess of Flanders, in Hagenmeyer, *op. cit.*, pp. 142-3

ورحاله في ديرهاكيوم<sup>(١)</sup>، ولم يكن لدى جماعة الفلمنكيين فيما يبدو أية صعوبة في أداء قسم الولاء للإمبراطور، وكان الكونت روبرت من بين الأمراء الذين حثوا ريموند على الاستجابة . (٢)

وعمل روبرت أوف نورماندي ومستيفن أوف بلوا في جنوب إيطاليا إلى أن جاء الربيع، وانتقل فتور حماسهما إلى أتباعهما الذين أخذ كثير منهم يعودون هائمين إلى أوطانهم. وأخيراً، تحرك الجيش إلى برنديزي في شهر مارس (آذار) وفي الخامس من إبريل (نيسان) أخذ يعد العدة لركوب البحر، ولسوء الحظ انقلبت أول سفينة وغاصت في القاع وحسر الجيش نحو أربع مائة راكب بخلهم وبغالهم وكثير من خزائن الأموال. وحرفت الأمواج الجثث إلى الشاطئ. وبمراة اكتشفوا معجزة ظهور علامة الصليب على عظام الكنف في كل جثة . إذ رفع ذلك الاكتشاف البارع معنويات

(١) Fulcher of Chartres, *loc. cit.* p. 168; Anna Comnena, *Alexiad*, x, viii, 2-10,

vol. II, pp. 215-20 "Un Comte de" في مقالته في Maricq. وبصورة مرضية فإن المورخ  
Barabant et des "Brabançons" dans deux textes byzantins  
the المنشورة في vol. xxxiv, pp. 463 ff Bulletin de la Classe des Lettres  
للكاديمية الملكية للجيكا ، وبذا يطل الخسراض  
Grégoir السابق بأنه كان Notes sur Anne Comnene, in *Byzantion*, vol. III, pp.  
Richard of the Principate (13-312)  
التي تتضمن كذلك مناقشة مثيرة حول الكلمة التي ذكرتها أنا ( ونظرة Ducange أن الكلمة هي  
Reymond of Toulouse الذي كان أيضا arquis of Provence والتي تأخذها Mrs  
Buckler, *Anna Comnena*, p. 465 إنما هي نظرية مستحيلة إذ دأبت أنا كومنيناس على  
تسمية Raymond باسم "Isangeles" وتمركاته معروفة تماماً لنا .

(٢) Raymond of Aguilers, II, p. 238

سواد الجيش ركب السفن بأمان، وبعد أربعة أيام عصبية في البحر نزل إلى السر في ديرهاكيوم، واستقبلتهم السلطات البيزنطية استقبالاً حسناً وأمدتهم بحرس لمُصاحبهم عبر طريق فيلإجناتيا إلى القسطنطينية. وكانت رحلة طيبة لولا حادثة سيئة حدثت حينما كان الجيش يعبر ممراً مائياً في البيندوس وحدث فيضان مفاجئ، اكتسح العديد من الحجاج. وبعد تأخير استغرق أربعة أيام أمام أسوار نيسالونيكا وصل الجيش إلى القسطنطينية في وقت مبكر من مايو (أيار)، وخيّم خارج الأسوار مباشرة، وسُمح لمجموعات من خمسة أو ستة أشخاص في المرة الواحدة بالدخول يومياً لمشاهدة معالمها والتعبّد في مزارقها. وكانت الجيوش الصليبية السابقة في الحضور قد نقلت كلها عسر اليوسفور، ولذا لم يكن هناك ساحطون يقسّدون العلاقة بين الوافدين الجدد وبين البيزنطيين. ولقد ذهلوا إعجاباً بجمال المدينة وروعها، ومثعوا بما قدّمته لهم من راحة ومتعة، وشعروا بالامتنان للإمبراطور على ما منحهم من عملات نقدية وملابس حريرية وأطعمة وحيول، وعلى الفور أقسم قادهم قسم السواء للإمبراطور الذي كافأهم هدايا رائعة. وفي الشهر التالي كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته، وقد كان يراعي واجبه في مراسلتها، يعرب عن نشوته لاستقبال الإمبراطور له؛ إذ بقي في القصر عشرة أيام عاملاً الإمبراطور فيها كما لو كان ابنه، وبذل له من النصح المفيد الشيء الكثير، ووجهه من الهدايا النفيسة العدد الوفير، وعرض عليه أن يعلم ابنه الأصغر. وتأثر ستيفن بوجه خاص بما أظهره الإمبراطور من كرم نحو جميع جنود الجيش الصليبي، وبما أبداه من كفاءة في تنظيم عمليات إمداد الجنود في الميدان بالمؤن الوفيرة، فكتب مشيراً إلى حمية وليم الغازي: "إنّ أبائك، يا حبيبي، أغدق الكثير من الهدايا العظيمة، لكنه لا يكاد يُذكر بمقارنته هذا الرجل".



#### نجاح تنظيم الإمبراطور

وانقضى أسبوعان قبل أن يُنقل الجيش إلى آسيا. وأدخل عبور البوسفور البهجة على ستيفن الذي كان قد سمع أنّ المضيق خطر، لكنه لم يعبده أكثر خطورة من لحر السين أو نهر المارن. وساروا بمحاذاة خليج نيكوميديا، مروراً بنيكوميديا ذاتها، ليلحقوا بالجيوش الصليبية الرئيسية التي بدأت بالفعل حصارها لمدينة نيقية.<sup>(١)</sup>

وتنفس ألكسيوس الصعداء. كان يرغب في مرتزقة من الغرب، ولكن بدلاً من ذلك جاءت جيوش حرارة بقادتها. وواقع الحال أن آية حكومة لا ترغب في وجود أعداد من قوات مستقلة متحالفة معها تغزو أراضيها، لاسيّما إذا كانت تلك القوات في مستوى حضاري دون مستواها، إذ يتعين توفير الطعام لها، ومنعها من السلب والنهب. وليس في الإمكان معرفة الحجم الحقيقي للجيش الصليبي إلاّ تخميناً؛ وتقديرات العصور الوسطى مبالغ فيها دائماً، على أنّ غوغاء بطرس — بما فيها الكثير من غير المقاتلين — ربما كان عددها يقارب عشرين ألفاً. وأتت الجيوش الصليبية الرئيسية، وهي جيوش كل من ريموند، وجودفري، والفرنسيين الشماليين، فقد زاد عدد كل منها كثيراً على عشرة آلاف بما فيهم غير المقاتلين، وكان جيش بوهيموند أصغر قليلاً، كما كانت هناك جماعات أخرى أقل. وجملة من دخلوا الإمبراطورية بين صيف ١٠٩٦ ميلادية وربيع ١٠٩٧ ميلادية لاند وأنه يتراوح بين ستين ومائة ألف شخص.<sup>(٢)</sup> وإجمالاً، كانت ترتيبات الإمبراطور للتعامل معهم ناجحة، فلم يعاني أيّ من

(١) Fulcher of Charetres, II, viii, pp. 168-76 خطاب ستيفن أوف بلوا لزوجته المذكور عند

Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 138-40 وقد كتب هذا الخطاب من نيكوميديا . ولسوء الطالع

ضاع خطاب سابق كتبه من القسطنطينية يصف الرحلة فيها ويشير فيه ستيفن إليها .

(٢) أنظر Appendix II .

الصليبيين من نقص الطعام أثناء عبور البلقان، والغارات الوحيدة التي حدثت من أجل الطعام كانت تلك الغارات التي قام بها والتر المفلس في بلجراد، ويطرس في بيلابالانكا، وقد حدث ذلك في ظروف استثنائية، وغارة بوهيموند في كاستوريا أثناء رحلته عبر طريق غير ملائم في منتصف الشتاء. ولم يكن في الإمكان منع غارات صغيرة على المدن وهجوم غابت أو اثنين عليها؛ فلم يكن لدى ألكسيوس العدد الكافي من الجنود، على أن فصائله من البشنج، بطاعتهم العمياء الصارمة للأوامر، والتي أثارت سخط الصليبيين، أثبتت كفاءتها كقوة شرطة، بينما كان مبعوثوه الخصوصيون يعاملون الغربيين معاملة تتصف باللباقة. وليس أدل على نجاح الأساليب التي اتبعها الإمبراطور من عبور الجيوش الأخيرة عبوراً سلساً، وهي المؤلفات من القرنين الشماليين المفتقرين إلى النظام، وهم تحت إمرة قادتهم الضعفاء العاجزين.

#### مصالح الإمبراطور

ولقد حصل ألكسيوس في القسطنطينية على قسم الولاء من جميع الأمراء فيما عدا ريموند الذي توصل معه إلى تفاهم خاص؛ ولم ينخدع في قيمة القسم من الناحية العملية، أو في مصداقية الرجال الذين أقسموه وإن كان ذلك القسم قد أعطاه على الأقل شرعية ربما تبيت أهميتها. ولم يكن من اليسر بلوغ الغاية المقصودة بذلك القسم؛ فعلى الرغم من أن القادة الأكثر حكمة مثل وهيموند، والمراقين الأذكياء من أمثال فولشر أوف تشارترز كانوا يدركون ضرورة التعاون مع بيزنطة، فإن الفرسان الأقل شأناً وعوام الجنود رأوا في القسم إهانة وخيانة للأمانة<sup>(١)</sup> وقد تعاملوا على البيزنطيين لما لقوه من أبناء البلاد من استقبال يتصف بالبرود، بينما كان الصليبيون يظنون

(١) Fulcher of Chartres, 1, viii, 9, pp. 175-9 1, ix, 3, p. 179

أنهم جاءوا ليخلصوهم. والقسطنطينية مدينة شاسعة رائعة، ثروتها وفيرة، وسكانها من تاجر وصانع في حركة دائية، وتبلاؤها يتحلون بدماثة الخلق، ويزدانون بأردية المدببة والملابس الفاخرة، والسيدات الفضليات قد تزين وتعملن، وفي ركاب كل واحدة منهن حاشيتها من الخصى والعبيد؛ كل ذلك أثار في نفوس الصليبيين احتقاراً يخالفه إحساس مقلق بالنقص، وما كان بمقدورهم أن يفهموا لغة البلاد ولا عاداتها، كما كانت الطقوس الكنسية غريبة عليهم.

وبادهم البيزنطيون نفوراً بنفور. فكان مواطنو العاصمة يعتبرون هؤلاء الجاسمين الغلاظ الذين طالت عسكرتهم في الضواحي مصدر إزعاج شديد. بينما ينعكس موقف إنشاء البلاد حياتهم في خطاب كتبه ثيوفيلاكس، كبير أساقفة بلغاريا من مقره في أوركريدا على طريق فيلإحناتيا، الذي لا يخفي على أحد سعة أفقه تجاه الغرب، عن المتاعب التي سببها مرور الصليبيين في أراضى أسقفيته، ويضيف أنه ورعيته كانوا يتعلمون كيف يحتملون الصبر. (١) إن افتتاح الحرب الصليبية لم يكن بشيراً بعلاقات حسنة بين الشرق والغرب.

ومع ذلك، ربما كان ألكسيوس راضياً؛ فقد زال الخطر عن القسطنطينية، وانطلق الجيش الصليبي الكبير ليحارب الأتراك، وتوفرت لديه البنية الصادقة في التعاون مع الصليبيين، ولكن بشرط واحد: إنه لن يرضى بمصالح الإمبراطورية من أجل مصالح الفرسان الغربيين؛ فواجه الأول هو واجبه نحو شعبه. وفضلاً عن ذلك، كان يؤمن — كشأن البيزنطيين جميعاً — بأن رفاة العالم المسيحي تتوقف على رفاة الإمبراطورية المسيحية التاريخية. وكان اعتقاده صحيحاً.

---

(١) - Letter of Theophylact of Bulgaria, in *M.P.G.* vol. cxxvi, cols. 324-5

## الباب الرابع :

### الحرب ضد الأتراك



## الفصل الأول :

### الحملة في اسيا الصغرى



## الحملة في آسيا الصغرى

"وَأَنَا مِنْ مَوْضِعِكَ مِنْ أَقْصَى الشَّامِ  
أَلَسْتُ وَشُعُوبٌ كَثِيرُونَ مَعَكَ كُلُّهُمْ  
وَأَكْسَبُونَ خَيْلًا جَمَاعَةً عَظِيمَةً وَجَيْشٌ  
كَبِيرٌ."

(سفر حزقيال، ٣٨ — ١٥)

أما ما يكون حجم الخلاف بين الإمبراطور وأمرء الصليبيين على الحقوق النهائية وتوزيع ما سوف يتم الاستيلاء عليه من أراضٍ، فلم يكن هناك خلاف حول المراحل الأولى للحملة ضد الكفرة؛ فإذا أرادت الحملة الصليبية الوصول إلى القدس فينبغي تطهير الطرق التي يمر عبر آسيا الصغرى ومن الناحية الأخرى كان الهدف الرئيسي



للسياسة البيزنطية هو دحر الأتراك خارج آسيا الصغرى، وإذن فهناك اتفاق تام على الاستراتيجية. وحتى ذلك الحين كان الصليبيون على استعداد للإذعان للقادة المحنكين في الجيش البيزنطي القريب منهم في مسائل التكتيك.

وكان الهدف الأول هو العاصمة السلجوقية نيقية الواقعة على شواطئ بحيرة أسكانيا على مسافة غير بعيدة من بحر مرمرة، والتي يمر خلالها الطريق البيزنطي العسكري القديم، برغم وجود طريق بديل يقع إلى الشرق قليلا. ولا شك في أن بقاء هذه القلعة العظيمة في أيدي الأعداء يعرض جميع الاتصالات عبر البلاد للخطر. وكان ألكسيوس متلهفا على رحيل الصليبيين بأسرع وقت ممكن خاصة وأن الصيف على الأبواب، والصليبيون أنفسهم قد نفذ صبرهم؛ فصدرت الأوامر في الأيام الأخيرة من إبريل (نيسان) - وقبل وصول جيش الفرنسيين الشماليين إلى القسطنطينية - بالاستعداد لهدم معسكر بيليكانوم والتقدم إلى نيقية (١).

احتيرت اللحظة اختيارا موقفا؛ إذ كان السلطان السلجوقي قلع أرسلان الأول بعيدا على حدوده الشرقية يناضل أمراء الدانشمند من أجل السيادة على منطقة التي كان حاكمها الأرمني حابرييل مشغولا بالإفساد بين الأمراء الحكام في المنطقة. ولم يأخذ قلع أرسلان هذا التهديد الجديد القادم من الغرب مأخذا حادا؛ إذ سبق وهزم غوغاء بطرس الناسك بغاية السر، فتعلم أن يحتقر الصليبيين، وربما أراد حواسيسه في القسطنطينية أن يدخلوا السرور عليه فبالقوا في تصوير الخلافات بين الإمبراطور

---

(١) من الصعب اقتفاء أثر الأمراء؛ فقد كان جيش جودفري في بيليكانوم منذ أوائل إبريل (نيسان)، ولحق به جيش برهموند هناك وربما ترك الجيشان: جيش جودفري قبل جيش برهموند بثلاثة أيام، وقبل وصول جيش ريموند إلى هناك، يوم ٢٩ أو ٣٠ من إبريل (نيسان) لا حشاد شدة ازدحام المعسكر، وبقي جيش ريموند في بيليكانوم ينتظره أثناء عودته إلى القسطنطينية لزيارة الإمبراطور.

والأمراء الغربيين. واستبعد قلع أرسلان أن يتوغل الصليبيون إلى نيقية استبعاداً تاماً، فترك زوجته وأولاده وجميع أمواله داخل الأسوار، ولم يحرك ساكناً إلا عندما جاءته الأنباء بتمركز الأعداء في بيليكانوم، فأعاد جزءاً من جيشه بسرعة إلى الغرب، على أن يتبعه بنفسه حالماً يتمكن من تدبير شؤونه في الشرق، ولكن جنوده وصلوا متأخرين بحيث لم يتمكنوا من التدخل في مسيرة الصليبيين إلى نيقية.<sup>(١)</sup>

#### تجمع الصليبيين أمام نيقية

وتحرك جيش جودفري أوف لورين من بيليكانوم في السادس والعشرين من إبريل (نيسان) تقريباً، وسار إلى نيكوميديا حيث انتظر ثلاثة أيام لحق به بعدها جيش بوهيموند بقيادة تانكريد، وكذلك بطرس الناسك وبقايا غوغاته. وكان بوهيموند قد تخلف في القسطنطينية لأيام قلائل ليرتب مع الإمبراطور عمين الجيش بالإمدادات. وصاحبت الجيش فصيلة بيزنطية صغيرة من المهندسين ومعها آلات الحصار بقيادة مانويل بوتوميتيس، وقاد جودفري الجيش من نيكوميديا إلى سيفيتوت، ثم تحول جنوباً عبر المضيق الذي هلك فيه رجال بطرس، وكانت عظامهم ما تزال تغطي مدخل البحر. وتحرك جودفري بحذر، وقد استعاد في ذهنه مصير رجال بطرس وتصبحة الإمبراطور، فأرسل الكشافين والمهندسين في المقدمة لتطهير الطريق وتوسيعه، ثم وضعت فيه سلسلة من الصليان الخشبية لإرشاد حجاج المستقبل. وفي السادس من مايو (أيار) وصل إلى مدينة نيقية، المحصنة تحصيناً قوياً منذ القرن الرابع؛ إذ كان البيزنطيون دائبين على صيانة أسوارها التي يبلغ طولها حوالي أربعة أميال بأبراجها البالغ عددها مائتين وأربعين برجاً.

(١) Matthew of Edessa, II, cxdix-cl, pp. 211-12 ، يصف هجوم قلع أرسلان على ملطية ويقوم إنه كان مشغولاً هناك عندما هاجم الفرنج نيقية .

وتقع المدينة على الطرف الشرقي لبحيرة أسكانيا وتبرز أسوارها الغربية من المياه الضحلة مباشرة، وكان شكلها حماسيا غير منتظم. وعسكر حودفري أمام السور الشمالي، وتانكريد أمام السور الشرقي، وأما السور الجنوبي فقد تركوه لجيش ريموند.

وكانت الحامية التركية كبيرة ولكن في حاجة إلى تعزيزات، فأرسلت الرسائل إلى السلطان تستحثه على أن يدفع بالجنود إلى داخل المدينة من البوابات الجنوبية قبل إتمام الإحاطة بها، وأمسك الصليبيون واحداً من هؤلاء الرسل. وعلى أن الجيش التركي كان ما يزال بعيداً للغاية، وقبل أن تتمكن طلائعه من الاقتراب وصل ريموند في السادس عشر من مايو (أيار) وانتشر جيشه أمام السور الجنوبي، وكان بوهيموند قد لحق بجيشه قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وحتى ذلك الوقت كانت الإمدادات القليلة غير الكافية قد أضعفت الصليبيين، ولكن بفضل ترتيبات بوهيموند مع ألكسيوس بدأت الإمدادات تندفق على المحاصرين براً وبحراً. وبوصول روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلووا بقواكما في الثالث من يونية (حزيران)، يكون الجيش الصليبي كله قد تجمع. وأخذ يعمل كوحدة واحدة برغم عدم وجود قائد أعلى له، وكانت القرارات تتصلر من الأمراء أثناء اجتماعهم، وحتى ذلك الحين لم يقع خلاف جدي فيما بينهم، كما انتقل الإمبراطور إلى بيليكانوم حيث يتمكن من الاتصال بكل من عاصمته ونيقية.<sup>(١)</sup>

(١) يرد في *Gesta Francorum*, II, 7, p. 34 وصف مسيرة حودفري إلى نيقية. وتقول Anna Comnena, XI, I, I, vol. III, p. 7 إن حزبا من الجيش ذهب مائسرة بحرا من بيليكانوم إلى سبليتوت. ويقول أكرت أوف أيكس إن حودفري وصل " روفينيل " *Rufinel* " قسي البلبة التي نترك فيها المعسكر (في بيليكانوم) وتوقف هناك لتسلم رسالة من ريموند في القسطنطينية ولكن بعضهم إليه بطرس الناسك (Albert, II, 20, pp. 313-14). وبكلمة " *Rufinel* " فلا بد وأنه يقصد نيكوميديا التي تبعد عن بيليكانوم بمسافة يوم. ويسرد وصول ريموند بيوم ١٦ مايو في *Gesta Francorum*, II, 8, p. 36 كما يرد وصول فرنسي الشمال في *ibod*. P.38. وكذلك يرد في تاريخ Fulcher of Chartres, I, x, 3, p. 182. الذي يذكر التاريخ.

ووصلت أول قوة إغاثة تركية إلى نيقية بعد وصول ريموند مباشرة لتجد المدينة وقد حوصرت تماما من البر. وبعد مناوشة قصيرة غير ناجحة مع جنود ريموند انسحبت لتنتظر الجيش التركي الرئيسي الذي كان يقترب وعلى رأسه السلطان نفسه. وكان ألكسيوس قد أصدر تعليماته لسبوتوميتيس بإجراء اتصال مع الحامية المحاصرة، وعندما رأت الحامية أن قوة الإغاثة تنسحب وجه قادتها الدعوة إلى بوتوميتيس ليدخل المدينة آمنا لمناقشة شروط التسليم، وبعد أن قبل جاءت الأنباء في الحال بأن السلطان ليس بعيدا فاهارت المفاوضات.

#### المعركة خارج نيقية

وفي حوالي الحادي والعشرين من مايو (أيار) وصل السلطان وجيشه من الجنوب وهاجم الصليبيين على الفور في محاولة لاقتحام المدينة. وتحمل ريموند — الذي كان جناحه الأيمن بقيادة أسقف لوبوى — وطأة الهجوم. إذ لم يكن بوسع أي من جودفري أو بوهيموند المهازفة بترك الجزء الذي يتولاه من الأسوار دون حراسة، على أن روبرت أوف فلاندرز خف مع جنوده لنجدة ريموند، وانتقدت المعركة بشراسة طوال اليوم دون أن يحرز الأتراك تقدما. وعندما حل الظلام قرر السلطان الانسحاب؛ إذ كان الجيش الصليبي أقوى مما يظن وعند مواجهة المقاتلين بعضهم البعض في الميدان أمام المدينة لم يكن رجاله أندادا للغربيين حسني التسليح. فالإستراتيجية الأفضل، إذن، هي الانسحاب إلى الجبال وترك المدينة لمصريها.<sup>(١)</sup>

(١) توضح أناكرومينا 9-8, pp. III, vol. 3-4, I, XI أن الأتراك أرسلوا قوتين منفصلتين لإغارة نيقية. ويذكر ألبرت لوف آيكس 19-318, pp. II, 25-6, pp. القبض على حواسي أترك قبل الهجوم التركي مباشرة. ويرد وصف المعركة في 8-36, pp. II, 8, pp. *Gesta Francorum* وفي التاريخ Raymond of Aguilers, III, p. 239 وفي تاريخ ألبرت لوف آيكس 20-319, pp. II, 27.

وكانت خسائر الصليبيين فادحة، إذ قتل كثيرون من بينهم بالدوين كونت أوف  
جيت وجرح الناحون من المعركة كلهم تقريباً. غير أن النصر ملاهم زهواً وتيهاً،  
وأمهمهم أن وجدوا بين موتى الأتراك حبالاً لتقييد الأسرى الذين كان السلطان يأمل  
في أسرهم، ولكي يقطعوا من عزيمة الحامية المحاصرة قطعوا رؤوس الكثير ممن جثث  
الأتراك وألقوا بها من فوق الأسوار أو ثبتوها في حراب ومشوا بها في استعراض  
عسكري أمام البوابات. (١) ثم أنهم بعد أن زال ما يتخشون من خطر خارجي ركزوا على  
الحصار، ولكن التحصينات كانت هائلة، وعيثاً حاول ريموند وأدمبار نسف أحد  
الأبراج الجنوبية بإرسال متسللين للحفر تحت الجرج وإشعال نيران كبيرة تحته. فكانت  
الحامية تصلح الأضرار الصغيرة الناجمة أثناء الليل. وإلى جانب ذلك اتضح أن الحصار  
لم يكن محكماً؛ إذ كانت الإمدادات تصل باستمرار إلى المدينة عبر البحيرة. (٢) واضطر  
الصليبيون إلى أن يطلبوا من الإمبراطور الحضور لمساعدتهم وإمدادهم بقوارب كي  
يعترضوا الطريق المائي. وربما كان ألكسيوس مدركاً للموقف إدراكاً تاماً، لكنه أراد  
أن يكتشف الأمراء الغربيين مدى أهمية تعاونه بالنسبة لهم. وأجابهم إلى طلبهم بأن  
أمدهم بأسطول صغير في البحيرة تحت قيادة بوتوميتيس. (٣)

- 
- (١) *Gesta Francorum, loc. cit.*; Albert of Aix, II, 28, pp. 320-1 (١)  
يلوا عن موت Baldwin of Ghent، كما يرد في Hagenmeyer, *op. cit.* p. 139  
(٢) *Gesta Francorum, loc. cit.*; Albert of Aix, II, 31, pp. 322-3; Anna Comnena, (٢)  
XI, I, 6-7, vol. III, pp. 9-10  
(٣) *Gesta Francorum, ibid.* p. 40; Albert of Aix, II, 32, pp. 323-4 (٣)  
XI, II, 3-4, vol. III, pp. 11-12  
وتقول إنه أرسل في ذات الوقت الجنود تحت إمرة تاتسيوس وتريناس لمساعدة الصليبيين على الأرض

#### الاستيلاء على نيقية

وكان السلطان قد أحرى الحامية قبل انسحابه بأن تفعل ما تظنه الأفضل، إذ ليس بمقدوره تقديم المزيد من العون. فعندما رأت الحامية السفن البيزنطية في البحيرة أدركت أنّ الإمبراطور يعاون الصليبيين معاونة كاملة وقررت التسليم. وكان ذلك هو ما يأمل فيه ألكسيوس، فلم يكن يرغب في أن يضيق إلى الأراضي الخاضعة لسلطانه مدينة شبة مهدامة، ولا أن يعاني رعاياه الجدد أهوال السلب، لاسيّما وأن أغلب المواطنين كانوا مسيحيين، فالأتراك في المدينة لا يجاوزون الجنود وطبقة صغيرة من نبلاء البلاط. وعادت الاتصالات بين الحامية وبوتوميثيس ونوقشت شروط التسليم. ولكن الأتراك ظلوا مترددين وربما كانوا يأملون في عودة السلطان، ولم يستسلموا إلاّ عندما جاءهم الأنباء بأنّ الصليبيين يُعدّون العدة لهجوم عام.

وكانت الأوامر قد صدرت بأن يكون الهجوم في التاسع عشر من يونيو (حزيران)، ولكن عند انبلاج الصباح شاهد الصليبيون رايات الإمبراطور ترفرف على أبراج المدينة؛ لقد استسلم الأتراك أثناء الليل ودخل جنود الإمبراطور — وهم أسامًا من البشنج — من البوابات الواقعة في جانب البحيرة. ومن غير المحتمل ألاّ يكون القادة الصليبيون على علم بالتفاوضات، أو عارضوها، إذ كانوا يعلمون أنّ لا مغزى من إضاعة الوقت والرجال في الهجوم على مدينة لن تكون لهم، ولكن ألكسيوس تعمّد إخفاء المراحل الأخيرة، وأما باقي الجنود فقد اعتبروا أنهم خدعوا وحيل بينهم وبين فريستهم. إذ كانوا يأملون في هب ثروات نيقية. وبدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم وقد سُمح لهم بمجرد دخول المدينة في جماعات صغيرة وهم تحت المراقبة الشديدة من شرطة الإمبراطور، وكانوا يأملون في احتجاز نبلاء الأتراك للحصول على فدية، وبدلاً من ذلك شاهدوهم وهم يُنقلون تحت الحراسة مع منقولاتهم إلى القسطنطينية أو إلى

الإمبراطور في بيليكانوم. فازدادت مرارة استيائهم من الإمبراطور.<sup>(١)</sup>

وقد خفف كرم الإمبراطور من حدة هذه المرارة إلى حد ما؛ إذ أمر ألكسيوس على الفور بمنح كل جندي صليبي هدية طعام، بينما استدعى القادة إلى بيليكانوم لإهانتهم ذهباً وحواهر من خزانة السلطان. وأذهل ستيفن أوف بلوا وهو في حضرة الإمبراطور مع ريموند أوف تولوز حبل الذهب الذي كان من نصيبه، وكان يعارض رأي رفاقه من الصليبيين الذين يقولون أنه كان ينبغي للإمبراطور أن يجيء إلى نيقية بنفسه؛ لأنه يعرف أن استقبال المدينة المحررة لسيدتها ربما أدى إلى إحراجه. وفي مقابل الهدايا طلب ألكسيوس من الفرسان الذين لم يقسموا له قسم الولاء بعد أن يقسموه الآن، واستجاب الكثير من اللوردات الأقل شأنًا الذين لم يعا ألكسيوس بهم أنشاء عبورهم القسطنطينية. ويبدو أنه لم يطلب من ريموند شيئاً غير ما حدث من قبل، على أن حالة تانكريد اتخذت شكلاً أكثر خطورة؛ إذ كان تانكريد بادئ الأمر مشاكساً، فقد أعلن أنه ما لم يأخذ خيمة الإمبراطور الكبيرة مملوءة ذهباً إلى حاقته، فضلاً عن مقدار آخر من الذهب يساوي كل الذهب الذي أخذه الأمراء الآخرون، فإنه لن يقسم على شيء. وعندما اعترض زوج أخت الإمبراطور جورج باليولوجوس على قضاظته

---

(١) تورند أكومنيا XI, ii, 4-6, vol. III, pp. 12-13. رواية كاملة عن استسلام المدينة، وتعرض صراحة بأن البيزنطيين عذبوا الصليبيين. ولا تزيد المصادر الغربية على أن نيقية استسلمت للإمبراطور.

تحول إليه في خشونة وأمسك بتلابيبه، وغض الإمبراطور ليتدحسل، وراح يوهيموند بوبخ ابن أخته توبيخاً شديداً، وفي النهاية خضع تانكريد على مضض.<sup>(١)</sup>

وصدم الصليبيون لمعاملة الإمبراطور لأسراه من الأتراك. إذ سمح لمستولي البلاط والقادة بأن يشتروا حريتهم، أما السلطنة — وهي ابنة الأمير شاكا — فقد استقبلت بالتشريفات الملكية في القسطنطينية حيث تقرر أن تبقى هناك إلى أن يرسل زوجها رسالة بالمكان الذي يرغب أن تلحق فيه به، وعندئذ سوف ترسل إليه هي وأولادها

---

(١) يقول Raymond of Aguilers, III, pp. 239-40 إن الإمبراطور كان قد وعد الأمراء بكافة الأسلاب المأخوذة من نيقية وتمعهد بإنشاء دير لاتين ونزل هناك ؛ وتسبب عدم تحقيق وعده في الشعور بمرارة بالغة . غير أن هناك من تحدث عن كرمه العظيم في تواريخ Fulcher of Chartres, I, x, 10, و pp. 188-9 Anselm of Ribemont, و op. cit. 145 وستيفن أوف بلوا في هاجنمار op. cit. p. 140 ويقول هذا الأخير إن الإمبراطور قد وزع في الواقع أحمود الأسلاب (Gesta Francorum, III, 9, p. 42) وتذكر أناكسومينا (XI, III, 1-2, vol. III, p. 16-17) Histoire des Croisades, vol. I, p. 31 : واقعة القسم للمرة الثانية . ويغرض حروسيت في Chalandon أن يكون سبب واضح لإفتراضه هذا أن تانكريد كان ما يزال واقفاً لأخذ القسم بل أن Chalandon يستبعد ذلك لأن ألكسيوس لم يتهمه فيما بعد قط بأنه حث بقسم ما . علي أن قصة أنا كرومينيا واضحة ومقنعة . ومن الناحية الأخرى تتضح صحة تحليل Radulph of Caen عن الحكاية (XVIII-XIX, pp. 619-20) وتقدم القصة على أن تانكريد أحسب أن يتحيل ذلك . أنظر Nicholson, Tancred, p. 32 n. 5 و Anselm, loc. cit. بأن بعض الأمراء كانوا مستائين من الإمبراطور . ويرد ألبرت أوف آيكس II, 28, p. 321 توزيع ألكسيوس للهدايا أثناء الحصار . أنظر ما سبق صفحة ٢٠٢ الحاشية ١ ، فيما يتعلق بمكان الإجماع .



دون فدية. لقد كان ألكسيوس رجلاً شفوفاً، وكان يعي جيداً قيمة التلطف مع عسكرو مهزوم، بيد أن موقفه هذا بدا للأمراء الغربيين موقف المنافق الخنثون.<sup>(١)</sup>

ومع ذلك، وبرغم حمية الأمل التي شعر بها الصليبيون لعدم استيلائهم هم أنفسهم على المدينة، وحرمانهم من ثروتها، فإن تحرير نيقية ملأهم بهجة وأملًا في المستقبل. وأرسل البريد إلى الغرب معلناً أن هذا المكان الميجل أصبح مسيحياً مرة أخرى. واستقبل الغرب تلك الأنباء بحماس، فقد أثبتت الحرب الصليبية نجاحها، وزاد استحلاب الجنود، وبدأت المدن الإيطالية، التي كانت تتوخى الحذر وترجى مساعدتها الموعودة، تأخذ الحركة الصليبية مأخذاً جاداً. وفي معسكر الصليبيين كسان الفرسان متلهفين على مواصلة الرحلة، وكان ستيفن أوف بلوا في غاية التفاؤل، وكتب لزوجته: "سنكون في القدس في مدى خمسة أسابيع"، وأضاف في تنبؤ يتجاوز معرفته: "ما لم يعوقنا عائق في أنطاكية".<sup>(٢)</sup>

#### الطرق خلال آسيا الصغرى

ومن نيقية انطلق الصليبيون في الطريق البيزنطي القديم عبر آسيا الصغرى، وكان الطريق القادم من خلقدونية، ونيكوميديا يلتقي بالطريق القادم من هيلينوبوليس ونيقية على ضفاف نهر سنحاريوس. وسرعان ما يترك النهر ليصعد وادياً آخر لرافد يفتح إلى الجنوب، تاركاً وراءه مدينة بيليجيك الحديثة، ثم يلتف فوق أحد الممرات إلى دريليوم

(١) يعلن كاتب تاريخ *Gesta Francorum* (II, 8, pp.40-2) أن الإمبراطور عامل الأسرى معاملة

كرهة، ببساطة لكي يجعلهم يضايقون الصليبيين فيما بعد. وعن تحركات السلطان اللاحقة أنظر ص ٢٤١.

(٢) Stephen of Blois, *loc. cit.* سمح للصليبيين زيارة نيقية فسي بمجموعات من عشرة أشخاص

(xi,ii, Anna Comnena, 10, vol. III, p. 16)

بالقرب من إسكيشهر الحديثة، وهناك يتفرع إلى ثلاثة طرق: فيمضي الطريق البيزنطي العسكري الكبير باتجاه الشرق، وربما كان يمر بالقرب من أنقرة إلى الجنوب مرة أخرى بعد عبوره نهر هاليس، فيستمر فرع منه عابرًا ميساتيا (سيفاس) مباشرة إلى داخل أرمينيا، ويلتف الآخر باتجاه قيصرية مازاكا. ومن هناك كانت عدة طرق ممضى عبر ممرات منطقة جبال طوروس المواجهة إلى داخل وادي الفرات، بينما يلتف طريق آخر مرتين عائدًا إلى الجنوب الغربي خلال تيانا إلى بوابات كيليكيا. ويمضي الطريق الثاني من دوريليوم مباشرة عبر صحراء الملح الكبرى في وسط آسيا الصغرى، جنوب بحيرة تاتا ومن أموريوم إلى بوابات كيليكيا. ولم يكن هناك من يستخدم ذلك الطريق سوى الجماعات التي تتحرك بسرعة لأنه كان يمر عبر منطقة مقفرة تخلو من الماء تمامًا. وكان الطريق الثالث يمر بأطراف صحراء الملح الجنوبية تمتدًا من فيلوميليوم، وهي إكسبشهر الحديثة، إلى إيكوتيوم وهرقلة وبوابات كيليكيا. وكان هناك طريق فرعي يجري بادئًا على مقربة من فيلوميليوم إلى البحر المتوسط عند أنطاليا، وآخر من مكان عبر إيكوتيوم إلى البحر المتوسط عند سيلبوشيا.<sup>(١)</sup>

وأما ما يكون الطريق الذي كان على القوات الصليبية أن تتخذه، فلا بد لها من الوصول أولاً إلى دوريليوم. وفي السادس والعشرين من يونيو (حزيران)، أي بعد أسبوع من سقوط نيقية، بدأت الطلائع تتحرك وتبعنها في اليومين التاليين فرق الجيش المختلفة ليتجمع الجيش مرة أخرى عند جسر عبر النهر الأزرق حيث يسلك الطريق وادي سنجاريوس ليصعد إلى الحضبة. وصاحبت الصليبيين فصيلة بيزنطية صغيرة بقيادة الجنرال الحنك تاتيسوس، وتخلف عدد من الصليبيين أغلبهم من المصايين في نيقية،

---

(١) عن الطرق في آسيا الصغرى أنظر Ramsay, *Historical Geography of Asia Minor*, pp.74-82

والتحقوا بخدمة الإمبراطور ووضعوا تحت إمرة بوتوميتس لإصلاح ما تهدم من نيقية والالتحاق بها. (١)

وعند الجسر، وفي قرية تدعى ليوس، اجتمع الأمراء للنشاور وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين يلحق أحدهما بالآخر بعد مسيرة يوم واحد لتسهيل مشكلة الإمدادات. يتكون الجيش الأول من النورمانديين القادمين من جنوب إيطاليا وشمال فرنسا مع جنود كونت أوف فلاندرز وكونت أوف بلوا بالإضافة إلى البيزنطيين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين. ويضم الجيش الثاني الفرنسيين الجنوبيين وأبناء اللورين مع جنود كونت أوف فيرماتندوا. وتولى بوهيموند قيادة المجموعة الأولى، وريموند أوف تولوز المجموعة الثانية، ولما تم التقسيم انطلق جيش بوهيموند على الطريق إلى دوريليوم. (٢)

وكان السلطان قلع أرسلان، بعد أن فشل في إنقاذ نيقية، قد انسحب شرقاً ليجمع قواته ويحقق السلام والتحالف مع أمير الدانشمند ضد هذا التهديد الجديد. فكانت خسارة نيقية إثمًا له، كما كانت خسارته لخزائنه خسارة فادحة، ولكن الأثر كان ما يزالون بدوا رحلا بالغريرة. وكانت عاصمة السلطان الحقيقية هي خيمته. وفي أواخر يونية (حزيران) عاد باتجاه الغرب ومعه جميع قواته والأمير حسن

---

(١) انطلق جيش بوهيموند يوم ٢٦ يونية (Gesta Francorum, III, 9, p.44) وانطلق جيش ريموند يوم ٢٨ يونية (Anselm of Ribemont, loc.cit.) Raymond of Aguilers, III, p. 240; و انطلق الجيش الفرنسي الشمالي يوم ٢٩ يونية (Fulcher of Chartres, I, xi, 1, p. 190) وتذكر Anna Comnena, XI, iii, 3, vol. III, pp. 16-17 أن بعض الفرنج بقوا مع بوتوميتس Butumites.

(٢) Anna Comnena, XI, iii, 4, vol. III, p. 18; Gesta Francorum, III, 9, p. 44; Albert of Aix, II, 38, pp. 328-9

التابع له وهو أمير أترك كبادوكيا، وجيش الدانشمند وعلى رأسه أميره. وفي الثلاثين من يونية (حزيران) كان ينتظر في أحد الأودية على مقربة من دوريليوم وقد أعدّ عدته لمهاجمة الصليبيين أثناء هبوطهم من المعر.

#### معركة دوريليوم

وفي ذلك المساء عسكر الجيش الصليبي الأول في سهل غير بعيد عن دوريليوم. وعند شروق الشمس انقضّ الأتراك هابطين جانب التل وهم يصيحون صيحات الحرب. ولم يكن بوهيموند غير مستعد؛ إذ تجمّع غير المغارين من الحجاج بسرعة في وسط المعسكر حيث ينابيع المياه، وعُهد إلى النساء بحملة حمل الماء إلى الخط الأمامي، ونُحيت الخيام بسرعة، وطلب من الفرسان الترحّل من على صهوات حيولهم، وفي نفس الوقت أرسل بوهيموند رسولاً على جناح السرعة إلى الجيش الثاني يستحثه على الإسراع، بينما طلب من قادته أن يستعدوا لمعركة عسيرة وأن يلزموا جانب الدفاع بادئ الأمر. وعصى أوامره واحد منهم فقط هو نفس الفارس الذي تجرأ وجلس على عرش الإمبراطور في القسطنطينية، إذ هاجم العدو في أربعين من رجاله، ليندحروا راجعين يجرّون أذيال الخزي تغطيهم الجراح، وسرعان ما أحاط الأتراك بالمعسكر وقد بدت أعدادهم في أعين المسيحيين وكأنها لا نهاية لها. واستخدم الأتراك تكتيكهم المفضّل بأن يدفعوا بالرماة إلى الخط الأول لإطلاق سهامهم، وفي الحال يفسحون المجال لرماة آخرين.

وبارتفاع خمس يوليه (تموز) الحارة بدأ الصليبيون يتشككون في قدرتهم على الصمود أمام سيل القذائف الذي لا يتوقف، ولا سبيل إلى الحرب وهم هكذا محاطون، كما أنّ الاستسلام يعني تحوّلهم إلى رهائن وعبيد، فعزموا أمرهم على تحمل الاستشهاد مجتمعين إذا اقتضى الأمر. وأخيراً، وعند منتصف النهار، شاهدوا رفاق الجيش الثاني

مقبليين، جودفري وهيو في المقدمة مع رجالهما، وريموند برحاله على مقربة خلفهم، ولم يكن الأتراك قد تحققوا من أنهم لم يوقعوا بالقوة الصليبية كلها، ولدى رؤيتهم القادمين الجدد عارت عزيمتهم ولم يتمكنوا من الحيلولة دون اتصال الجيشين. وشدد ذلك من عزم الصليبيين وبدأوا يأخذون زمام المحوم، وأقاموا جبهة طويلة على مسيرتها بوهيموند وروبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا، وعلى يمينها جودفري وهيو، وفي القلب ريموند وروبرت أوف فلاندرز، وبدعوا المحوم وهم يذكرون بعضهم البعض بالثروات التي سيفوزون بها إذا انتصروا. ولم يكن الأتراك مهيبين لمواجهة المحوم، والأغلب أن ذخيرتهم كانت تنقاص، وفجأة ظهر أسقف لوبوي على التلال الواقعة خلفهم ومعه فصيلة من الفرنسيين الجنوبيين، فتحول ترددهم إلى حالة من الذعر. وكان أديمار قد خطط بنفسه هذا التحول عن الطريق، ووجد مرشدين يدلونه عبر غمرات الجبل، وأدى تدخله إلى تأكيد انتصار الصليبيين. والمهارات خطوط الأتراك، وسرعان ما ولوا الأديمار شرقاً تاركين في عجلتهم مضرب خيامهم دون مساس، فوقعت خيمة السلطان وخيام الأمراء بكل ما فيها من كنوز في أيدي المسيحيين.<sup>(١)</sup>

(١) تذكر Anna Comnena, loc. cit. والفة الفسارس الفرنسي، III, 9, *Gesta francorum*.

pp.44-8 ويصف Raymond of Aguilers, IV, pp. 240-1 دور Albert of Aix, pp. 42.

Adhemar 329-32 Fulcher of Chartres, 1, xi, 3-10, pp. 189-98 وخطاب من II, 39

بعض الأمراء إلى إيران الثاني، مذكور لدى Hagenmeyer, *Dei Kreuzzugsbriefe*, p.161

وتقع دور بليوم - وعادة تسمى المعركة بأسمها - على مسافة حوالي مائة ميل شمال إسكيشهر الحديثة .

ومكان ميدان القتال الدقيق الذي شهد المعركة على خلاف ؛ إذ تطلق عليه أنا كومينا "سهل دور بليوم"

ويطلق عليه الأمراء في خطاطهم إلى البابا " وادي Dorotilla " ولا بد أن الاسم يعني دور بليوم ؛

ويطلق عليه المؤرخ Raymond of Aguilers إسم " Campus Floridus " وألبرت أوف آيكس-

## الفرنجة والأتراك

وكان نصرا كبيرا، راحت فيه أرواح الكثير من المسيحيين، من بينهم وليم أخسو تانكريد، وهمفري أوف مونت سكايبوزو، وروبرت أوف باريس. وتعلم الفرنج كيف يحترمون الأتراك الاحترام اللائق بهم كجنود. وربما أرادوا أن يرفعوا من شأن إنجازهم فأعربوا طواعية عن إعجابهم بالأتراك، ذلك الإعجاب الذي أنكروه علي البيزنطيين الذين كان لهم من أساليب الحرب العلمية المتقدمة ما يعتبرها الفرنج أساليب بالية، كما أنهم لم يعترفوا بإسهام البيزنطيين في المعركة. ويعتبر المؤرخ النورماندي المجهول مؤلف "جيسنا" أن الأتراك خليقون بأن يكونوا أحسن الأجناس البشرية لسو أنهم كانوا مسيحيين. واسترجع الأسطورة التي جعلت الفرنج والأتراك ذوي قرىسى باعتبار أن

== Hagenmeyer, Ozellis called the valley of Degorganhi which is now

*Chronologie de la Première Croisade*, pp. 86-7 أن الصليبيين لم يتمكنوا من

الوصول إلي دوريلوم نفسها في ليلة ٣٠ يوتية، إذ أنها تبعد عن Leuce بمسافة ٢٢ ساعة

وهو يحدد مكان المعركة بالقرب من Bozuzuk (وهو يقصد Bosoyuk) أو إنونو

Inönü غير أن الطريق البيزنطي المباشر كان يتجنب تلك الأماكن ويمضي خلال Söğüt،

و يدخل السهل الواقع علي مسافة حوالي ثمانية أميال شمال غرب دوريلوم. ولما قام الأتراك

بمحرم مفاجيء فلا يد أنهم كانوا - من ثم - مخبيين وراء التلال؛ بينما استخدم Ahemar

هو الآخر بعض التلال لمهاجمة مؤخرة الأتراك. وقبل أن يدخل الطريق إلى السهل فإن

الجبال تستوي الجبال بحيث تسمح هذه المناورات. علي أن سهل Sarı - su الذي يسمى

باليونانية Bathys والذي ينتهي إليه الطريق، تقسمه سلسلة من التلال المنخفضة عند

Parsuk أو يسمى باليونانية Tembris وهي تلال يسهل عبورها ويمتد حتى التقاء

النهارى المائية فوق دوريلوم مباشرة. فإذا كان الصليبيون قد عسكروا في وادي ==

الفريقين من نسل أهل طروادة، وهي أسطورة تقوم على أساس عدائهم المشترك لليونانيين وليس على أساس ديني<sup>(١)</sup>. بيد أنه مهما كان الإعجاب بالعسكرية التركية فإن هزيمتهم ضمنت مروراً آمناً للصليبيين عبر آسيا الصغرى. وأمّا السلطان، الذي استلب أولاً من عاصمته، والآن من عيخته الملكية والقدر الأكبر من كثره، فقد قرر أنه لا طائل من محاولة اعتراض الصليبيين. وقابل أثناء هروبه جماعة من السورين الأتراك كانوا متأخرين ولم يشتركوا في المعركة، فشرح لهم أن أعداد الفرنجة وقوتهم أكبر مما كان يتوقع، وأنه لا يستطيع الوقوف أمامهم، ثم لجأ هو ومواطنوه إلى الجبال بعد أن هجروا المدن التي كانوا قد استولوا عليها ونهبوها وحربوا داخل البلاد حتى يستحيل على الصليبيين أن يطعموا أنفسهم أثناء تقدمهم<sup>(٢)</sup>.

-- Porsuk بينما تستطيع نقطة للمراقبة على مرتفعات Karadjashehir الواقعة جنوب Porsuk

مباشرة أن يمكنهم من مراقبة تحركات الصليبيين . كما أنه من المرجح أن يكون Adhemar قد عم إلى وادي Porsuk لمواجهة الأتراك من خلفهم . ونتيجة لما فست به شخصياً من تدقيق لتلك المنطقة فإني أحدد مكان المعركة في سهل Sari-su حيث يدخله الطريق المباشر الآن من Leuce . وللموصول إلى هذا المكان ، كان علي الطليعة أن تقطع حوالي ٨٥ ميلاً في أربعة أيام ، إذ غادرت نيقية صباح ٢٦ يونية ، وربما توقفت ليوم كامل في Leuce . وقد غادرت المؤخرة نيقية بعد ذلك بيومين ولكن مسن الواضح أنها لم تتوقف في Leuce . وبعد غدت السر يمكنت من اللحاق بقوات الطليعة بعد الظهر من بسوم المعركة . ولما كان قادة قوات المؤخرة علي صهوات جيادهم ، فالراجح أنهم وصلوا Leuce لمناقشة رفائهم قبل وصول قوات المشاة .

(٢) *Gesta Francorum*, III, 9, pp. 50-2

(٣) *Ibid.* IV, 10, pp. 52-4

وأَمْضَى الصليبيون يومين في دوريليوم للراحة والاستعداد لتشاطلهم بعد المعركة وللتخطيط للمراحل التالية من سيرهم. ولم يكن من الصعب اختيار الطريق؛ فالطريق العسكري المنحدر شرقاً يمضي بعيداً داخل بلاد يسيطر عليها الدانشمند وأمرأ لم تكسر شوكتهم، وكان الجيش من الضخامة وثقل الحركة بحيث يتعذر عليه عبور صحراء الملح مباشرة؛ فكان عليه أن يتبع الطريق الأبطأ على جانب الجبال الواقعة جنوب الصحراء. ولا شك في أن هذا الاختيار كان بناء على نصيحة تاتيسوس والمرشدين الذين أحضرهم، إلا أن الطريق، رغم ذلك، لم يكن مأموماً؛ فبعد غزوات التركمان وعشرين عاماً من الحروب تهدمت القرى، وبقيت الحقول دون زراعة، وتلوثت الآبار أو تراكمت لتجف، وسقطت الجسور أو دُمِّرت. وليس من الممكن دائماً الحصول على معلومات من سكان مشتبين مرعوبين. وبالإضافة إلى ذلك، وإذا ما حدث أي خطأ، سرعان ما يرتاب الفرنج في المرشدين البيوتانيين، بينما كان المرشدون يشعرون بالمرارة من فوضوية الفرقة وجحودهم، ووجد تاتيسوس أن دوره يزداد كآبة وصعوبة.<sup>(١)</sup>

#### عبر صحراء الأناضول

وفي الثالث من يولية (تموز) تحرك الجيش في كتلة واحدة متصلة ليتجنب المخاطر التي حدثت في دوريليوم، وراح يشق طريقه الصعب باتجاه الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول، إذ لم يستطع الاستمرار على الطريق الرئيسي القديم. وبعد عبوره بوليوتوس تحول إلى أنطاكية الروم التي أفلتت من تغريب الأتراك على الأرجح، ومن ثم يمكن

(١) لم تحدث شكاي من تاتيسوس والبيزنطيين إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية، على أنه بحلول ذلك

الوقت أصبح عدائاً "inimicus" (Gesta Francorum, VI, 16, p. 78). أنظر ما يلي صفحة

٢٧٧، الحاشية ١. ولابد أن الاستياء منه كان يتزايد بحيث لمحت دهابة يوهيند من فورها.



الحصول على إمدادات منها . ومن هناك عبر الصليبيون ممرات السلطان داغ المقفرة ليعودوا إلى الطريق الرئيسي الذاهب إلى فيلوميلوم، ومنها امتد الطريق خلال بلاد مقفرة بين الجبال والصحراء. وفي حجارة قبض الصيف الذي لا يرحم عسان الفرسان بأسلحتهم الثقيلة وحيوهم ومشاغهم أسوأ معاناة. فليس هناك في الأفق من ماء سوى غياض الصحراء المالحّة، ولا حضرة إلا أحراش الشوك التي مضغوا فروعها في محاولسة يائسة لامتنصاص نداوتها، وكانوا يشاهدون صهاريج المياه البيزنطية على جوانب الطريق وقد دمرها الأتراك كلها؛ فكانت الخيل أول من هلك، واضطر الكثير من الفرسان إلى مواصلة السير راحلين، وامتطى آخرون الثيران، بينما استخدموا الخراف والماعز والكلاب بحر الأمتعة، على أن معنويات الجيش بقيت مرتفعة، وكان فولشر أوف تشارتر يرى أن تزامن الجنود الآتين من شتى البقاع والمتحدثين مختلف اللغات، يبدو وكأنه إلهام من الرب.(١)

وفي منتصف أغسطس (آب) وصل الصليبيون إلى مدينة إيكونوم. وهي مدينة قونية الحديثة، وقد ظلت في أيدي الأتراك لثلاث عشرة سنة، وأوشك قلعج أرسلان على احتيارها عاصمة جديدة له. وكانت في ذلك الوقت مدينة مهجورة إذ هرب الأتراك إلى الجبال بكل منقولاتهم. ولكنهم لم يستطيعوا تدمير قنوات المياه واليساتين في وادي ميرام البهيج الواقع خلف المدينة. ولقد فتنت حصونته المسيحيين المتعبين، فاستراحوا هناك ليستردوا قواهم، إذ كانوا جميعاً في حاجة إلى الراحة، وكان القسادة منهم منهكين، وقد حرج جودفري قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كان يصيد دُباً، ووقع ريموند أوف تولوز فريسة مرض خطير وشاع الظن بأنه يمتنضر، ومسحه أسقف أورانسج مسحة الموتى، غير أن الإقامة في قونية أنقذته، واستطاع بعد ذلك أن يسير

(١) *Gesta Francorum*, IV, 10, p. 55; *Fulcher of Chartres*, I, Xiii, 1-5 pp. 199-203; *Albert of Aix*, III, 1-3, pp. 339-41

بالجيش حينما تحرك. وامتثل الصليبيون لنصيحة السكان الأرمن القلائل الذين كانوا يعيشون بالقرب من المدينة. فأخذوا معهم من الماء ما يكفيهم للوصول إلى وادي هرقله الخصب.<sup>(١)</sup>

وفي هرقله وجدوا جيشاً تركياً بقيادة الأمير حسن والأمير الدانشمندی، اللذين كانا يتسهران بالقلق على أملاكهما في كبادوكيا، فكانا يأملان في أن يتسبب وجودهما في إخبار الصليبيين على محاولة عبور جبال طوروس إلى الساحل؛ ولكن الصليبيين هاجموا الأتراك فور رؤيتهم، وكان قائدهم بوهيموند يجد في طلب الأمير الدانشمندی نفسه، ولم يكن الأتراك يرغبون في خوض معركة كبيرة، فانسحبوا انسحاباً خاطفاً إلى الشمال تاركين المدن للمسيحيين، وتلألاً مذهب في السماء ليتألق النصر.<sup>(٢)</sup>

وأصبح من الضروري الآن إعادة مناقشة الطريق الواجب اتخاذه. فإلى الشرق من هرقله كان الطريق الرئيسي بمضي عبر جبال طوروس خلال عمر كيليكيا الرائع إلى داخل كيليكيا ذاتها، وكان ذلك هو الطريق المباشر إلى أنطاكية، وإن كانت له بعض المساوئ. فلم يكن من اليسر عبور بوابات كيليكيا حيث يصبح الطريق أحياناً شديداً الانحدار وضيقاً للغاية بحيث يتسنى لجماعة صغيرة معادية على المرتفعات أن تدمر جيشاً بطيء الحركة تدميراً سريعاً. وكانت كيليكيا في حوزة الأتراك، وأفساد المرشدون

(١) *Gesta Francorum*, *ibid.* p. 56; Fulcher of Chartres, *ibid.* p. 200

Raymond of Aguilers, IV, p. 241 مرضى ريموند الذي لابد وأن يكون قد وقع له في هذا التاريخ، ويذكر Albert of Aix, III, 4, pp. 341-2 حادثة جودفري.

(٢) *Gesta Francorum*, *loc. cit.*; Anna Comnena, XI, iii, 5, vol. III, pp. 18-19

وتذكر أنا كومنينيا شعاعة بوهيموند في هذه المعركة. ولابد أن يكون تاتيسوس هو الذي ويذكر Fulcher of Chartres, I, xiv, pp. 203-5 المذهب.

البيزنطيون بأن مناحها يكون في سبتمبر (أيلول) في أسوأ أحواله. وفضلا عن ذلك، لا بد لجيش ذاهب من كيليكيا إلى أنطاكية أن يعبر منطقة جبال أمانوس في الممر الوعر المعروف بالبوابات السورية. ومن ناحية أخرى تسببت هزيمة الأتراك في فتح الطريق إلى قيصرية مازاكا، ومن هناك تؤدي مواصلة السير في الطريق العسكري البيزنطي الكبير إلى عبور جبال طوروس المتقابلة إلى مرعش (جيرمانيشيا)، ثم ينحدر فوق ممر بوابات أمانوس العريض والمنخفض إلى داخل سهول أنطاكية وكان هذا هو الطريق الذي يتخذه المرتحلون من أنطاكية إلى القسطنطينية في الغالب في السنوات التي سبقت الغزو التركي. وله الآن ميزة المرور عبر بلاد يسيطر عليها المسيحيون وصغار الأمراء الأرمن، وأغلبهم أتباع معينون من قبل الإمبراطور، وربما يكون موقفهم وديا. وأغلب الظن أن اختيار الطريق الأخير كان بتوصية من تاتيسوس والبيزنطيين، غير أن هذه التوصية لاقت معارضة من الأمراء المعادين للإمبراطور وعلى رأسهم تانكريد. وقررت الأغلبية المضى خلال قيصرية، ولكن تانكريد ومعه مجموعة من جنوب إيطاليا وبالديون (أخو جودفري) وبعض الفنلنديين وأبناء اللورين، قرروا الانفصال عن الجيش الرئيسي ليتخذوا الطريق الذي يعبر كيليكيا.

#### على حدود الأناضول

وفي العاشر من سبتمبر (أيلول) تقريبا انطلق تانكريد وبالديون إلى ممرات جبال طوروس (١) في طريقين منفصلين. وتحرك الجيش الرئيسي باتجاه الشمال الشرقي بريد قيصرية، وعند قرية أوجوستوبوليس أدرك الجيش جنود الأمير حسن وألحق بهم هزيمة أخرى. لكنه لم يحاول الاستيلاء على إحدى قلاع الأمير التي كانت تقع غير بعيد

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٤-٣١٥.

من الطريق، وذلك تبعاً للتأخير برغم احتلال العديد من القرى الصغيرة وتمويل إدارتها إلى اللورد الأرمني المحلي سيميون الذي طلب ذلك على أن يكون تابعاً للإمبراطور. وفي نهاية الشهر وصل الصليبيون إلى قيصرية التي هجرها الأتراك، ولم يتوقفوا فيها وإنما واصلوا سيرهم إلى كوماننا (بلاستيا)، وهي مدينة مزدهرة يسكنها الأرمن، وكان الأتراك الدانشمند يحاصرونها آنذاك، لكنهم اختفوا لدى اقتراب الصليبيين، وانطلق بوهيموند في أثرهم ولكنه لم يلحق بهم. ورحب المواطنون المبتسحون بمخلصهم، وطلبوا من تاتيسوس تعيين حاكم للمدينة باسم الإمبراطور، فاختار بطرس أوف أوليس وهو فارس من بروفانس الفرنسية كان قد جاء في بداية الأمر إلى الشرق مع جيشكار، ثم التحق بخدمة الإمبراطور. وكان اختياراً حكيمًا؛ فقد أظهرت هذه الحادثة أن الفرنج والبيزنطيين كانوا ما يزالون قادرين على التعاون وعلى أن يشتركوا معاً في تنفيذ المعاهدة المعقودة بين الأمراء والإمبراطور.<sup>(١)</sup>

وتقدم الجيش من كوماننا باتجاه الجنوب الشرقي إلى كوكسون (جوكسون الحديثة) وكانت مدينة مزدهرة مليئة بالأرمن تقع في الوادي الخصيب جنوب منطقة حبال طوروس المقابلة. وبقي الجيش هناك ثلاثة أيام تمتع خلالها بحفاوة السكان الذين أمدوه بالإمدادات الوفيرة استعداداً للمرحلة التالية من مسيرته عبر الجبال. والآن وصلت إلى الجيش شائعة بأن الأتراك هجروا أنطاكية، وكان بوهيموند ما يزال غائباً بطارد الدانشمند؛ ولذا قام ريموند أوف تولوز في الحال، ودون استشارة أحد سوى قواده، بإرسال خمسمائة فارس بقيادة بطرس أوف كامبيلون للإسراع أمام الجيش واحتلال المدينة. وانطلق الفرسان بأقصى سرعتهم، لكنهم عندما وصلوا إلى قلعة يشغلها المراتقة البوليون غير بعيدة عن وادي الأرند، علموا أنها شائعة زائفة وأنه

(١) *Gesta Francorum*. IV, II, pp.60-2; Stephen of Blois, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.150; Baudri, VII, pp.38-9; Anna Comnena, XI, iii, 6, vol. III, p. 19

على العكس تندفق تعزيزات الأتراك على المدينة. ومن الواضح أن بطرس أوف كاستيلون اتخذ طريق العودة لينضم إلى الجيش، غير أن واحداً من فرسانه (بطرس أوف رويكس) انسَلَّ مع قِلة من رفاقه، وبعد مناوشة مع الأتراك المحليين استولى على بعض القلاع والقرى في وادي روسيا تجاه حلب بمعاونة الأرمن المحليين الفرحين. وربما لم يكن ريموند يقصد بمناورته تلك أن ينال لنفسه السيادة على أنطاكية، وإنما مجرد المجد والغنيمة التي تمسك على أول القادمين. ولكن حينما عاد بوهيموند إلى الجيش مساورة الريبة من تلك الحادثة التي أظهرت الانشقاق المتزايد فيما بين الأمراء.<sup>(١)</sup>

وكانت الرحلة من كوكسون هي أصعب المراحل التي كان على الصليبيين مواجهتها. فالوقت الآن وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وقد بدأت أمطار الخريف، وكان الطريق فوق جبال طوروس المقابلة في حالة بالغة من التدهور، ولعدة أميال لم يكن هناك سوى ممر صاعد موحل، به الكثير من المنعطفات الشديدة وتغطى به هاوية من جانبيه. وانزلقت الخيول الواحد تلو الآخر وسقطت من فائق، كما سقطت إلى الهاوية طوابير بأكملها من الحيوانات حاملة الأمتعة وهي مشدودة إلى بعضها البعض. ولم يمر أحد على الركوب، وكان الفرسان الراحلون يناضلون تحت لباسهم العسكري الثقيل، يتلهفون على بيعه لمن كان أخف منهم حملاً، أو يلقون به بالنس. وبدت الجبال ملعونة؛ فقد أهلكت أرواحاً أكثر مما أهلك الأتراك. وأخيراً عمت البهجة عندما برز الجيش في الوادي المحيط بمدينة مرعش.

ومرة أخرى وجدوا في مرعش مظاهر الود من الأرمن، فلبثوا هناك لأيام قليلة. وكان حاكم المدينة أميراً أرمنيّاً يدعى ثاتول وكان فيما سبق مسئولاً بيزنطياً فثبت في

(١) Gesta Francorum, IV, II, p. 62

منصبه. وهناك عاد إليهم بوهيموند بعد مطاردته العقيمة للأتراك، كما جاء بالدوين مسرعا من كيليكيا ليرى زوجته جودفير التي كانت تحتضر. وبعد موتها رحل مرة أخرى ولكن إلى الشرق. (١) وفي الخامس عشر من أكتوبر (تشرين الأول) تحرك الجيش الرئيسي بعد أن قوى وانتعش معادرا مرعش إلى سهل أنطاكية جنوبا. وفي العشرين من نفس الشهر وصل إلى الجسر الحديدي الذي يبعد عن المدينة بمسيرة ثلاث ساعات. (٢)

#### الصليبيون ومرشدوهم اليونانيون

ومضت أربعة أشهر منذ أن انطلق الصليبيون يريدون نيقية. وبالنسبة لجيش كبير تتبعه أعداد غفيرة من غير المقاتلين، ويرتقل في قيظ الصيف عبر بلاد حرداء في أغلبها، يتعرض دائما لهجوم عدو رهيب سريع الحركة، فإن ما حققه ذلك الجيش بعد إثغازا غير عادي. فقد ساعد الصليبيون إيمانهم ورغبتهم المشتعلة في الوصول إلى الأراضي المقدسة، كما حفزهم الأمل في اغتنام الغنائم، وربما إماراة. على أن بعض الفضل لا بد وأن يعزى أيضا للبيزنطيين الذين صاحبوا الحملة ومكنتهم خبرتهم في محاربة الأتراك من إبداء الرأي السديد، ولأنه من المستحيل المضي عبر آسيا الصغرى دون نصائحهم. وربما ارتكب المرشدون بعض الأخطاء كما حدث عند اختيار الطريق من كوكسون إلى مرعش، إلا أنه بعد عشرين عاما من إهمال الطرق وتعهد تدميرها بين الحين والآخر

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٥-٣١٦

(٢) برد وصف الرحلة من كوكسون إلى أنطاكية في *Gesta Francorum*, IV, II, p.64 الذي يركز على أحوال الطرق الجبلية، وكذلك 9-358, pp. 27-9, Albert of Aix, III, ويرد ذكر نصب تاتول كحاكم لمرعش في تاريخ Matthew of Edessa, II, cixvi, pp. 229-30.

كان من المستحيل معرفة الحالة التي كان عليها أيّ طريق. وكان الدور السّذي لعبه تاتيسوس دوراً صعباً، غير أنّ علاقته بالأمراء الغربيين ظلّت ودودة إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية. ورعاً كان الجنود الصليبيون البسطاء يرتابون في اليونانيين، ولكن، وفيما يتعلق باتجاه الحركة الصليبية ذاقوا، سار كل شيء سيرا سلسا. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور ألكسيوس يعزز الوضع المسيحي في مؤخرة الصليبيين، وهو المسؤول عن الحفاظ على المواصلات عبر آسيا الصغرى. ولقد أدى نجاح الفرنج إلى التصالح بين السلاحقة والدانشمند. ومن ثمّ، وبعد زوال صدمة الهزيمة الأولى، أمكن أن تبرز قسوة تركية شديدة البأس في وسط وشرق شبه الجزيرة، ولذا كانت سياسة الإمبراطور هي استرحاع غرب شبه الجزيرة حتى يتمكن بمساعدة قواته البحرية المتزايدة من أن يفتح طريقاً إلى الساحل الجنوبي يمكن أن يظل تحت سيطرته الدائمة. وبعد إعادة تحصين نيقية، والاستيلاء على القلاع التي تتحكم في الطريق إلى دوريليوم، أرسل زوج أخته القيصر جون دو كاس، يعززه أسطول صغير بقيادة أمير البحر كاسياكس، لاستعادة أيونيا وفريجيا. وكان الهدف الرئيسي هو مدينة سميرنا حيث كان ابن شاكا ما يزال يحكم إمارة ضمت أغلب الخط الساحلي الأيوبي. وجزر ليسوس وكايوس وساموس. بينما كان هناك أمراء تابعون لابن شاكا يحكمون إفيسوس ومدن أخرى بالقرب من الساحل. وكانت فريجيا تحت حكم أعيان سلاحقة، قُطع الاتصال بينهم وبين السلطان الآن. وأراد جون دو كاس أن يترك أثراً عميقاً لدى الأتراك، فأخذ معه السلطانة إنسة شاكا التي لم تكن الترتيبات قد تمت بعد لكي تلحق بزوحها. وكان الهجوم المشترك البري والبحري يفوق طاقة أمير سميرنا الذي سلم الولايات التابعة له على الفور في مقابل السماح له بالانسحاب في أمان إلى الشرق. ويبدو أنه أخذ معه أخته إلى بلاط السلطان حيث اختفى من التاريخ. ثم سقطت إفيسوس بعد سميرنا دون قتال يذكر، وبينما استولى كاسياكس وأسطوله على الساحل والجزر، تقدم جون دو كاس في السير مستولياً على المدن الرئيسية في ليديا وهي: سارديس وفيلادلفيا ولاوديسيا الواحدة تلو

الأخرى. وفي نهاية حريف ١٠٩٧ ميلادية كانت المقاطعة في حوزته، وأصبح على أهبة الاستعداد بعد انتهاء الشتاء للتقدم داخل فريثيا حتى الطريق الرئيسي الذي سلكه الصليبيون. وربما كان هدفه هو إعادة السيطرة البيزنطية على الطريق الموصل من بوليوتس وقيلوميليرم جنوباً إلى أنطاليا، ومن هناك شرقاً بطول الساحل الجنوبي حيث يمكن للقوة البحرية أن توفر الحماية، وحيث يسهل الاتصال بالأمراء الأرمن الذين استقروا الآن في حبال طوروس. وهكذا يصبح في الإمكان تأمين طريق لوصول الإمدادات إلى الصليبيين المخارين في سوريا، كما يصبح من اليسور استمرار الجهود المتحدة للعالم المسيحي.<sup>(١)</sup>





## الفصل الثاني :

## الفاصل الأرميني



## الفاصل الأرمني

"لا تَأْتَمَنُوا صَاحِبًا لَا تَتَّقُوا بَصَدِيقًا."

(سفر ميخا: إصحاح ٧ : ٥)

بدأت الهجرة الأرمنية إلى الجنوب الغربي بسبب الغزوات السلجوقية التي جعلت الحياة غير آمنة في وادي أراكسيس وحول بحيرة فان. وتواصلت على مدى السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر. وعندما وصل الصليبيون إلى شرق آسيا الصغرى، كانت هناك سلسلة من الإمارات الأرمنية الصغيرة الممتدة من وراء أواسط الفرات إلى قلب جبال طوروس. وكان فيلاريتوس الأرمني قد أسس دولة قصيرة الأجل سرعان ما تفتت قبل وفاته سنة ١٠٩٠ ميلادية، لكن ثوروس كان ما يزال يحتفظ بإمارة الرها حيث تمكن قبل ذلك بقليل من طرد الحامية التركية من الحصن، وكان زوج أمه

جابريل ما يزال يحتفظ بملطية<sup>(١)</sup>. وفي مرعش اعترفت السلطات البيزنطية بالمواطن المسيحي البارز ثاتول حاكمًا للمدينة، وقد أبقى الصليبيون له على المدينة<sup>(٢)</sup>. وأما في رعبان وقيسون، الواقعتين بين مرعش والفرات، أنشأ أرمني يدعى كوغ فازيل، وهو المعروف باسم فازيل اللص، إمارة صغيرة<sup>(٣)</sup> وكان ثوروس وجابريل ورمسا ثاتول أيضًا، ضباطًا لدى فيلاريتوس، بدعوا حياتهم العامة — شأنهم شأن فيلاريتوس نفسه — في الخدمة الإدارية البيزنطية. وكانوا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية وليسوا من أتباع الكنيسة الأرمنية المنفصلة، ليس هذا فحسب، وإنما ظلوا يستخدمون الألقاب التي خلعها عليهم الإمبراطور منذ زمن بعيد، وكلما سنحت لهم الفرصة أعادوا العلاقات مع بلاط القسطنطينية لتأكيد ولائهم، وقد خلع ألكسيوس في الواقع على ثوروس لقب الرفيع (كوروباليت). ونتيجة لهذه الصلة الإمبراطورية اكتسب حكمهم نوعًا من الشرعية، لكن الأساس الأقوى الذي كان حكمهم يرتكز عليه هو استعدادهم لقبول سيادة الزعماء الأتراك في الجوار. وسعى ثوروس بالوقعة بين هؤلاء الذين يمكن أن يصبحوا من ذوي الشأن في براعة تبعت على الدهشة، بينما أرسل جابريل زوجته إلى

(١) عن ثوروس، أنظر Laurent, Des Grecs aux Croises, pp. 405-10 وعن جابريل أنظر *ibid.* p. 410 وكذلك مادة Malatya by Honigmann in the *Encyclopaedia*

أنظر ما سبق الصفحتين ١٤٠ و ٢٨٥ .

(٢) أنظر ما سبق الصفحتين ٣٠٢ و ٣٠٤ .

(٣) عن كوغ فازيل، أنظر Chalandon, *Les Comnènes*, pp. 99 ff. ولأن رئيس أمراء الأرمن ينتمي إلى الكنيسة الأرمنية فقد وفر الملاذ لطريق الأرمن "كاتولييكوس" حريصوري فساعرام ( of Edessa, II, clxxxviii, p.258 ) وكان هناك بطريرك غريم، أو "كاتولييكوس ند"، وهو بازل الذي كان موجوداً الآن في آن ( *ibid.* II, cxxxiv, pp. 201-2 ) .

بغداد في بعثة للحصول على اعتراف من أعلى السلطات الإسلامية، بيد أن هؤلاء الأمراء جميعاً كانوا في موقف مزعزع؛ إذ كان اختلاف الدين يفصلهم جميعاً — باستثناء كوخ فازيل — عن أغلب أبناء جلدتهم، ويكرههم المسيحيون السوريون الذين يعيشون في أراضيهم بأعداد كبيرة. ولم يكن هؤلاء جميعاً محل ثقة لدى الأتراك الذين ساعدت فرقتهم وحدها على بقاء الأرمن.

وكان الأرمن المقيمون في منطقة جبال طوروس أقل تعرضاً للخطر؛ إذ كان من الصعب الوصول إلى الأراضي التي استوطنوا فيها، كما كان الدفاع عنها ميسوراً. وسيطر أوشين بن هيثوم على الجبال الواقعة غرب بوابات كيليكيا، واتخذ حصن لامبورن المنيع القائم أعلى الجبل والذي يطل على طرطوس وسهل كيليكيا مقراً لقيادته، ويمكن من الحفاظ على علاقة مقبولة مع القسطنطينية، ومنحه الإمبراطور لقب ستراتوبيدارك أوف كيليكيا. ويبدو أنه كان في خدمة ألكسيوس فيما مضى رغم أنه لم يكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، والأرجح أنه حصل، بموافقة الإمبراطور، على لامبورن من الحامية البيزنطية التي لا تقهر، وقام بغارات متكررة في سهل كيليكيا. وفي سنة ١٠٩٧ ميلادية انتهر انشغال الأتراك بتقدم الصليبيين واستولى على جزء من مدينة أدنا. (١) وكانت الجبال الواقعة إلى الشرق من بوابات كيليكيا تحت سيطرة قسطنطين ابن روبين الذي اتخذ مقر رئاسته قلعة بارتزبريت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس. ومنذ أن مات والده، مد سلطانه شرقاً باتجاه جبال طوروس المقابلة واستولى على قلعة فاكا العظيمة على نهر جوسكو من حاميتها البيزنطية المعزولة. وكان من الأتباع

---

(١) ترد سيرة حياة أوشين عند Laurent, "Les Arméniens de Cilicie", Matthew of Edessa, II, cli, p. 216. أنظر أيضاً Pazouni - لا يزال على قيد الحياة. وفي Radulph of Caen, XI, pp. 634-5. Ursinus .

الغُيورين للكنيسة الأرمنية المنفصلة، وسيراً على درب أبيه، وكوريت للأسرة المالكة الباحتية، لم ينس عداً أسرته لبيزنطة، وكان يأمل هو الآخر في أن يتهز ما وقع فيه الأتراك من حرج ليقم لنفسه سلطاناً في سهل كيليكيا حيث أغلب السكان من الأرمن بالفعل<sup>(١)</sup>.

#### بالدوين وتانكريد يغزوان كيليكيا

وكان بالدوين أوف بولونيا مهتماً في وقت مضى بالمسألة الأرمنية، وفي نيقية أقام صداقة وثيقة مع أرمني كان من قبل في خدمة الإمبراطور، وهو باحرات أخسى كوغ فازيل، الذي انضم إلى رجاله. وربما كان باحرات يأمل في الحصول على مساعدة بالدوين من أجل الإمارات الأرمنية القريبة من الفرات والتي له فيها صلات عائلية<sup>(٢)</sup>. غير أنه حينما أعلن تانكريد في هرقله عن نيته في ترك الجيش الرئيسي ليحرب حظه في كيليكيا، رأى بالدوين أنه ليس من الحكمة السماح لأي أمير غربي آخر بأن يكون أول من يبدأ مغامرة أرمنية لأنه أراد أن يجني ثمار كونه الصديق البارز لهذا الجنس من الناس. ومن المستبعد أن يكون هو وتانكريد قد توصلا إلى أي تفاهم، فكلاهما عضو صغير في عائلة من الأمراء وليس لأي منهما أي مستقبل في الوطن، كما أفصح كلاهما عن رغبته في تأسيس لوردية في الشرق. بينما عقد بالدوين العزم بالفعل على أن يقيم دولة أرمنية، كان تانكريد على استعداد لأن يقر في أي مكان يتيح له أكبر قدر من الراحة، وعارض اتخاذ الطريق الدائري إلى قيصرية لأن ذلك كان

(١) عن قسطنطين أنظر *Matthew of Edessa, loc. cit.; Sambat, Chronicle, p. 610*.

(٢) يذكر *Albert of Aix, III, 17, pp. 350-1* سيرة حياة باحرات المكرة وعلاقته بالدوين. ويرد ذكر علاقته بكوغ فازيل لدى *William of Tyre, VII, 5, vol. 1, pp. 383-4*.

اقتراحا بيزنطيا يعود بالفائدة على البيزنطيين. وأتاح له وجود سكان مسيحيين ودودين على مقربة منه فرصة يفتنمها. وفي حوالي الخامس عشر من سبتمبر (أيلول) غادر تانكريد معسكر الصليبيين في هرقله ومعه جماعة صغيرة من مئة فارس ومفتشين من المشاة، وتوجه مباشرة إلى يوابات كيليكيا. وانطلق بالدوين بعده على الفور ومعه ابن عمه بالدوين أوف لوبورج ورينالد أوف تول وبطرس أوف ستيناي وخمسمائة فارس وألفين من المشاة. ولم تنقل أي من الحملتين نفسها باصطحاب غير المقاتلين، وبقيت حوديفير زوجة بالدوين وأولادها مع الجيش الرئيسي. ويبدو أن تانكريد اتخذ الطريق المباشر إلى الممر وهو حتى اليوم نفس طريق السكك الحديدية عبر أولوكيشلا، ولكن بالدوين ومعه جيشه الثقيل فضل الطريق الرئيسي القديم الذي كان يمضي جنوبا إلى بوداندوس على رأس الممر من تيانا والواقع إلى الشرق قليلا. ولذلك كان خلف تانكريد بمسيرة ثلاثة أيام في الماضي خلال المضيق.

وعندما هبط تانكريد إلى السهل واصل سيره إلى مدينة طرطوس التي كانت ما تزال المدينة الرئيسية في كيليكيا. وفي نفس الوقت أرسل إلى الجيش الرئيسي طالبا التعزيزات. وكانت هناك حامية تركية تسيطر على طرطوس خرجت على الفور لطردهم الغزاة، لكنها ردت على أعقابها، واتصل سكان المدينة المسيحيون من الأرمن واليونانيين بستانكريد متوسلين إليه أن يحتلها ولكن الأتراك صمدوا ثلاثة أيام إلى أن ظهر في الأفق بالدوين وجيشه. فلما وجدوا أن عدوهم يفوقهم عددا انتظروا هبوط الليل وهربوا تحت جنح الظلام، وفي الصباح التالي فتح المسيحيون البوابات لتانكريد، ووصل بالدوين ليحد رايات تانكريد ترفرف على الأبراج. ولم يكن في صحة تانكريد أي مسئول بيزنطي. وبقينا لم تتوفر لديه النية في تسليم الإمبراطور أيبه أراض يغزوها، غير أنه اكتشف أن بالدوين منافس أكثر خطورة لا يعاب، مثله تماما، بالاتفاقية المعقودة في القسطنطينية. وطلب بالدوين أن يكون له السلطان على



طرطوس، وامتلأ تانكريد حنقًا، ولكنه وجد نفسه ضعيفًا أمام غريم يفوقه قوة، فاضطر إلى الموافقة وسحب جنوده وسار شرقًا باتجاه أدنا.

#### جوينيمر أوف بولونيا

ولم يكد بالدوين يستولي على طرطوس حتى وصل ثلاثمائة من النورماندين أمام المدينة مرسلين من الجيش الرئيسي كمدد لتانكريد، ورفض بالدوين السماح لهم بالدخول إلى المدينة برغم توسلهم. وبينما كانوا معسكرين خارج المدينة هاجمهم الحامية التركية السابقة أثناء الليل التي كانت تحبب المنطقة وقتلهم عن آخرهم. وصدمت الحادثة الصليبيين، وألقى اللوم على بالدوين لما لاقوه من مصير ولم يعفه حتى جنوده وأوشك موقفه أن يتضعض تمامًا لولا أن وصلت أنباء عن ظهور أسطول مسيحي غير متوقع في خليج ميرسن عند مصب نهر سيدنوس أسفل المدينة تمامًا بقيادة جوينيمر أوف بولونيا.

وكان جوينيمر قرصانًا محترفًا، ومن القطة بحيث أدرك أن الحرب الصليبية ستكون في حاجة إلى مساعدة بحرية، فجمع رفاقًا له من القراصنة الدانمركيين والفريزيين<sup>(١)</sup> والبلجيكيين، وأبحر من هولندا في وقت متأخر من الربيع، وحينما وصل إلى بحار الشرق أخذ يسعى في إجراء اتصال بالصليبيين. وكان يحمل عاطفة إخلاص لمدينته، ولذلك سره أن يجد جيشًا قريبًا منه يقوده أخو كونت مدينته، فأبحر أعلى النهر إلى طرطوس، وقدم احترامه لسبالدوين. وردًا على ذلك أخذ منه بالدوين ثلاثمائة من رجاله ليكونوا حامية المدينة، وربما جعل جوينيمر نائبًا عنه في المدينة بينما أعد العدة

---

(١) المترجم : سكان فريزلاند ، وهي مجموعة من الجزر بالقرب من ساحل بحر الشمال ، ومقسمة بين الدانمرك وألمانيا وهولندا .

لمواصلة السير إلى الشرق.

وفي تلك الأثناء وجد تانكريد مدينة أدنا في حالة من الاضطراب. إذ أن أووشين أوف لاميرن أغار عليها مؤخرًا وترك هناك قوة تنازع الأتراك عليها. بينما كان هناك فارس بورجندي يدعى ويلف، ربما بدأ الرحلة مع جيش بالدوين ثم انشق عليه ليرى ماذا يمكنه أن يجني لنفسه واشترك هو الآخر في الصراع على أدنا، واستطاع أن يشق طريقه إليها ويحتل القلعة. وعند وصول تانكريد انسحب الأتراك، ورحب ويلف بجنود تانكريد في القلعة وتعززت سيطرته على المدينة، وأغلب الظن أن أووشين لم يكن مهتمًا سوى بإخراج رجاله من مغامرة لا تخلو من خطورة، وشعر بالامتنان لتدخل تانكريد، لكنه استحثه على مواصلة المسير إلى ماميسترا (موبسويستا القديمة)، حيث يتلصّف السكان الأرمن كلهم إلى الخلاص من الأتراك. وكان توافقًا لرؤية الفريجة ينتقلون إلى جمال النفوذ الذي يطمح فيه غربه قسطنطين الروماني.

ووصل تانكريد إلى ماميسترا في وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وكما حدث في أدنا هرب الأتراك فور ظهوره ورحب به المسيحيون وأدخلوه المدينة. وأنشأ وجوده أتى بالدوين وجيشه، ويبدو أن بالدوين قرر بالفعل أن إمارته التي يريدتها لسن تكون في كيليكيا؛ ومن الجائز أن صرفه مناخ سبتمبر (أيلول) بما فيه من أنفثة وملاريا، وربما شعر أنها على مقربة من قوة الإمبراطور المتزايدة. واستحثه مستشاره بأحراث على المضي شرقًا حيث أن الأرمن يطلبون عونهم. ومهما يكن الأمر فقد قضى على الفرصة التي أتاحت لستانكريد لتأسيس دولة كيليكية قوية. واتخذ طريق العودة إلى الجيش الرئيسي ليتبادل المشورة مع أخيه وأصحابه قبل الشروع في حملة جديدة. على أن الريّة داخلته، ولذا لم يدع بالدوين يدخل ماميسترا، وأحسره على أن يضرب معسكره على الجانب البعيد من نهر جيحان. وكان على استعداد، مع ذلك، لأن يسمح بإرسال الأطعمة من المدينة إلى المعسكر. ولكن الكثيرين من النورمانديين، وعلى

رأسهم ريتشارد أوف برينسيبات زوج أخت تانكريد، لم يهتموا أن يفلت بالدوين دون عقاب على حرمته في طرطوس. فحرضوا تانكريد على الاشتراك معهم في هجوم مفاجئ على معسكره. وكانت خطوة تغلو من الحكمة؛ فجنوده بلغوا من العدد والقوة ما لا قبل لهم به وسرعان ما ردهم على أعقابهم في فوضى غير النهر. وأدى الصراع الذي لا طائل منه إلى ردة فعل، فأفسح بالدوين وتانكريد المجال للتصالح فيما بينهما. ولكن الضرر وقع. إن من دواعي الألم أن يصبح جليا أن الأمراء الصليبيين ليسوا على استعداد للتعاون من أجل خير العالم المسيحي حينما تلوح فرصة اغتنام ممتلكات خاصة، وسرعان ما تحقق المسيحيون — من أبناء البلاد — من أن تحرك مخلصهم الفرقة من منطلق مشاعر الإيثار إن هو إلا تحرك مصطنع، وتعلموا أن خير وسيلة للاستفادة من الفرقة هي الإيقاع بينهم.<sup>(١)</sup>

#### بالدوين وتانكريد يغادران كيليكيا

وبعد التصالح الذي حدث في مامسترا أسرع بالدوين إلى الجيش الرئيسي في مرعش عند مجيء الأنبياء بأن زوجته تحتضر. ويبدو أن أولاده كانوا مرضى كذلك، ولن يطول بقاؤهم على قيد الحياة، ولبت بالدوين أيامًا قليلة مع إخوته وغيرهم من قادة الجيش. وعندما شرعت القوة الرئيسية للجيش في الارتحال جنوبًا إلى أنطاكية

(١) ترد قصة الحملة على كيليكيا مفصلة عند Albert of Aix, III, 5-17, pp. 342-50 ، وكذلك Radulph of Caen, XXXIII, XLVII, pp. 629-41 وهناك رواية أقصر تتعامل مع تانكريد ترد في Gesta Francorum, IV, 10, pp. 55-60 ويقول Radulph (p. 634) إن أورسينوس (أوشين) احتفظ بأدنا بعد ذلك ، لكن Albert (p. 346) يقول إنها كانت من إملاك ولف Welf وبذكر Albert (pp. 348-9) وصول Guynemer .

تركه وذهب إلى الشرق ليحرب حظه في وادي الفرات والأراضي الواقعة ورائه. وارتحلت معه جماعة أصغر بكثير من تلك التي صحبته في حملة كيليكيا. ربما لأنه لم يسترد شعبته كقائد بسبب أحداث طرطوس، وربما لأن إخوته لم يتمكنوا من التخلي عن الجنود لتلهمهم على احتلال أنطاكية، فصحبه مائة فارس فقط. على أن مستشاره الأرمني باجرات كان ما يزال معه، وقد أضاف إلى أتباعه قسيسا جديدا هو المـسـوـرـخ فولشر أوف تشارترز.<sup>(١)</sup>

ولم يمكث تانكريد طويلا في مامسترا بعد رحيل بالدوين. وبعد أن ترك فيها حامية صغيرة تحول جنوبا حول رأس خليج إيسوس إلى الإسكندرونة. وأرسل أنشاء الرحلة مبعوثين إلى جوينيمر طالبا تعاونه، وأغلب الظن أن مقر رئاسة جوينيمر كان ما يزال في طرطوس. واستجاب جوينيمر في سعادة وجاء مع أسطول له ليلاحق تانكريد أمام الإسكندرونة. وأسفر الهجوم المشترك عن استيلاء تانكريد على المدينة. فترك فيها حامية ثم مضى فوق سلسلة جبال الأمانوس عبر البوابات السورية ليلحق بالبحر الأبيض المتوسط أمام أنطاكية.<sup>(٢)</sup>

ولم يكن لغامرة كيليكيا سوى القليل من النفع لسبالدوين أو تانكريد. إذ وجد كل منهما أن الأمر لا يستحق تأسيس دولة هناك، فلن تتمكن الحاميات الفرعية الصغيرة في المدن الثلاث : حامية جوينيمر في طرطوس ، أو حامية ويلف في أدنا ، أو

(١) طبقا لما ذكره Matthew of Edessa, II, cliv, p. 219 كان مع بالدوين ١٠٠٠ حبال عندما

استولى على تل بخر و٦٠٠ عندما واصل مسيرته إلى الرها . ويقول فولشر أوف تشارترز الذي كان

برفته (1, xiv, 2, p. 206, 15, p. 215) إنه كان معه القليل من الجنود "milites paucos" عندما

انطلق (1, xiv, 4, p. 208) ولما كان عندما عبر نهر الفرات (1, xiv, 7, p. 210).

(٢) William of Tyre, III, 25, 1, p. 149 يقول إن البحارة بقوا مع تانكريد .

حامية تانكريد في ماميسترا، من أن تتحمل هجوما جادا. ومع ذلك، كان لثبوتر الحاميات التركية بعض النفع للحرب الصليبية عموما، فذلك يحول دون استخدام كيليكيا كقاعدة يستطيع الأتراك أن يشنوا منها هجوما جانبيا على الفرنجة أثناء عملياتهم الحربية في أنطاكية، بينما أتاح الاستيلاء على الإسكندرونة ميناء نافعا للفرجة تستطيع الإمدادات أن تمر من خلاله. على أن المنتفعين الرئيسيين من هذا الأمر هم الأمراء الأرمن في التلال. إذ أن إغيار القوة التركية في السهل مكنتهم من التوغل في القرى والمدن شيئا فشيئا، ومن ترسيخ دعائم مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا.

وكان الجيش الرئيسي على وشك الانطلاق من مرعش جنوبا إلى أنطاكية عندما تركه بالدوين الذي اتخذ في بداية الأمر طريقا موازيا على بعد أميال قليلة إلى الشرق حتى يمكن حماية المسيرة. وربما حصل بالدوين على الإذن بالانفصال عن الجيش الرئيسي للقيام بتلك المهمة. وفي واقع الأمر كان بإمكانه تبرير حملته كلها على أنها توفر الحماية للحرب الصليبية؛ فأسهل طريق لوصول الإمدادات من خراسان إلى الأتراك في أنطاكية يخترق المناطق التي بنوي غزوها، فضلا عن ذلك فهي مناطق غنية يمكن أن تزود الحرب الصليبية بما تتطلبه من إمدادات الطعام.

#### بالدوين يتقدم إلى الفرات

وفي عتابة تحول بالدوين إلى الشرق. ومن المشكوك فيه ما إذا كانت لديه أية خطة عمل مدروسة بخلاف تصميمه عموما على تأسيس إمارة في الفرات تكون ذات نفع له وللحركة الصليبية كلها. وكانت الظروف مواتية؛ فلن يكون لزاما عليه أن يتزعج البلاد من الكفرة، فهي بالفعل في حوزة الأصدقاء الأرمن، وهو على اتصال بأمرائها منهم. فمن خلال باجرات لايد وأن يكون قد أقام علاقات مع أخيه كيوغ فازيل الذي كانت لورديته تقع إلى الشرق من مرعش. وربما كان جابريل في ملطية

متلها على مساعدة الفرقة وأمامه الخطر الدائم من الأتراك الدانشمند، بينما من المؤكد أن ثوروس في الرها على اتصال بالصليبيين. وقيل إن قرار بالدوين بالرحيل عن كيليكيا كان بسبب رسالة تلقاها هو أو باجرات من ثوروس يدعو فيه إلى الرها بصفة عاجلة، وكان الأرمن منذ زمن طويل يأملون في أن يغتصبهم الغرب. فقبل ذلك بعشرين عاما، حينما عرف أن البابا جريجوري السابع يفكر في إرسال حملة لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي، سافر أحد الأساقفة الأرمن إلى روما ليحظى باهتمامه.<sup>(١)</sup> وكان الحلفاء الغربيون يحفظون بمناذبة عند الأرمن — بمن فيهم الأمراء الذين يعملون ألقابا بيزنطية — تفوق أي شيء يزيد من اعتمادهم على الإمبراطورية البيزنطية المقيمة. ووجود جيش من الفرقة يحرز انتصارات للعالم المسيحي على حدودهم ذاتها أتاح لهم فرصة كانوا يتهللون من أحلها كي يحققوا استقلالهم النهائي عن السيطرة التركية والبيزنطية على السواء؛ فرحبوا بسبالدوين ورجاله بشدة على أنهم محرروهم.

ونحن على علم في الوقت الحاضر ألا نثق في لفظة التحرير التي توحى بالأمل، وهذا درس تعلمه الأرمن من قبلنا. وعندما تحرك بالدوين نحو الفرات هب السكان الأرمن لتحيته، وفرت بعض الحاميات التركية التي كانت في المنطقة وقضى المسيحيون على بعضها الآخر. وحاول الأمير التركي الوحيد ذو الأهمية في المنطقة، بلندق أمير سمساط، الذي يسيطر على الطريق المؤدية من الرها إلى ملطية أن يتدبر أمر المقاومة ولكنه لم يستطع اتخاذ أي إجراء هجومي. وانضم إلى بالدوين اثنان من النبلاء الأرمن المحليين مع قواتهما الصغيرة، وكان اللاتينيون يطلقون عليهما فير ونيكوسوس. وفي وقت مبكر من شتاء ١٠٩٧ ميلادية استكمل بالدوين غزوه للأراضي الممتدة حتى الفرات، واستولى على القلعتين الرئيسيتين رفندل وتيريسيل، وهذان الاسمان

(١) Letter of Gregory in Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, VIII, I, *Bibliotheca*  
*Rerumicarum*, vol. II, pp. 423-4

حورهما اللاتينيون عن الأسماء العربية رواندان وتل بشير، وعين مستشاره الأرميني باحرات حاكمًا على رواندان التي كانت تتحكم في طريق مواصلاته مع أنطاكية، بينما عين الأرميني فير حاكمًا على تل بشير. وهي قلعة هامة لأنها تقع بالقرب من المخاضة ذات الأهمية التاريخية التي تعبر نهر الفرات عند كارشيميش.<sup>(١)</sup>

وعندما كان بالدوين في تل بشير في أول السنة الجديدة، وصلته سفارة من الرها؛ إذ نفذ صبر ثوروس لتأخر وصول الفرنجة الذين يراهم متباطئين على الضفة الغربية لنهر الفرات، وكان موقفه مزعزعًا، واشتد شعوره بالخطر حينما علم أن كربوقا، أمير الموصل التركي المربع، يمشد جيشًا هائلًا لنجدة أنطاكية وبإمكانه أن يكتسح في طريقه دون مشقة الرها وغيرها من الدويلات الأرمينية. بيد أن بالدوين لم يكن ليذهب إلى الرها إلا بشروط تناسبه، وكان ثوروس يتوقع أن يستغل بالدوين كمرتزق يكافئه بالمال والعطايا، ولكن أصبح حليًا الآن أن بالدوين يريد أكثر من ذلك. فحوّلت سفارة الرها في تل بشير بأن تعرض المزيد الذي يتمثل في أن ثوروس سوف يتخذ بالدوين ابنًا ووريثًا، وفي أنه سوف يشركه من فوره في حكم أراضيه. ولما كان ثوروس لم يعقب ولدًا وأخذ يطلعن في السن بدا له ذلك على أنه الحل الوحيد. ولو وسعه الاختيار لما اختار، بيد أنه كان يفتقد الشعبية في وطنه، ويتهدهده جيرانه.<sup>(٢)</sup> وبخلاف غالبية الأرمن قصيري النظر استشعرت القلة الباقية منهم القلق من جراء ذلك؛ فليس من أجل ذلك سعى باحرات إلى تطويع بالدوين في الشؤون الأرمينية، فكان باحرات نفسه أول من أظهر عدم موافقته على ذلك. وعندما كان الفرنجة في تل بشير قال فير — الذي كان بلا شك يرغب في أن يخلف باحرات في استحواذه على ثقة

(١) Albert of Aix, III, 17-18, pp. 35-1

(٢) Albert of Aix, III, 19, p. 352; Fulcher of Chartres, I, xiv, 5-6, pp. 209-10; Matthew of Edessa, II, cliv, pp. 218-21 Laurent, *op. cit.* pp. 418-23

بالدوين — إن باحرات يحبك الدساتس مع الأتراك، والأرجح أن دساتسه تلك لم تكن سوى مشاوراته المتبادلة مع أخيه كوغ فازيل حول ذلك التهديد الجديد للحريّة الأرمنية. وربما كان يأمل كذلك في أن يجعل نفسه أميرا على روائندان. ولم يتردد بالدوين فدفع بالجنود إلى روائندان وألقوا القبض على باحرات وأحضروه للمثول أمامه، وعذبوه ليعترف بما اقترفه. ولم يكن لديه ما يعترف به، وسرعان ما هرب متحذا من الجبال ملاذا تحت حماية أخيه كوغ فازيل إلى أن اضطر هو الآخر أن يلحق به في البرية.<sup>(١)</sup>

#### الحملة على سميساط

وفي بداية فبراير (شباط) سنة ١٠٩٨ ميلادية غادر بالدوين تل بشير إلى الرها، ولم يكن معه سوى ثمانين فارسا. وأعد له أتراك سميساط كميناً في المكان الذي كانوا يتوقعون أن يعبر فيه نهر الفرات، والأغلب أنه في برحيك، غير أنه خدعهم وانحرف إلى محاذة أخرى أبعد إلى الشمال. ووصل إلى الرها في السادس من فبراير (شباط) حيث استقبله ثوروس والسكان المسيحيون كلهم ببائغ الحماس، وتبناه ثوروس رسمياً من فوره. وكان الاحتفال تبعاً للطقوس الأرمنية المعتادة — في ذلك الوقت — يلائم تبني الطفل الصغير وليس الرجل اليافع، فقد حرد بالدوين من ملابسه إلى الوسط، بينما ارتدى ثوروس قميصاً فضفاضاً يتسع لشخصين، ثم قام بتمرير القميص من فوق رأس بالدوين بحيث يمكن للأب والابن الجديدين أن يحكما صدريهما العاريين المتقابلين. ثم أعاد بالدوين هذا المشهد مع الأميرة زوجة ثوروس.<sup>(٢)</sup>

(١) Albert of Aix, III, 18, p. 351

(٢) Albert of Aix, III, 19-21, pp. 352-4; Fulcher of Chartres, I, xiv, 7-12, pp. 210-13

كما أن Guibert, xiv, p. 165 يصف احتفال التبن.



وبعد تنصيب بالدوين وريثا وشريكا في الوصاية على الملك في الرها، رأى أن أول ما ينبغي عمله هو تدهير الإمارة التركية في سميساط، إذ ألما تستطيع بغاية اليسر أن تعترض اتصاله مع الغرب. وشجع أبناء الرها في غبطة خطته لتحرير حملة، لاسيما وأن الأمير بلدق كان أقرب أعدائهم وأكثرهم عنادا، وكان دائم الإغارة على قطعان دوابهم وحقوقهم وأحيانا يجبي الجزية من المدينة ذالما. وخرجت ميليشيات الرها تصاحب بالدوين وفرسانه إلى سميساط، ولم تنجح الحملة التي تمت فيما بين الرابع عشر والعشرين من فبراير (شباط)؛ إذ كان أهل الرها ضعفاء من الناحية العسكرية. وفاجأهم الأتراك وقتلوا منهم ألفا مما اضطر الجيش إلى الانسحاب. غير أن بالدوين استولى على قرية سان جون الواقعة بالقرب من عاصمة الأمير، وحصنها وأبقى فيها الجزء الأكبر من فرسانه لمراقبة تحركات الأتراك؛ ونتيجة لذلك تناقص عدد الغارات التركية مما حدا بالأرمن إلى إرجاع الفضل في ذلك إلى بالدوين.<sup>(١)</sup>

#### بالدوين وثوروس

وبعد عودة بالدوين إلى الرها بوقت قصير سرعان ما تولدت في المدينة مؤامرة ضد ثوروس بتشجيع من قسطنطين أوف جارجار. ولا تعرف إلى أي مدى كان بالدوين متورطا في تلك المؤامرة؛ إذ أنكرها أصدقاؤه، ولكن طبقا لشهادة الكاتب الأرمني ماثيو فإن المتآمرين أخرجوا بالدوين بنيتهم في خلع ثوروس عن العرش لصالحه. ولم يكن أهل الرها يكتفون حيا لثوروس، أو امتنانا لكل ما بذله من أجل المحافظة على استقلال مدينتهم، وقد كرهوه لتبعيته للكنيسة الأرثوذكسية ولكونه مسيولا ذا

(١) Albert of Aix, III, 21, pp. 353-4 ويقول Matthew of Edessa, II, cliv, pp. 218-21 إن

الحملة كانت كارثة.

لقب في الإمبراطورية . وكان عاجزاً عن حماية محاصيلهم وبضائعهم من المغيرين، وكان يتزع منهم ضرائب باهظة، غير أنه لم يكن يوسعهم الاستغناء عنه إلى أن ظهر بالدوين الذي رأوا فيه حامياً أكثر اقتداراً. ولذلك لم يكن الفرنجة في حاجة إلى التحريض على مؤامرة، على أنه من الصعب الاعتقاد بأن المتآمرين لم يكونوا ليذهبوا إلى هذا الحد دون أن يحصلوا على موافقة الفرنجة. وفي يوم الأحد السابع من مارس (آذار) ضرب المتآمرون ضربتهم، فحركوا الدماء لمهاجمة منازل المسؤولين التسابعين لثوروس، ثم ساروا إلى قصر الأمير في القلعة. ونظر ثوروس فوجد أن جنوده قد هجروه، ولم يفتأ ابنه الذي تبناه لنجدته وإنما قدم له نصيحة بالاستسلام، فوافق ولم يطلب سوى السماح له ولزوجته بالذهاب إلى أبيها في ملطية. وبرغم أن بالدوين ضمن حياته في الظاهر فإنه لم يسمح له بالرحيل، وهكذا وجد نفسه سجيناً في قصره، فحاول الفرار من النافذة يوم الثلاثاء، ولكن الجماهير أمسكت به وقطعته إرباً. ولا يعرف مصر الأميرة أم بالدوين بالتين، وفي يوم الأربعاء العاشر من مارس (آذار) وجه أهل الرها الدعوة إلى بالدوين ليتولى الحكومة.

ولقد حقق بالدوين ما كان يطمح فيه من الحصول على إمارة. وليست الرها في واقع الأمر في الأراضي المقدسة، ولكن وجود دولة فرنجية في وسط الفرات قد يكون عاملاً ذا قيمة من عوامل الدفاع عن أية دولة تقام في فلسطين. واستطاع بالدوين أن يبرر مسلكه في إطار مقتضيات السياسة العامة للحملة الصليبية، ولكنه لا يستطيع أن يبرر مسلكه تبريراً شرعياً أمام العالم المسيحي كله. إذ أن الرها كانت تابعة للإمبراطور قبل الغزوات التركية وينسحب عليها قسم الولاء الذي أقسمه في القسطنطينية. وفضلاً عن ذلك، فإنه قد حصل عليها بعزل حاكمها والإغضاء عن قتله، وقد كان من الناحية الرسمية على الأقل خادماً للإمبراطورية معترفاً به من قبلها. غير أن بالدوين أظهر بالفعل في كيليكية أن القسم الذي أقسمه لا يعني شيئاً بالنسبة له، بينما في الرها كان ثوروس نفسه على استعداد لأن يتخلى عن حقوقه دون الرجوع إلى سيده البعيد. ومع ذلك،

فإن الأمر لم يفت على ألكسيوس الذي احتفظ بمقوقه إلى أن يصبح في وضع يمكنه من فرضها بالقوة.

وعندما أصبح من الواضح أن سيطرة الفرثية تسببت في الدمار الشامل للأرمن المقيمين في الفرات، أدان المؤرخون الأرمن المتأخرون بالدوين إدانة قاسية، ولكنهم لم يتوخوا العدالة؛ لاقتصارهم على هذا السبب دون غيره. فليس ثمة مبرر أخلاقي لصنيع بالدوين بثوروس على نحو ما يظهره المؤرخون اللاتينيون الذين يستشعرون الحرج. وتصرف ثوروس بطريقة مماثلة مع الفيلاق التركي عندما دعاه قبل ثلاث أو أربع سنوات ثم تسبب في قتله، ولكن تصرفه ذاك كان لإنقاذ مدينته وشعبه من طغيان الكفرة. ولم يكن لفيلاق أباه بالنبي، ومن الحق أن النبي في الأعراف الأرمنية يقلل خطورة عنه في القانون الغربي، وليس ذلك بالمبرر الذي يخفف مما اقترفه بالدوين من إثم أخلاقي. على أنه لا ينبغي للأرمن أن يلقوا عليه باللائمة؛ ذلك أن مقتل ثوروس تم في واقع الأمر بأيدي الأرمن أنفسهم الذين دعوا بالدوين ليحل محله بموافقة توشك أن تكون إجماعية من الجنس الأرمني كله. وأما الأمراء الأرمن الذين لم يثقوا في جدوى المساعدة الصليبية، والذين أبعدهم الصليبيون، فكانوا في خدمة الإمبراطور في الأيـام الخوالي، وكانوا مكروهين من أبناء جلدتهم بسبب ولائهم للإمبراطور، بل وأكثر من ذلك لأنهم من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية. ولم يكن هناك من يتوفر لديه القدر الكافي من حيرة الحكم للحفاظ على بقاء الاستقلال الأرمني في الفرات سوى المسؤولين البيزنطيين السابقين من أمثال ثوروس وجابريل. ولكن رعاياهم الجاحدين، بما يحملونه من كراهية لبيزنطة، وباستعدادهم لأن ينفقوا لللاتيني ما لا يستطيعون

اغتنافه لليوناني من أخطاء هرطقية تسمه بالإدانة الأبدية، لا يلومون إلا أنفسهم عندما يغويهم أصدقاؤهم الفرثية ويجبروهم إلى الكارثة.(١)

وتوردت الحياة في عيني بالدوين الذي اتخذ لنفسه لقب كونت الرها. وبات واضحاً أنه ينوي أن يحكم بمفرده. ولكن جنوده من الفرثية كانوا قليلي العدد ولا بد له من الاعتماد على الأرمن ليعملوا في خدمته. ووجد البعض ممن يضع فيهم ثقته. وأصبح الأمر أيسر بعد اكتشاف مخزن مليء بالكنوز في القلعة يرجع تاريخ الكثير منها إلى أيام البيزنطيين، وكان توروس قد زاد من ضخامتها بما فرضه من ضرائب. ومكنت هذه الثروة الجديدة بالدوين من شراء المؤيدين، ليس هذا وحسب، وإنما مكنته كذلك من تحقيق ضربة دبلوماسية كبيرة؛ إذ أن الأمير بلدق، أمير سميساط، تمكنه الخوف من أبناء تولي بالدوين الحكم. وعندما رأى الترتيبات تجري على قدم وساق لشن هجوم جديد على عاصمته أسرع بإرسال مبعوثيه إلى الرها عارضا بيع إمارته بمبلغ عشرة آلاف بيزنطة(٢)، فقبل بالدوين ودخل سميساط دخول الفاتحين. ووجد في قلعتها الكثير من الرهائن الذين أخذهم بلدق من الرها، فأعادهم إلى عائلاتهم من فوره. وكان لهذا التصرف، فضلا عن القضاء على التهديد التركي لسميساط، أن أضاف إلى شعبيته إضافة هائلة. ووجه الدعوة إلى بلدق وحرسه الخاص للإقامة في الرها كمرتزقة للكونت.(٣)

(١) يركد. Matthew of Edessa, *loc. cit.* حياة بالدوين ١، 13-xiv, 1 Fulcher of Chartres,

14, pp. 213-15 الذي تنصف روايته بأنها قصيرة وبالأحرى عرجية ١، 22-III, 22 Albert of Aix,

3, pp. 354-5 أنظر 3-428, pp. Laurent, *op. cit.* وهو يسري على نحو مقنع أن ماثيو

كان حاضرا في الرها في ذلك الوقت .

(٢) (المترجم) : بيزنطة : Bezant : عملة ذهبية أو فضية واسمها مشتق من بيزنطة .

(٣) Albert of Aix, III, pp. 355-6

### زواج بالدوين

وذاعت أنباء نجاح بالدوين في الآفاق. وتحول بعض فرسان الغرب عن طريقهم لتعزيز الجيش الصليبي في أنطاكية ليشاركوا بالدوين مقنمه. بينما ترك فرسان آخرون حصار أنطاكية الكتيب ليلحقوا به، وكان من بينهم دروجو أوف نيسل ورينالد أوف تول وجاستون أوف بيارن تابع ريموند، وكافأهم بالدوين هدايا لائقة من خزانته. ولكي يساعداهم على الاستقرار شجعهم على الزواج من الأرمنيات الوارثات ذوات الثروات وضرب هو بنفسه المثل، فهو الآن أرمل لا ولد له. وكانت زوجته الجديدة هي ابنة أحد الأعيان الذي يعرفه المؤرخون اللاتينيون باسم تافنوز أو تافروك، وكان أميراً ثرياً يمتلك الأراضي في الجوار. ومن الواضح أنه كانت له علاقة بسقسططين أوف حارجار، كما كانت له علاقات بالقسطنطينية التي لجأ إليها في نهاية الأمر، وربما كان هو نفسه ثاتول حاكم مرعش. ولا شك في أن التحالف معه سيكون ذا قيمة كبيرة لبالدوين، الذي منح ابنته مهراً قدره ستين ألف بيزنطة ووعداً مبهماً بأنها ستراث أراضيها، غير أن الزواج لم يسعدها، كما لم يشر ذرية<sup>(١)</sup>.

(١) ليس في الإمكان تحديد شخصية حي بالدوين في الواقع؛ فيطلق عليه Albert of Aix, III, 31, p.361 تافنوز Taphnuz ويقول إنه كان أساقفة قسطنطين. ويطلق عليه William of Tyre, x, I, 1, p. 402 تافروك Tafroc ويغرض 2. Dulaurier, p.431n في نشرته لماثيو الأوربي، أنه لابد وأن يكون أساقفة قسطنطين الروماني الذي يدعى ثوروس Thoros؛ لكنه يعترف بأن قسطنطين لم يكن يعرف له أخ بذلك الاسم. ويقتل 7 Hagenmeyer, p.421n في نشرته لفولشر أوف تشارترز، هذا الوضع. على أنه من الواضح أن قسطنطين الذي كان يعنيه ألبرت هو قسطنطين الجارحاري (Constantine Gargar) ويرجي مقال Honigmann للمعروف "مرعش Marash" في دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam إن تافنوز Taphnuz هو في الواقع ثاتول Thatoul ويعيد ذلك أننا نعرف أن ثاتول تقاعد في القسطنطينية سنة ١١٠٤م (Mathew of Edessa, III, clxxxvi, p.257).

وهكذا وضع بالدوين المبادئ الأساسية التي أرساها فيما بعد لملكة القدس. وتقضي هذه المبادئ بأن يظل زمام الحكومة في يد الأمير الفرنجي وأتباعه من الفرنج، على أن يدعى الشرقيون من المسيحيين والمسلمين لكي يقوموا بدورهم في دولة تنصهر فيهما أحناس شتى انصهاراً شاملاً بحيث ممتزج في النهاية في كيان واحد متكامل. كانت تلك سياسة رجل دولة ذي بصيرة ثاقبة. على أنه بالنسبة للفرسان القادمين حديثاً من الذين تعهدوا بأن يهبوا أنفسهم للصليب ويبحثوا شأفة الكفرة؛ فقد رأوا أن هذا الأمر يوشك أن يكون خيانة للعهد عند الصليبي. على أن البابا إيربان لم يكن ليستنهض المؤمنين في كليرمونت كي يقيم ملكاً لسبالدوين وأمثاله في ممالك شبه شرقية.

وفي بادئ الأمر، لم تكن تلك بالسياسة التي يسهل اتباعها. إذ نظر المسلمون إلى بالدوين على أنه مغامر عابر قد يُستفاد به. وكانت مدينة سروج المسلمة تقع جنوب غرب الرها باتجاه الفرات، وكانت مدينة تابعة للأمير الأرمني بلق ابن بهرام ولكنها تمردت عليه مؤخراً، فكذب بلق إلى بالدوين طائفاً استتجار خدماته لإحضارها. ووافق بالدوين على إنجاز تلك المهمة وقد ابتهج لتلك الفرصة التي أتاحت له على هذا النحو. وأرسل مواطنو سروج إلى بلدق سرّاً لكي يأتي لانقاذهم، فخرج بلدق من الرها متسللاً واستقبله أبناء سروج. ولكن بالدوين تبعه مصطحباً معه عدداً من آلات الحصار، فأصيب بلدق ورجال سروج بالهلع؛ وعرضوا على الفور تسليم مدينتهم إليه

---

-- وأن زوجة بالدوين طليت الإذن بالانضمام إلى والدها في القسطنطينية فور أن نبذها سنة ١١٠٤م

(William of Tyre, XI, I, 1, pp. 451-2) وليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن كان لها اسم

أردا الذي يطلق عليها أحياناً. انظر Hagenmyer's edition of Fulcher, *loc. cit.*

وبذكر Albert of Aix, v, 15, pp. 441-2 أسماء الفرسان الذين انضموا إلى بالدوين.

ودفع إناوة. وخرج بلدق لمقابلته معلنا أنه إنما أسرع أمامه ليستولي له على المدينة. ولم ينخدع بالدوين، وإنما قبل اعتذار بلدق وأظهر له الود، ولكنه طلب بعد أيام قلائل تسليم زوجته وأولاده كرهائن، وعندما اعترض بلدق اعتقاله وأطاح برأسه. وفي تلك الأثناء وضعت حامية فرنجية في سروج بقيادة فولك أوف تشارترز، وهو شخص آخر غير فولشر المؤرخ. وقد تعلم بالدوين من تلك الحادثة أنه لا يسعه أن يتق في المسلمين، وعمل منذ ذلك الحين على ألا يسكن القادة منهم في أراضيه وسمح لهم بحرية العبادة. ولا يسعه أن يفعل غير ذلك في حالة استيلائه على مدينة مثل سروج يتألف سكانها كلهم تقريبا من العرب والمسلمين، على أن تسامحه هذا صدم الرأي العام الغربي.<sup>(١)</sup>

وتعززت كوتية بالدوين بعد الاستيلاء على سروج، ثم الاستيلاء بعد ذلك بأشهر قليلة على برحيك بمحاضتها على نهر الفرات، ثم بتطهير الطرق بين الرها وقلعسي تسل بشير ورواندان، مما أدى إلى تأمين خطوط مواصلاته مع الحملة الصليبية الرئيسية. وفي ذات الوقت تعلم المسلمون أن كونت الرها قوة لا يستهان بها وركزوا على تدميره. وتبينت قيمة تصميمهم، وما يمكن أن يكون لسيطرة الفرنجية على الرها من أثر في الحروب الصليبية، عندما توقف كربوقا في مايو (أيار) — وهو في طريقه إلى إنقاذ أنطاكية — ليقضي على بالدوين. ذلك أنه قضى ثلاثة أسابيع يقاتل دون جدوى أمام أسوار الرها ثم تغلى عن هجومه عليها. فزاد فشله من هبة بالدوين؛ وأدى ضياع الوقت في حصاره للرها إلى إنقاذ الحملة الصليبية.<sup>(٢)</sup>

#### المؤامرة ضد بالدوين

واستاءوا من تدفق الفرسان الفرنجية على أراضهم وما كان يتفضل به بالدوين

(١) Albert of Aix, III, 25, pp. 356-7.

(٢) *Idem*, IV, 10-12, pp. 396-7; Fulcher of Chartres, I, xix, pp. 242-3; Matthew of Edessa, II, clv, p. 221.

عليهم. ولم يكن الفرسان الفرنجة يتلطفون مع الأرمن وإنما كانوا يعاملونهم بسالازدراء  
حيثاً وبالغضب أحياناً. ووجد وجهاء الرها أنفسهم مبعدين من مجلس الكونت الذي  
كان يضم الفرنجة فقط، ووجدوا أنّ الضرائب لا تقل عما كانوا يدفعونه أيام ثوروس،  
وقضلاً عن ذلك كانت الضياع الأرمنية داخل البلاد تُمنح للقادمين الجدد، والمزارعون  
يجرون على العمل فيها كما تقضي الأعراف الإقطاعية الغربية المشددة. وفي وقت  
متأخر من سنة ١٠٩٨ ميلادية كشف أحد الأرمن لسبالدوين عن مؤامرة تستهدف  
حياته، وقيل إن اثني عشر مواطناً من مواطني المدينة البارزين كانوا على اتصال بأمراء  
الأتراك في منطقة ديار بكر. وكان تافنوز صهر بالدوين في الرها آنذاك ولم يكن قد  
مضى على زفاف ابنته سوى فترة وجيزة، وتردد أنّ المتآمرين كانوا يريدون تنصيبه في  
مكان بالدوين أو على الأقل إجبار بالدوين على إشراكه في الحكم. وما أن سمع  
بالدوين بتلك المؤامرة حتى ضرب ضربته في الحال؛ فتم القبض على زعمي المتآمرين  
وقُفقت أعينهما، وأما شركاؤهما الرئيسيون فقطعت أنوفهم أو أقدامهم، وألقي بعدد  
كبير من الأرمن الذين حامت حولهم الشكوك في غياهب السجون وصودرت  
أموالهم، لكنهم حرّماً على ما طبع عليه الشرقيون من المتصفين بالحكمة كانوا قد  
أخفوا أموالهم بعناية تسبب الحيرة للفتني بالدوين. لذا كان بالدوين كريماً معهم  
فسمح لهم بشراء حريتهم بمبالغ تتراوح بين عشرين ألف إلى ستين ألف بيزنطة للفرد.  
وعلى الرغم من عدم إثبات اشتراك تافنوز في المؤامرة فقد رأى أنه من الحكمة أن  
يسرع عائداً إلى الجبال بعيداً عن زوج ابنته المرعب، وأخذ معه الجزء الأعظم من مهر  
الكونتيسة الذي لم يسبق أن دفع منه سوى سبعمائة بيزنطة.<sup>(١)</sup>

وهكذا سحق بالدوين المؤامرة بشراسة فوضع حداً لمخاطر رعيته الأرمن، واستمر مع  
ذلك في الاستعانة بأقليل منهم في المناصب العليا مثل أبي الغريب الذي جعله

(١) Albert of Aix, v, 16-18, pp. 442-3



حاكمًا على برحيك. على أنه بانضمام المزيد من الفرنجة الذين جذبهم شهرته إليه كان يوسعه تجاهل الشرقيين، وها هي شهرته الآن، بعد أقل من سنة من مجيئه إلى الرها، قد غدت هائلة بالفعل. وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي الرئيسي يشق طريقه الصعب نحو القدس، كان بالدوين قد أرسى دعائم دولة غنية قوية في عمق آسيا مما جعل العالم الشرقي كله ينظر إليه برهبة واحترام. وذلك بعد أن كان أصغر الأبناء، عندما خرج مع الحملة الصليبية، وهو مفلس يعتمد على تصدق اخوته ولا يكاد يذكر بجانب كبار النبلاء من أمثال ريموند أوف تولوز أو هيو أوف فيرمندوا أو المغامرين المتحسين من أمثال بوهيموند، وها هو الآن عاهل يفوق أيهم عظمة، وفيه تستطلع الحرب الصليبية أن تجد أقدر ساستها وأكثرهم دهاء.

### الفصل الثالث :

## أمام أسوار أنطاكية



## أمام أسوار أنطاكية

"وَأَمَّا الشَّجَرُ الَّذِي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ شَجَرًا  
يُؤْكَلُ مِنْهُ فَإِنَّهُ يَنْتِفِعُ وَيَنْقَطِعُ وَيَنْبَسِي  
جِصًّا عَلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي تَعْمَلُ مَعَكَ  
حَرْثًا حَتَّى تَسْقُطَ"

(التثنية: ٢٠ — ٢١)

تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصي وتبعد عن البحر اثني عشر ميلاً تقريباً. وكان  
سلوقون الأول السوري قد أسسها سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وسميت باسم أبيه، وسرعان  
ما برز شأنها لتصبح المدينة الرئيسية في آسيا. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية كانت هي  
المدينة الثالثة في العالم. وكانت في نظر المسيحيين مدينة مقدسة على نحو خاص، ففيها  
أطلق عليهم اسم "المسيحيين" لأول مرة، وفيها أسس القديس بطرس أول أسقفية له.

وفي القرن السادس الميلادي تناقص بهاء المدينة بسبب الزلازل وما ألحقه الفرس بها من خراب. وبعد الفتح العربي تدهورت لصالح مدينة حلب الداخلية المنافسة لها، وبعد أن استعادتها بيزنطة في القرن العاشر عادت إليها بعض عظمتها، وغدت الملتقى الرئيسي للتجارة اليونانية والإسلامية وأكثر القلاع ضخامة على الحدود السورية. وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية استولى عليها سليمان بن قتلش، ثم انتقلت إثر وفاته إلى السلطان ملكشاه الذي نصب عليها حاكمها التركماني ياغي سيان. وظل ياغي سيان يحكم المدينة لعشر سنوات. ومنذ أن مات ملكشاه أصبح الوالي الأممي لياغي سيان هو الأمير رضوان الحلبي. على أن ياغي سيان لم يكن تابعًا مخلصًا لواليه وحافظ عملًا على استقلاله عن طريق الوقعة بين رضوان الحلبي وأنداده دقاق الدمشقي وكريوخا الموصل. وفي سنة ١٠٩٦ ميلادية بلغ الأمر بياغي سيان حد خيانة رضوان أنشاء حربه ضد دقاق الدمشقي، وحول تبعيته من رضوان الحلبي إلى دقاق الدمشقي، ولكن مساعدته تلك لم تفلح في تمكين دقاق من الاستيلاء على حلب. ولم يغفر له أميرها رضوان فعلته هذه أبدًا.

وشعر ياغي سيان بالخطر من أنباء تقدم المسيحيين لاسيما وأن أنطاكية هي الهدف المعلن للصليبيين. وفي واقع الأمر لم يكن هم من أمل في مواصلة السير جنوبا باتجاه فلسطين ما لم تقع القلعة العظيمة في أيديهم. وكان أغلب سكانها من المسيحيين اليونانيين والأرمن والسوريين، ونظرا إلى أن المسيحيين السوريين يكرهون اليونانيين والأرمن على السواء، فرما يظلون على ولائهم لياغي سيان، لكنه لم يسعه أن يتق في الآخرين. ويبدو أنه كان حين ذلك الوقت متسامحا مع المسيحيين، فقد سمح للبطريرك الأرثوذكسي جون الأوكسين بالإقامة في المدينة وفيها كنائس ضخمة لم تتحول إلى مساجد. على أنه باقترب الحملة الصليبية بدأ في وضع تدابير تقييدية، فألقى بالبطريرك في السجن رغم أنه كان رئيسا لأهم جمالية في أنطاكية، وطرد الكثير من المسيحيين البارزين من المدينة وهرب آخرون. وانتهكت كاتدرائية القديس بطرس وصارت

إسطنبول لخيول الأمير، وحدثت بعض حالات اضطهاد في القرى الواقعة خارج المدينة، وما أن اقترب الصليبيون حتى ذبح القرويون على الفور الحاميات التركية.<sup>(١)</sup>

#### ياغي سيان يبحث عن حلفاء

وأخذ ياغي سيان يبحث عن حلفاء. ورفض رضوان الحلبي مساعدته، من قبيل الانتقام منه لخيانته في العام الماضي وإن كان انتقاماً قصير النظر. بيد أن دقاق الدمشقي حرد حملة لنجدته بعد أن أرسل إليه ياغي سيان ابنه شمس الدولة يستغيثه، كما عرض المساعدة كل من أتابيج دقاق (طغتكين التركمان) والأمير جناح الدولة الحمصي. ورحل مبعوث آخر إلى بلاط كربوقا هو أتابيج الموصل الذي كان آنذاك أبرز الأمراء في أعالي العراق والجزيرة وكان من الحكمة بحث أدرك أن الحملة الصليبية تهدد العالم الإسلامي كله. وكانت عينه على حلب منذ زمن طويل. فإذا استطاع الحصول على أنطاكية يصبح رضوان محاطاً وتحت سلطانه، فجهز هو الآخر جيشاً لنجدة المدينة ومن خلفه وعود بالمساعدة من سلاطين بغداد وفارس. وفي تلك الأثناء جمع ياغي سيان قواته الكبيرة داخل القلعة وبدأ في إمدادها بالموثون تمسباً لحصار طويل.<sup>(٢)</sup>

ودخل الصليبيون أراضي ياغي سيان عند مدينة مراثا الصغيرة التي هربت منها حاميتها التركية عند اقترابهم. ومن مراثا انطلقت فصيلة من الجند بقيادة روبرت أوف فلاندرز باتجاه الجنوب الغربي لتحرير مدينة أرطا التي ذبح سكانها المسيحيون حاميتها. وفي تلك الأثناء، وفي العشرين من أكتوبر (تشرين الأول)، وصل الجيش الرئيسي إلى

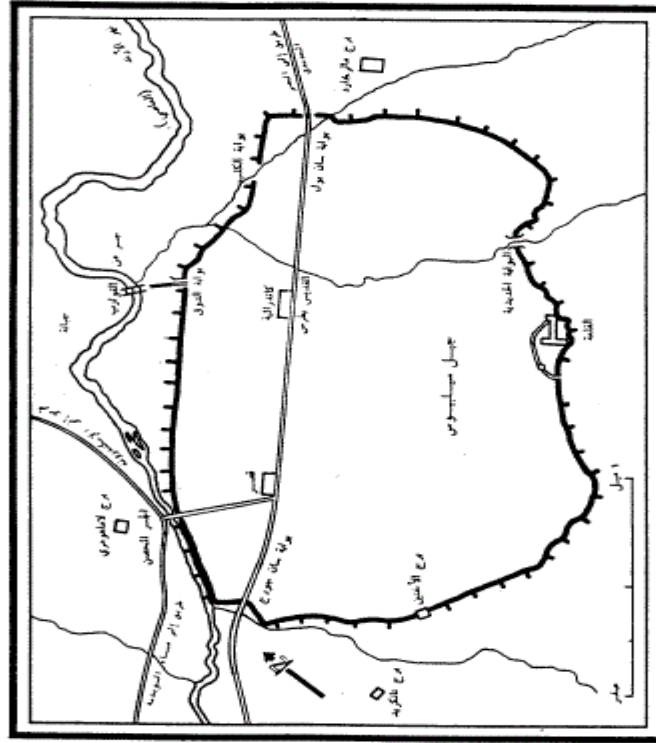
(١) Abu'l Feda, *Annales*, p. 3; Ibn al-Athir, *Kamil at-Tawarikh*, p. 192; Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 578-9

(٢) Kemal ad-Din, *loc. cit.*

نهر العاصي عند الجسر الحديدي حيث تلتقي الطرق القادمة من مرعش وحلب لتعبر النهر، وكان الجسر محصنا تحصينا قويا وله برجان على جانبي مدخله. ولكن الصليبيين هاجموا من فورهم وعلى رأسهم أسقف لوبوي يدير العمليات الحربية، وتمكنوا بعد قتال شديد من أن يشقوا طريقهم عبره. ومكنهم النصر من الاستيلاء على قدر هائل من الماشية والأغنام والغلال في طريقه لتسوين جيش ياغي سيان. والآن أصبح الطريق إلى أنطاكية مفتوحا وباستطاعة الصليبيين مشاهدة قلعتها على مرمى البصر، وفي اليوم التالي وصل بوهيموند على رأس طليعة الجيش أمام أسوار المدينة ومن ورائه الجيش كله.<sup>(١)</sup>

وامتلاء الصليبيون رهبة من تلك المدينة العظيمة. إذ كانت منازل أنطاكية وأسواقها تشغل سهلا طوله حوالي ثلاثة أميال وبعث ميل واحد بين العاصي وجبل سلبوس. وتناثرت قصور الأغنياء ومنازلهم على جانب التل. وحول كل ذلك ظهرت التحصينات الهائلة التي شيدها حستيان وأصلحها البيزنطيون منذ قرن واحد فقط. بآخر ما توصلوا إليه من إبداع مهاراتهم الفنية، ففي الشمال برزت الأسوار واعتلت منحدرات الجبال، وفي الجنوب امتدت الأسوار بطول القمة عند الحافة لتعبر في حيازة شقا يتدفق منه سيل يعرف باسم أنونكل ليشق طريقه داخل السهل، ثم تمتد الأسوار لتعبر مدخلا خلفيا يطلق عليه البوابة الحديدية، ثم تبلغ الأسوار ذروة ارتفاعها عند القلعة الرائعة التي ترتفع لألف قدم فوق المدينة. ومن هذه الأسوار شخ أربعمئة برج بينها مسافات تسمح بجعل كل ياردة في مرمى السهام. وفي الركن الشمالي الشرقي كانت بوابة القديس بول تستقبل الطريق القادم من الجسر الحديدي وحلب. وفي الركن الشمالي الغربي كانت بوابة القديس جورج تستقبل الطريق القادم من اللاذقية

(١) . Albert of Aix, III, 28-35, pp. 358-64; Gesta Francorum, v, 12, pp. 66-7



خريطة روم (٤) : أنطاكية سنة ١٠٩٨

خريطة أنطاكية ١٠٩٨ ميلادية



سيميون، وهو حاليا ميناء السويدية، فكان هناك بوابات أصغر، مثل بوابة السدوق وبوابة الكلب، تؤدي إلى النهر وتقع إلى الشرق. وكانت المياه داخل الأسوار وفسيرة بالإضافة إلى حدائق الخضر والفاكهة ومراعي لقطعان الماشية. وتستطيع هذه المدينة أن تأوي جيشا بأكمله وتمده بالثون فيصمد لحصار طويل، من الخال تطويق المدينة تطويقا كاملا لتعذر وضع الجنود في مراكز على البقعة الجنوبية للوحشة شديدة الانحدار. (١)

ولم يستطع الأتراك الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٠٨٥ ميلادية إلا بالخيانة. والخيانة هي الخطر الوحيد الذي كان على ياغي سيان أن يواجهه، لكنه كان عصيا. ولئن كان الصليبيون عاجزين عن تطويق المدينة، فكان هو الآخر غير قادر على وضع الجنود على جميع الأسوار لعدم كفاية عددهم. ولم يكن بوسعهم أن يخاطروا بأي من رجاله إلى أن يصل المدد؛ فلم يقدم على أية محاولة لمهاجمة الصليبيين أثناء تحرر كاهنهم لأخذ مواقعهم، وتركهم هكذا أربعة عشر يوما دون أن يتحرش بهم.

#### المسكرات أمام أنطاكية

واتخذ الصليبيون مواقعهم عند وصولهم خارج الركن الشمالي الشرقي من الأسوار، فشغل بوهيموند القطاع المقابل لبوابة القديس بول، وريموند القطاع المقابل لبوابة

---

(١) Fulcher (1,xv, 2-4, pp. 217-18) and Raymond of Aguilers ( v, pp. 241-2 )

وكلاهما يورد وصفا موجزا لأنطاكية ويصفها ( William of Tyre ( iv, 9-10, 1, pp. 165-9 )

بصورة أكثر اكتمالا . وقر العاصي أو الأرند Orontes يطلق عليه المؤرخون الفرييون Ferrins

(Fulchrt of Chartres, 1, xv. 1, p. 216- 'Orontes of Ferrins) أو يطلقون عليه

The Far (William of Tyre, iv, 8, 1, p. 164) ويسميه غلمة بذينة) أو (Gesta Farfar

(Albert of Aix, loc. cit.) Pharpar أو Francorum, x, 34, p. 180)

الكلب وعلى يمينه جودفري أمام بوابة الدوق. وانتظرت الجيوش الباقية خلف بوهيموند على استعداد للتحرك وقتما يتطلب الموقف. وأما بوابة الجسر وبوابة القديس جورج فتركنا دون تغطية. وفي الحال بدأ العمل في بناء جسر من القوارب ليعبر النهر من معسكر جودفري إلى قرية تالنكي حيث تقع مقابر المسلمين، وساعد هذا الجسر على تمكين الجيش من الوصول إلى الطرق المذهبة إلى الإسكندرونة والسويدية، وسرعان ما أقام الجيش معسكراً شمالي النهر.<sup>(١)</sup>

وتوقع ياغي سيان هجوما عاجلا على المدينة. ولكن لم يكن بين قادة الصليبيين من نصح بمحاولة اقتحام الأسوار سوى ريموند الذي قال إن الرب الذي مثلهم بحمايته حين الآن خلّيق بنصرهم.<sup>(٢)</sup> ولم يشاركه القادة الآخرون إيمانه هذا لأن التحصينات أربتهم ولأن جنودهم مرهقون وليس بوسعهم تحمل خسائر حسيمة الآن. فضلا عن أن التعزيزات ستلحق بهم إذا انتظروا، فستتكرر على وشك الوصول من الإسكندرونة، وربما يحضر الإمبراطور ومعه آلات الحصار العجيبة، وقد يوفر لهم أسطول جوينيمر المزيد من الرجال. وكانت هناك شائعة بوجود أسطول من جنوا في عرض البحر. أما بوهيموند الذي كان لنصيبه الأثر الأكبر بينهم، فلديه أسبابه الخاصة به التي تجعله يعارض اقتراح ريموند؛ إذ تركزت طموحاته الآن على الانفراد بامتلاك أنطاكية لنفسه، فكان يفضل الإبقاء عليها حتى لا ينهبها جيش يتوق إلى نهب مدينة غنية. ليس هذا وحسب، وإنما الأخطر بالنسبة له أنه كان يخشى استحالة

(١) بورد Albert of Aix, III, 38-9, pp. 365-6 ووصف الجند. ووصف تاريخ *Gesta* *Francorum*, v, 12, pp. 66-8 تراخي الخامية، ووصف Raymond of Aguilers بناء الجسر

وضرب معسكر ريموند.

(٢) Raymond of Aguilers, iv, p. 241

المطالبة بما لنفسه دون غيره إذا ما تم الاستيلاء عليها بالجهد الصليبي الموحد، وكان قد وعى الدرس الذي لفته إياه ألكسيوس في نيقية، فإذا ما استطاع تدبير استسلام المدينة له فسيكون من أصعب الأمور التنازع على حقه فيها. وسوف يتمكن من تدبير ذلك في وقت قصير، فلديه بعض المعرفة عن طرق الشرقيين في الخيانة. وهكذا استخدم نفوذه لإهمال نصيحة ريموند الذي تعاضمت كراهيته له. وضاعت الفرصة الوحيدة للاستيلاء على أنطاكية بسرعة؛ فلو أن الهجوم الأول صادف أي نجاح لضعفت مقاومة ياغي سيان الذي كان مضطرباً، ومن ثم أدى ذلك التأخير إلى أن يستعيد ثقته بنفسه. ولم يجد بوهيموند وأصدقائه صعوبة في العثور على وسطاء يستطيعون من خلالها الاتصال بالأعداء. فكان اللاجئون المسيحيون ومعهم المبعوثون عن المدينة على اتصال وثيق بأقاربهم الموحدين داخل الأسوار بسبب الثغرات في كل من الجدار والدفاع. فتوفرت لدى الصليبيين معلومات عن كل ما كان يحدث داخل أنطاكية. ولقد سارت هذه العملية في الاتجاهين معاً، ذلك أن الكثير من المسيحيين المحليين، لاسيما السوريين، راودهم الشكوك فيما إذا كان الحكم البيزنطي أو الفرنجي يفضل الحكم التركي. وكانوا على استعداد لأن ينالوا الحظوة لدى ياغي سيان بأن يقدموا له هو الآخر المعلومات الوفيرة عما كان يحدث في معسكر الصليبيين، فعلم منهم بعدم رغبة الصليبيين في الهجوم. فبدأ ينظم خروج جماعات لمهاجمتهم بحيث يتسلل رجاله من البوابة الغربية لمهاجمة أية جماعة فرنجية صغيرة، للقضاء عليها وهي تبحث عن الأعلاف بعيداً عن الجيش. وأقام اتصالات مع حاميته في حارم عبر الجسر الحديدي على الطريق إلى حلب وحشها على مناوشة الفرنج في مؤخرتهم، وفي ذات الوقت علم بنجاح سفارة ابنه في دمشق وأن هناك جيشاً آتياً لنجدة. (١)

(١) *Gesta Francorum*, v, 12, p. 68; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 577

ولقد انتهج الصليبيون، في غفلة من أمرهم، باسترخاء ياغي سيان بادئ الأمر. وعندما أعقب الشتاء الحريف بدّءوا يشعرون بالخوف على الرغم من أنهم حققوا بعض النجاح الضئيل؛ ففي منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) تمكنت حملة بقيادة بوهيموند من استدراج حامية حارم من حصنها وأبادتها تمامًا،<sup>(١)</sup> وفي نفس اليوم تقريبًا ظهر أسطول صغير من جنوا قوامه ثلاث عشرة سفينة في ميناء السويدية، مما ساعد الصليبيين على احتلاله. وقد جاء هذا الأسطول بتعزيزات من الرجال والسلاح استجابة متأخرة للغاية لنداء البابا إيربان لمدينة جنوا قبل ذلك بحوالي عامين. وشعر الصليبيون بالارتياح لمعرفتهم أنهم بوسعهم الآن الاتصال بأوطانهم بطريق البحر. على أن مشكلتهم توفير الطعام للحيش غطت هذا النجاح كله. وعندما دخل الصليبيون سهل أنطاكية ببادئ الأمر وجدوه مليئًا بالمون، فالأغنام والماشية كثيرة، وصوامع القرى ما تزال مليئة بمعظم حصاد العام، فطعموا جيدًا وأهملوا تخزين الإمدادات لشهور الشتاء، ولم يجد الجنود مفرًا من التحوال في الأنعام بحثًا عن الطعام في دائرة من الأرض تسع شيئًا فشيئًا. مما جعلهم أكثر عرضًا للقتل من جانب الأتراك الفاطميين من الجبال. وسرعان ما اكتشف الصليبيون تسلسل المغيرين عبر مضيق أنونكل وانتظارهم فوق التل المشرف على معسكر بوهيموند لمهاجمة الصليبيين المنتشرين العائدين إلى معسكرهم متأخرين. وللتصدي لهذا الخطر قرر القادة بناء برج محصن فوق التل واتفقوا فيما بينهم على أن يضع فيه كل منهم حامية من عنده بالتناوب، وسرعان ما شُيد البرج وأطلق عليه بـرج مالريجارد Malregard.<sup>(٢)</sup>

(١) *Gesta Francorum, ibid. pp. 68-70*

(٢) *Ibid. v, 13, p. 70; Raymond of Aguilers, v, p. 242; Caffaro, De Liberatione, p. 50*

#### نفاذ إمدادات الغذاء

وأوشك محزون الجيش من الطعام أن ينفد بحلول عيد الميلاد سنة ١٠٩٧ ميلادية. ولم يعد هناك في الريف المحاور ما يمكن الحصول عليه، ف عقد الأمراء مجلسا تقرر فيه إرسال قسم من الجيش بقيادة بوهيموند وروبرت أوف فلاندرز أعلى وادي نهر العاصي باتجاه ماء للإغارة على القرى وانتزاع كل ما تصل إليه أيديهم من مؤن. وفي ذات الوقت عهدوا بأمر الحصار إلى رموند وأسقف لوبوي، إذ كان جودفري آنذاك تحت وطأة المرض الشديد. وفي الثامن والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) انطلق بوهيموند وروبرت ومعهما حوالي عشرين ألف رجل، وفي الحال علم ياغي سيان برحيلهم، فانتظر إلى أن ابتعدوا تماما. وفي ليلة التاسع والعشرين خرج في هجمة قوية عبر الجسر وانقض على الصليبيين المعسكرين شمالي النهر، وربما كان جنود رموند هم الذين انتقلوا من مكائهم الأول بسبب أمطار الشتاء التي جعلت المنطقة الواقعة بين النهر والأسوار غير صالحة للإقامة، وبوغتوا بالحجوم، ولكن بقطة رموند أنقذت الموقف، فقد جمع بسرعة عدد من الفرسان وهاجم الأتراك في الظلام فارتدوا عائدين عبر الجسر وهو بطاردهم بكل ما أوتي من حمية حتى أن رجاله تمكنوا من أن يتخذوا لأنفسهم في لحظة وجيزة موطئ قدم عبر الجسر قبل إغلاق البوابات. وبدا أن رموند على وشك تحقيق ظنه في إمكان اقتحام المدينة، ولكن حصانا ألقى بالفارس من على ظهره وجمع مرتدا تجاه الفرسان المحتشدين على الجسر فأحدث بينهم الاضطراب، وكان الليل حالاً الظلمة بحيث يتعذر معرفة ما كان يحدث، فانتشر الذعر بين الصليبيين فهربوا بدورهم وطاردتهم الأتراك إلى المدينة. وسقط قتلى كثيرون من الجانبين خاصة فرسان الفرنج الذين سقط منهم ما لا يستطيع الصليبيون تعويضه، ومن بينهم حامل راية أدميرار أسقف لوبوي.<sup>(١)</sup>

(١) Raymond of Aguilers, v, pp. 243-4; Gesta Francorum, vi, 14, pp. 74-6

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند متجها إلى الجنوب مع روبرت أوف فلاندرز وهو مجهل تماما أن أنطاكية كانت على وشك السقوط في يد غريمه ريموند، كما كان مجهل وجود نجدة إسلامية كبيرة تتحرك شمالا باتجاهه. فقد غادر دقاق عاصمته دمشق ومعه أناتجة طوغتكين وخمس الدولة ابن ياغي سيان في جيش كبير، حوالي منتصف الشهر. وفي حماء انضم إليهم أميرها مع قواته، وفي الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) وصلوا شيزار حيث علموا أن هناك جيشا صليبيا على مقربة منهم، فواصلوا السير من فورهم وانقضوا عليه في الصباح التالي في قرية البرة. وأخذوا الصليبيين على حين غفلة وطقوا روبرت الذي كان جيشه يتقدم جيش بوهيموند بمسافة قصيرة، ولكن بوهيموند الذي كان يشاهد ما يحدث حجز السواد الأعظم من جنوده كقوات احتياطية يلقي بها في هجومه على المسلمين في اللحظة التي يظنون فيها أنهم انتصروا، وأدى تدخله إلى إنقاذ روبرت، وخسر الدمشقيون خسائر حسيمة فارتدوا إلى حماء. وبرغم أن الصليبيين انتصروا وحالوا - بلا شك - دون إغاثة أنطاكية فإنهم كانوا متعبين إلى حد بعيد وتعلمن عليهم المضي في البحث عن الطعام فنهبوا قريتين وأحرقوا مسجدا وعادوا إلى المعسكر أمام أنطاكية بخفي حنين.<sup>(١)</sup>

#### الجماعة

ووجدوا رفاقهم في غم عظيم. وفي التاسع والعشرين وهو اليوم التالي للمعركة المشعومة حدث زلزال بلغ من الشدة أن شعر به أهل الرها. وفي الليلة التالية أضاء الشفق القطبي الشمالي السماء، وخلال الأسابيع التالية هطلت السيول دون توقف وازدادت البرودة شيئا فشيئا، ولم يفهم ستيفن أوف بلوا لماذا يشكو المرء من شمس

(١) *Gesta Francorum*, v, 13, pp. 70-2; Albert of Aix, III, 50-1, pp. 373-4; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 580

سوريا دائمة الإشراف. وكان من الواضح أن الرب غير راض عن محاربته لكبرائسهم ورفاهيتهم ولصوصيتهم، فأمر أديمار أسقف لوبوي بصوم خشوع لثلاثة أيام، ولكن مع اقتراب الجماعة وحلوطها لم يحدث الصوم فرقا يذكر. والآن بعد أن فشلت حملة استحلاب الطعام لم يكن بد من أن يموت الكثيرون جوعاً، فكان رجل من كل سبعة رجال يسقط ميتاً من الجوع. فرحل المبعوثون للبحث عن الطعام إلى مسافات بعيدة وبلغوا جبال طوروس التي ارتضى أمراؤها الروميون تقديم ما يقدرون عليه، وحسب بعض الإمدادات من الرهبان الأرمن المستوطنين في جبال الأمانوس. بينما جمع المسيحيون الأرمن والسوريون كل ما يؤكل وأحضروه إلى المعسكر، يدفعهم إلى ذلك حب المال وليس حب البشر. فكان من حمل حمار من المون ثمان قطع من البيزنتة، ولا يقدر على دفع تلك الأسعار سوى الأثرياء من الجنود، وكانت معاناة الخيول أعظم من معاناة الرجال حتى أن ما تبقى مع الجيش منها كان حوالي سبعمائة حصان فقط.<sup>(١)</sup>

ووجد الصليبيون في جزيرة قبرص معينا أكثر كرماً. ذلك أن أديمار أسقف لوبوي — الذي كان يتصرف بناء على تعليمات البابا إيربان — ثابر على إقامة علاقات طيبة مع الرؤساء الدينيين الأرثوذكس في الشرق وأظهر لهم احتراماً بدحض النظرية القائلة بأن البابا فكر في الحرب الصليبية كوسيلة لإخضاعهم لسيطرته. أما بطريق أنطاكية السحسين داخل المدينة فلم يجد فائدة من تلك الصداقة، وكان الأتراك يضعونه في

<sup>(١)</sup> Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, p. 157

(especially mentioning the horses); Stephen of Blois, *ibid.* p. 150

(الردى)، Fulcher of Chartres, 1, xv, 2-xvi, 6, pp. 221-8 (يورد نصاً بلاغياً يلوم فيه

الصليبيين على آثامهم) Raymond of Aguilers, vi, p. 245 (يذكر الشفق القطبي وصوم

الخشوع) *Gesta Francorum*, vi, 14, p. 76 (يذكر الأسعار التي كان يقاضاها المضاربون

المحليون) Matthew of Edessa, II, cli, p. 217 (يذكر كرم الأمراء الأرمن والرهبان).

قفص من حين لآخر ويعلقونه على الأسوار. أما سيميون بطريق القدس فكان آنذاك في قبرص وقد نُخلّي عن كرسيه الأسقفى بعد أن أصبحت الحياة في القدس غير آمنة مطلقاً إثر موت أرتق. لكنه كان يكره الأعراف اللاتينية التي نشر بحثاً ضدها يتسم بالصرامة والاعتدال. على أنه أقبل على التعاون مع الكنيسة الغربية بسرور من أجل صالح العالم المسيحي، وكان قد اشترك مع أديمار في أكتوبر (تشرين الأول) في إرسال تقرير عسّن الحرب الصليبية إلى مسيحيي الغرب. والآن وقد أعيدت الاتصالات بقبرص واتصل به أديمار وسمع بورطة الجيش، بدأ في إرسال كل الطعام والنيبذ الفائض عن حاجة الجزيرة تباعاً بطريق البحر.<sup>(١)</sup>

#### بطرس الناسك يحاول الحرب

وعلى الرغم من وفرة مقادير الطعام المرسلة من البطريق إلا أنها لم تخفّف من وطأة البؤس السائد؛ فبدأ الرجال الذين يشرفون على الموت في الحرب من المعسكر ليأخذ بمناطق أغنى أو في محاولة لقطع طريق العودة الطويل إلى أوطانهم، وكان الفارون يادئ الأمر جنوداً مغمورين. على أنه تبين في صباح أحد أيام يناير (كانون الثاني) أن بطرس الناسك نفسه هرب ومعه وليم النجار الذي كان مغامراً ولم يعد يرغب في إضاعة وقته فسي حارب صليبية ميثوس منها وسبق له أن هرب من حملة في إسبانيا، بيد أنه من

(١) Albert of Aix, VI, 39, p. 489. وأرسل Symeon إلى الصليبيين هدايا الرمان "فراح شجر

الأرز اللبناني"، ولحم الخنزير المجفف والنيبذ. وتاريخ الرسالة شهر أكتوبر، وأرسلت من أنطاكية إلى

الكنيسة الغربية بشأن تقدم الحملة الصليبية، رسالة باسم سيميون وأديمار "وبصورة رئيسية هذا الأخير

الذي عهد إليه البابا إيربان بمسؤولية الجيش المسيحي" Hagenmeyer, op. cit. pp. 141-2

وعن Symeon أنظر ما سبق الصفحات ١٤٤ و ١٨٠.



العسير علينا أن نفهم لماذا أصاب الخوَر بطرس الناسك. وطارد تسانكريد الفسارين وأعادهم والخزي باد عليهم. ورؤي أنه من الصواب الإبقاء على سمعة بطرس الناسك، ومن ثم أعفوا عن ذنبه في صمت. وأمّا ولیم النجار فقد أحر على الوقوف طوال الليل في خيمة بوهيموند الذي ويّحه في الصباح توبيخًا ملؤه الحدة والوعيد، فأقسم ألاّ يترك الجيش مرة أخرى مطلقًا حتى يصل إلى القدس، ولكنه نكث بقسمه فيما بعد. ولم يكن بد من أن تتأثر هبة بطرس الناسك، لكنه سرعان ما منح الفرصة لاستعادتها. (١)

ونظر أديمار فإذا الجيش يتقلص يومًا بعد يوم بسبب الجماعة وقرار الجنود، فرأى من الضروري توجيه نداء قوي إلى الغرب لإرسال التعزيزات. ولكي يضفي على ندائه أعلى سلطة صاغه باسم بطريق القدس، ويفترض أنه قد استأذنه في ذلك. ولصياغة ذلك النداء أهميتها الخاصة لما تلقى من ضوء على سياسة أديمار الكنسية؛ فالبطريق يوجه الخطاب إلى كل المؤمنين في الغرب باعتباره الآن قائدًا لأساقفة الشرق اليونانيين واللاتينيين على السواء، ويلقب نفسه بلقب (الرسولي)، ويأخذ على عاتقه أن يطرد من الكنيسة أيّ صليبي بحث بعهوده المسيحية؛ وهذه لغة لا يصوغها إلّا حُر لا يخضع لأحد. ومن غير المعقول بأية حال أن يورد أديمار مثل هذه اللغة على لسان من تنحى النية إلى إخضاعه للبابا في روما. وأيًا كانت الغاية التي يستهدفها البابا إيربسان من عخططاته لإزاء حكم الكنائس الشرقية فإن مبعوثه — أديمار — لم يكن يبشر بالسيادة البابوية عليها، ولا ندري رد الفعل الذي أثاره خطاب البطريق في الغرب (٢).

(١) *Gesta Francorum*, VI, pp. 76-8.

(٢) (المترجم) يتبين من سرد الكاتب "ستيفن رانسيمان" أن الكنيسة اللاتينية الغربية، وهي تحاول أن تطرق مختلف السبل من أجل إكمال المسيرة الصليبية في الشرق، تجاوزت كل الحدود المقبولة والمقبولة وتنازلت عن مطلب رئيسي، أو عن المطلب الرئيسي، هذا والذي يتمثل في سيطر سلطتها على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي تعتبر في نظر الكنيسة اللاتينية الغربية منشقة في قوانينها أعرافها عما يتبع في الكنيسة الغربية من قوانين وأعراف على نحو يدخلها في زمرة الفراطنة. —

وبينما كان الصليبيون يظهرون الاحترام اللائق لحرمة الأرثوذكسية الشرقية، تدهورت علاقاتهم بزعيمها الديني. ففي وقت مبكر من فبراير (شباط) رحل تاتيسوس مثل الإمبراطور فجأة تاركا الجيش بعد أن صاحب الحملة الصليبية من نيقية ومعه مجموعة صغيرة من موظفيه وفريق مكون من المرشدين والمهندسين. وكان تاتيسوس على علاقة طيبة فيما يبدو بزعاء الصليبيين، ففي كومونا وكوكسون التزموا بتسليمه المناطق التي استردوها، وقد أشاد بكمالاتهم القتالية في تقاريره. وهناك تفسيرات عديدة لرحيله المفاجئ آنذاك، ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى رفض القصة التي رواها في القسطنطينية لذي عودته؛ فاستنادا إلى روايته حدث في أحد الأيام عندما أصبح معروفا أن الأتراك على وشك القيام بمحاولة أخرى لنجدة أنطاكية أن استدعاه بوهيموند وأخبره في ثقة قاطعة أن الأمراء الآخرين يعتقدون أن الإمبراطور مسئول عن تشجيع الأتراك وأنهم يأثمون لاغتياله انتقاما لأنفسهم، وتظاهر تاتيسوس بالاعتناع. وواقع الأمر أن المزاج العام للجيش وقتئذ يجعل من المرغوب جدا وجود كيش فداء، فضلا عن ذلك كان تاتيسوس يعتقد أن الصليبيين قد أضعفهم الجوع وثبط من همته، وليس لهم الآن من

---

—سويدي الكاتب في أسلوب مرده غلبة دهشته واستعصاء فهمه لمسلك الكيسة اللاتينية الغربية علي هذا النحو ، ذلك أن الصدع بين هاتين الكيستين قدم قدم ظهور المسيحية وياق حتي يومنا هذا . ولا يكاد المؤلف يتصور أن تحدر القيمة الدينية العليا في سبل مصلحة يظهر المؤلف عمر كتابه كله ألما لا تكساد تمت إلي الدين بصلة وإنما ترتبط ألما ارتباط بأوجه الفع الشخصي الذي يغاوت حجمه تفاوتت يبدأ من البابا نفسه - الذي كان يسمى إلسي بسط سيطرته الدينية في الغرب والشرق بما يستتبع ذلك من سلطان علي الملوك والأمراء - وينتهي إلي صغار الغامرين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية مدفوعين بنتائج الأوضاع التي كانت سائدة في أوروبا فسي ظل النظام الإقطاعي قبل أن يكتروا مدفوعين بمسوم الخلاص المسيحي . Letter Hagenmeyer. op. cit. pp. 146-9.

أمل في الاستيلاء على القلعة العظيمة. وكانوا قد تجاهلوا نصيحة بقطع الطعام عنها حتى تستسلم وظلوا باحتلال الحصون المتحركة في مداخيلها البعيدة. ولذا أعلن ضرورة عودته إلى الأراضي الإمبراطورية ليتسنى له ترتيب مخطط أفضل للإمداد، وأنحسر في سفينة من ميناء السويدية إلى قبرص، ولكي يظهر لهم نيته في العودة ترك أغلب أحواله مع الجيش. ولكن ما أن رحل حتى انطلقت أبواق دعاية بوهيموند تؤكد أنه إنما هرب جينا من مواجهة الهجوم التركي القادم، إن لم يكن بدافع الخيانة الحقيقية، وعندما يتصرف ممثل الإمبراطور على هذا النحو غير المشرف تصبح الحملة الصليبية في حل من أي التزام تجاه الإمبراطورية، أي أنه لا داعي لإعادة أنطاكية إليها. (١)

#### بوهيموند يهدد بالانسحاب

وكانت الخطوة التالية أن أشاع بوهيموند أنه يفكر هو نفسه في الرحيل عن الجيش لعدم استعلائته تجاهل التزاماته في الوطن أكثر من ذلك. وحتى ذلك الحين لعب دورا قياديا في كل العمليات العسكرية التي قامت بها الحملة الصليبية. وفي تقديره أن

---

(١) يقول Raymond of Aguilers, v, pp. 254-6 إن تاتيسوس اقترح حصارا أكثر قرا. ولم يؤخذ باقتراحه؛ ثم سرعان ما فر ذلك القرار الخائن بعد أن عهد إلى بوهيموند عدد المنيعة وطرسوس وأدنا ولائسا أن بوهيموند قد اخترع هذه الهدية المستعمدة للغايات ونشرها بين جنود الجيش. ويقول تاريخ *Gesta Francorum*, VI, 16, pp. 78-80 إنه هرب من منطلق الجبن الخالص. ويقول ألبرت لوف أليكس إنه ضرب خيمته على حافة المعسكر لأنه كان يتري القرار دائما. وعندما هرب وعد وعدا كساديا بأنه سيعود (III, 38, p. 366, IV, 38, p. 416). وتعتبر القصة التي أوردتها أناكومنيا - ولايد لها تقوم على أساس ما أبلغها به تاتيسوس - أكثر الروايات إقناعا وأنا أقلها هنا (XI, IV, 3, vol. II, p. 20).

الفرع سوف يمتلك الجيش إذا توقع رحيله عنه في تلك المرحلة الشائكة، ولذلك سمح بأن يكون مفهوما أنه لو منح لوردية أنطاكية فسيكون ذلك عوضا له عن أية حسائر يخسرها نتيجة تغيبه عن إيطاليا. ولم يتخدد رفاقه الأمراء بتلك المناورات غير أنه حظى بتعاطف كبير بين صفوف عامة الجند.<sup>(١)</sup>

وفي تلك الأثناء كان الأتراك يتجمعون مرة أخرى في حشود غفيرة لنجدة أنطاكية. وعندما أحقق دقاق في المساعدة التي وعد بها تحول ياغي سيان مرة أخرى إلى سيده الأول رضوان الحلبي الذي تأسى حينئذ على تراجيعه، مما أدى إلى توغل الفرنج إلى أنطاكية، وعندما أعاد ياغي سيان اعترافه بسيادته أعد العدة للحضور لنجدة ومعه ابن عمه سقمان الأرمني من ديار بكر وجموه أمير حماه. وفي أوائل فبراير (شباط) أعاد الحلفاء احتلال حارم حيث تمسكوا بتوطئة لهجومهم على معسكر الصليبيين. ومما أن سمع أمراء الصليبيين بتلك الأخبار حتى عقدوا مجلسا في خيمة أديمار حيث أخذوا بتضيعة بوهيموند بأن تبقى قوات المشاة في المعسكر لصد أي هجوم يخرج من المدينة بينما ينطلق الفرسان - وقد تقلص عدد اللاتنيين منهم للحرب الآن إلى سبعائة فارس وحسب - في هجوم مفاجئ على الجيش المهاجم. وفي الثامن من فبراير (شباط) تسفل فرسان الفرنج أثناء الليل عبر حصر القوارب واتخذوا موقعهم بين النهر وبحيرة أنطاكية بحيث ينقضون من هذا الموقع على الأتراك أثناء تقدمهم لعبور الجسر الحديدي، وعند ابتلاج الصباح ظهر الجيش التركي، فهاجم الصف الأول من الصليبيين على الفور قبل أن يتمكن رماة الأتراك من أن يصطفوا. ولم يستطع الهجوم أن يشتت حشود الأتراك وانسحب الفرسان مستدرجين العدو إلى أرض المعركة التي اختاروها حيث وجد الأتراك البحيرة عن يمينهم والنهر عن يسارهم فعجزت جموعهم الهائلة عن مهاجمة جناحي الصليبيين. وفي هذه الساحة الضيقة عاود الفرسان الهجوم على نحو شامل

(١) Raymond of Aguilers, loc. cit.

هذه المرة، وأمام ثقل هجومهم تحطم جنود الأتراك الأخف تسليحاً وولسوا الأدبار ناشرين الفوضى في الصفوف المحتشدة خلفهم. وسرعان ما انسحب جيش رضوان كله في فوضى عاتية إلى حلب، وعند مرورهم بحارب انضمت حاميتها إلى الفارين تارككة المدينة للمسيحيين المحليين الذين سلموها إلى الصليبيين.

وبينما كان الفرسان يفوزون بهذا النصر الكبير كانت المشاة تحارب معركة أصعب؛ إذ خرج ياغي سيان في هجوم شامل على المعسكر الذي كان المدافعون عنه يقتلون مواقعهم شيئاً فشيئاً إلى أن شاهدوا الفرسان المنتصرين يقتربون بعد الظهيرة. وباقتراحهم أدرك ياغي سيان أنّ الجيش المغيث قد أقدم فأمر بعودة رجاله إلى داخل الأسوار.<sup>(١)</sup>

وارتفعت معنويات الصليبيين بمزيمة الجيش الثاني الذي جاء لنحلة أنطاكية، ومع ذلك لم يتحسن موقفهم وقتها. فالطعام ما يزال نادراً رغم أنّ الإمدادات بدأت تصل إلى ميناء السويدية وأغلبها من قبرص حيث جمع البطريرق سيميون — وربما تاتسيوس أيضاً الذي حُجِد فضله — كل ما كان متاحاً. وتسلفت من المدينة جماعات تغير إغارات متكررة على الطريق الجنوبي الذاهب إلى البحر وتنصب الأكمنة للقوافل الأصغر، بينما كانت المدينة تحصل على تموينها من بوابة القديس جورج التي كانت ما تزال بلا حصار عبر الجسر الحصن. ولكي يتحكم الصليبيون في هذا الجسر، فيصبح الطريق إلى ميناء السويدية آمناً، اقترح ريموند بناء برج على الضفة الشمالية بالقرب منه، ولكن المشروع لم يتم لافتقاد المواد والبنائين. وفي الرابع من مارس (آذار) وصل إلى ميناء السويدية أسطول كل من عليه من الإنجليز بقيادة إدجار أثلنج المطالب المنفي بالعرش. وكان الأسطول يحمل حجاجاً من إيطاليا وتوقف في القسطنطينية حيث

---

(١) *Gesta Francorum*, vi, 17, pp. 80-6; Raymond of Aguilers, vii, pp. 246-8

التحق به إدجار الذي كان قد وضع نفسه تحت أوامر الإمبراطور. وفي القسطنطينية عم شحن الأسطول بمواد وآلات الحصار، وهكذا وصل الأسطول في الوقت المناسب تماماً. وتعهد الصليبيون إخفاء حقيقة أن الإمبراطور هو الذي أرسل تلك الإمدادات.

#### معركة على طريق السويدية

وعندما بلغت الصليبيين أنباء وصول الأسطول، انطلق ريموند وبوهيموند معاً، لاقتفاد كل منهما الثقة في الآخر، ليجندا أكبر عدد ممكن من بين الركاب وليصبحا العمال والمواد إلى المعسكر. وفي السادس من مارس (آذار)، وفي طريق عودتهما يحملين من ميناء السويدية، وقعا في كمين نصبته فصيلة من حامية المدينة، وقد أحفل جنودهما من المفاجأة فولوا الأدبار مذعورين تاركين الأحمال في أيدي الأعداء، واندفع بعض الشاردين إلى داخل المعسكر وأشاعوا مقتل كل من ريموند وبوهيموند، وعلى الأثر أعد جودفري العدة للخروج لنجدة الجيش المهزوم. لكن الأتراك خرجوا فجأة من المدينة لتغطية الفصيلة المتقلة بالأحمال حتى أوصولها إلى البوابات. وتمكن رجال جودفري، الذين كانوا مستعدين بسلاحهم للخروج إلى البحر، من صد الهجوم التركي المفاجئ وظهر ريموند وبوهيموند دون توقع ومعهما بقايا قواتهما. وبرغم حالة الضعف البادية عليهما مكنا جودفري من رد الأتراك إلى داخل المدينة. ثم اتعد الأمراء ليعترضوا الفصيلة أثناء عودتهما. ونجحت تكتيكاتهم نجاحاً تاماً، وتغلبوا بمناوراتهم على الفصيلة التي عاقتها أحمالها فانهزمت وقتل أفرادها أثناء كفاحهم للوصول إلى البحر. واستعاد الصليبيون مواد البناء الثمينة. وقيل إن ألفاً وخمسمائة تركي لقوا حتفهم، غرق الكثير منهم أثناء محاولتهم عبور النهر، وكان من بين القتلى تسعة أمراء. وفي تلك الليلة تسلل أفراد من حامية المدينة لدفن القتلى في مقابر المسلمين على ضفاف

النهر الشمالية، وقد شاهدتهم الصليبيون وتركهم في أمان، لكنهم في الصباح التالي نبشوا القبور وفككوا حثث الموتى من أجل الذهب والفضة التي كان الموتى ينقلونها. (١)

وترتب على انتصار الصليبيين استكمال تطويق أنطاكية. وتم بناء برج المطلوب إثر توفر العمال والمواد، وأصبح يتحكم في مدخل الجسر الحصن. وقد شيد بالقرب من مسجد في المقابر الإسلامية وسمي رسمياً بقلعة ماهومري، وهي تسمية مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة بمعنى "مسجد". ولكن الأمراء تنازعوا حول من يكون مسؤولاً عن هذا البرج، فطالب به ريموند لأنه من بنات أفكاره، وعادة ما كان يعرف بحصن ريموند.

واكتمل البناء في التاسع عشر من مارس (آذار) ، وسرعان ما أثبت

---

*Gesta Francorum*, VII, 18, pp. 88 - 96 ; Raymond of Aguilers, VII - VIII, pp. (١)

248 - 9; Albert of Aix, III, 53 - 5, pp. 383 - 6; letter of Stephen of Blois in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 151 - 2; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158 - 9; letter of the clergy of Lucca in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 165-7, حيث يذكر أن مواعداً من Lucca يدعى Bruno وصل ميناء السويدية في تلك اللحظة وكان مسافراً مع أسطول انجليزي . David, Robert Curthose, pp. 236-7 يحسب عن الشك فيما إذا كان Edgar Atheling مع هذا الأسطول الذي كان ما يزال في استكتندا في خريف سنة ١٠٩٧م ولابد أنه غادر إنجلترا قبل ذلك التاريخ بيد أن الأسطول كان مكوناً بصورة شبه يقينية من الحرس " القارضي " الإنجليزي الذي غادر إنجلترا منذ فترة طويلة وكان يبحر في مياه البحر الأبيض المتوسط بتأمر من الإمبراطور ، ونجدهم فيما بعد يعملون للإمبراطور . (أنظر ما يلي ص ٣٠٨) . واستطاع إدجار سرعة الرحيل إلى القسطنطينية ليستأجره الإمبراطور مؤقتاً ، والانضمام إلى الأسطول هناك . ويقول Orderic Vitalis (x, II, vol. IV, pp. 70-2) إنه علي يقين من أنه كان مع الأسطول واستولى على اللاتاقية أيام الحصار ، على الرغم من أن William of Malmesbury (II, p. 310) يحدد استيلاءه على اللاتاقية في تاريخ أبكر قليلاً . أنظر ما يلي .  
cit.

فأثنته في منع الاقتراب من بوابة الجسر، غير أن بوابة القديس جورج كانت ما تزال مفتوحة. ولجعلها هي الأخرى تحت المراقبة استقر الرأي على بناء حصن في مكان ديسر قدم على تل مواجه للبوابة، واكتمل تشييد الحصن في إبريل (نيسان) وعُهد به إلى تانكريد الذي تقاضى ثلاثمائة مارك نظير الإنفاق عليه. ومنذ ذلك الوقت لم تتمكن قوافل الطعام من الوصول إلى المدينة، كما لم يستطع مواطنوها أن يرسلوا قطعانهم لترعى خارج الأسوار كما اعتادوا، وكان باستطاعة أفراد من المغيرين تسلب الأسوار على جبل سيلبيوس أو من خلال البوابة الحديدية الضيقة، ولكن أصبح من غير الممكن خروج هجمات منظمة. وبينما بدأت الحامية تعاني الجوع تيسرت مشكلة إطفاء الصليبيين؛ فقد تحسن الجو بحلول الربيع، وأصبح في الإمكان التحول لجلب الطعام دون خطر الهجمات التركية المفاجئة، وتحول التجار الذين كانوا يبيعون بضائعهم للحامية بأسعار مرتفعة إلى التعامل مع معسكر الصليبيين. كل ذلك أتاح المزيد من الإمدادات للفرنج ورفع معنوياتهم. وسرعان ما استولى تانكريد بعد بناء حصنه على شحنة طعام هائلة كانت في طريقها إلى ياغي سيان تولى نقلها تجار مسيحيون سوريون وأرمنيون. وبعد كل هذا النجاح راود الصليبيين الأمل في أن تستسلم أنطاكية تحت وطأة الجوع، ويجب أن يكون الاستسلام سريعاً، إذ أن كريبوقا الموصلية المرعب كان يعين قواته.<sup>(١)</sup>

#### مفاوضات مع الفاطميين

وكان الإمبراطور ألكسيوس قد نصح الصليبيين أثناء وجودهم في القسطنطينية

<sup>(١)</sup> *Gesta Francorum*, VII, 18, VIII, 19, pp. 88, 96 - 8; Raymond of Aguilers, VIII

pp. 249-50; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-9;

. letter of the clergy of Lucca, *ibid.* p. 166



بالتوصل إلى نوع من التفاهم مع الفاطميين في مصر لأهم أعداء الأتراك ومن سحاقم التسامح مع المسيحيين من رعاياهم. وعلى استعداد دائما للتعامل مع القوى المسيحية. وربما لم يأخذ الصليبيون بهذه النصيحة، غير أنه في بداية الربيع وصلت سفارة مصرية إلى المعسكر الصليبي أمام أنطاكية أرسلها رجل مصر القوي الأفضل وزير الخليفة الصليبي المستعلي. ويدعو أنه اقترح تقسيم الإمبراطورية السلجوقية فيأخذ الفرنج شمال سوريا وتأخذ مصر فلسطين. ولا شك في أن الأفضل كان يعتبر الصليبيين مجرد مرتزقة عند الإمبراطور، ولذلك اقترح أن هذا التقسيم، القائم على أساس الوضع السائد قبل الغزو التركي، سيكون مقبولا على الوجه الأكمل. واستقبل الأمراء الغربيون السفراء استقبالا وديا ولم يلزموا أنفسهم بأية ترتيبات محددة. وبقي المصريون في المعسكر بضعة أسابيع ثم عادوا إلى مصر تصحبهم سفارة فرنجية صغيرة محملة بالهدايا المأخوذة أصلا من الأسلاب التي استولوا عليها في معركة السادس من مارس (آذار). وتعلم الصليبيون من المفاوضات قيمة ما يمكن أن يخرجوا به من مزايا نتيجة للحدس بين القوى الإسلامية، فتحوا حانيا تحاملاهم الدينية وأرسلوا إلى دقاق الدمشقي، على أثر أنباء استعدادات كربوقا، طالبين منه الحياد ومعلنين أنه ليست هم أطماع في أراضيه، ولكن دقاق الذي كان يعتبر أخاه رضوان الحلبي عدوة الرئيسي، لم يوافق على طلبهم لأنه رأى أخاه يعود إلى حياده السابق.<sup>(١)</sup>

(١) استنادا إلى the *Historia Belli Sacri (Tudebodus Imitatus)* p. 181 كان الصليبيون قد أرسلوا فعلا سفارة إلى مصر من نيقية بناء على نصيحة ألكسيوس . وقائمة السفراء مثار شك ؟ وربما شكلوا سفارة أرسلت من أنطاكية . هل أنه من الممكن أن يكونوا قد تذكروا نصيحة الإمبراطور . وقد جاء ذكر السفارة المصرية إلى أنطاكية عند Raymond of Aguilers, VII, p. 247 وبراسطة Anselm of Ribemont عند Stephen of Blois p. 151 و Hagenmeyer, op. cit. p. 151 وبراسطة وعند تاريخ *Gesta Francorum*. VI, p. 96, VII, 19, p. 86, 17. ويذكر ابن الأثير مفاوضات الصليبيين مع الدقاق (op. cit. 193).

وفي أوائل مايو (أيار) أصبح من المعروف أن كربوقا بدأ مسيرته، وكان معه إلى جانب جنوده رجال أرسلهم سلاطين بغداد وفارس وأمراء الأرتق في شمال العراق، وكان دقاق في انتظاره في دمشق كي ينضم إليه، وكان ياغي سيان ما يزال صامدا في أنطاكية برغم الضغوط الشديدة الواقعة عليه. وازداد التوتر بين صفوف الصليبيين، إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا على المدينة أولا فإنهم سوف يسحقون بين الحامية وجيش الغوث الهائل. وفي ذلك الوقت كان الإمبراطور ألكسيوس يجرد حملة في آسيا الصغرى. فأرسل إليه الصليبيون نداء ياتسا للإسراع لنجدتهم. أما بوهيموند الذي عقد العزم على الفوز بأنطاكية لنفسه فكان لديه ما يثير قلقه بصفة خاصة؛ فإذا وصل الإمبراطور قبل سقوط أنطاكية، أو إذا تعذرت هزيمة كربوقا إلا بمساعدة الإمبراطور، فسيصح من الغمال ألا تعاد أنطاكية إلى الإمبراطورية، وكان أغلب الأمراء على استعداد لإعطاء المدينة لبوهيموند فيما عدا ريموند أوف تولوز الذي رفض بموازرة — فيما يبدو — من أدميرال أسقف لوبيوي، وغالبا ما كان الأمراء الصليبيين يناقشون دوافع ريموند لأنه — دون غيره من الأمراء — لم يكن مرتبطا بقسم صريح مع الإمبراطور ولأنه غادر القسطنطينية وهو على وفاق معه؛ ولكنه يكره بوهيموند ويرتاب فيه، ويرى فيه غريبه الرئيسي في القيادة العسكرية للحملة الصليبية، وربما كان هو والمندوب البابوي يعتبران أنه إذا كان القسم باطلا فينبغي أن تكون الكنيسة التي يمثلها أدميرال هي وحدها التي يحق لها أن تخصص الأراضي لمن تشاء. وبعد مناقشات ودسائس تم التوصل إلى حل وسط: فإذا كان بوهيموند هو الأمير الذي يدخل جنوده المدينة قبل غيرهم، وإذا لم يحضر الإمبراطور، فإنها تول إليه. ومع ذلك اعترض ريموند، ولكن كان لدى بوهيموند من الأسباب ما يجعله راضيا. (١)

*Gesta Francorum*, VIII, 19, pp. 100-2, corroborated by Anna Comnena, XI, iv, (١)

William of Tyre (v, 17, 1, pp. 4, vol. III, p. 21  
220-1)

تسبب سوء التقدير الذي وقع فيه كربوقا في منح الصليبيين فرصة لالتقاط الأنفاس. فلم يشأ أن يتقدم إلى أنطاكية تاركاً في الرها جيشاً فرنجياً يهدد جناحه الأيمن، ولم يدرك أن بالدوين كان بالغ الضعف بحيث لا يقدر على الهجوم، وأنه كان بالغ القوة في قلعة العظيمة بحيث يتعذر تنحيته، وهكذا توقف كربوقا أمام الرها طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من مايو (أيار) وهو يهاجم أسوارها دون جدوى، ثم قرر أن الجهد والوقت قد ضاعا بلا طائل.<sup>(١)</sup>

#### مؤامرة للاستيلاء على أنطاكية

وفي تلك الأسابيع الثلاثة الثمينة كان بوهيموند يعمل بهمة كبيرة. ففي وقت ما أقام اتصالاً بأحد الضباط داخل مدينة أنطاكية يدعى فيروز وهو أرميني تحول إلى الإسلام ورفع ياعلي سيان إلى منصب عال في حكومته. وعلى الرغم من إخلاصه الظاهري كان يحمل مشاعر الغيرة من سيده، خاصة وأنه عاقبه مؤخرًا بالغرامة لتخزينه الخبواب. وكان على اتصال بأبناء دينه السابق، وعن طريقهم توصل إلى تفاهم مع بوهيموند ووافق على أن يبيعه المدينة. وظل سر هذه الصفقة في طي الكتمان، ولم يأمن بوهيموند أحداً على هذا السر، وراح يركز علانية على الأخطار الداهية ليضفي المزيد من القيمة على نصره المرتقب.<sup>(٢)</sup>

(١) أنظر ما سبق ص ٣٣٠، والمراجع المذكورة *ibid.* n. 2.

(٢) *Gesta Francorum*, VIII, 20, p. 100 ويطلق عليه صاحب هذا التاريخ "Pirrus" ويقول إنه

كان تركياً. وتطلق عليه Anna Comnena, XI, iv, 2, vol. II, p. 19 "a certain Armenian" ويطلق عليه Radulph of Caen, LXII, pp. 651-2 "arich" "واحد من زعماء المدينة" دون أن يحدد جنسه  
Armenian ويطلق عليه Matthew of Edessa "واحد من زعماء المدينة" دون أن يحدد جنسه  
'one of the chief men of the city' (II, civ, p. 222) ؛ ويطلق عليه Raymond of Aguilers, VIII, p. 251

ولقد أفلحت دعايته للغاية. ففي أواخر مايو (أيار) تغلى كريبوقا عن حصاره العقيم للرها وواصل تقدمه. فذب الذعر في معسكر الصليبيين، وبدأ الهاربون يتسللون من المعسكر بأعداد كبيرة لا تحصى معها محاولات منعهم، إلى أن هرب أخيراً في الثاني من يونيو (حزيران) حشد غفير من الفرنسيين الشماليين واتخذوا طريق الإسكندرونة يقودهم ستيفن أوف بلوا الذي كتب لزوجته من المعسكر وهو مقعّم باليهجة قبل ذلك بشهرين ليخبرها بأحوال الحصار ويصف لها كذلك الانتصار في معركة السادس من مارس (آذار) مركزاً على أهميته الشخصية في الجيش. أما الآن، والمدنية ما تزال صامدة، وحشود كريبوقا على مقربة منها، بدا له أن انتظار مذبة أكيدة إن هو إلا محض حماقة، فهو لم يكن محارباً عظيماً أبداً، وربما يعيش ليحارب في يوم آخر. وينفرد ستيفن من بين جميع الأمراء بحماسة الشديد في إعجاباته بالإمبراطور، ولا بد أن بوهيموند ابتسم عندما رآه يرحل، غير أنه لم يكن ليتنبأ بمدى الفائدة التي سيضيفها رحيله على قضيته.<sup>(١)</sup>

-- عبارة 'quidam de Turcatis' وربما يعني هذه العبارة مسيحي مرتد. أما المصادر العربية : كمال الدين (2-581 pp. cit. op.) وابن الأثير (op. cit. p. 192) فلا تحدد جنسه ، ويطلق عليه الأخير : فيروز . أما الأول فيقول إنه كان صانع أسلحة يعرف باسم "زراد" صانع الزرد أو الدروع ، كان ياهي سيان قد عاقبه لأنه كان يخرن المون . ويقول William of Tyre, v, II, 1, pp. 212-13 - وهو يستند إلى المصادر العربية فيما يتضح - إنه كان ينتمي إلى طائفة "ابن زرة" الحرفية (ترجمة مصطلح باللاتينية quod in lingua latina interpretatur filii loricatoris) . وكان من عائلة لا بأس بها . وتضيف ترجمة وليم الفرنسية القديمة أنه كان 'Hermin' أي أرمينيا .

(١) يقول Fulcher of Chartres, 1, xvi, 7, p. 228 إن رحيل ستيفن حدث في اليوم السابق على سقوط أنطاكية ، أي يوم ٢ يونيو . وهو يقول ذلك بمشاعر الأسف ، لكنه لا يعزو رحيله إلى الخين . ويقول--

ولو أن ستيفن تأخر في رحيله لسبعات قليلة لتحلى عن قراره بالرحيل. ففي نفس ذلك اليوم أرسل فيروز ابنه إلى بوهيموند ليخبره بأنه مهياً لتنفيذ المهمة التي تنطوي على الخيانة، وقد أشيع فيما بعد أنه كان مترددا طوال الوقت وحين الليلة السابقة حينما اكتشف أن زوجته على علاقة مشينة مع واحد من رفاقه الأتراك. وهو الآن قائد برج الأختين والقسم الملاصق له من سور المدينة المواجه لحصن سانكريد، ولذلك استحث بوهيموند على أن يجمع الجيش الصليبي بعد ظهر ذلك اليوم وأن يقوده خارجا باتجاه الشرق كما لو كان ذاهبا ليعترض طريق كربوقا، وبعد أن يسهط الظلام يزحف الجنود عائدين إلى سور المدينة الغربي ومعهم السلاح ليتسلقوا البرج وسيكون هو في انتظارهم مراقبا لما يجري، فإذا ما وافق بوهيموند على ذلك فسوف يعيد إليه ابنه في المساء ليحتفظ به رهينة كعلامة على أنه على أهبة الاستعداد للتنفيذ.

---

== تاريخ *Gesta Francorum*, ix,27, p.140 إنه هرب بسبب المسرّض - ويعزو Raymond of Aguilers, xi, p. 258 هروبه إلى الجن الذي يبدو أنه كان الانطباع العام - ويعزو Guibert of Nogent, xxv, pp.199-200 عن شعوره بضرورة أن يعزى الحرب إلى مكرات . وكان ستيفن قد

التحق في منصب في الجيش ورد كما يلي :

‘ductor’ of the army (*Gesta Francorum*, loc. cit.) ; or

‘dictator’ (Raymond of Aguilers, loc. cit.) ; or

‘dominus atque omnium actuum provisor atque gubernator’ (Stephen of Blois, letter in Hagenmeyer, op. cit. p. 149) .

وبقينا لا يمكن أن يعني ذلك أنه عين قائدا عاما للجيش أو زعيما سياسيا للحملة الصليبية ، إذ أنه لم يتم بالقيادة قط في أية عملية عسكرية ، بينما كان أدوار هو الشخص الوحيد المعترف به علي أن له السلطة السياسية على الأمراء الآخرين . والأرجح أن ستيفن قد عهد إليه بمسؤولية الجانب الإداري للجيش وكان مسؤولا عن تنظيم الإمدادات .

### عشية الهجوم

وأخذ بوهيموند بتصيحته. فعندما اقترب اليوم من نهايته أرسل واحداً من مشاته يُدعى مال كورون يجوب المعسكر آمراً الجنود بالاستعداد للاتطلاق عند غروب الشمس في غارة على أرض العدو. ثم أرسل إلى الأمراء الرئيسيين يدعوهم لمقابلته وهم: أدغار أسقف لوبوي، وريموند، وحوذفري، وروبرت أوف فلاندرز، وأخبرهم لأول مرة بموامرته قائلاً: "الليلة، إن كان الرب ناصرنا، ستصبح أنطاكية في أيدينا". ولم يفصح ريموند عما انتابه من شجن مشاعر الغيرة، وأيد هو ورفاقه المحطوط تأييداً صادقاً.

وعند غروب الشمس شرع الجيش في المسير شرقاً، والفرسان على ظهور حيادهم ميممين شطر أعلى الوادي أمام المدينة بينما جنود المشاة يكدحون على ممرات التلال من خلفهم، وشاهدتهم الأتراك من داخل المدينة وهم ذاهبون فاسترخوا متوقعين قضاء ليلة هادئة. على أنه عند انتصاف الليل صدرت الأوامر في سائر أنحاء الجيش بالعودة إلى الأسوار الغربية والغربية الشمالية، وقبيل الفجر مباشرة وصل جنود بوهيموند أمام برج الأختين، ووضعوا سلماً على الرج تسلقه ستون فارساً الواحد تلو الآخر يقودهم فولك أوف تشارترز، ودخلوا من نافذة عالية على الحائط إلى غرفة حيث كان فيروز ينتظر وهو في حالة من التوتر. وظن أول الأمر أن عددهم غير كاف، وصاح باليونانية: "إن ما لدينا من الفرنج قليل للغاية، أين بوهيموند؟"، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق؛ فمن برج الأختين استولى الفرسان على البرجين الآخرين اللذين كانا تحت إمرته ليتمكنوا رفاقهم من وضع السلالم على الأسوار الممتدة بين الأبراج، بينما ذهب أحد المشاة الإيطاليين ليخبر بوهيموند أن الوقت قد حان ليتسلق الأسوار ويدخل المدينة، فتسلق السور وتحطم السلم من خلفه. وبينما كان بعض الجنود يهرعون بطول الأسوار مباغتين الحاميات في أبراجها، هبط آخرون داخل المدينة وأيقظوا السكان المسيحيين ليساعدوهم على فتح بوابة القديس جورج، وفتحوها على مصراعها

وكذلك بوابة الجسر الضخمة حيث كان سواد الجيش ينتظر. وتدفق الصليبيون عبر البوابتين ولم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن في قتل كل تركي يشاهدونه من الرجال والنساء على السواء". واستيقظ ياغي سيان على ضوضاء المرح والصخب، فأدرك أنه فقد كل شيء. فهرب مع حرسه الخاص على ظهور الخيل عبر المضيق المؤدي إلى البوابة الحديدية ثم إلى جانب التل. إلا أن ابنه شمس الدولة احتفظ برباطة حاشيه وجمع ما استطاع من الرجال وشن طريقه إلى القلعة قبل أن يلحق به الفرنج، وتبعه بوهيموند لكنه فشل في اقتحام القلعة، ولذا رفع رايته الأرجوانية على أعلى نقطة استطاع الوصول إليها، وكانت رؤيتها وهي ترفرف في أشعة الشمس الآخذة في الإشراق تبعث البهجة في نفوس الصليبيين البعيدين أسفلها وهم يدخلون المدينة.

#### الاستيلاء على المدينة

وجمع بوهيموند ما يكفي من الرجال وحاول أن يشدد الهجوم على القلعة، لكنه عاد مدحورا وجرح هو نفسه. وقتل أثناء ذلك شقيق فيروز وهلك كثيرون من المسيحيين. وكان رجاله يفضلون أن يسلبوا المدينة وينهبوا متاجرها، بينما تعزى هو برأس ياغي سيان التي سلمها له أحد الفلاحين الأرمن. وكان ياغي سيان قد سقط من على ظهر جواده أثناء فراره في الممر الجيلي، فتخلى عنه حارسه، فرقد هناك وقد أخذ منه الإرهاق وبدأ في حالة من الذهول، وعندئذ رآه بعض الأرمن وعرفوه فقتلوه في الحال. ونال الذي جاء برأسه إلى بوهيموند جائزة ثمينة، وباع الباقون حزامه وغمده سيفه بستين بيزنطة للقطعة.

وبعوط ليل الثالث من يونية (حزيران) لم يبق تركي واحد على قيد الحياة في أنطاكية، بل إن السكان الأتراك في القرى المجاورة التي لم يدخلها الفرنج بعد أن هربوا

مستنجدين بسكربوقا. وراح الفرنج ينهبون منازل مواطني أنطاكية، المسيحيين منهم والمسلمين على السواء، وبعثرت الكنوز والأسلحة التي عثروا عليها أو دمرت على نحو عاث. ولم يكن يوسع المرء أن يسير في شوارع المدينة دون أن يظأ الجثث التي تعفتت سريعا بفعل حرارة الصيف. لكن أنطاكية عادت مسيحية مرة أخرى.<sup>(١)</sup>

---

(١) ترد الرواية الأكثر نضجا بالحياة عن الاستيلاء على أنطاكية في تاريخ *Gesta Francorum*, VIII, 20, pp. 100-101 علي الرغم من أن هذا التاريخ يفتقر من ذكر قتل برهيمند في الاستيلاء على الحصن ويورد Raymond of Aguilier هذه المعلومات في روايته ، ويقول إن أول صليبي دخل المدينة كان هو Fulk of Chartres (IX, pp. 251-3) ويطلق عليه (LXVI, p. 654) Radulph of Caen اسم William of Chartres 'Gouel of Chartres' ويورد فولشر أوف تشارترز رواية أكثر إيجازا . لحسا رواية William of Tyre (v, 18-23, vol. 1, pp. 222-3) فهي رواية طويلة لكنها مليئة بتفاصيل لا يعتمد عليها وهو يورد القصة المتصلة بمحادثة زوجته فيروز . ويذكر ابن الأثير قرار باغي سيان وموته (op. cit. p. 193).





## الفصل الرابع :

### الإستيلاء على أنطاكية



## الاستيلاء على أنطاكية

"أَلْقَى يَدَيْهِ عَلَى مُسَالِمِهِ، نَقَضَ عَهْدَهُ."

(سفر المزامير: المزمور ٥٥ — ٢٠)

كان الاستيلاء على أنطاكية إنجازاً أدهج قلوب المسيحيين. لكنهم بعدما خبت  
حذوة انتصارهم المسعور، وقبموا أوضاعهم، وجدوا أن موقفهم إنما تحسّن تحسّناً  
طفيفاً عن ذي قبل. لقد فازوا بمزايا عظيمة؛ فلديهم تحصينات المدينة التي لم تخدم في  
المعركة تجميعهم من حشود كربوقا، وجدوا المأوى الذي يسأوي أتباعهم المدنيين  
والكثيرين برغم المرض وبرغم الفرار فلم يعودوا يشكلون عائقاً كما كانوا في المعسكر،  
وقضوا تقريباً على الجيش التركي في المدينة وانتهى بذلك تهديده المتواصل لهم. على أن  
الدفاع عن الأسوار الطويلة يستلزم رجالاً أكثر مما لديهم الآن، والقلعة ما تزال صامدة

وينبغي تطويقها، ورغم أن حاميها كانت بالغة الضعف بحيث لا تقدر على الهجوم إلا أنها تستطيع أن ترصد من قمتها كل حركة في المدينة، وقد استحال منعها من الاتصال بـكربوقا. ولم يجد الصليبيون في المدينة ما كانوا يأملون فيه من مخازن طعام، بل إنهم قد دمروا هم أنفسهم أغلب ثرواتها في نشوة انتصارهم. وبالرغم من ذبحهم للمسلمين فلم يكن المسيحيون محل ثقة وخاصة السوريون منهم الذين ثبت غدورهم من قبل وكانوا لا يتعاملون مع اللاتينيين إلا بقدر ضئيل. لقد كان الغدر السوري أخطر بكثير على جيش داخل المدينة من خطورته على جيش يعسكر خارجها. وفضلاً عن ذلك، أبرز الانتصار سؤالاً سبق أن أظهر بالفعل بوادر الانشقاق في الحملة الصليبية: "لمن تؤول المدينة؟".

#### اقتراب كربوقا

لم يكن هناك بادئ الأمر وقت يتسع لمناقشة مستقبل المدينة؛ إذ أن كربوقا يتقدم ولابد من حماية المدينة من هجومة المائل. وأياً ما كانت الخطط التي يفكر فيها بوهيموند فليس لديه ما يكفي من الجنود لحراسة الأسوار بدون مساعدة زملائه، فينبغي للجميع المشاركة في الدفاع، ولذا تولى كل أمير مسئولية حراسة قسم من التحصينات. وكانت المهمة الملحة التي يتعين على الجيش القيام بها هي تطهير المدينة ودفن الموتى بغاية السرعة قبل أن يتسبب تحلل الجثث في انتشار الأوبئة. وبينما كان الجنود منهمكين في تلك المهمة اتخذ أدمار أسقف لوبيو التدابير لتنظيف كاتدرائية القديس بطرس والكنائس الأخرى — التي دنسها الأتراك — وإعادة إقامة الشعائر المسيحية فيها. وأطلق سراح جون من مسجنه وأعيد إلى كرسيه البطريرقي. وكان جون يونانيا بمقت الشعائر اللاتينية، فهو البطريرق الشرعي وإن كان كرسيه الكنسي ما يزال وثيق العلاقة بروما. ولم يكن أدمار ليسيء إلى الشرعية أو إلى العاطفة السائدة بين الناس بأن يتجاهل حقوق جون. كما لم يكن هناك من الصليبيين المدركين لآلام جون

من أجل العقيدة من يستاء من عودته، فيما عدا بوهيموند الذي تنبأ بأن ذلك ربما لا يتفق ومصالحه. (١)

وما أن استقر الصليبيون في المدينة حين أقبل كربوقا الذي وصل في الخامس من يونية (حزيران) إلى نهر العاصي عند الجسر الحديدي. ثم ضرب معسكره بعد يومين أمام الأسوار في نفس الأماكن التي كان الفرنج يحتلوها مؤخرًا، وعلى الفور أرسل شمس الدولة مبعوثين من القلعة يطلبون مساعدته، لكن كربوقا أصر على تسليم القلعة لجنوده، وتوسل إليه شمس كي يسمح له بالاحتفاظ بالقيادة حتى يتم استرداد المدينة ولكن دون جدوى، فلم يجد مفرًا من تسليم القلعة وعمازها كلها إلى الضابط الحائر على ثقة كربوقا — أحمد بن مروان. (٢)

وأول خطوة احتلها كربوقا هي التوغل داخل المدينة من القلعة. وتوقع بوهيموند ورموند تلك الخطوة الخطرة فشيّدوا سورًا حول القلعة للفصل بينها وبين تحصينات المدينة. ولأن هذا السور هو أضعف قطاعات الدفاع فقد تناوب الأمراء حراسته برحلتهم. وبعد أن قام أحمد بن مروان ببعض عمليات الاستطلاع شن هجومًا على هذا القطاع ربما في باكورة التاسع من يونية (حزيران). وكان يتولى الدفاع عن هذا القطاع يومئذ هيو أوف فيرمندوا وكونت أوف فلاندرز، ودوق نورماندي، وكاد ابن مروان أن يتغلب عليهم لكنهم ردوه في نهاية الأمر بعد أن أنزلوا به خسائر حسيمة. ثم قرر كربوقا إحكام تطويق الفرنج على مسافة أقرب وإرجاء مهاجمتهم إلى أن يضعفهم الجوع، وبذا تكون خسائره أقل ما يمكن، فقام في العاشر من يونية (حزيران) بتغيير مواقع قواته لتطويق المدينة بالكامل، وحاول الصليبيون إعاقة فخرجوا في هجمة شرسة

(١) Albert of Aix, iv, 3, p. 433. He calls John 'virum Christianissimum'

(٢) Kemal ad-Din, op. cit. pp. 582-3; Gesta Francorum, ix, 21, p. 112

ولكنهم سرعان ما اضطروا إلى التقهقر مرة أخرى إلى حيث السلامة داخل الأسوار.<sup>(١)</sup>

وأدى بهم فشلهم إلى حالة من الغم الشديد. ذلك أنهم حينما استولوا على المدينة منذ أسبوع ارتفعت روحهم المعنوية لفترة وجيزة، ثم تدنت الآن إلى الحضيض. فيها هو الطعام يتناقص مرة أخرى حتى بلغ سعر الرغيف الصغير بيزنتية واحدة، والبيض بيزنتين، والدجاجة خمس عشرة بيزنتية، واضطر كثيرون إلى العيش على أوراق الشجر أو الجلود المجففة. وحاول أدميرال أسقف لوبري عبثاً أن يدبر الأمر للتخفيف عن الحجاج الفقراء، وظن الكثير من الفرسان أن ستيفن أوف بلوا قد اختار بقراره المسار الأكثر حكمة. وأثناء ليل العاشر من يونيو (حزيران) تمكنت جماعة يرأسها ثلاثة: ولیم، وأوبري أوف جرانت — ميسنيل، ولاميرت كوت أوف كليرمونت من المرور خلال خطوط الأعداء والإسراع إلى ميناء السويدية حيث كانت السفن الفرنجية راسية في الميناء. وربما كانت بعض سفن حنوا والسفن الأخرى تابعة لأسطول جوينيمر. وأعلن الماربيون أن الجيش الصليبي هالك لا محالة، فأسرعت السفن الراسية برفع مراسيها وأبحرت بحثاً عن ميناء آخر أكثر أماناً ومعها الماربيون إلى أن وصلوا ميناء طرسوس حيث التحقوا بقوات ستيفن أوف بلوا الذي كان يخطط للعودة إلى أنطاكية لدى سماعه بأنباء استيلاء الصليبيين عليها، لكنه ارتدع بعد أن رأى جيش كربوقا من بعيد. وكان ولیم أوف جرانت — ميسنيل هو زوج أخت بوهيموند ماييلا، ولا شك

(١) Kemal ad-Din, *loc. cit.*; *Gesta Francorum*, xi, 21, p. 114; letter of princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op.cit.* p. 162; William of Tyre, vi, 4, 1, p. 240

في أن فرار أحد الأقرباء القريبين بهذه الدرجة من رئيس النورماندين يؤثر أيما تأثير على الجيش كله.<sup>(١)</sup>

#### الكسيوس في طريقه إلى أنطاكية

وبدا للمحاصرين داخل أنطاكية أن فرصة الخلاص الوحيدة هي وصول الإمبراطور وقواته. وكان معروفا أنه انطلق بالفعل من القسطنطينية، وفي الربيع تقدم جون دوكاس من ليديا إلى داخل فريجيا حتى بلغ الطريق الرئيسي الذي سبق أن سلكه الصليبيون الذين أعادوا في بعض الأحيان فتح الطريق إلى أنطاليا. ولذلك رأى الكسيوس أنه من الأسلم أن يأخذ جيشه الرئيسي إلى قلب آسيا الصغرى حتى يوفر المساعدة للحملة الصليبية رغم أن كثيرين من مستشاريه لم يميلوا حملة تأخذه إلى هذه المسافة البعيدة عن عاصمته في بلاد لم يتم تطهيرها بعد من الأعداء. وفي منتصف يونيو (حزيران) وصل الكسيوس إلى فيلوميليوم، وبينما كان يعد العدة لمواصلة مسيرته ظهر ستيفن ووليم في المعسكر، وكانا قد أبحرا معا من طرسوس وسمعا أثناء رحلتهما، ربما في أنطاليا، بمكان وجود الإمبراطور، فتركا رحلتهما لمواصلة الرحلة بحرا وأسرعوا شمالا إلى فيلوميليوم ليؤكدوا للإمبراطور أن الأتراك في أنطاكية الآن، وأن الجيش الصليبي على وشك الإباداة. وفي نفس الوقت تقريبا لحق به بطرس أوف أولبس الذي ترك موقعه في كوماننا شرقي قيصرية ليبلغه بأن هناك جيشا تركيا يتقدم ليضرب الكسيوس قبل أن

(١) Raymond of Aguilers, xi, pp. 256-8; *Gesta Francorum*, ix, 23, pp. 126-8; letter of clergy of Lucca, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 166, Where William of Grant-Mesnil is called 'cognatus Boemundi' في ملاحظاته على أن Ducange

كومنينا في 27, p. ii, *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Grecs*, vol. ii, p. 27

فيورد مراجع حول زوجته Mabilla رغم أنه يفترض أن زواجها قد تم في تاريخ حديث. ويخبرنا Orderic Vitalis, viii, 28, vol. ii, p. 455. أنهما قد تزوجا في أبوليا قبل الحملة الصليبية.



يمكن من الوصول إلى أنطاكية، ولم يكن لدى ألكسيوس ما يدعو إلى الشك في تلك الروايات؛ إذ كان ستيفن صديقاً يمكن الاعتماد عليه، فضلاً عن أن هذه الكارثة لم تكن بعيدة الاحتمال بأي حال من الأحوال. واضطرته تلك الأنباء إلى إعادة النظر في خططه، فإذا كان الأتراك قد استولوا على أنطاكية وقضوا على الفرنج فسوف يواجهون هجومهم لا محالة، وسوف يحاول السلاجقة بلا شك استرداد ما فقدوه ومن وراءهم العالم التركي للتصحر كله، وفي مثل هذه الظروف يصبح استمرار الحملة ضرباً من الجنون. وكانت مسيرة جيشه معرضة بحكم وضعها للهجمات التركية الخطيرة، ولا مجال لأن يفكر في إطالة عطله مواصالاته في هذا المنعطف من أجل قضية عاسرة بالفعل. وحتى وإن كان مغامراً كأمرأء الحملة الصليبية فإن المخاطرة ليست حذيرة بالمحاولة، وإنما هو مسئول عن رعاية إمبراطورية كبيرة معرضة للهجوم، وواجبه الأول ينبغي أن يكون موجهاً نحو رعيته، فاستدعى مجلسه وأخطر أعضائه بضرورة الانسحاب. وكان هناك أمير نورماندي بين مساعديه يدعى جوي وهو أخ غير شقيق لسبوهيموند، وظل في خدمة الإمبراطور لسنوات طويلة، واضطرت نوازع الشفقة في صدره على الصليبيين المروطين، فتوسل إلى الإمبراطور كي يستمر في مسيرته، فربما تكون هناك فرصة لإنقاذهم، غير أنه لم يكن هناك من يؤيد طلبه. وانسحب الجيش البيزنطي العظيم باتجاه الشمال تاركاً نطاقاً مسن الأرض الجرداء تسمى المناطق التي انتزعها الجيش مؤخراً من الأتراك.<sup>(١)</sup>

(١) Anna Gesta Francorum, IX, 27, pp. 140-6 يذكر تدخل جوي Guy أمي بوهيمند ؛ Anna

Peter Comnena, XI, vi, 1-2, vol III, pp. 27-8 وتقول أنا كومينا إن بطرس أوف أولب

Aulps قد أن مع هارين آخرين من أنطاكية . بيد أنه قد ترك حاكماً لـ Placentia التي لا

بد وأنه قد جاء منها ، ومعه أتباع اقتراب الجيش التركي من الشرق لكي يعترض طريق ألكسيوس

في حال تقدمه . وتوضح أنا كومينا أن هذه الأنباء هي التي جعلت ألكسيوس يتخذ طريق العودة

وإذا كان الفرنج قد هزموا فعلاً في أنطاكية فمن الجنون أن يستمر في تقدمه .

ولو أن الكسيوس استجاب لتوسلات جوي لكان ذلك أفضل للإمبراطورية ولسلام العالم المسيحي الشرقي برغم أنه لم يكن بوسعه أن يصل إلى أنطاكية قبل أن تنقضي المعركة الحاسمة. فعندما علم الصليبيون بشائعة عودة الجيش الإمبراطوري بلغت منهم المرارة مبلغها، وتصوروا أنفسهم كمحاريبي المسيح ضد الكفرة، واعتبروا رفضه الإسراع لتحذقهم — مهما بدت ميثوسا منها — عملا من أعمال خيانة العقيدة، ولم يكن بوسعهم تقدير واجبات الإمبراطور الأخرى، وبدلا من ذلك فإن إهماله يبرر كافة الشكوك والكراهية التي يحملونها بالفعل نحو اليونانيين. ولم يغتفر ذلك لبيزنطة البتة، ووجد بوهيموند الأمر كله في صالح طموحه (١).

وتحقق الصليبيون من أن اللوم يقع أيضا على ستيفن أوف بلوا الذي تناوله مؤرخوهم بمشاعر الغضب ونعتوه بالخين، وسرعان ما سبقته القصة إلى أوروبا، وقد عاد ستيفن نفسه متمهلا على مراحل إلى وطنه حيث وجد زوجته وقد أخذ منها الحبل كل مأخذ ولم يهدأ لها بال حتى أعادته إلى الشرق مرة أخرى للتكفير عن خطيئته (٢).

وفي تلك الأثناء كان كربوقا يواصل تشديد الحصار على أنطاكية. وفي الثاني عشر من يوتية (حزيران) شن هجوما مفاجئا كاد يستولي فيه على أحد أبراج الجزء الجنوبي الغربي من السور، لولا أن أنقذت البرج شجاعة ثلاثة فرسان من ماليز، ولكي

---

(١) لم يكن من الممكن أن تصل إلى أنطاكية أخبار انسحاب الإمبراطور إلا بعد هزيمة كربوقا بزم طويل .

أنظر ما يلي الصفحتين ٣٨٣ و ٣٩٠

(٢) Orderic Vitalis, x, 19, vol. iv, p. 118 الذي يذكر حمل أدبلا، إلى أن تمكن من إقناع ستيفن بالذهاب مرة أخرى إلى الحملة الصليبية .

يتجنب بوهيموند تكرار تلك المخاطر أمر يحرق شوارع بأكملها في المدينة بالقرب من الأسوار حتى يتمكن الجنود من المناورة بشكل أيسر.<sup>(١)</sup>

#### تدخل ما وراء الطبيعة

وفي ذلك المنعطف حدثت سلسلة من الأحداث بدت للمسيحيين وكأن السرب يشملهم برعايته مما رفع من معنوياتهم. فقد كان الجنود جوعى وملهوفين، وقد أبقى إيمانهم عليهم حتى تلك اللحظة، وهو الآن إيمان مزعزع لكنه لم ينكسر. وفي مثل هذا الجو تنتشر الأحلام والرؤى. ولأبناء العصور الوسطى إيمانهم بأن الخوارق ليست مستحيلة ولا حتى نادرة جدا، ولم تكن أفكارنا المعاصرة المتصلة بقوى اللاشعور قد ظهرت بعد؛ وإنما يعتقدون أن الأحلام والرؤى تأتي من الرب أو — في بعض الحالات — من الشيطان. ولا يتأتى الشك في الحلم إلا إذا كان صاحبه موضع تكذيب صريح. وعلينا أن نتذكر هذا الموقف عندما نتأمل الحادثة التالية: ففي العاشر من يونيو (حزيران) ١٠٩٨ ميلادية جاء إلى حيمة الكونت ريموند فلاح اسمه بطرس بارثولوميو في ملابسه البالية وطلب مقابلته مع أديمار أسقف لوبوي، وكان قد التحق بالحملة الصليبية حادما لواحد من حجاج بروفانس يدعي وليم — بطرس. ولم يكن الفلاح أميا تماما على الرغم من أصله الضئيل، وإنما كان معروفا بين أقرانه بأنه سيئ السمعة مفرط الانغماس في الملذات. وقصة ذلك الرجل أنه كان يتعذب خلال الأشهر الأخيرة بالرؤى التي كشف له فيها القديس أندرو عن أثر من أقدس آثار العالم المسيحي يمكن العثور عليها، ألا وهو الرمح الذي نفذ في جانب المسيح. وجاءته الرؤيا الأولى عندما

(١) *Gesta Francorum*, IX, 26, p. 136; Radulph of Caen, LXXVI, pp. 660-1 ويفرول

راد ولف أوف كاين إن روبرت الفلندري أحرق الحي ؛ ويذكر *Albert of Aix*, IV, 35, p. 413

الفرسان الآتين من مالين Malines .

حدث زلزال الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) ؛ فبينما كان يصلي في رعب ظهر له فجأة رجل مسن فضي الشعر وبصحته شاب طويل يأخذ جماله بالآليساب، وأخبره الرجل إنه هو القديس أندرو نفسه، وأمره بالذهاب من فوره لمقابلة أسقف لوبسوي والكونت ريموند ليوبخ الأسقف على إهماله في واجبه كواعظ، وليكشف للكونت عن مكان الرمح الذي اطلعه القديس عليه. وبعد ذلك وجد بطرس أنه محمول على الهواء بنفس الهيئة التي كان عليها، مرتديا قميصه وحسب، إلى داخل المدينة حيث كاتدرائية القديس بطرس التي حوّلها الأتراك إلى مسجد، وقاده القديس أندرو من المدخل الجنوبي إلى الكنيسة الصغيرة في الناحية الجنوبية، وهناك اختفى داخل الأرض ليظهر ثانية حاملا الرمح، وأراد بطرس أن يأخذه في الحال. ولكن القديس أندرو أمره أن يعود مرة أخرى ومعه اثنا عشر من رفاقه بعد الاستيلاء على المدينة، وأن يبحثوا عن الرمح في نفس المكان. ثم وجد نفسه وقد حمله الهواء عائدا به إلى المعسكر.

#### رؤى بطرس بارثولوميو

وقال بطرس أنه تجاهل أوامر القديس خشية ألا يستمع أحد إلى رجل فقير مثله، وبدلا من ذلك رحل إلى الرها في حملة لطلب الطعام. وفي العاشر من فبراير (شباط)، وبينما كان جالسا في الحصن القريب من الرها في وقت صباح الديكسة، ظهر له القديس أندرو ورفيقه مرة أخرى وزجره على عصيانه لأوامره وعاقبه بمرض مؤقت في عينية، كما ألقى عليه القديس أندرو محاضرة عن حماية السرب الخاصة مضيفا أن القديسين كلهم مشتاقون لاستعادة أجسادهم ليحاربوا إلى جانبهم. واعترف بطرس بارثولوميو بذنبه وعاد إلى أنطاكية، ولكن شجاعته خذلته مرة أخرى ولم يجرؤ على مفاتحة الأمراء العظام. وفي مارس (آذار) شعر بالارتياح حينما أحذه سيده وتيم —

بطرس في رحلة لشراء الطعام من قبرص. وفي مساء أحد السعف<sup>(١)</sup> العشرين من مارس (آذار)، وأثناء نومه مع سيده في خيمة بميناء السويدية، جاءته الرؤيا مرة أخرى، فأعاد بطرس بارتولوميو اعتذاراته، فقال له القديس أندرو ألا تخاف وأعطاه التعليمات التي ينبغي للكونت ريموند تنفيذها عندما يصل إلى بحر الأردن. وسمع سيده ولیم — بطرس المناقشة ولكنه لم ير شيئا. وعاد بطرس بارتولوميو بعد ذلك إلى المعسكر في أنطاكية ولم يتمكن من مقابلة الكونت، ولذا رحل إلى ماميسترا ليواصل رحلته إلى قبرص. وفي ماميسترا جاءه القديس أندرو غاضبا وأمره بالعودة، وأراد بطرس أن يطيع الأوامر لكن سيده اضطره إلى الإنحار. وجرقت الأمواج السفينة ثلاث مرات عائدة بها، وأخيرا ألقتها على شاطئ جزيرة قريبة من ميناء السويدية حيث ألغيت الرحلة. ومرض بطرس فترة من الزمن، وعندما شفي كان الصليبيون قد استولوا على أنطاكية، فدخل المدينة وشارك في معركة العاشر من يونيو (حزيران) وكعاد أن يقتتل منسحقا بين حصانين، وعلى الأثر ظهر له القديس أندرو مرة أخرى وحادثه في صرامة بحيث لم يعد في مقدوره أن يعصى أوامره، فقص القصة على رفاقه أول الأمر، ورغم ارتياهم فيها ها هو الآن يعيدها على الكونت ريموند وأسقف لوبوي.<sup>(٢)</sup>

(١) (المترجم) : أحد السعف : يوم الأحد السابق علي الفصح ، يحتفل فيه بذكرى دخول المسيح القدس ظاهرا

وقد تتر سف النحل في طريقه

(٢) وردت قصة بطرس بارتولوميو كاملة في Raymond of Aguilers, x, pp. 253-5 وهو يؤمن به

إيماننا مطلقا . والرواية المختصرة الواردة في تاريخ 4-132, pp. IX, 35, *Gesta Francorum* والتي

ربما كتبت في ذلك الوقت ، تظهر تصديقا بالقصة . وكذلك خطاب الأمراء المرسل إلى إيريان الثاني الوارد

في Hagenmeyer, op. cit. p. 163 وهو الخطاب الذي كتب بوهيند مسوده .

ولم يتأثر أديمار بالقصة، واعتبر أن بطرس بارتولوميو شخصية مغمورة لا يعول على قصته وربما استاء من انتقاد حماسه كواعظ، وربما تذكر أنه شاهد في القسطنطينية ربما مقدسا مشهود له بأصالته منذ زمن بعيد، ولكونه رجل كنيسة متحرس لم يكن ليق في رؤى الجاهلاء. أما ريموند، الذي كان في ورعه أكثر بساطة وأشد حماسا، فكان مهيبا للاقتناع، وأعد العدة للبحث الجاد عن الرمح خلال حملة أياك، وفي نفس الوقت عهد إلى واعظ حيثه برعاية بطرس بارتولوميو.<sup>(١)</sup>

وتوالت الرؤى بسرعة. ففي ذلك المساء، وبينما كان الأمراء مجتمعين أعلى المدينة بجوار السور المحيط بالقلعة، طلب قسيس من قائلس (٢) يدعى ستيفن مقابلتهم، وأخبرهم أنه في الليلة السابقة ظن أن الأتراك قد استولوا على المدينة، فاصطحب معه مجموعة من القساوسة إلى كنيسة السيدة العذراء لإقامة قداس شفاعة، وبعد انتهاء القداس استغرق الآخرون في النوم، وبينما كان مستلقيا رأى أمامه هيئة شخص بارع الجسم استفسر منه عمن يكون هؤلاء الرجال، وسره أن يعلم أنهم مسيحيون طيبون وليسوا هراطقة، ثم سأل ستيفن عما إذا كان يعرفه، فأجاب بالنفي لكنه لاحظ هائلة صليبية الشكل تحيط برأسه على النحو الذي يراه في صورة المسيح، وأقر الزائر أنه هو المسيح ثم سأل عمن يكون قائد الجيش، فرد ستيفن بأنه لا يوجد قائد للجيش وإنما

(١) Raymond of Aguilers, *ibid.* p. 255 وعن الرمح الذي حفظ في القسطنطينية أنظر Ebersolt,

*Les Sanctuaires de Byzance*, pp. 9, 24, 116 أنظر أيضا رانسيمان "الرمح المقدس الذي

عثر عليه في أنطاكية "The Holy Lance found at Antioch" في "المختارات البرعجة

Ralph of Caen, *op. cit.* p. 678 ولسرد في vol. LXVIII "Analecta Bollandiana

بطرس السيرة كما أخبر عنها برهمند .

(٢) (الترجم) : قائلس : مدينة جنوب شرقي فرنسا علي بحر الرون .

السلطة الرئيسية في يد أسقف، فطلب المسيح من ستيفن أن يغير الأسقف أن قومه قد أمهوا بشهواتهم واقترافهم الزنا، لكنهم إذا عادوا إلى سبيل الحياة المسيحية فسوف يرسل لهم الحماية في غضون خمسة أيام، ثم ظهرت سيده وضاعة الحيا وقالت للمسيح إن هؤلاء هم الناس الذين كانت تشفع لهم دائما، وانضم إليهما القديس بطرس كذلك، وحاول ستيفن أن يوقظ واحدا من رفاقه ليكون شاهدا على الرؤيا، لكن الزائرين ذهبوا قبل أن يتمكن من ذلك.

#### اكتشاف الرمح المقدس

وكان أديمار على استعداد لقبول هذه الرؤيا وتصديقها، إذ أن ستيفن قسيس حسن السمعة، فضلا عن أنه أقسم على الإنجيل أنه صادق في قوله، ولما رأى أديمار أن الأمراء قد تأثروا بالقصة استحثهم في الحال على أن يقسموا بالسر المقدس ألا يترك أي منهم أنطاكية إلا برضاء الآخرين جميعا، فكان يوهيموند أول من أقسم، وتلاه ريموند، وروبرت النورماندي، وجودفري وروبرت أوف فلاندرز، ثم تبعهم الأمراء الأقل شأنًا، ورفعت أنباء القسم من معنويات الجيش. وزيادة على ذلك، فإن ما ذكره ستيفن من وجود علامة على رعاية إيطية ستحدث خلال خمسة أيام دعم مزاعم بطرس بارثولوميو. وازدادت التوقعات قوة.<sup>(١)</sup>

وفي الرابع عشر من يونيو (حزيران) شوهد نيزك في السماء بدا وكأنه سيسقط فوق معسكر الأتراك، وفي الصباح التالي توجه بطرس بارثولوميو إلى كاتدرائية القديس بطرس ومعه صحبة من اثني عشر شخصا تضمنت الكونت ريموند، وأسقف أورانج،

(١) Raymond of Aguilers, xi, pp. 255-6, *Gesta Francorum*, ix, 24, pp. 128-32

وريموند أوف أجيليه المؤرخ، وظل العمال يحفرون الأرض طوال اليوم، لكنهم لم يجدوا شيئا، فأنصرف الكونت تسبقه خيبة الأمل. وأخيرا وثب بطرس نفسه وهو يرتدي قميصه في الخندق، وأمر الحاضرين جميعا بالصلاة، ثم أخرج قطعة من الحديد وعلسى وجهه آيات الانتصار، وأعلن ريموند أوف أجيليه أنه رآها بينما كانت ما تزال مدفونة في الأرض، وسرعان ما انتشرت قصة اكتشافه في أنحاء الجيش وتلقاها الجميع بحماس وغبطة<sup>(١)</sup>.

وإذا حاولنا الآن أن نحكم على حقيقة ما حدث فستكون المحاولة عقيمة. فقد تم تنظيف الكاتدرائية مؤخرا لإعادة تكريسها لخدمة الرب، وربما شارك بطرس بارتولوميو في هذا العمل بعد عودته إلى أنطاكية، فهو لم يكشف مطلقا عن تاريخ هذه العودة، وبذا تتوفر لديه الفرصة لدفن قطعة الحديد تحت الأرضية، أو ربما كانت لديه موهبة المستنبط بالعصا الذي يعرف مواقع المعادن تحت الأرض. والجدير بالملاحظة أنه حين في ذلك العصر الذي تعتبر المعجزات فيه ممكنة الحدوث بشكل عام، التزم أديمار أسقف لوبيوي بوضوح بوجهة النظر القائلة بأن بطرس مجرد دجال، وكما يظهر من تسمية القصة شارك كثيرون أديمار في عدم ثقته التي لم تكن قد أعلنت بعد، فالعثور على هذا الأثر أثلج صدور المسيحيين، حتى اليونانيين والأرمن، بحيث لم يشأ أحد أن يقصد ما أحدثته من مهجة وغبطة. ومع ذلك، فإن بطرس بارتولوميو نفسه سبب بعض الصدمة لمؤيديه حينما أعلن بعد ذلك بيومين أنه تلقى زيارة أخرى من القديس أندرو، وربما شعر بالغيرة من ستيفن الذي حادته المسيح مباشرة، ولذا أهجه أن يسمع من القديس

(١) Raymond of Aguilers, xi, p. 257 وتذكر جميع المراجع قصة العثور على الرمح، بما في ذلك

أناكرمينيا xi, vi, 7, vol. iii, p. 30 التي تقول إنه مسمار وليس رمحا، ونسب اكتشافه إلى بطرس الناسك، كما ذكر القصة Matthew of Edessa, ii, clv, p. 223 ويقول ابن الأثير

صراحة إن بطرس دفن رمحا بنفسه op. cit. p. 195. أنظر رانسيمان Runciman, op. cit.



أندرو أن رفيقه الصامت الذي ظهر معه في الرؤيا كان هو المسيح بالفعل، ثم أعطاه القديس تعليمات دقيقة عن الطقوس التي ستقام احتفالاً بالاكشاف وإحياء ذكرى السبوتية، ولدى سماع أسقف أورانج بتلك الطقوس الدينية وتفاصيلها ارتاب في بطرس وسأله ما إذ كان يستطيع القراءة. وظن بطرس أنه من الحكمة أن يعلن أنه أمي، واتضح أنه كاذب، ولكن سرعان ما اطمأن أصدقائه إذ أنه منذ ذلك الوقت لم يعد قادراً على القراءة، وسرعان ما عاود القديس أندرو الظهور ليعلن عن معركة وشيكة مع الأتراك لا ينبغي لها أن تتأخر طويلاً لأن خطر الموت جوعاً يتهدد الصليبيين. وأوصى القديس بالصوم خمسة أيام، تكفروا عن خطايا الناس. وعلى الجيش بعد ذلك أن يهاجم الأتراك وسوف يحظى بالنصر. ولا ينبغي لهم أن ينهاؤا عيام الأعداء.<sup>(١)</sup>

ومرض الكونت ريموند، وبذا أصبح بوهيموند القائد الأعلى للجيش، وقرر أن المخرج الوحيد هو شن هجوم شامل على معسكر كربوقا، ومن الجائز أن يكون القديس أندرو قد استوحى نصيحته الأخيرة من مصادرها الأرضية. وبينما كانت معنويات الصليبيين تتحسن كان كربوقا يواجه صعوبات مستزيدة في الحفاظ على تعالفاته؛ فمازال رضوان الخلي متباعداً عن الحملة، لكن كربوقا شعر بالحاجة إلى مساعدته؛ فبدأ يتفاوض معه، مما أغضب دقاق الدمشقي الذي كان عصبياً بسبب العدوان المصري في فلسطين وهو يتلهف على العودة إلى الجنوب، وأما أمير حمص فكانت له ثارات عائلية مع أمير منبج ولم يسعه التعاون معه. وحدث احتكاك بين الأتراك والعرب في قوات كربوقا نفسه الذي حاول الحفاظ على النظام باستخدام سلطته الاستبدادية التي استاء منها كل الأمراء لمعرفتهم أنه مجرد أتايح. وباقتراب الشهر

من نهايته كان الحاربون من المعسكر يزدادون أكثر فأكثر، وعاد الكثير ممن الأتراك والعرب على السواء إلى بلادهم.<sup>(١)</sup>

#### سفارة بطرس الناسك

ولا شك في أن قادة الصليبيين علموا بمتاعب كربوقا فحاولوا إقناعه بالتحلي عن الحصار. ففي السابع والعشرين من يونية (حزيران) أرسلوا إليه سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وواحد من الفرنج يدعى هيرلويين كان يتحدث العربية والفارسية، ولاختيار بطرس الناسك دلالة على أنه استعداد سمعته التي كانت قد تلوثت بمحاولته الفرار قبل ذلك بخمسة أشهر، وربما لم يذهب في هذه السفارة أحد من القادة عشية ألا يحترم الأتراك حصانة المبعوثين، وقد اختير بطرس الناسك باعتباره أفضل المعروفين من غير المقاتلين مع الجيش، ويعتبر قبوله القيام بهذه المهمة دليل على شجاعته، وأسهم في الحفاظ على هيئته. ولا تدري الشروط التي كان مسموحا لبطرس أن يعرضها، فمن الواضح أن الأحاديث التي يقولها المؤرخون المتأخرون على لسان كل من بطرس وكربوقا مجرد تخيلات، وكما يقول بعض المؤرخين ربما أثير اقتراح إجراء سلسلة من المبارزات الفردية تقرر مصير الأمر كله. وعلى الرغم من ضعف كربوقا المتزايد فقد استمسك بضرورة التسليم دون قيد أو شرط، ورجعت السفارة حاوية الوفاض، ولكن ربما اكتسب هيرلويين بعض المعلومات النافعة عن طبيعة الأحوال في المعسكر التركي.

ولم يعد هناك مقر من القتال بعد فشل السفارة. وفي باكورة يوم الاثنين الثامن والعشرين من يونية (حزيران) قام بوهيموند بتنظيم الجنود الصليبيين للعمل، فقسم الجيش إلى ستة جيوش: الأول من الفرنسيين والفلاندرز بقيادة هيو أوف فيرمندوا

Kemal ad-Din, *op. cit.* 583; Abu'l Feda, *Moslem Annals*, p. 4; Ibn al-Athir, <sup>(١)</sup> *op. cit.* p. 194

وروبرت أوف فلاندرز، والثاني من اللوثاريين<sup>(١)</sup> بقيادة جودفري، والثالث من النورمانديين القادمين من نورماندي بقيادة الدوق روبرت، والرابع من أبناء تولوز وبروفانس بقيادة أسقف لوبوي بسبب مرض رموند الشديد، والخامس والسادس من النورمانديين القادمين من إيطاليا بقيادة بوهيموند وتانكريد، ولكي لا تغيب القلعة عن أعينهم تركوا في المدينة مائتي رجل يقودهم رموند من فراش مرضه. وصعد بعض القساوسة ووعاظ الجيش على الأسوار يقيمون قدس شفاعته، بينما سار البعض الآخر مع الجنود. ومنح رموند أوف أجيليه شرف حمل الرمح المقدس في المعركة، ورفرفت رايات الأمراء المميزة لكل أمير عن الآخر، لكن دروع الفرسان كانت ملطخة ببعض الشيء واضطر كثيرون ممن فقدوا حيولهم إلى السير راحلين أو امتطوا دواب الخيل الأخرى، على أن شجاعة الجنود — التي عززتها علامات الرعاية الإلهية التي ظهرت مؤخرا — بدت مرتفعة وهم يخرجون الواحد تلو الآخر عبر الجسر المحصن.<sup>(٢)</sup>

#### الانتصار على كربوقا

وأثناء ظهورهم وهم يخرجون من البوابة حاول القائد العربي وثاب بن محمود إقناع كربوقا بمهاجمتهم على الفور، ولكن كربوقا كان يخشى أن هو هاجمهم بغاية السرعة فسيقضي على طليعة الجيش الصليبي وحسب، بينما لو انتظر فسوف يتخلص منهم جميعا بضربة واحدة. وكان يفضل عدم المضي في ذلك الحصار المرهق نظرا لحالة جنوده السيئة، لكنه عندما رأى جمع الفرنج تردد وأرسل مبعوثا، بعد قوات الأوان،

(١) (المترجم) : نسبة إلى مملكة لوثارنجا التي أسسها سنة ٨٥٥ ميلادية " لوتير " أصغر أبناء الإمبراطور الكارولينجسي " لويس الأول " (الورع) ، وكانت تضم أجزاء من شمال شرق فرنسا وغربها وما حاورها .

(٢) *Gesta Francorum*, IX, 28, pp. 146-50; Fulcher of Chartres, I, xxi, 1-2, pp. 247-9; Raymond of Aguilers, XI, p. 259; Albert of Aix, IV, 44-9, pp. 420-1

يعلن أنه يقبل مناقشة شروط الهدنة، ويتجاهل الفرنج رسوله وواصلوا تقدمهم. واتبع كبريوقا الوسيلة التركية المعتادة، فانسحب لاستدراجهم إلى أرض صعبة حيث يحظر رماته سهامهم فجأة على صفوفهم، وفي نفس الوقت أرسل فصيلة تلتف حولهم ليحصرها مسيرتهم بجوار النهر حيث لا تتوفر الحماية لهذا الجانب؛ غير أن بوهيموند كان مستعداً لذلك وكون جيشاً سابعاً بقيادة رينالد أوف تول لصد الهجوم. وعلى الجبهة الرئيسية انهب وليس القتال وسقط من بين القتلى حامل راية أدميرال الخاص، لكن رماة الأتراك لم يتمكنوا من وقف تقدم الصليبيين وبدأ الصف التركي بهتز، وشدّد المسيحيون ضغطهم على الأتراك وقد شجعهم أن رأوا على جانب التل جماعة من الفرسان على حيول بيضاء يلوحون برايات بيضاء، وتعرفوا على قادتها: القديس جورج، والقديس ميركوري، والقديس ديمتريوس. وأما العون العملي الأكبر فقد جاءهم من قرار الكثير من أمراء كبريوقا بالتحلي عن قضيتهم لخشيتهم من أن يجعله الانتصار هائل القوة ويصبحون هم أول ضحاياهم، فبدؤوا ينسحبون من الميدان وعلى رأسهم دقاق الدمشقي مما نشر الذعر بين الجنود. وأشعل ربوقا النيران في الخشائش الجافة أمام خطوطه في محاولة عقيمة لإعاقة الفرنج إلى أن يستعيد النظام. وكان سقمان الأرمني وأمر حصصهما آخر من بقي على إخلاصه له، وحينما لاذا بالفرار كذلك أدرك أن الأمر قد انتهى وتغلى عن المعركة، وتفتت الجيش التركي كله مذعوراً، والتزم الصليبيون بنصيحة القديس أندرو بالآلا يتخلفوا لسلب معسكر الأعداء، وتبعوا الفارين حتى الجسر الحديدي وهم يقتلون أعداداً غفيرة منهم، وحاول آخرون الاحتماء بمصن تانكريد فأحاط بهم الصليبيون وقضوا عليهم. واشترك أبناء البلاد من السوريين والأرمن في مذبة قضوا فيها على كثيرين ممن نجوا من المعركة، ووصل كبريوقا إلى الموصل ومعه بقايا قواته، ولكنه فقد قوته وهيئته إلى الأبد.

وكان أحمد بن مروان، أمر القلعة، يرقب المعركة من القلعة أعلى الجبل، وعندما رأى الأتراك يهزمون أرسل رسولا في المدينة يعلن استسلامه، واقتيد الرسول إلى عيمة ريموند الذي أرسل راية من راياته لرفعها على برج القلعة، لكن أحمد الذي علم أن الراية ليست راية بوهيموند رفض رفعها. ويبدو أنه كان قد أعد ترتيبا سريا مع بوهيموند يُنفذ في حالة انتصار المسيحيين، ولم يفتح بوابته إلى أن ظهر بوهيموند نفسه، وسمح لأفراد الحامية بالخروج سالمين بعد أن تحول البعض منهم إلى المسيحية والتحقوا بجيش بوهيموند بما فيهم أحمد ذاته.(١)

ولم يكن انتصار الصليبيين متوقعا، ولكنه كان انتصارا كاملا حسم بقاء أنطاكية في حوزة المسيحيين، وإن لم يحسم مسألة من تحول إليه المدينة من بين المسيحيين. ومن الواضح أن القسم الذي أقسمه جميع الأمراء للإمبراطور، عدا ريموند، يستوجب تسليم المدينة. لكن بوهيموند أظهر بالفعل نواياه في الاحتفاظ بها. وكان رفاقه، خلا ريموند، على استعداد لأن يرتضوا ذلك لأنه هو الذي خطط للاستيلاء عليها وهو السدي استسلمت له القلعة، وإنما ضايقتهم قليلا الاستخفاف بالقسم الذي أقسموه. غير أن الإمبراطور بعيد جدا. ولم يخف لنجدتهم، وتركهم مندوبه، وقد استولوا على المدينة وهزموا كربوقا دون مساعدة منه، وبدأ لهم من غير العمل ترك حامية في المدينة إلى أن يتنازل ألكسيوس فيحس بنفسه أو يرسل واحدا من ضباطه، كما بدا لهم أن الدفاع عن حقوق من هو غائب أمر يخلو من السياسة ومضيق للوقت ومخاطرة بأن يعاديههم أبرز العسكريين من بينهم، وربما يتخلى عنهم. وكان من الواضح لسجودفري أوف لورين أن الوقوف في طريق طموحات بوهيموند أمر يتصف بالحماقة، أما ريموند فكان

(١) Raymond of Gesta Francorum, IX, 29, pp. 150-8 (وهي أكثر الروايات حيوية)؛ Raymond of Aguilers, XII, pp. 259-61; Fulcher Chartres, XXXII-XXXIII, pp. 251-8; Albert of Aix, IV, 47-56, pp. 421-9; Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, op. cit. p. 160; Kemal ad-Din, loc. cit.; Ibn al-Athir, op. cit. pp. 195-6

دائما يعاني مرارة الغيرة من بوهيموند. وليس من الإنصاف أن نعتبر أن غيخته هي الدافع الوحيد وراء تأييده ألكسيوس في مطالبه؛ إذ كان قد أقام علاقة صداقة مع ألكسيوس قبل أن يغادر القسطنطينية، وكان من الحصادة بحيث أدرك أن تقصيرهم في إعادة أنطاكية إلى الإمبراطورية سيفقدهم حسن نوايا الإمبراطور التي تعتبر ضرورية بالنسبة لهم إذا ما أرادوا المحافظة على خطوط مواصلاتهم، وإذا ما أرادوا كبح جماح المسلمين الذين سيقومون بعمل مضاد لا محالة. فضلا عن أن الحرب الصليبية لن تصبح جهدا مبنولا من عالم مسيحي موحد. وشاركه أديمار أسقف لوبوي الرأي، إذ كان عاقد العزم على التعاون مع المسيحيين الشرقيين، وهذا بلا شك ما يريده سيده البابا إيربان الذي كان يدرك خطورة الإساءة إلى بيزنطة.<sup>(١)</sup>

#### طباع سيئة

وربما مارس أديمار أسقف لوبوي نفوذه لإرسال هيو أوف فرمنتوا إلى الإمبراطور ليشرح له الموقف. وكان هيو، بعد أن أصبحت أنطاكية آمنة، يرغب في العودة إلى موطنه عن طريق القسطنطينية، وكان الصليبيون ما يزالون يعتقدون أن ألكسيوس في طريقه إليهم عبر آسيا الصغرى، ولم تكن قد وصلتهم بعد أنباء انسحابه في أعقاب مقابلته مع ستيفن أوف بلوا، وكان في مأمول أديمار وريموند أن ينجح هيو في إقناع ألكسيوس بالإسراع إليهم. وفي ذات الوقت تقرر أن يبقى الصليبيون في أنطاكية حتى أول نوفمبر (تشرين الثاني) قبل أن يشرعوا في المسير إلى القدس. وكان قرارا طبيعيا نظرا لما يعانيه الجيش من إجهاد، كما أن السير في قيظ صيف سوريا، وفي طريق تكاد أن تكون مجهولة تندر فيها المياه، بدأ عملا من أعمال الحمق، وفضلا عن ذلك لا بد

(١) Albert of Aix, v, 2, pp. 433-4 دور أديمار تميمي .

أولا من حسم مسألة أنطاكية، ولا شك في أن أديمار كان يأمل في وصول الإمبراطور قبل ذلك الموعد. وانطلق هيو في وقت مبكر من يولية (تموز) بصحبة بالدوين أوف هينولت، وفي الطريق عبر آسيا الصغرى هاجم الأتراك جماعته وأوسعوهم ضربا، واحتفى بالدوين كوت هينولت ولم يعرف مصيره مطلقا. وحل فصل الخريف في القسطنطينية قبل وصول هيو إليها وقبل أن يقابل الإمبراطور ويتخبر بالقصة الكاملة لأنطاكية. وأمسى من المتعذر إعداد حملة تعبر جبال الأناضول، ولذا رأى ألكسيوس أنه من غير المجدي الارتحال إلى أنطاكية قبل الربيع التالي.<sup>(١)</sup>

وفي ذات الوقت ازدادت الطبايع حدة في أنطاكية. ففي بداية الأمر كانت قوات كل من بوهيموند، ورموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز قوات تحتل القلعة بصورة مشتركة، واحتفظ بوهيموند بالسيطرة على الأبراج الرئيسية وبجرح في طرد جنود زملائه. وربما تم ذلك بموافقة جودفري وروبرت وفرض الأمر على ريموند رغم اعتراضه، فاشتد حقه ورد على ذلك بأن انفرد بالتحكم في الجسر الحصن وقصر ياغي سيان. غير أن ريموند كان مريضا جدا ولا يستطيع اتخاذ خطوات عملية، والآن سقط أديمار مريضا أيضا، ولقي الفرنسيون الجنوبيون، وقد غاب قائداهما، معاملة سيئة من الجنود الآخرين ولا سيما النورماندين، فتلهف الكثير منهم على أن يتم الصلح بين ريموند وبوهيموند الذي كان يتصرف وكأنه سيد المدينة بالفعل. وما أن انتشرت أنباء هزيمة كربوقا حتى أسرع الكثيرون من أبناء جنوا إلى أنطاكية متلهفين على أن يكونوا أول من يستولي على ثمارها. وفي الرابع عشر من يولية (تموز) أعطاهم بوهيموند موثقا يسمح لهم بسوق وكنيسة وثلاثين منزلا؛ ومن ثم أصبحوا يدافعون عن مطالبه واستطاع هو أن يعتمد على مساعدتهم كي تظل اتصالاته بإيطاليا مفتوحة، ووافقوا

(١) *Gesta Francorum*, x, 30, pp. 161-2; *Albert of Aix*, v, 3, pp. 434-5

على موازرتة في أنطاكية ضد جميع الوافدين إليها باستثناء ريموند كونت تولوز، ففسي حالةالصدام معه سوف يتقون على الحياد.<sup>(١)</sup>

وبينما كان ريموند وبوهيموند يتربص كل منهما بالآخر متحفزا، رحل النبلاء الأقل شأنًا لينضموا إلى بالدوين في الرها، أو خرجوا في حملات للنهب والسلب، أو ليقبضوا لأنفسهم إقطاعيات صغيرة في الريف المحيط. وقام بأكثر هذه الغارات طموحا ريموند بيليت القادم من مقاطعة ليموزين الفرنسية، وهو من جيش ريموند، وقد خرج في السابع عشر من يولية (تموز) عبر نهر العاصي واتجه شرقا وبعد ثلاثة أيام احتل مدينة تل مناس حيث تلقاه سكانها السوريون مرحبين. وبعد استيلائه على حصن تركسي في الجوار وأصل تقدمه لمهاجمة مدينة أكبر هي معرة النعمان بجيش يتألف أساسا من المسيحيين المحليين، لكنهم لم يعتادوا حمل السلاح، وعندما واجهوا الجنود الذين أرسلهم رضوان الحلبي لأنقاذ المدينة انقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار، ولكن رضوان لم يستطع طرد ريموند بيليت من تل مناس.<sup>(٢)</sup>

#### موت أديمار أسقف لوبوي

وفي يولية (تموز) انتشر وباء خطير في أنطاكية لا نستطيع أن نحدد طبيعته بدقة. وأغلب الظن أنه كان وباء التيفود نتيجة لحصار ومعارك الشهر الفائت وعدم دراية الصليبيين بالاحتياطات الصحية الضرورية في جو الشرق. وكانت حالة أديمار الصحية

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 261-2. شاق استعمار السفن الجنوبية مع بوهيموند براد فسي

Hagenmeyer, op. cit. pp. 155-6

Gesta Francorum, x, 30, pp. 162-4, Kemal ad-Din, op. cit. p. 584 (٢)



متوقعة لبعض الوقت، فكان أول الضحايا البارزين لهذا الوباء، ومات في أول أغسطس (آب) (١).

كان موت أديمار مأساة من أعظم مآسي الحملة الصليبية. وهو على صفحات المؤرخين شخصية غامضة نوعا ما، لكنهم يصورونه على أنه قد مارس نفوذا شخصيا أكثر من أي صليبي آخر، وحظي بالاحترام كمثل البابا، وفازت شخصيته بود الجيش كله، لشافته ورعايته للفقراء والمرضى، ولتواضعه ولأنه لم يكن عدوانيا قط، وإنما لديه الاستعداد الدائم لبذل النصيحة الحكيمة حتى في الأمور العسكرية. وكان كقائد عسكري يجمع بين الشجاعة والحصافة، وإليه وإلى استراتيجيته يعزى انتصار دوريليوم بلرحة كبيرة، وقد ترأس الكثير من مجالس الجيش أثناء حصار أنطاكية. ومن الناحية السياسية كان يعمل على إيجاد تفاهم طيب مع المسيحيين الشرقيين، سواء مع بيزنطة أو مع كنائس سوريا الأرثوذكسية. واستحوذ على ثقة البابا إيربان وعرف آراءه، وأمكن في حياته كبح التعصب الفرنجي العنصري والدين، كما أمكنه الحيلولة دون أن يتسبب الأمراء بطموحاتهم الأنانية وخلافاتهم في الإضرار بالحملة الصليبية إضرارا لا سبيل إلى إصلاحه. وبرغم حرصه على ألا يحاول السيطرة على الحركة الصليبية مطلقا، فقد اعتبر قائدا للحملة الصليبية — كما نعلم من القسيس ستيفن الذي أبلغ المسيح بذلك في رؤياه. وبعد موته لم يعد هناك من له السلطة العليا المهيمنة، وقد ورث أفكاره ريموند كونت تولوز الذي سبق أن ناقش البابا إيربان في السياسة الصليبية منذ وقت طويل. على أن ريموند كونت تولوز لم يكن له ما لسأديمار من اقتدار، وإن كان يوسعه التفاوض مع بوهيموند حوار الند للند فإنه لم يكن المتحدث باسم الكنيسة، وفي

(١) *Gesta Francorum*, x, 30, pp. 166; Raymond of Aguilers, xiii, p. 262; Fulcher of Chartres, I, xxiii, 8, p. 258; letter of the princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 164

غيابه لم يكن لأي أمير من سعة الأفق ما يوهله للحفاظ على وحدة العالم المسيحي، وإن إحسان أديمار وحكمته وتكامل شخصيته لم تكن أبداً محل مساءلة من رفاقه، حتى أولئك الذين كان يعارض طموحاتهم. وقد بكاه أتباع بوهيموند بنفس القسدر من الإخلاص كأبناء جلدته من الفرنسيين وأقسم بوهيموند أن يعمل جنته إلى القدس — لقد تأثر الجيش كله وانزعج لموته.

ومع ذلك، كان هناك رجل واحد لم يشعر بالأسف لموته وهو بطرس بارتولوميو الذي لم يغتفر أبداً للمندوب البابوي تكذيبه للرؤى التي رآها. وأخذ يتأرّه بعد موته بيومين؛ فأعلن أن القديس أندرو زاره مرة أخرى مصطحباً معه في هذه المناسبة أديمار الذي أعلن أنه قد عوقب على عدم تصديقه فقطى الساعات التي تقلت الفترة منذ موته في الجحيم، ولم ينقذه سوى صلوات رفاقه، خاصة صلوات بوهيموند، والمبشات النقدية القليلة التي تبرع بها لصيانة الرمح، وقد نال الغفران وطلب أن يبقى جسده في كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية. ثم قدم القديس أندرو النصيح للكونت ريموند قائلاً إنه ينبغي إعطاء أنطاكية لذلك الذي يطالب بها حالياً إذا ما ثبت أنه رجل ورع، ذلك الورع الذي ينبغي أن يقرره بطريق يتم انتخابه من بين أتباع الطقوس اللاتينية، وعلى الصليبيين أن يندموا على عطاياهم وأن يواصلوا السير إلى القدس التي لا تبعد سوى مسافة عشرة أيام، لكن الرحلة قد تستغرق عشرة أعوام إن لم يعودوا إلى العادات الأكثر ورعاً. أي أن بطرس بارتولوميو وأصدقائه من البروفانسال اعتبروا أنه ينبغي السماح لبوهيموند بالحصول على أنطاكية طالما يتعهد بتقديم المساعدة إلى الحملة الصليبية، وأنه ينبغي للجيش أن ينطلق بسرعة إلى القدس، وألا يكون هناك تعامل مع البيزنطيين ولا مع الكنائس الأرثوذكسية المحلية.

وتسبب هذا الوحي في إحراج ريموند. فكان يعتقد اعتقاداً مخلصاً في الرمح المقدس بالإضافة إلى أن وجود الرمح مع جنوده أضفى عليه الهيبة. ورغم أن كثيرين ربما يقولون إن الانتصار في المعركة مع كربوقا يرجع إلى استراتيجية بوهيموند، فكان

هناك كثيرون آخرون ينسبون الانتصار إلى الرمح المقدس وبالتالي إلى ريموند بطريق غير مباشر. على أن مصدر السلطة الرئيسية الآخر لـ ريموند ينبع لارتباطه الطويل بأديمار، وإذا كان للرسول الإلهي الذي كشف عن موضع الرمح أن يناقش رأي أديمار، وينكر السياسة التي ورثها منه ريموند، والتي تناسب مع أراء ريموند الخاصة به، فلا بد له من ألا يعتمد على ما تضيفه عليه صداقته لأديمار، ومن ثم بدأ يحاور ويداور؛ فبينما ظل مخلصا لاعتقاده في الرمح أظهر تشككه في أن رؤى بطرس بارثولوميو مسا تزال صحيحة. فعلى الرغم من كلمات القديس أندرو فهو ما يزال يؤكد، ومعه آخرون، أن أنطاكية ينبغي أن تعطى للإمبراطور. ونتيجة لذلك وجد نفسه في موقف يعارضه أغلب جنوده.

وتولد انطباع سيئ في صفوف عامة الجيش من جراء الهجوم على أديمار بعد وفاته. وهذا الهجوم وإن كان بمثابة إعلان عن عدم إيمان المشدوب البابوي بالرمح فإنه أحيى الشكوك التي راودت الكثيرين في بادئ الأمر. وبدأ النورمانديون والفرنسيون الشماليون بوجه خاص — وهم دائمو الكراهية لأبناء بروفانس — يشجبون الرمح ويستخدمون فضيحة التزوير لتكذيب الكونت ريموند ومخططاته. وبدفاعهم عن سمعة أديمار، استطاعوا العمل ضد السياسة التي كان ريموند يدافع عنها وما تنطوي عليه من إيمان بالرمح. ولنا أن نفترض أن بوهيموند كان مستمتعا بهذا الموقف<sup>(١)</sup>.

#### مسألة اللاذقية

وبانتشار الرباء في أنحاء أنطاكية لجأ قادة الصليبيين إلى مناطق أخرى من البلاد .

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 262-4 ويبدو أن بوهيموند قد بدأ في ذلك الوقت تقريبا يلقي

ظلال الشك على أصالة الرمح (Radulph of Caen, *loc. cit.*)

فغير بوهيموند جبال الأمانوس إلى داخل كيليكيا حيث عزز الحاميات التي تركها تانكريد هناك في الحريف الغائث والتي رحبت به، وكان في نيته أن تضم إمارته الأنطاكية مقاطعة كيليكيا. وذهب جودفري شمالا إلى مدينتي تل بشير ورواندان اللتين سلمهما له أخوه بالدوين، وكان جودفري غيورا من نجاح أخيه، وكان يود أن يكون له نصيبه من الأراضي بالقرب من أنطاكية شأنه شأن غيره من الأمراء، ولذلك ربما تعهد بإعادة المدينتين إلى أخيه بالدوين إذا ما سار الجيش إلى فلسطين. وأما تحركات ريموند فليست أكيدة. بينما ذهب روبرت النورماندي إلى اللاذقية.<sup>(١)</sup>

وكانت اللاذقية قبل الغزو التركي هي أقصى ميناء جنوبي للإمبراطورية البيزنطية، واستولى عليها الأتراك سنة ١٠٨٤ ميلادية، لكنها خضعت فيما بعد لأمر شيزر العربي، وفي حريف ١٠٩٧ ميلادية هبط جوينيمير أوف بولونيا على الميناء واستولى عليه وبقيت حاميته هناك إلى ما بعد الشتاء. ولكن حدث في مارس (آذار) أن أبحر أسطول إنديجار أثلنج بعد تفريغ إمدادات الصليبيين في السويدية إلى اللاذقية وطرد رجال جوينيمير واستولى على المدينة باسم الإمبراطور، لكنه لم يستطع أن يترك فيها سوى فصيلة صغيرة لحمايتها، ولذا تلقى الجيش الصليبي نداء لاستكمال الدفاع، فما أن تم الانتصار على كربوقا حتى ذهب روبرت النورماندي مليا النداء حيث سلمت إليه اللاذقية توطئة لتسليمها إلى الإمبراطور. على أن مفهوم الحكم لم يكن يعني لروبرت سوى حيازة أكثر قدر ممكن من الأموال من المحكومين، وبذا بات حكمه ممقوتا من عامة الناس حتى أبحر على ترك المدينة بعد أسابيع قليلة، والآن حاقها حامية مرسله من إيوستاسيوس فيلوكاليس حاكم قبرص التابع للإمبراطور.<sup>(٢)</sup>

(١) Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Albert of Aix, v, 4, p. 435, 13, pp. 440-1

(٢) من مسألة اللاذقية أنظر :

Chalandon, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 205-12, and :—

وفي سبتمبر (أيلول) خفت وطأة الوباء وعاد الأمراء إلى أنطاكية حيث اجتمعوا في الحادي عشر من الشهر لوضع مسودة خطاب إلى البابا إيمان بييان تفصيلات الاستيلاء على أنطاكية ونبا وفاة مندوبه البابوي. وشعروا منهم بالحاجة إلى سلطة عليا تسيطر على الفرق المتنازعة استحوه على أن يأتي بنفسه إلى الشرق مؤكداً أن أنطاكية دائرة أسقفية أسسها القديس بطرس، وباعتباره وريثاً للقديس بطرس فينيغسي تنصيه فيها، كما ينبغي له زيارة المدينة المقدسة ذاتها، وهم على استعداد لأن ينتظروا

---

== David, *Robert Curthose*, pp. 230 ff., and :

Albert of Aix, VI, 45, pp. 500-1.

ويقول هذا الأخير (ألبرت أوف آيكس) إن Guynemer أحد اللاتين من الأتراك في حريف سنة ١٠٩٧م واحتفظ بها باسم ريموند التولوزي Raymond of Toulouse ويقول Orderic Vitalis إن Edgar Atheling والإنجليز أخذوها من الإمبراطور ، في وقت ما من أوائل عام ١٠٩٨ م ، وعهدوا بها إلى روبرت النورماندي ( loc. cit. on p. 228n 1). أما David, loc. cit. فيكذب قصة ألبرت ويقول إن الإنجليز لابد وأن أخذوها مباشرة من الأتراك وأن روبرت كان هناك في شتاء عامي ١٠٩٧-١٠٩٨م. ويخبرنا ريموند أوف أجيليه أن روبرت كان غائبا عن أنطاكية في وقت الحملة في ديسمبر ١٠٩٧ م . غير أنه من الشكوك فيه ما إذا كان الإنجليز قد جأوا أسام الساحل السوري قبل شهر مارس . ويقول Radulph of Caen إن روبرت ذهب إلى اللاتينية ، السن كانت خاضعة لحكم الإمبراطور ، في وقت فرار ستيفن أوف بلوا (LVIII,p.649) . غير أنه اشترك في المعركة ضد كبريوقا بعد ذلك بأيام قليلة ، في الوقت الذي تؤكد كافة المصادر وجوده . ويقول Nogent (XXXVII, Guibert of p. 254) إن روبرت كان قد حكم اللاتينية ذات مرة لكنه انجسب بسبب ظلمه في الحياة المالية . وقد أوردت أنا الرواية التي أعطاها مقنعة بأقصى درجة .

حضوره قبل أن يواصلوا المسير إلى فلسطين<sup>(١)</sup>. وتصدر اسم يوهيموند قائمة أسماء الأمراء، وأغلب الظن أن كانت أسراره هو الذي كتب الخطاب. ويظهر أن غياب المندوب البابوي فيما أُلحِق إليه ضمنا من نية لحقوق البطريرك جون وفي الإشارة العدائية إلى الطوائف المسيحية الوطنية التي ألحمت بأهنا طوائف هرطيقية. ولم يتوقع الصليبيون أن يتمكن البابا من الارتحال إلى الشرق، لكن هذه الدعوة مكتتهم مرة أخرى من تأجيل البت في مصر أنطاكية، فسيرسل البابا بلا شك مندوبا بابويا آخر يكون مسئولاً عن القرار. ومن الواضح أن الإمبراطور لن يتوغل داخل سوريا في ذلك الفصل من العام، وربما علموا بانسحابه من فيلوميليوم.

#### غارات الصليبيين

وساءت أحوال الجنود والحجاج إلى حد بعيد. فلم يكن هناك حصاد لأية محاصيل في سهل أنطاكية بسبب الحرب وما يزال الطعام ناقصا. وبدأ ريموند في تنظيم غارات على أراضي المسلمين تهدف إلى الحصول على الطعام، وقبل أن يستقر عزمه على ما يهدف إليه دعاه جودفري ليشترك معه في حملة على مدينة أعزاز الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يصل بين الرها وتل بشير وبين أنطاكية، وكان عمر — أمير أعزاز — في حالة تمرد على سيده رضوان الحلبي الذي كان في طريقه لمعاقبته، وكان أحد قادة عمر قد سعى سيدة فرنجية وأحبها، وهي أرملة أحد فرسان اللورين، واقترحت عليه أن يستنجد بجودفري لمساعدته، واستجاب جودفري ميتهاجا فكان يقلقه أن تبقى مدينة أعزاز تابعة لرضوان. وقد قبل ريموند دعوة جودفري لمساعدة عمر وأصر على تسليم ابن عمر كرهينة، كما أرسل بالدوين جنودا من الرها. وباقتراب الجيش المسيحي انسحب رضوان من أعزاز وثبت جودفري عمرا على المدينة بعد تقديمه الولاء، وتمكن ريموند من جمع المئون من الجوار ولكنه من بخساتر حسيمة من حراء الكمائسن التركية التي نصبت في طريق عودته. وتدل هذه الواقعة على استعداد أمراء

(١) خطاب الأمراء إلى إربان الثاني في 5-161. Hagenmeyer, op. cit.

المسلمين للاستعانة بمساعدة الفرنجة في خلافاتهم بين بعضهم البعض. ليس هذا وحسب، وإنما تدل أيضا على أن الفرنج على استعداد لقبول أمراء تابعين لهم من بين المسلمين، معذلين بذلك عقيدتهم المسيحية المتشددة.<sup>(١)</sup>

وعلى الرغم مما أبلغ به بطرس بارثولوميو من أن القديس أندرو طلب مرة أخرى تيكير الرحيل إلى القدس، انطلق ريموند في أكتوبر (تشرين الأول) في غارة أخرى للحصول على المؤن. وكان ريموند قد احتل بالفعل بلدة روجة الواقعة على نهر العاصي على بعد حوالي ثلاثين ميلا من أنطاكية، ومن هناك هاجم مدينة السرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي، واستسلم سكانها — وكلهم من المسلمين — لكنهم إما قتلوا أو بيعوا عبيدا في أنطاكية، وأعيد تسكين المسيحيين في المدينة وحول المسجد إلى كنيسة، وعين ريموند أحد قساوستها بطرس أوف تاريون أسقفا للمدينة مما أدخل البهجة على جيشها، وقد تم هذا التعيين لأنه لم تكن توجد أسقفية أرثوذكسية رسمية في المدينة، ولم يكن أحد يتصور حتى ذلك الحين إمكان حدوث صدع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية يؤدي إلى ازدواجية الأسقفية. ورغم أن الأسقف الجديد كان لاتينيا فقد رسمه بطريق أنطاكية اليوناني جون، وقد كان وقع بطرس أوف تاريون إلى درجة الأسقفية علامة على بدء وجود كنيسة لاتينية مقيمة في الشرق، كما كان بمثابة تشجيع للبعض من الصليبيين من أمثال بطرس بارثولوميو التواقين إلى استبدال رجال الكنيسة اليونانية المحليين بغيرهم من اللاتينيين<sup>(٢)</sup>.

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 264-5; Albert of Aix, v, 5-12, p. 435-40; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 586

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 266; *Gesta Francorum*, x, 31, pp. 36-8

تاريخ حستا فرانكورام إن الأسقف قد جرى به إلى أنطاكية لرسامته .

وفي المناقشات التي أعقبت هزيمة كربوقا تعهد الأمراء بالانطلاق إلى القدس في نوفمبر (تشرين الثاني)، وفي أول هذا الشهر بدءوا يتجمعون في أنطاكية لمناقشة خططهم. فحاء ريموند من البرة بعد أن ترك فيها أغلب جنوده، وجاء جودفري من تل بشير وقد أحضر معه رعوس جميع الأسرى الأتراك الذين أسرهم في سلسلة من الغارات الصغيرة في المنطقة. وكان كونت فلاندرز ودوق نورماندي في أنطاكية بالفعل، ووصل بوهيموند - الذي كان مريضا في كيليكيا - بعد ذلك بيومين. وفي اليوم الخامس من نفس الشهر اجتمع الأمراء ومستشاروهم في كاتدرائية القديس بطرس، واتضح على الفور عدم وجود اتفاق بينهم؛ إذ افتتح أصدقاء بوهيموند الاجتماع بالمطالبة بأن تكون أنطاكية له، فالإمبراطور لن يأتي، وبوهيموند رجل يتصف بالمقدرة، وهو الصليبي الذي يجتاه الأعداء أشد ما يجتسون. ورد ريموند الحجة بأن ذكر المجلس في حدة بقسم الولاء للإمبراطور الذي أقسمه الجميع باستثناءه هو، وكان معروفا أن جودفري وروبرت أوف فلاندرز يؤيدان بوهيموند في مطلبه لكنهما لم تتوفر لديهما الجرأة على الجهر بذلك خشية القامهما بالحنث باليمين، واستمر الجدل عدة أيام نفذ خلالها صير الجنود والحجاج الذين كانوا ينتظرون إعلانهم؛ فلم يكن لهم سوى رغبة واحدة وهي تنفيذ العهد التي قطعوها على أنفسهم والوصول إلى القدس. وكانوا تواقين إلى مغادرة أنطاكية التي تأخروا فيها طويلا وعانوا منها كثيرا. وحنثهم بطرس باثولوجيو والسروى التي تأتيه فقدموا إلى رؤسائهم إنذارا يعكس احتقارهم لطموحات كل من بوهيموند وريموند وقالوا فيه إن من يرغب في التمتع بخيرات أنطاكية فليمتنع بها، ومن يتطلع إلى هدايا الإمبراطور فليتنظر بحبسه، أما هم فإنهم سائرون إلى القدس، وإذا ما استمر قادهم في المماحكة حول امتلاك أنطاكية فسوف يدمرون أسوارها قبل رحيلهم ويسوونها بالأرض. وفي مواجهة هذا الموقف خشى القادة الأكثر اعتدالا أن يلجأ ريموند وبوهيموند إلى السلاح، فاقترحوا إجراء مناقشة يسودها الود يشترك فيها الأمراء الرئيسيون فقط دون غيرهم. وبعد أن شهد الاجتماع المزيد من المشاهد الغاضبة



توصلوا إلى اتفاق مؤقت؛ وأعلن ريموند أنه يوافق على القرارات التي يتوصل إليها المجلس في نهاية الأمر بشأن أنطاكية شريطة أن يقسم بوهيموند على مصاحبة الحملة الصليبية إلى القدس، بينما أقسم بوهيموند أمام الأساقفة على عدم تأخير الحملة الصليبية أو الإضرار بها من أجل طموحاته الشخصية. وهكذا لم تحسم مسألة أنطاكية ولكن بقيت القلعة وثلاثة أحياء من المدينة في حوزة بوهيموند، بينما ظل ريموند يسيطر على الجسر الحصن وقصر ياغي سيان وعهد بأمرهما إلى وليهم إرمنجار. ولم يحدد المجلس تاريخاً للانطلاق إلى القدس وإنما لكي يشغل الجنود في تلك الأثناء — قرر مهاجمة مدينة معرة النعمان الحصينة، فمن المستصوب إخضاعها لحماية مسيرة الجيش عندما يتقدم جنوباً باتجاه فلسطين.<sup>(١)</sup>

#### المحجوم على معرة النعمان

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) خرج ريموند وكونت فلاندرز إلى روجة واليرة ووصلا إلى أسوار معرة النعمان في السابع والعشرين. وقشلت محاولة المحجوم على المدينة صباح اليوم التالي، وعندما وصل بوهيموند وجنوده بعد ظهر ذلك اليوم فشل المحجوم الثاني كذلك، فتقرر اتباع طريقة الحصار المعتادة ولم يكن هناك أي تقدم طوال أربعة عشر يوماً رغم إحكام الحصار. فراح الصليبيون يطوفون في الأراضي المجاورة بحثاً عن أخشاب يصنعون منها آلات الحصار. وتناقص الطعام، فتركت فصائل من الجيش مواقعها للبحث عن الحبوب والخضر. وأخيراً، وفي الحادي عشر من ديسمبر (كانتسون الأول)، وبعد أن أعلن بطرس بارثولوميو أن النجاح وشيك، دفعوا إلى أحد

Raymond of Aguilers, XIV, pp. 267-8; *Gesta Francorum*, x, 3, pp. 168-70; (١) *Historia Belli Sacri*, xcii, p. 208

أبراج المدينة بحصن خشبي ضخيم على عجلات بناه رجال ريموند وكان أمره وليم أوف موتيليه. وفشلت محاولتهم تسلق البرج من الحصن الخشبي لكنهم تمكنوا من نسف حدار البرج الملاصق للحصن الخشبي الذي وفر لهم الحماية، وفي المساء انهار حدار البرج وتمكن عدد من صغار الجنود من شق طريقهم إلى داخل المدينة وبدعوا السلب والنهب. وفي تلك الأثناء شعر بوهيموند بالغيرة من نجاح ريموند، وأراد تكرار ضربه الموفقة في أنطاكية فأرسل مناديا ينادي في المدينة أنه إذا استسلمت له المدينة فسوف يعمى أرواح جميع المدافعين إذا لجأوا إلى القاعة الكبيرة بالقرب من البوابة الرئيسية. وحدث القتال أثناء الليل، ورأى الكثير من أبناء المدينة أن الدفاعات قد اخترقت فحصدوا منازلهم وصهاريج مياههم، لكنهم عرضوا دفع ضريبة يقتضون بها أرواحهم، وهرب آخرون إلى القاعة التي أشار إليها بوهيموند. بيد أنه عندما استؤنف القتال في الصباح التالي لم يتبق أحد منهم على قيد الحياة؛ فقد اندفع الصليبيون إلى داخل المدينة وهم مجهزون على كل من يقابلهم واقتحموا المنازل ونهبوها ثم أحرقوها، أما الذين لجأوا إلى القاعة معتمدين على حماية بوهيموند فقد ذبح الرجال وبيع النساء والأطفال عبيدا.

وأثناء الحصار تعذر التعاون بين جنود بوهيموند وريموند إلا بصعوبة. وبعد استيلاء بوهيموند على بغياته على النصب الأعظم من الغنائم، رغم أن جيش ريموند هو الذي استولى على المدينة. تفجرت العداوة مرة أخرى بين الفرنسيين الجنوبيين وبين النورمانديين. وطالب ريموند بالمدينة ورغب في وضعها تحت إمرة أسقف البرة، لكن بوهيموند لم يكن ليحلو عن المدينة إلا إذا تخلى ريموند عن المنطقة التي تحتلها في أنطاكية. وكهجوم مضاد، بدأ يتساءل علانية عن صحة الرؤى التي جاء بها بطرس بارتولوميو.

وفي تلك الأثناء تزايد السخط في الجيش كله، لاسيما بين جنود ريموند الذين طالبوا باستئناف المسير إلى القدس. وفي يوم عيد الميلاد تقريبا قابل ريموند ممثلون عن

الجنود، أوضحوا له أنهم سوف يعترفون به قائدا للحملة الصليبية كلها إذا ما قام بتنظيم رحيلها، وشعر ريموند بعدم استطاعته الرفض، وبعد ذلك بأيام قليلة غادر معرة النعمان إلى روضة معلنا أن الحملة على وشك الرحيل إلى فلسطين، وعلى الأثر عباد بوهيموند إلى أنطاكية، وتركت معرة النعمان بين يدي أسقف البرية.<sup>(١)</sup>

على أن ريموند تأخر بعد إعلانه هذا، إذ لم يسهه الرحيل جنوباً تاركاً أنطاكية في يد بوهيموند. وربما رأى بوهيموند أنه كلما تردد ريموند ازداد جنوده تمسداً، وكان يعرف أن الإمبراطور لن يهبط عبر آسيا الصغرى خلال شهور الشتاء، فاقترح تسأجيل الحملة إلى عيد الفصح. ولكي يحسم ريموند الأمر استدعى جميع الأمراء لمقابلته في روضة حيث حاول شراءهم ليقبلوا قيادته؛ ويفترض أن تناسب المبالغ التي عرضها مع ما لكل منهم من قوة، فعرض على جودفري عشرة آلاف سو، ونفس المبلغ لسروبرت النورماندي، وستة آلاف لسروبرت أوف فلاندرز، وخمسة آلاف لستانكريد، ومبالغ أقل للزعماء الأقل، ولم يعرض شيئاً على بوهيموند، وكان يأمل بذلك في تنصيب نفسه رئيساً بلا منازع للحملة الصليبية، وبالتالي يستطيع كبح جماح بوهيموند، إلا أن عروضه قوبلت ببرود شديد.<sup>(٢)</sup>

وبينما كان الأمراء مؤتمرين في روضة قام الجيش بعمل مباشر في معرة النعمان؛ فقد كان يعاني التضور جوعاً بعد أن استنفد إمدادات الجوار كلها، وبدأ أن الحسل الوحيد هو أكل لحوم البشر. وحتى الأتراك تأثروا غاية التأثير لإصرار الجيش على أكل لحوم البشر في هذه الظروف ويعلق المؤرخ ريموند أوف أجيليه في حزن وأسى قائلاً: "لقد علمنا بموقف الأتراك بعد فوات الأوان بحيث لم نستطع الاستفادة به".

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xiv, pp. 267-70; *Gesta Francorum*, x, 33, pp. 172-7;

Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp. 46-7; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 196-7

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xiv, p. 271; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 178. See

ومات أسقف أورنج نتيجة هذه الصعاب وكان له بعض النفوذ على أبناء بروفسانس. وأخيراً، صمم الرجال على تدمير أسوار معرة النعمان — رغم اعتراضات أسقف البيرة — لإجبار رموند على الرحيل. ولم يكذ رموند يسمع بذلك حتى أسرع عائداً إلى المدينة، لكنه أيقن من عدم إمكان التأجيل أكثر من ذلك. (١)

#### جيش رموند يتطلى إلى القدس

وفي الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٠٩٩ ميلادية خرج رموند ورجاله من معرة النعمان لمواصلة الحملة الصليبية. وسار الكونت عاري القدمين على النحر الذي يليق بقائد الحج، وتأكيدا منه لعدم العودة ترك المدينة تأكلها النيران. وكان معه كل الأمراء التابعين له، كما رحل معه أسقف البيرة، ورموند بيليت — وهو لسورد مدينة تل مناس — بعد أن هجرا مدينتيهما، وأما الحامية التي كان يحتفظ بها في أنطاكية تحت إمرة ولیم إرمناجار فلم تستطع الصمود أمام بوهيموند، لذا أسرعت وراءه. ولم يخرج أحد للحاق به من أقرانه الأمراء سوى روبرت النورماندي يصحبه تانكريد الذي كان بوهيموند بلا شك يريد أن يراقب مصالح النورمانديين الإيطاليين في الحملة الصليبية. وتردد كل من جودفري أوف لورين وروبرت أوف فلاندرز قرابة شهر إلى أن أجبرهما الرأي العام على اللحاق بالحملة، على أن بالدوين وبوهيموند بقيتا في الأراضي التي استوليا عليها. (٢)

وهكذا، بدأ أن الخلاف بين الأمرين العظميين قد وجد حلا. وأصبح رموند الآن قائد الحملة الصليبية بلا منازع، لكن بوهيموند امتلك أنطاكية.

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 270-2; Gesta Francorum, x, 33-4, pp. 176 - 8

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 272; Gesta Francorum, x, 34, p. 180 وكان صاحب

تاريخ جستا مرافقا لكتيبة تانكريد .



## الباب الخامس

# أرض الميعاد



## الفصل الأول

الطريق إلى القدس





## الطريق إلى القدس

“وَالآنَ اذْهَبِ اِهْدِ الشَّعْبَ إِلَى خَيْثُ كُلِّشْكُ”

(سفر الخروج: ٣٢ : ٣٤)

عندما كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته من نيقية معرباً عن مخاوفه من احتمال تأخر الحملة الصليبية في أنطاكية، لم يكن يعلم البتة بطول الفترة التي سيستغرقها التأخير؛ إذ انقضت خمسة عشر شهراً منذ وصول الجيش إلى أسوار المدينة. وحدثت خلال هذه الفترة تغيرات هامة في العالم الإسلامي؛ إذ كان الفاطميون في مصر قبل بداية الحملة الصليبية قد أفاقوا — كشأن البيزنطيين — من الصدمة الأولى الناتجة عن الاكتساح التركي، وكانوا يأملون — كشأن البيزنطيين كذلك — في استخدام الحملة الصليبية لتعزيز أنفسهم بعد أن أفاقوا. وكان الحاكم الفعلي لمصر هو الشاهنشاه

الأفضل الذي خلف والده الأرمني بدر الجنابي الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام كوزير للحليفة الصليبي المستعلي. ولم تحقق سفارة الأفضل إلى معسكر الصليبيين في أنطاكية أية نتائج، ورجع سفراء الفرنج إلى القاهرة مع مبعوثيه، ولكن سرعان ما انضج أنهم لم يكونوا محولين في أن يتفاوضوا على أي تحالف، وأن الصليبيين — البعيدين كل البعد عن تقديم العون طواعية للمصريين لاستعادة فلسطين — يتوون هم أنفسهم الزحف إلى القدس. ولذا عقد الأفضل العزم على الاستفادة من الحرب الدائرة شمالي سوريا. فما أن سمع بهزيمة كربوقا في أنطاكية، وتحقق من أن حالة الأتراك في سائر أنحاء آسيا تحول دون مقاومتهم هجوم جديد، حتى غزا فلسطين التي كانت ما تزال في أيدي ابني أرتق، سقمان والغازي، اللذين اعترفا بسيادة دقياق الدمشقي. وبينما كان الأفضل يتقدم، كانا يتقهقران خلف أسوار القدس لعلهما أن دقياق لا يستطيع أن ينفذ لنجدتهما على الفور، وكان براودهما الأمل في أن تمكنهما التحصينات العظيمة للقدس إلى جانب القدرة القتالية لجنودهما التركمان من الصمود إلى أن تصل النجدة. وكان جيش الأفضل مجهزاً بأحدث آلات الحصار التي تضم أربعين منحنقاً، لكن ابني أرتق قاوما لأربعين يوماً إلى أن دُكت الأسوار أخيراً واضطر الأخوان إلى التسليم، وسمح لهما بالعودة إلى دمشق مع رعاياهما، ومن هناك واصلتا مسيرتهما ليلاحقا بأبناء عمومتهما في المنطقة المحيطة بديار بكر. ثم احتل المصريون فلسطين كلها، وبحلول الخريف كانوا قد حددوا حدودهم عند ممر الكلب على الساحل جنوبي بيروت، وفي ذات الوقت قاموا بترميم دفاعات القدس.<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> Buhl الذي كتبه "Al Kuds" الذي كتبه "Sukman Ibn Ortok" الذي كتبه Zettersteen في دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopædia of Islam*.

## الأمراء السوريون

وفي شمال سوريا انتهكت جميع الأسر المالكة العربية المحلية لاهليار القوة التركية. وكانوا على استعداد للتفاوض مع الفرنج. بل إن أمير حماه وهو في نفس الوقت حمو رضوان، وكذلك أمير حمص، وهما صاحبا البلاء الحسن في القتال مع كبريوا، تخليا عن أي تفكير في مقاومة الفرنج. وكانت العائلتان الأكثر أهمية للصليبيين هما العائلتين العربيتين البارزتين: عائلة المنقذين في شيزر، وعائلة بني عمار في طرابلس؛ فكانت الأولى تسيطر على البلاد الواقعة أمام الصليبيين مباشرة من لمر العاصي إلى الساحل، وكانت الثانية تسيطر على الخط الساحلي الممتد من أواسط لبنان إلى حدود الفاطميين. فإذا أراد الصليبيون التقدم فإن صداقتهم، أو على الأقل حيادهم، يعتبر شيئا أساسيا لتقدم الحملة الصليبية.<sup>(١)</sup>

وسار ريموند من معرة النعمان إلى كفر طاب التي تبعد حوالي اثني عشر ميلا إلى الجنوب حيث انتظر حتى السادس عشر من يناير (كانون الثاني) يجمع المسون لإعادة تموين جنوده، وحيث لحق به تانكريد وروبرت النورماندي. وجاءه هناك سفراء من شيزر التي يعرض أميرها تقدم المرشدين والمون الرخيصة في حالة عبورهم أراضيهم بسلام، فقبل ريموند العرض. وفي السابع عشر سار مرشدو الأمير بالجيش عسير لمر العاصي بين شيزر وحماه وقادوه أعلى وادي سروت. وكانت كل قطعان الماشية في المقاطعة قد أحفقت في أحد الأودية الملاصقة لوادي سروت، وبطريق الخطأ اقتاد أحد المرشدين الفرنج إلى هذا الوادي، ولم يكن الرعاة والقرويون المحليون من القوة بحيث يمنعون الفرنج من مواصلة الاستيلاء على البهائم. وفضل قائد الحصن الذي يسيطر على

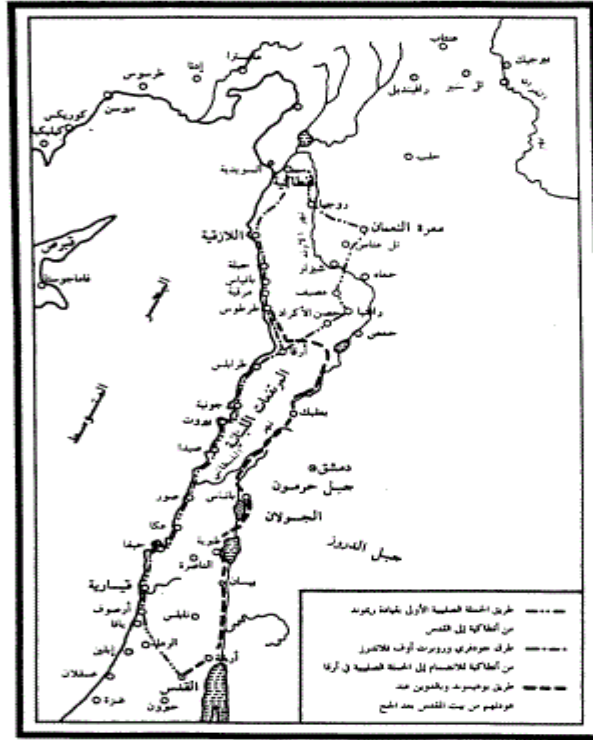
<sup>(١)</sup> انظر مقال "شيزر" Shizar الذي كتبه Honigmann ، ومقال "ابن عمار Tbn Ammar" الذي كتبه Sobrnhelm ، في دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam.

الوادي أن يشتري سلامته، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث ذهبت أسداد من الفرسان إلى شيزار وحماه ليبيع الفائض منها في مقابل حيول الأحمال التي اشتروا منها ألفاً. لقد اختارت السلطات العربية السماح لهم بدخول مدنها والتسوق فيها.<sup>(٦٦)</sup>

وبينما كان الصليبيون يجمعون هذه الإمدادات اجتمع ريموند بقواد جيشه لمناقشة الطريق الذي سيسلكونه. وكان ريموند نفسه يؤيد الرأي القائل بأنه ينبغي للجيش أن يتجه إلى الغرب عبر سلسلة جبال النصيري ليصل إلى الساحل بأقصى سرعة ممكنة، لاسيما وأن ميناء اللاذقية في أيدي المسيحيين بالفعل، وطالما ظل في طريق الساحل فسوف يكون على اتصال بأنطاكية ويستطيع الحصول على الإمدادات من السلطات البيزنطية في قبرص وهو على علاقة حسنة بها. على أن تساند كريد أشار إلى ضرورة الاستيلاء على جميع القلاع الكبيرة الواقعة على الساحل لضمان سلامة الطريق. وكانت القوة القتالية للجيش الآن لا تتجاوز ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة، فكيف يتسنى لهذه القوة أن تقوم بأعمال الحصار الحربي؟ لذلك استحثهم تانكريد على المضي إلى القدس مباشرة لتحجب ضرورة الاستيلاء على القلاع الساحلية، وبعد الاستيلاء على القدس سوف تجلب أنباء الانتصار مزيداً من الجنود من أوروبا. ليس هذا وحسب، وإنما لن تقاوم مدن أخرى مثل طرابلس، وصور وعكا، وعارضه آخرون بحجة أن كل البلاد الواقعة بين لبنان والصحراء في حوزة دقاق الدمشقي الذي سوف يتصدى بسلا شك لتقدم الصليبيين على خلاف الأمراء العرب الصغار. وأخيراً تقرر الانطلاق في طريق الساحل إلى الجنوب خلال وادي القناع الواقع بين جبال النصيري ولبنان، وهو أيسر السبل الموصلة من داخل سوريا إلى البحر، كما تقرر استغلال أقل وقت ممكن في إخضاع القلاع المعادية.<sup>(٦٧)</sup>

<sup>(٦٦)</sup> Raymond of Aguilers, xiv, pp. 272-3; *Gesta Francorum*, x, 34, pp. 180-2.

<sup>(٦٧)</sup> Raymond of Aguilers, xiv, p. 273.



خريطة رقم (٥) : سوريا في وقت الحملة الصليبية الأولى

#### الصلبيون في حصن الأكراد

وفي الثاني والعشرين من يناير (كانون الثاني) وصل الصلبيون إلى مدينة مصيف التي سارع حاكمها بإبرام معاهدة معهم. ومنها اتجهوا إلى جنوب الجنوب الشرقي ليتجنبوا منطقة الخلو الجبلية، وفي اليوم التالي وصلوا مدينة الرقانية فوجدوا أهلها قد هجروها، لكنها كانت مليئة بالإمدادات من كل نوع، فبقوا فيها ثلاثة أيام ثم نزلوا إلى سهل البقاع الذي تسيطر عليه قلعة حصن الأكراد الضخمة المشيدة على المرتفع الذي توجد فيه الآن أطلال حصن الفرسان (كرك دي شيفالييه). وجمع السكان المحليون قطعانهم كلها للاحتماء داخل أسوار القلعة. وللضغوطات التموين - وليس لأهداف استراتيجية - قرر الصلبيون الاستيلاء عليها، فهاجموا التحصينات في الثامن والعشرين من يناير (كانون الثاني)، ولكن المدافعين كانوا مدركين لعاداتهم، ففتحوا إحدى البوابات وأخرجوا منها بعضاً من مهاجميهم، فأنصرف الفرنج إلى الإمساك بكل هذه الغنيمة حتى تبعثروا، وخرجت من القلعة قوة لم تقبل دون تجمعهم وحسب، بل كادت أن تأسر الكونت ريموند نفسه بعد أن تركه حراسه. وشعر الفرنج بالعار بعدما انطلت الخيلة عليهم، فحططوا لشن هجوم جاد في اليوم التالي، لكنهم حينما وصلوا إلى الأسوار اكتشفوا أن السكان هجروا القلعة أثناء الليل، وما تزال فيها غنيمة كبيرة، فأقام الجيش ثلاثة أسابيع أخرى بجلائها المزيد من المناقشات حول الإستراتيجية، واحتفلوا داخل القلعة بعيد التطهر.<sup>(١)</sup>

وأثناء إقامة ريموند في حصن الأكراد جاءه مبعوثون من أمير حماة محملين بالهدايا ووعدوه بعدم مهاجمة رجاله، وتبعهم مبعوثون من أمير طرابلس (جلال الملك أبو الحسن) من آل بني عمار، وهي أسرة مشهورة بثقافتها أكثر من شهرتها بفنون

(١) «مترجم»: عيد التطهر: تقدم المسيح في العيد بعد إكمال تطهير العذراء (أنظر إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني: ٢٢).

القتال. وقد تمكن هذا الأمير من الحفاظ على استقلال إمارته بالوقفة بين السلاجقة والفاطميين. وبالنظر إلى تدهور القوة التركية كان على استعداد لتشجيع الفرنج ضد القوة المصرية التي ولدت من جديد. فوجه الدعوة إلى ريموند لإرسال ممثليه إلى طرابلس لمناقشة ترتيبات مرور الحملة الصليبية، وإحضار رايات تولوز لترفف فوق المدينة. وتأثر مبعوثو ريموند إعجاباً بازدهار طرابلس وما حولها تأثراً بالغاً. وبعد عودتهم إلى المعسكر أشاروا عليه بأنه إذا قام باستعراض للقوة أمام إحدى قلاع الإمارة، فسوف يدفع الأمير لا عمالة مبلغاً كبيراً ليؤمن باقي المناطق التي يسيطر عليها سلطانها، فأخذ ريموند بنصيحتهم لحاحته إلى المال، وأمر جيشه بمهاجمة مدينة أرقا التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلاً من طرابلس حيث يفتح سهل البقاع على الساحل، ووصل أمام أسوارها في الرابع عشر من فبراير (شباط).<sup>(١)</sup>

وفي تلك الأثناء كان ريموند متلهفاً على إقامة مواصلات إلى حامية اللاذقية والبحر، فشجع ريموند بيليت، وريموند فيكونت تورين على القيام بمحوم مفاجئ على طرطوس، وهو الميناء الوحيد الملازم على الساحل بين اللاذقية وطرابلس، فأسرعا غرباً ومعهما فصيلة صغيرة ووصلوا أمام أسوار المدينة بعد هبوط ظلام الساحس عشر من فبراير (شباط)، وأشعلوا سلسلة من نيران المعسكر حول الأسوار كلها ليلقوا في روع المدينة أن هناك جيشاً أكبر بكثير مما كان في حقيقته. ونجحت الحيلة، إذ أن حاكم طرطوس الذي كان تابعاً للأمير طرابلس فملكه ذعر شديد، فرحل مع حاميته بجزءاً أثناء الليل، وفي الصباح فتحت أبواب المدينة للفرنج. وعلى أثر أنباء الغزو سارع حاكم مدينة مرقية الواقعة على بعد عشرة أميال إلى الشمال بالاعتراف بسلطان ريموند. وقويت الحملة الصليبية كثيراً باستيلائها على طرطوس التي فتحت لهم طريق مواصلات يسر عبر البحر إلى أنطاكية وقبرص وأوروبا.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xv, pp. 275; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 184.

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xv, p. 276; *Gesta Francorum*, x, 34, pp. 184-6.



### حصار أرقا

وأثار هذا النجاح غيرة الصليبيين الذين كانوا ما يزالون في أنطاكية ودفعهم إلى اللحاق بريموند في الجنوب. وفي نهاية فبراير (شباط) خرج جودفري أوف لورين، وبوهيموند، وروبرت أوف فلاندرز من أنطاكية إلى اللاذقية، ولكن بوهيموند عاد أدراجه بعد أن خطر له أن من الحكمة، برغم كل شيء، أن يعزز نفسه في أنطاكية خشية أن يسير الإمبراطور باتجاه سوريا في الربيع، أما جودفري وروبرت فقد اتجها إلى ميناء جبلة الصغير محاصرتة، وأثناء تواجدهما هناك جاءهما أسقف البيرة مرسلًا من ريموند راجيا منهما اللحاق به في أرقا.<sup>(١)</sup>

ولم يكن حصار أرقا يسير على ما يرام، إذ كانت المدينة محصنة تحصينًا قويا وقد استنسل حماها في الدفاع عنها، ولم يكن جيش ريموند كبيرًا بما يكفي لإحاطتها تمامًا. ولقد كان تحذير تانكريد من أن الجيش ليس في حالة تسمح له بمحاولة غزو الحصون تحذيرًا معقولًا تمامًا. لكن ريموند بدأ الحصار ولم يسهه التحلي عنه خشية أن يعاديه أمير طرابلس عداوة صريحة بعد أن يلمس ضعفه. وربما لم يبدل الجنود الجهد الكبير اللازم؛ فالحياة ناعمة في المعسكر، والبلاد المحيطة خصبة، وبدأ المزيد من الإمدادات يصل من طرطوس، مما دفع الجنود إلى التمتع بالاسترخاء لفترة بعد كل ما عانوه. وفي أوائل مارس (آذار) انتشرت شائعة بتجمع جيش إسلامي لنجدة أرقا يقوده خليفة بغداد بنفسه، ثم اتضح أنها شائعة كاذبة، إلا أنها أشعرت ريموند بالخطر مما دفعه إلى استدعاء جودفري وروبرت أوف فلاندرز، فعقدوا هدنة مع أمير جبلة السذي قبل سيادتهما وأسرعوا جنوبًا إلى أرقا. واحتفلا بوصولهما بالإغارة على ضواحي طرابلس وبالتقيام

<sup>(١)</sup> *Gesta Francorum*, x, 35, p. 186; *Albert of Aix*, v, 33, p. 453.

بعدد من الغارات الناجحة الأخرى في البقية لجمع كافة أنواع السدواب بما فيها الجمال.<sup>(١)</sup>

وسرعان ما أسف رموند لوصول زميله، بعد أن ظل لشهرين القائد الوحيد للحملة الصليبية وبعد أن اعترف تانكريد بسلطته في مقابل حصة آلاف سو. فأصبح عندئذ مضطرا إلى الاستعانة بخصومه لينصروه، وتركه تانكريد بعد أن تماهل نصحه وأثمه إلى معسكر جودفري قائلا إن رموند لم يدفع له بما فيه الكفاية. وأظهر كل من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي ميلا قليلا للاعتراف بسيادته. كما أنه أثار الاستياء نتيجة محاولته تأكيد حقوقه، ومن ثم بدأت المنازعات. وعندما رأى رجال كل جيش أن قادتهم يتناطحون، حذوا حذوهم ورفضوا أن يتعاونوا مع بعضهم البعض.

وفي وقت مبكر من إبريل (نيسان) تفاقم الجدل بوصول خطابات من الإمبراطور يعلنهم فيها بأنه على أهبة الاستعداد للتوجه إلى سوريا، فإذا كان باستطاعتهم انتظاره حتى نهاية يونية (حزيران) فسيكون معهم في عيد القديس جون ويقودهم إلى فلسطين. وروغب رموند في قبول هذا العرض، إذ أنه الخليفة المخلص للإمبراطور، ولذا يمكنه أن يعول على الدعم الإمبراطوري في مساعدته على إعادة تأكيد سيادته على جيش الفرنج. وهناك الكثير من بين رجاله — مثل رموند أوف أجيليه — يشعرون بأن وصول الإمبراطور سيوفر للحملة الصليبية — على الأقل — قائما يقبله جميع الأمراء برغم كراهيتهم الشديدة للبيزنطيين. على أن سواد الجيش قد نفد صبره انتظارا للتحرك نحو القدس، ولم يكن هناك من الأمراء الآخرين من يرغب في أن يجد نفسه تحت السيادة الإمبراطورية، ولا تستطيع سياسة رموند أن تحقق أهدافها في مواجهة هذا الرأي العام القوي. وأغلب الظن أن ألكسيوس لم يتوقع مطلقا أن ينتظره الصليبيون، لقد شعر بالاشمئزاز من تصرفهم في أنطاكية، فقرر أن يلتزم جانب الحياد. وليس هذا بالموقف السلي عند الدبلوماسي البيزنطي، وإنما يعني إقامة علاقات مع الجانبين كسي

<sup>(١)</sup> *Gesta Francorum*, loc.cit.; Raymond of Aguilers, xvi, pp. 277-8.

يجني الثمار كائنا من يكون المنتصر منهما. فكان على اتصال بالمصريين الذين ربما كاتبوه عندما تقدمت الحملة الصليبية باتجاه أراضيهم ليسألوه ما إذا كانت تلك الحملة لحسابه، فترا في رده من تلك الحركة الصليبية، وكان لديه من الأسباب ما يبرر ذلك، إذ تعلم من سلوك بوهيموند ألا يعتمد على إخلاص الفرنج، ولم يكن مهتما بشكل خاص بفلسطين الواقعة خارج حدود الأراضي التي يأمل في استعادتها للإمبراطورية، والتزامه الوحيد في فلسطين هو التزامه قبل المسيحيين الأرثوذكس باعتباره القوة التي تهميهم. وكان يحق له أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذكس في فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج الذين أظهروا بالفعل في أنطاكية عداوة واضحة نحو المسيحية المحلية، وفي ذات الوقت لم يكن راغبا في قطع اتصاله بالحملة الصليبية، فرمما تكون ذات نفع للإمبراطورية. وفيما بعد وقعت مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم الدليل على حيائته صدمة عميقة، رغم أن حيائتهم له بدت في نظرهم معقولة وصحيحة تماما، وألقوا عليه اللاتمة عندما طالبت فترة بقاء سفرائهم المرسلين من أنطاكية في القاهرة.<sup>(١)</sup>

وعاد هؤلاء السفراء إلى الجيش في أرقا بعد ذلك بأيام قليلة حاملين معهم عرضا من الفاطميين بتسوية نهائية مفادها أنه إذا تخلت الحملة الصليبية عن أية محاولة لشق طريقها بالقوة في الأراضي الفاطمية، فسوف يسمح لحجاجهم بحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وسوف تتخذ كل التدابير لتسهيل الحج. وقد رفض هذا العرض في الحال.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xvi, p. 277, xviii, p. 286.

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xvi, p. 277; William of Tyre, vi, 19, vol. I, pt. I, pp. 305-6.

### مسألة الرمح المقدس

ورغم أنَّ الأمراء الآخرين كانوا يرغبون في استئناف المسير، رفض ريموند التخلّص عن أرقا دون الاستيلاء عليها. وحسبًا للأُمور أعلن بطرس بارتولوميو أنَّ المسيح والقديس بطرس والقديس أندرو ظهرُوا له في الخامس من إبريل (تيسسان)، وأعلنُوا ضرورة الهجوم على أرقا فورًا. وكان سواد الجيش قد بدأً يعمل رؤى بطرس السي اعتبروها حيلة سياسية من اختراع ريموند. وتزعم القس آرنولف أوف روهس التابع لسروبرت النورماندي فريقًا من النورماندين الشماليين الذين أعلنُوا على الملأ أنَّهم لا يصلحون بطرس بارتولوميو، بل ويشككون في صحة الرمح المقدس مشيرين إلى أنَّ أدميرال أسقف لوبوي لم يقتنع به أبدًا. فجمع أبناء بروفانس صغوفهم لموازنة بطرس، فذكّرهم ستيفن أوف فالنس برؤياه في أنطاكية، كما ذكرهم ريموند أوف أجيليه بأنّه قُبِل الرمح وهو ما يزال مطمورًا في الأرض، وأخبرهم قسيس آخر (بطرس دزديريوس) أنَّ أدميرال ظهر له بعد موته ووصف له سعي جهنم التي اصطلى بها بسبب تشككه في الرمح، وقال آخر يدعى ابفيرارد إنه عندما كان في زيارة عمل في طرابلس أثناء حصار الأتراك لأنطاكية أخبره أحد السوريين هناك عن رؤيا تحدّث فيها القديس مرقس عن الرمح، وذكر أسقف آبت رؤيا جعلته يغير من رأيه بعد أن كان متشككًا، وأعلن برتراند أوف لوبوي الذي كان من حاشية أدميرال أنَّ الأسقف أدميرال وحامل رايته قد ظهرا له كلاهما في رؤيا ليعترفا له بأنّ الرمح هو الرمح الأصلي. وفي مواجهة كل هذه الدلائل المؤثرة اعترف أرنولف علانية بأنه قد اقتنع، ولكن أصدقائه استمروا في إلقاء ظلال الشك على القصة كلها إلى أن طلب بطرس بارتولوميو أخيرًا وهو في سورة الغضب أن يُسمح له بالدفاع عن نفسه عن طريق الاحتكام إلى النار<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> (المترجم): المحاكمة بالتعذيب Ordeal أو الإحتكام إلى النار: وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريء أم مذنبًا بإحضاره لضروب التعذيب الخطر أو اللوم، وكان يُظن أن تلك الوسيلة تُضعف لشدة الحر الذي ينهي البريء من آثارها.

وأيا ما كانت الحقيقة، فمن الواضح أنه يعتقد اعتقاداً راسخاً في أنه كان يوحى إليه من السماء.

وتم الاحتكام إلى النار في يوم الجمعة الحزين الثامن من إبريل (نيسان)، فلحضروا كمية من الكتل الخشبية ووضعوها في صفين متقابلين بحيث تشكل ممراً ضيقاً وأشعلت فيها النيران، وجاء بطرس بارتولوميو وعليه قميصه فقط والرمح في يده، وقفز بسرعة خلال اللهب، ثم برز من الناحية الأخرى وهو محترق احترقا مرعباً، وأوشك أن يهوي إلى الخلف في النيران لولا أن أمسك به ريموند نيليت، وظل يعاني من الآلام اثني عشر يوماً ثم مات متأثراً بجراحه. وأسفر هذا الاحتكام عن تكذيب الجميع لأصالة الرمح كلية، فيما عدا العروفسال الذين أكدوا أن بطرس مر بسلام خلال النار ولكن المختشدين المتحمسين دفعوه إلى الخلف في تلهفهم على لمس قميصه المقدس.

وظل الكونت ريموند يحتفظ بالرمح في كنيسة الصغيرة بكل التيجيل.<sup>(١)</sup>

#### الصلبيون أمام طرابلس

وبقي الجيش شهراً خارج أسوار أرقا إلى أن أمكن اقناع ريموند بالتخلي عن الحصار. وأزهقت أرواح كثيرة في القتال منها أنسيلم أوف ريبمو الذي تضمنت

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xvii-xviii, pp. 279-88. يولد بطرس بارتولوميو

Fulcher of Chartres, I, xviii, 4-5, pp. 238-41.

Radulph of Caen, cvii, pp. 682;

Albert of Aix, v, 13, p. 452.

ويتشكك كل من فولشر وألبرت لكنهما يتخذان موقفاً سلبياً لا إلى التأيد ولا إلى الإنكار. وراؤولف صريح العداء لبطرس. أما صاحب تاريخ جيست فرانكورام فيهدف الرواية.

رسائله إلى مولاه رئيس أساقفة ريم سرداً حياً للحملة الصليبية.<sup>(١)</sup> وفي الثالث عشر من مايو (أيار) أذعن ريموند لإقناع رفاقه وأمر بهدم المعسكر والدموع محلاً مآقيه، وتمسك الجميع كله باتجاه الجنوب إلى طرابلس. ودارت مناقشات أخرى حول الطريق الذي سيسلكه الجيش، فأخير السوريون ريموند أن هناك طريقاً سهلاً يمر بدمشق ولكن تنقصه المياه رغم وفرة الطعام فيه. أما طريق لبنان فالمياه فيه وفيرة ولكنه وعر لدواب الحمل، والبديل الثالث هو طريق الساحل لولا أن به بعض الأماكن تستطيع حفنة من الأعادي أن تقطعه فيها. ومع ذلك، أعلنت النبوءات المحلية أن مخلصي القدس سوف يرتحلون بطول الساحل. فاختار هذا الطريق لدواعي الاتصال بالأسطولين الجنوي والإنجليزي البحريين في مياه الشرق وليس استجابة للتنبؤ باختياره.<sup>(٢)</sup> وعندما اقترب الصليبيون سارع أمير طرابلس ليؤمن عاصمته وضواحيها بأن أفرج عن ثلاثمائة مسجين مسيحي كانوا في المدينة. ودفع لهم عوضاً عن احتلال المدينة خمس عشرة ألف بيزنطة وخمسة عشر حواداً أصيلاً، وزود الجيش كله بدواب الحمل والطعام، وزاد على ذلك بأن عرض أن يتخذ المسيحية ديناً إذا هزم الصليبيون الفاطميين.<sup>(٣)</sup>

وفي يوم الاثنين السادس عشر من مايو (أيار) غادر الصليبيون طرابلس بصحبة المرشدين الذين قدمهم الأمير، فقادوهم في أمان عبر الطريق الملتف حول رأس الشقعة، وبعد أن مروا بسلام خلال مدينتي البترون وجبيل التابعتين للأمير وصلوا إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب في التاسع عشر من مايو (أيار). ولم يكن للفاطميين جنود

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xvi, pp. 276-7; *Gesta Francorum*, x, 35, p. 188

<sup>(٢)</sup> Fulcher of Chartres, 1, xxv, 8, p. 270. أنه قتل بحمر .

<sup>(٣)</sup> Raymond of Aguilers, xviii, pp. 288, 290-1.

<sup>(٤)</sup> *Ibid.* p. 291; *Gesta Francorum*, x, 35-6, pp. 188-90.

على حدودهم الشمالية فيما عدا حاميات صغيرة في المدن الساحلية، لكنهم يملكون بحرية عظيمة تستطيع توفير دفاع إضافي لتلك المدن. وهكذا، وبرغم انعدام المقاومة على هذا الطريق، لم يكن في مأمول الصليبيين الاستيلاء على أي ميناء من الموانئ التي مروا بها، كما لم يعد في مقدور الأسطول المسيحي الاتصال بهم. وكان الخوف من تنساقص الإمدادات يدفعهم إلى الإسراع بكل قوتهم إلى هدفهم النهائي.

وعندما اقتربوا من بيروت خشى السكان المحليون أن يقوم الصليبيون بتدمير الخدائق الباسقة وبساتين الفاكهة المحيطة بالمدينة، فسارعوا إلى تقديم الهدايا والسماح لهم بحرية المرور عبر أراضيهم شريطة عدم الإضرار بأشجار الفاكهة والكروم والمحاصيل، وقبل الأمراء شرطهم واقتادوا الجيش بسرعة إلى ميناء صيدا فوصل هناك في العشرين من مايو (أيار). وكانت حامية صيدا أقوى شكيلة، فبينما كان الصليبيون معسكرين على ضفاف بحر اللطاني خرجت إليهم قوة من الحامية وهاجمتهم، لكن الصليبيين صدوا الهجوم وردوا على تلك الفجأة بأن هبوا الخدائق في الضواحي. ولكنهم رحلوا بكل ما لديهم من سرعة إلى جوار صور حيث انتظروا يومين حتى يدركهم بالدين أوف لوبورج وعدد من الفرسان من أنطاكية ومن الرها. وكان لجداول المياه والخضرة الزاهية ما جعل المكان خليقاً بأن يكون محطة رائعة للراحة. وبقيت حامية صور داخل أسوارها ولم تناوشهم إلى أن رحلوا في الثالث والعشرين من نفس الشهر، وعبر الجيش البحر المسمى (سلم صور) بلا صعوبة، وكذلك مرتفعات الناقورة، ووصل إلى مشارف عكا في اليوم الرابع والعشرين. وحذا حاكم عكا حذو حكام بيروت، فافتدى المزارع الخصية المحيطة بالمدينة بإمدادات الوفيرة. وسار الجيش من عكا إلى حيفا، عبر الساحل على سفح جبل الكرمل إلى قيسارية حيث أمضى أربعة أيام من السادس والعشرين إلى الثلاثين من الشهر لكي يحتفل الاحتفال الملائم بأحد العنصرة.<sup>(١)</sup> وبينما هم في معسكرهم هناك انقض أحد الصقور

<sup>(١)</sup> (المترجم): أحد أو عيد العنصرة: يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تقليداً لذكرى هبوط السروح القدس في عيد الخمسين (أنظر الإنجيل، العهد الجديد، سفر أعمال الرسل : 2) .

على حمامة محقة فوقهم فقتلها وسقطت بالقرب من خيمة أسقف آيت، واتضح أنها حمامة زاحلة تحمل رسالة من حاكم عكا يستثير فيها مسلمي فلسطين ضد الغزاة.<sup>(١)</sup>

#### احتلال الرملة

واستأنف الصليبيون السير بطريق الساحل حتى أرصوف، ثم انحرف الجيش إلى داخل البلاد، فوصل في الثالث من يونية (حزيران) أمام مدينة الرملة. وكانت الرملة مدينة إسلامية بخلاف أغلب مدن فلسطين، وكانت قبل الغزو التركي العاصمة الإدارية للإقليم لكنها تدهورت في السنوات الأخيرة. وباقتراب الصليبيين شعر السكان بالذعر؛ فالحمية صغيرة، والمدينة بعيدة عن البحر بحيث لا تستطيع البحرية المصرية مساعدتهم، فهربوا من منازلهم في حشد واحد وساروا باتجاه الجنوب الغربي بعد أن دمروا من قبيل التحدي كنيسة القديس جورج التي كانت قائمة على أطلال قرية اللد التي تبعد عن الرملة مسافة ميل واحد. وعندما تقدم روبرت أوف فلاندرز وجاستون أوف بيلون في طليعة الجيش الصليبي وحدا الشوارع مهجورة والمنازل خاوية.

وأدى احتلال مدينة إسلامية في قلب الأراضي المقدسة إلى أن يشعر الصليبيون بالزهو. وفي الحال أقسموا على إعادة بناء كنيسة القديس جورج وتأسيس لوردية تضم اللد والرملة وجعلها وفقاً عليه، وإنشاء أسقفية جديدة يكون أسقفها هو سيد اللوردية، وعُيِّن القسيس النورماندي روبرت أوف روين أسقفاً لهذه الدائرة الأسقفية. وكما كان في مدينة البرة، لم يكن ذلك يعني وضع أسقف لاتيني محل آخر يوناني، وإنما كان يعني تأسيس أسقفية في بلد إسلامي مفتوح. ودلّ هذا التعيين على أنّ الرأي العام الصليبي يعتبر أنّ البلاد التي تؤخذ بالحرب ينبغي أن تعطى للكنيسة. وعهد بمدينة

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xviii-xx, p.291; *Gesta Francorum*, x, 36, pp.190-2;  
Fulcher of Chartres, I, xxv, 10.12, pp. 271-6.



الرملة إلى روبرت ومعه حامية صغيرة لحمايتها.<sup>(١)</sup> وفي تلك الأثناء ناقش الأمراء الخطوة التالية؛ فالبعض يعتبر أنّ الهجوم على القدس في قبط الصيف عمل أحمق، وأنّ الأصوب هو التقدم نحو العدو الحقيقي، مصر. وبعد مناقشات رُفض الاقتراح واستأنفوا السير إلى القدس في السادس من يونيو (حزيران).<sup>(٢)</sup>

ومن الرملة سلك الجيش الطريق القديم الذي ينتهي داخل تلال يهودا (حاليًا الضفة الغربية لنهر الأردن) إلى شمال الطريق العام الحالي، وأثناء مروره من قرية إيمائوس وصل مبعوثون من مدينة بيت لحم لينقلوا إلى الأمراء توصلات جميع سكانها المسيحيين لتخليصهم من نير المسلمين، وعلى الفور ذهب تانكريد وبالدوين أوف لوبورج ومعهما فصيلة فرسان صغيرة إلى تلال بيت لحم حيث وصلوا في منتصف الليل. وفي أول الأمر ظنّ السكان الخائفون أنهم جزء من جيش مصري جاء لتعزيز دفاعات القدس. وعند بزوغ الفجر وبعدما تحققوا من أنهم فرسان مسيحيون، خرجت المدينة كلها في مواكب زبّاحية<sup>(٣)</sup> ومعها كل الآثار والصلبان من كنيسة الميلاذ للشرحيب بمنقذهم ولتقبيل أياديهم.<sup>(٤)</sup>

وبعدما عاد مكان مولد المسيح (بيت لحم) إلى الحكم المسيحي أخذ الجيش الصليبي يشق طريقه طوال اليوم وحلال الليل نحو القدس. وحسب القمصر، منذراً بخسوف الحلال مما قرأ من عزيمتهم، وفي الصباح التالي جاء مائة فارس من فرسان تانكريد من بيت لحم وانضموا إلى رفاقهم مرة أخرى. وعند الضحى وصل الصليبيون

Raymond of Aguilers, xx, pp. 291-2; *Gesta Francorum*, loc. cit. William of Tyre, vi, 22, vol. 1, pt. 1, p. 313.

Raymond of Aguilers, xx, p. 292. <sup>(٢)</sup>

<sup>(٣)</sup> (الترجم): المركب الزبّاحي: إحتفال يقوم به المسيحيون، ويطوفون فيه الشوارع حاملين أشياء مقدسة يرمونها على الجمهور.

Fulcher of Chartres, 1, xxv, 13-17, pp. 277-8; Albert of Aix, v, 44-5, pp. 461-3. <sup>(٤)</sup>

إلى أعلى نقطة في الطريق عند مسجد النبي صمويل، على قمة التل الذي يسميه  
الحجاج جبل الإرشاد، وظهرت القدس بأسوارها وأبراجها أمامهم على مرمى البصر.  
وفي مساء الثلاثاء السابع من يوتية (حزيران) سنة ١٠٩٩ ميلادية ضرب الجيش  
المسيحي عيامه أمام المدينة المقدسة.<sup>(١)</sup>

---

*Gesta Francorum*, x, 37, p. 194; Raymond of Aguilers, xx, p. 292; Albert of<sup>(١)</sup>  
Aix, v, 45, p. 463.

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

## الفصل الثاني

### انتصار الصليب

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

## انتصار الصليبي

"اَخْفُوا لِلّٰهِ بِصَوْتِ الْاِنْتِهَاجِ. لِأَنَّ الرَّبَّ عَلَيَّ مَخُوفٌ"

(سفر المزامير: المزمور ٤٧ : ١، ٢)

كانت مدينة القدس واحدة من القلاع العظيمة في عالم القرون الوسطى، ومنذ أيام اليبوسيين<sup>(١)</sup> اشتهر موقعها بالقوة التي عززتها مهارة الإنسان على مر القرون. فكانت الأسوار التي وجد الصليبيون أنفسهم تحتها مبنية على غرار الأسوار التي تسيطر اليوم بالمدينة القديمة، والتي بناها فيما بعد السلطان العثماني سليمان العظيم. ولقد وضع

---

<sup>(١)</sup> (المترجم): اليبوسيون Jebusites : سكان أورشليم على عهد داوود ، (أنظر الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الثان، الإصحاح الخامس إلى الثامن) .

تخطيط الأسوار عندما أعاد هادريان بناء المدينة، ثم أضاف إليها البيزنطيون والأمويون والفاطيون كل بدوره وأصلحوها. فمن الشرق كان غدير قدرين السذي يجري في الوهد الصغير الضيق شديد الانحدار يحمي الأسوار، ومن الجنوب الشرقي كانت الأرض تنحدر إلى وادي جهنم، وكان هناك واد ثالث أقل عمقًا بقليل من الوادين الآخرين يحيط بالصور الغربي، وكانت منطقة الجنوب الغربي حيث تواجه الأسوار جبل صهيون، وكذلك المنطقة المقابلة للأسوار الشمالية، هما فقط المنطقتين اللاتمتين للهجوم على التحصينات. وأما القلعة، واسمها برج داوود، فكانت تتوسط جنوب السور الغربي وتحكم في الطريق الذي يصعد في جانب التل ليصل إلى بوابة يافا. ورغم عدم وجود بنايع داخل المدينة فإن صهاريج المياه الوفيرة كانت تضمن إمدادات المياه. وحافظ نظام الصرف الروماني على المدينة وهو ما يزال يستخدم في القرن العشرين.

#### الدفاع عن القدس

وكان الحاكم الفاطمي إفتخار الدولة هو قائد دفاعات المدينة، وكانت الأسوار في حالة جيدة، ولديه حامية قوية من الجنود العرب والسودانيين. وعلى أثر أنباء اقتراب الفرنج اتخذ احتياطاته؛ فهدم الآبار خارج المدينة أو ستمها، ونقل قطعان الدواب من المراعي المحيطة بالمدينة إلى أماكن آمنة، وأمر السكان المسيحيين كلهم، من الأرثوذكس والمراطقة على السواء، بالبقاء خارج الأسوار، ومع ذلك سمح لليهود بالبقاء داخلها. وكانت خطوة تنصف بالحكمة. ففي القرن العاشر فاق عدد المسيحيين في القدس عدد المسلمين، ورغم تناقص عددهم بسبب ما اقترفه الخليفة الحاكم من اضطهاد، ورغم أن كثيرين آخرين — وفيهم أغلب رجال الدين الأرثوذكس — قد رحلوا مع البطريق أثناء الأوقات العصيبة التي أعقبت موت أرتق، كان مسا يزال في القدس ألوف المسيحيين عديمي الفائدة كمقاتلين، فقد حُرِّم عليهم القتال ضد رفاقهم المسيحيين، بالإضافة إلى ذلك كان طردهم يعني تقليل عدد الأنواء التي ستطلب الطعام

أثناء الحصار. وفي نفس الوقت أسرع افتحار الدولة بإرسال المبعوثين إلى مصر لطلب  
العون المسلح.<sup>(١)</sup>

حتى وإن كانت طبيعة وضع الأرض المحيطة بالقدس تسمح بمحاصرة المدينة، فلم  
يكن لدى الصليبيين القوات الكافية لتطويق المدينة كلها. فركزوا على القطاعات التي  
يستطيعون فيها الاقتراب من الأسوار: فأخذ روبرت النورماندي موقعه بطول السور  
الشمالي في مواجهة بوابة الزهور (بوابة هيروود)، وعلى يمينه روبرت أوف فلاندرز في  
مواجهة بوابة العمود (بوابة القديس ستيفن أو بوابة دمشق)، وتولى جودفري أوف  
لورين المنطقة التي تغطي الزاوية الشمالية الغربية للمدينة حتى بوابة يافا، ولحق به في هذا  
المكان تانكريد الذي جاء من بيت لحم ومعه قطعان الماشية التي استولى عليها في طريقه،  
وإلى الجنوب منه كان ريموند أوف تولوز الذي وجد أن الوادي يفصل بينه وبين  
الأسوار، فتحرك بعد يومين أو ثلاثة إلى جبل صهيون، وأما القطاعان الشرقي والجنوبي  
الشرقي فقد تركا دون حراسة.<sup>(٢)</sup>

وبدأ الحصار في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون إلى الأسوار وهو السابع  
من يونية (حزيران)، ولكن سرعان ما اتضح أن الوقت في جانب المحاصرين، فكان لدى  
الفتحاح كميات وفيرة من الطعام والماء، وكان تسليحه أفضل من تسليح الفرنج،  
واستطاع تقوية أبراجه بأجولة مليئة بالقطن والقش تخفف من وطأة قذائف المنجنيق  
التي يطلقها الفرنج. فإذا استطاع الصمود إلى أن يأتي جيش النجدة القادم من مصر

<sup>(١)</sup> Fulcher of Chartres (1, xxvii, 12, p. 300) يذكر وجود جنود "أثيوبيين" Aethiopian.  
ويذكر كل من Raymond of Aguilers (xx, pp. 293-4) و Gesta Francorum (x, 37, p. 198) تسميم الآبار. وكان بطريرك الكنيسة الأرمنية "الكاثوليكوس فلحرام Catholicus Varham" موجوداً في القدس في ذلك الوقت، ويبدو أنه تمكن من الفرار من المدينة (Matthew of Edessa, II, c.1vii, p. 225).

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xx, p. 293; Gesta Francorum, x, 37, p. 194; Albert of Aix, v, 46, pp. 463-4.



فسوف تنتهي الحملة الصليبية كلها. على أن الحامية، برغم حجمها، لم تكف تكفي لتركز الرجال على الأسوار كلها. وسرعان ما واجهت الصليبيين صعوبة إمدادات المياه، فقد كانت التدابير التي اتخذها افتحار تدابير فعالة، وكان مصدر المياه النقية الوحيد المتاح للمحاصرين يأتي من بركة سيلوم أسفل السور الجنوبي، وكانت معرضة بشكل خطير لقذائف الحامية، ولكي يعرض الصليبيون نقص المياه كان عليهم أن يقطعوا ما لا يقل عن ستة أميال، وكانت الحامية تعلم ذلك، فكانت ترسل جماعات صغيرة تخرج إلى الطرق المؤدية إلى التنايع لتنصب الأكمنة؛ فهلك جنود وحجاج كثيرون من تلك الهجمات المباغتة. وبدأ الطعام يتناقص هو الآخر، فلم يكن هناك من طعام بالقرب من المدينة سوى النذر اليسير، وأسهم القيقظ والأثرية والافتقار إلى الظل في المزيد من رفق الصليبيين الوافدين من أحواء أكثر برودة، وقد ارتدى الكثير منهم عدة الحرب التي لا تلائم صيف يهودا (الضفة الغربية)، واتضح لهم جميعاً أنه ليس بوسعهم تحمل حصار طويل، وإنما ينبغي لهم الهجوم على المدينة بسرعة والاستيلاء عليها.<sup>(١)</sup>

وفي الثاني عشر من يوتية (حزيران) حج الأمراء إلى جبل الزيتون حيث خاطبهم ناسك مسن طالبا منهم مهاجمة الأسوار في اليوم التالي، فاعترضوا لعدم وجود الآلات الضرورية لنجاح الهجوم، لكن الناسك لم يقبل شيئا من اعتراضاتهم قائلا لو أنه كان لديهم الإيمان فإن الرب ناصرهم. وأدخلت كلمته الجراءة في قلوبهم، فأمرؤا بهجوم عام في صباح اليوم التالي. بيد أن الناسك كان مخطئا، أو أن إيمانهم كان بالغ الضعف؛ فقد انطلق الصليبيون إلى الهجوم بحماس مستمر، وسرعان ما اكتسحوا دفاعات السور الشمالي الخارجية، لكن سلالهم كانت أقل بكثير من أن تمكنهم من اعتلاء الأسوار في

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-4; *Gesta Francorum*, x, 37, pp. 194-8.

أماكن كافية في وقت واحد، وبعد عدة ساعات من القتال اليائس أدركوا عُقم محاولتهم فانسحبوا.<sup>(١)</sup>

وتسبب فشل الهجوم في خيبة أمل مريرة، غير أنه بين الأُمراء حاجتهم الملحة إلى بناء المزيد من آلات الحصار، فقرروا في اجتماع عقدوه في الخامس عشر من يونيو (حزيران) الكف عن أية هجمات أخرى إلى أن تتوفر لديهم المناق والمسالمة بصورة أفضل. لكنهم كانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنعها. وكما حدث في أنطاكية أنقذهم وصول العون بحراً في الوقت الملائم تماماً. ففي السابع عشر من يونيو (حزيران) رست ست سفن مسيحية في مرفأ يافا بعد أن هجره المسلمون، وكان الأسطول يتألف من غليونين<sup>(٢)</sup> من جنوا بقيادة الأخوين إمبرياكو، وأربع سفن ربما كانت من الأسطول الإنجليزي، وكانت السفن تحمل إمدادات الطعام والأسلحة بما في ذلك الخيال والمسامير والصماويل وكلها أشياء ضرورية لصنع آلات الحصار. وما أن سمع الصليبيون بوصول تلك السفن حتى أرسلوا في الحال فصيلة صغيرة للاتصال بالأسطول، ووقعت هذه الفصيلة في كمين نصبه فريق من المسلمين يعمل من عسقلان، ولم يتخذ الفصيلة سوى وصول ريموند بيليت ورجالة الذين كانوا في أعقابها. وفي ذات الوقت ظهر أسطول مصري أغلق سواحل يافا، وتمكنت إحدى السفن الإنجليزية من أن تفلت من هذا الحصار وأبحرت عائدة إلى اللاذقية. وأما السفن الأخرى فقد هجرها بحارها فور تفريغ شحنتها وساروا في حراسة ريموند بيليت إلى معسكر الصليبيين خارج القدس حيث قبلوا بترحاب حار هم والبيضاغ التي أحضروها معهم. على أنه كان ما يزال من الضروري العثور على الأخشاب اللازمة لصنع الآلات، ولم يكن هناك سوى القليل منها في التلال الجرداء المحيطة بالقدس مما دفع الصليبيين إلى إرسال الحملات مسافة أميال عديدة لجمع الأخشاب المطلوبة. ولم يبدأ العمل في تلك الآلات إلا بعدما توغسل

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xx, p. 293; Gesta Francorum, x, 37, p. 196.

<sup>(٢)</sup> (المترجم): الغليون galley: سفينة شراعية كبيرة ذات محاديف.

تانكريد وروبرت أوف فلاندرز بأتباعهما مسافات بعيدة إلى الغابات المحيطة بمدينة السامرة<sup>(١)</sup> وعادا محملين بكتل وألواح الأعتشاب الضخمة المحمولة على ظهور الحمل، أو على أكتاف الأسرى من المسلمين. وصنعت السلالم، وبدأ كل من ريموند وجودفري في تشييد حصن حشي مجهز بالمنجنيق مثبت على عجلات، وعهد إلى حاستون أوف بايرن بتشبيد حصن جودفري، وإلى وليم ريكو بتشبيد حصن ريموند.<sup>(٢)</sup>

#### معاناة المحاصرين

وسار العمل ببطء بينما كان الفرنج يعانون المعاناة الرهيبة من حرارة الجو؛ فقد هبت رياح حارة مزعجة على مدى أيام كثيرة كان لها أثر مدمر على أعصاب رجال لم يعتادوا عليها. وتفاقت صعوبة إمدادات المياه حتى أن أعداداً من دواب الحمل والقطعان كانت تموت في كل يوم من العطش، مما دفع الجيش إلى إرسال فصائل حتى الأردن للبحث عن المياه. وكانت تلك الفصائل تلقى غابة الخفاوة من السكان المسيحيين الذين أرسلوها إلى ينابيع المياه والغابات الواقعة في الجوار، على أنه كان من الخيال منع غارات وكائنات الجنود المسلمين سواء أكانوا من الحامية أو من الجماعات التي تحب أرجاء البلاد. وثارَت المشاحنات بين الأمراء مرة أخرى، أولاً بسبب امتلاك بيت لحم؛ فستانكريد هو الذي حرر المدينة وترك رايته ترفرف فوق كنيسة الميلاذ، لكن رجال الدين وأنداده من الأمراء رأوا أنه من الخطأ أن يكون هذا المبنى المقدس تحت سلطان لورد علماني، ودافع تانكريد عن مطالبته ببيت لحم، ورغم وقوف الرأي العام ضده فقد اتفقوا على تأجيل هذا الأمر. وثانياً، بدأ الجدل حول مستقبل القدس فلقترح بعض الفرسان تعيين ملك عليها، فعارض رجال الدين بالإجماع قائلين إنه لا يوجد مسيحي واحد بمقدوره أن يسمى نفسه ملكاً في مدينة توج فيها المسيح وعسان الآلام؛

<sup>(١)</sup> (المترجم): السامرة Samaria : منطقة في فلسطين بين الجليل ويهوذا (في الضفة الغربية).

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xx, pp. 294-7; Gesta Francorum, x, 37, pp. 196-200.

ومرة أخرى وقف الرأي العام إلى جانب رجال الدين وتقرر تأجيل المناقشات. وأدت المتاعب الجسمانية البائسة وما صاحبها من محاولة الفجور الفاشلة وما ترتب على ذلك من تجمد المشاحنات بين الأمراء إلى تخلي الكثيرين عندئذ عن الحملة الصليبية. فذهبت جماعة منهم إلى بحر الأردن لإعادة تعميد أنفسهم في النهر المقدس، وبعد أن جمعوا سعف النخيل من ضفة النهر ارتحلوا إلى يافا مباشرة يحدوهم الأمل في العثور على قوارب تحملهم في رحلة العودة إلى أوروبا.<sup>(١)</sup>

وفي أوائل يولية (تموز) علم الصليبيون أن جيشاً عظيماً قد خرج من مصر لنجدة القدس. وتحقق الأمراء من أنه لا وقت لديهم للتأخير، ولكن معنويات جنودهم كانت منخفضة، فأغاثتهم الرؤيا مرة أخرى: ففي صباح السادس من يولية (تموز) جاء بطرس دزديريوس، الذي شهد من قبل برؤيته للأسقف أديمار بعد موته، إلى أخي أديمار، وهو وليم هيو أوف موتيه وكذلك إلى سيده إيزوار أوف جاب وقال لهما إن الأسقف ظهر له مرة ثانية وأمر الصليبيين بأن يكفوا عن غنطاطهم الأتانية وأن يصوموا ثم يسيروا بعد انتهاء الصوم في مواكب زياحية حول أسوار القدس وهم حفاة الأقدام. فإذا فعلوا ما أمروا به بقلوب تائبة فلسوف يستولون على القدس في غضون تسعة أيام. وعندما زعم بطرس دزديريوس بأنه شاهد أديمار يُصلّي نار جهنم لريته في قصة الرمح المقدس كذبه الصليبيون جميعهم، ولكن الآن — ربما لأن الأسقف ظهر في صورة أكثر إشراقاً، ولأن أسرة موتيهمنحت موازرها — فقد لقيت الرؤيا قبولاً فوراً من الجيش كله على أنها رؤيا صحيحة. وقوبلت تعليمات أديمار ببطاعة متلهفة؛ فقد صدرت الأوامر بالصوم، وروعي تنفيذها مراعاة متفانية خلال الأيام الثلاثة التالية، وفي يوم الجمعة الثامن من يولية (تموز) دار الموكب الزياح الوقور حول المدينة، وسار الأساقفة والقساوسة في الطليعة حاملين صليباتهم وآثاراً مقدسة، وتبعهم الأمراء والفرسان، ثم الراجلون من الجنود والحجاج، وكان الجميع حفاة الأقدام. وتجمع المسلمون على

Raymond of Aguilers, xx, pp. 295-6. <sup>(١)</sup>

الأسوار يسخرون منهم، لكنهم تفاخروا بهذه السخرية، وبعد أن أمموا السدورة حول المدينة صعدوا جبل الزيتون حيث خطب فيهم بطرس الناسك، وبعده خاطبهم واعظ ريموند أوف أجيليه، ثم واعظ روبرت النورماندي، آرتولف أوف روه الذي كان بعد ذلك آنذاك أبلغ الوعاظ الموجودين مع الجيش، وحركت فصاحتهم الجمع الكبير وأثارته حتى نسي ريموند وتانكريد خلافتهما وأقسما على أن يحاربا معاً من أجل الصليب.<sup>(٦٦)</sup>

#### ترتيبات الهجوم

وتواصل الخماس. فخلال اليومين التاليين دأب رجال الجيش على العمل لإتمام أبراج الحصار الضخمة برغم ما يعانونه من عطش، وكانت مهارة أبناء جنوا برثاسية ولهم اميرياكو ذات عون كبير، وحنن المسنين من الرجال والنساء كان لهم نصيبهم في حياكة حلود الثيران والجمال وتثبيتها بالمسامير على الأجزاء المكشوفة من الأعمال الخشبية لحمايتها من النيران الإغريقية التي يستعملها العرب.<sup>(٦٧)</sup> وفي العاشر من نفس الشهر أصبحت الأبراج الخشبية جاهزة للعمل، وسُحبت على عجلات إلى مواقعها فوضع أحدها في مواجهة السور الشمالي، وآخر فوق جبل صهيون، وثالث أصغر بقليل من سابقه في مواجهة الركن الشمالي الغربي من الدفاعات. وأُنجز الصليبيون أعمال الإنشاءات بحذر شديد بعيداً عن أعين جنود الحامية الذين أخذ منهم الذهول والدعس لدى رؤيتهم تلك القلاع أمامهم، فسارع افتخار إلى تقوية الدفاعات الأضعف، وأخذ في قذف أبراج الحصار قذفاً منتظماً بالأحجار والسوائل الحارقة للحيلولة دون تصاقها بالأسوار.<sup>(٦٨)</sup>

<sup>(٦٦)</sup> Raymond of Aguilers, xx, pp. 296-7; خطاب ديامبرت Diambert إلى البابا، في Hagenmeyer, ob. Cit. pp. 170-1; Gesta Francorum, x, 38, pp. 200-2.

<sup>(٦٧)</sup> (المترجم): النيران الإغريقية the Greek fire : مركب قابل للإحراق يشتعل في الماء.

<sup>(٦٨)</sup> Raymond of Aguilers, xx, p. 298; Gesta Francorum, x, 38, p. 200.

وتقرر أن يبدأ الهجوم خلال ليلة الثالث عشر والرابع عشر من يولية (تموز)، على أن يكون الهجوم الرئيسي في وقت واحد من جبل صهيون وعلى القطاع الشرقي من السور الشمالي، وهجوم آخر للتضليل على الزاوية الشمالية الغربية. واستنادا إلى أرقام المؤرخ ريموند أوف أحيليه — وليس ثمة شك فيها — كانت قوة الجيش المقاتل الفعالة آنذاك اثني عشر ألفا من جنود المشاة وألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك حجاج كثيرون لم يحاول تقدير أعدادهم، وهم رجال بلغوا من العمر أو من المرض ما يحول دون اشتراكهم في القتال، كما كان هناك نساء وأطفال. وكانت المهمة الأولى للمغربين هي إحضار حصونهم الخشبية لتلاصق الأسوار تماما، وهي مهمة تتطلب ردم الخندق المحيط بالأسوار في ذلك القطاع، وركز الصليبيون على مهمتهم هذه طوال الليل وأثناء نهار الرابع عشر من الشهر، ولاقوا الأمرين من الأحجار والسوائل الحارقة التي كان المدافعون يقدفونها، وردوا على ذلك بقصف شديد من المناحق الخاصة بهم. وبحلول مساء الرابع عشر من يولية (تموز) أفلح رجال ريموند في دفع عجلات برجهم أعلى الخندق إلى أن أصبح في مواجهة السور، ولكن الدفاع كلن شرسا، ويبدو أن افتحار نفسه كان أمر هذا القطاع، ولم يستطع ريموند أن يحصل على موطن قدم على السور نفسه. وفي صباح اليوم التالي اقترب برج جودفري الخشبي من السور الشمالي القريب من البوابة التي تسمى حاليا بوابة الزهور، ومن الطابق الأعلى قاد جودفري وأخوه إيوستاس أوف بولونيا عمليات الهجوم. وفي منتصف النهار تقريباً نجحوا في إقامة جسر بين البرج وقمة السور، حيث قام اثنان من فرسان الفلاندرز (ليتولد وجيلبرت أوف تورناي) بقيادة رأس حربة الجيش اللوثاري، وسرعان ما تبعهما جودفري نفسه، وما أن سقط قطاع من السور في أيدي المقتحمين حتى تدفق كثيرون آخرون إلى داخل المدينة عن طريق السلم. وبينما بقي جودفري على السور يشجع المتسلقين الجدد ويرسل الرجال لفتح بوابة العمود لقوات الصليبيين الرئيسية، توغل تانكريد ورجاله وكانوا وراء أبناء اللورين في أعماق شوارع المدينة.

ورأي المسلمون دفاعاتهم تُخترق. فهربوا باتجاه الحرم الشريف حيث توجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى الذي لجأوا إليه ليتخذوه ملاذًا أخيرًا لهم. لكن لم يكن هناك وقت لتهيئة المكان للدفاع، وبينما هم يتزاحمون داخل المسجد وأعلامه هبط عليهم تانكريد فاستسلموا له في الحال ووعده بقدية عظيمة وأخذوا رايته لرفعها فوق المسجد، لكنه كان قد دنس قبة الصخرة بالفعل ونهبها. وفي تلك الأثناء تراجع سكان المدينة فراراً وهم في حالة من الاضطراب إلى الأحياء الجنوبية حيث كان افتخار ما يزال صامداً أمام ريموند. وفي وقت مبكر من بعد الظهر تحقق من ضياع كل شيء، فانسحب إلى داخل برج داوود وعرض تسليمه إلى ريموند مع مقدار كبير من المال في مقابل الإبقاء على حياته هو وحرسه الخاص، فقبل ريموند شروطه واحتل البرج وخسج افتخار ورجاله من المدينة سائلين تحت الحراسة ومُمنح له بالذهاب إلى الحامية الإسلامية في عسقلان.<sup>(١)</sup>

#### المنتصرون يوتكبون المذابح

كان افتخار ورجاله هم وحدهم الذين بقوا على قيد الحياة من المسلمين في القدس. فهذا النصر الكبير بعد تلك المعاناة الشديدة أصاب الصليبيين بحس من الجنون، فاندفعوا في الشوارع واقتحموا المنازل والمساجد وأخذوا في تقتيل كل من يقابلهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال. واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله، ولم تشفع راية تانكريد في حماية اللاجئين بالمسجد الأقصى، ففسى

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-300; *Gesta Francorum*, x, 38, pp. 202-4

وهذان المورخان كتبا شاهدة عيان في المعركة وتفق مقالهما مع بعضهما. Fulcher of Chartres, 1, xxvii, 5-13, pp. 295-301. ويتفق فولشر أوف شارترز وريموند أو أجيليه في توقيت دخول المدينة حدث في ساعة وفاة المسيح. ويورد (Albert of Aix (VI, 19-28, pp. 477-83 رواية طويلة ولكنها أقل في مصداقيتها.

باكورة الصباح التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلوا كل من فيه. وعندما ذهب المورخ ريموند أوف أجيليه في وقت متأخر من ذلك الصباح لزيارة منطقة الحرم الشريف كان عليه أن يتقي مواطليء قدميه بين الجثث والدماء التي وصل ارتفاعها إلى ركبتيه.<sup>(١)</sup>

وهرب يهود القدس في حشد واحد إلى كنيسهم الرئيسي، لكن الصليبيين اعتصموا بهم. فلم يظهروا تجاههم أية رحمة، وأشعلوا النيران في المبني واحترق اليهود كلهم بداخله.<sup>(٢)</sup>

وكان للمذبحة القدس وقع عميق على العالم كله. وليس في مقدور أحد أن يعترف عدد الضحايا، وإنما أفرغ الصليبيون القدس من سكانها المسلمين واليهود، وأصيب كثيرون، حتى من المسيحيين، بالهلع مما جرى. وحتى ذلك الوقت كان هناك من بين المسلمين من هم على استعداد لقبول الفرنج كعنصر آخر في سياسات ذلك الزمان المعقدة. بيد أنه بعد المذبحة أصبح هناك تصميم واضح على طرد الصليبيين، وكان هذا الدليل على التعصب المسيحي المتعطلش للدماء هو الذي أدى إلى تعصب المسلمين. وفيما بعد، عندما حاول لاتينيون الشرق الأكثر حكمة السعي نحو إيجاد بعض الأسس لتعاون المسيحيين والمسلمين، كانت ذكرى المذبحة تقف دائماً عائقاً في الطريق.

وبعدما فرغ الصليبيون من قتل المسلمين دون أن يبقوا على أي منهم، ذهب أمراء الحملة الصليبية في وقار إلى الحلي المسيحي المقتفر، الذي بات مهجوراً منذ أن طرد

Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum*, x, 38, pp. 204-6; letter <sup>(١)</sup>

ob. cit. of Diambert in Hageneyer, ob. cit. p. 171

٤. وابن الأثير ob. cit. pp. 198-9 ويتن الأخير على ريموند لحفاظه على كلمته. أنظر أيضاً ابن

الغلايس، تاريخ دمشق. Damascus Chronicle, p. 48.

<sup>(٢)</sup> . Ibn Al-Qalanisi, loc. cit.



افتتحوا ساكنيه، ليشكروا الرب في كنيسة القبر المقدس. ثم اجتمعوا في السابع عشر من يولية (تموز) لتعيين حاكم للمدينة المغتصبة.<sup>(١)</sup>

ومات الحاكم الذي كان خليقا بأن يلقى الترحيب من أغلب الصليبيين، وتأسى الجيش كله لغياب أدميرال أسقف لوبوي ليرى انتصار القضية التي طالما كافح من أجلها، فلم يصدق أحد أن أدميرال لم يشهد حقا هذا الانتصار؛ فقد أدلى الجنود بشهادتهم، الواحد تلو الآخر، بأنهم رأوا محاربا يقاتل في جبهة القتال المتقدمة وتعرفوا فيه على ملامح الأسقف.<sup>(٢)</sup> كما كان هناك آخرون لم يمتد بهم الأجل لسمعوا بهذا النصر البهيج؛ فقد مات بطريق القدس سيميون في منفاه بقرص قبل النصر بأيام قليلة<sup>(٣)</sup>، وفي إيطاليا على البعد يرقد مؤسس الحملة الصليبية مريضا. وفي التاسع والعشرين من يولية (تموز) سنة ١٠٩٩ ميلادية، وبعد دخول جنوده المدينة المقدسة بأسيوعين، قبل أن تصله أية أنباء عن النصر، يموت البابا إيربان الثاني في روما.<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum*, x, 38, p. 206; Fulcher  
Chartres, I, xxix, 1-4, pp. 304-6 of

Raymond of Aguilers, loc. cit. <sup>(٢)</sup>

Albert of Aix, VI, 39, p. 489. <sup>(٣)</sup>

*Vita Urbani*, in *Liber Pontificalis*, II, p. 293. <sup>(٤)</sup>

- ٤٣٧ - الفصل الثالث

أدفوكاتوس سانكتي

سيبالكري

(حامى القبر المقدس)



## أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري (حامي القبر المقدس)

"في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل"  
(سفر القضاة: ٢١ - ٢٥)

تم بلوغ المرام. واستردت القدس إلى العالم المسيحي. ولكن كيف السبيل إلى الحفاظ عليها؟ وكيف تكون حكومتها؟ ليس في الإمكان الآن تأجيل الإجابة على هذا السؤال الذي كان كل صليبي يفكر فيه بينه وبين نفسه. ويبدو أن الرأي العام قد تذكر أن الكنيسة هي التي خططت للحملة الصليبية لتمجيد المسيح، فشعر بأنسه ينبغي أن تكون الكنيسة صاحبة السلطة النهائية. ولو أن أديمار أسقف لوبوي كان ما يزال على قيد الحياة فلا شك في أنه كان سيضع الدستور ويعين مسئول الحكومة؛ فهو الشخصية المحبوبة التي يعترها الصليبيون، وهو على دراية برغبات البابا إيربان، وربما كان بتصوير دولة كنسية يرأسها البطريرق سيميون ويكون هو نفسه مندوبًا بابويًا يعمل مستشارًا له،

وريموند أوف تولوز حامياً دينوياً وقائداً لجيوشها. على أننا لا ندعى تفصيل نواياه التي دفنت معه. وفي واقع الأمر، كان البابا إيزابان قد عين مندوباً بابوياً آخر خلفه بعمل مستشاراً، هو دياميرت أوف بيزا، ولم يكن الصليبيون قد علموا بذلك بعد<sup>(١)</sup>. لكن دياميرت أثبت أنه شخصية طموحة للغاية، ويمكن في نفس الوقت التأثير عليه بحيث لا يمكن اعتباره مفسراً للسياسة البابوية. وليس مع الحملة الصليبية أحد الآن ينصح بقطاع طاعة عمياء.

واجتمع القادة في السابع عشر من يولية (تموز) لمعالجة المسائل الإدارية العاجلة: فلا بد من إخلاء الشوارع والمنازل من الجثث واتخاذ الترتيبات اللازمة للتخلص منها، وتعيين تخصيص بعض أحياء المدينة للجنود والحجاج، ولا بد من الاستعداد للتصدي للهجوم المصري المضاد. كما نوقشت مسألة ما إذا كان سيسمح لستانكريد بالاحتفاظ بكل الكثر الذي أحذه من قبة الصخرة والمشتغل على ثمانية مصاصيح ضخمة من الفضة<sup>(٢)</sup>. وأثار أحدهم مسألة انتخاب الملك فاعترض رجال الدين من فورهم، فلا بد من تقديم الضرورات الروحانية على غيرها، وقبل انتخاب الملك ينبغي تعيين البطريرق الذي سوف يرأس عملية الانتخاب. وبعد ذلك بقرن من الزمان تقريباً، وعندما أصبحت الملكية مقبولة قبولاً تاماً، كتب المؤرخ ولیم الصوري — برغم أنه كان رئيس أساقفة — يتهم الكنيسة بأن ذلك كان محاولة مقضوكة تتجاوز فيها الكنيسة حقوقها، على أن تلك المحاولة لم يُعترض عليها آنذاك إلا لأن القائمين بها لم يكونوا على مستوى من الجدارة. لكنهم في حاجة إلى بطريرق، ولو أن سيميون كان ما يزال على قيد الحياة للقيت حقوقه الاحترام اللائق، فقد كان مفضلاً لدى أدمار، كما كان الصليبيون يذكرونه بمشاعر العرفان لهداياها التي كان يرسلها لهم في أنطاكية. غير أنه لم يكن هنالك

<sup>(١)</sup> وصل دياميرت إلى اللاذقية في سبتمبر ١٠٩٩ م. ولنا لا بد وأن يكون قد غادر إيطاليا قبل الاستيلاء على القدس بوقت طويل. أنظر مابلي صفحة ٤٤٩-٤٥٠.

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xx, pp. 300-1; *Gesta Francorum*, x, 39, p. 206; Fulcher of Chartres, I, xxviii, 1-2, pp. 301-3.

رحل كنيسة آخر يلقى القبول يونانيًا كان أو سوريًا، وفي واقع الأمر لم يكن هناك من يطالب بذلك، فقد لحق أعلى القساوسة الأرثوذكس في القدس بالطريق في المنفى، فلا بد إذن من رفع أحد اللاتينيين إلى هذا الكرسي البابوي، بيد أنه لم يكن بين القساوسة اللاتينيين قس واحد بارز آنذاك، فبعد موت أدمار كان وليسم أوف أورانسج أكثر الأساقفة احترامًا، لكنه مات في معرة النعمان. وكان أنشط القساوسة حينئذ هو أرنولف أسقف مارتوران النورماندي الإيطالي الذي اقترح تعيين صديقه أرنولف ماليكورن أوف روه — وهو واعظ روبرت النورماندي — أسقفًا، على أن يُمنح نفسه أسقفية بيت لحم. ولم يكن أرنولف أوف روه يخلو من ميزة؛ إذ كان معلمًا لابنة وليم الغازي، سبليشا الراهبة التي استحثت أخاها روبرت على أن يستعين به ويعسده بأسقفية، وكان خطيبًا بليغًا وأديبًا. لكن المعروف عنه أنه كان منغمسًا في دينيته، وتذكروا عداوته لبطرس بارتولوميو، وفضلًا عن ذلك بدا الأمر كله وكأنه مؤامرة نورماندية؛ فلم يكن القساوسة الفرنسيون الجنوبيون الذين يؤيدهم ريموند أوف تولوز على استعداد للتعاون، ورُفض اقتراح انتخاب الطريق من قبل الملك. ولم تكن القصة عثل ما أولاهها المؤرخ وليم الصوري من أهمية، بيد أن تنمة القصة تُظهر أن الرأي العام كان ما يزال يُعتمد الكنيسة ضد القوى العلمانية.<sup>(1)</sup>

<sup>(1)</sup> Raymond of Aguilers, xx-xxi, pp. 301-2; William of Tyre, ix, vol. 1, pt. 1, pp. 364-6.

364-6. ويقول Fulcher of Chartres (i, xxx, 2, p. 308) إنه لم يتم انتخاب أي بطريق إلا بعد

الحصول على نصيحة البابا. وربما كان يشير إلى هذه المناقشة الأولى. وعن سيرة حياة Arnulf المبكرة

أنظر 20-217 David, Robert Curthose, pp. 217-20 ويطلق المؤرخ David عليه Arnolf of

Choques ويعتبر أن الاسم "of Rohes" غير صحيح.

#### مؤامرات من أجل العرش

وفي الأيام التالية انشغل الأمراء بالدسائس حول شغل العرش. ولم يبق إلا أربعة من الأمراء الكبار الذين انطلقوا من القسطنطينية في الحملة الصليبية هم ريموند أوف تولوز، وجودفري أوف لورين، وروبرت أوف فلاندرز، وروبرت النورماندي. وأما إيوستاس أوف بولونيا فكان دائما يلعب الدور متواريا وراء أخيه جودفري، وأما تانكريد، وبرغم كل حسارته، فكان أتباعه قليلين ولا يكاد يجاوز كونه مسن أقرباء بوهيموند الفقراء. ومن بين هؤلاء الأمراء كان ريموند أقواهم شككة لما يتصف به من خصائص لا تتوفر لغيره وهي عمره وثروته وخبرته وأزتياده الطويل بسأديما، لكنه لم يكن يحظى باعجاب رفاقه؛ فهو مفرط في التعالي عليهم طوال الوقت، ودائما ما ينلهم نفسه بمظهر القائد العلماني للحملة الصليبية. وكانت سياسة صداقته مع الإمبراطور منفرة للغاية حتى للكثيرين من أتباعه، ولم يثبت نجاحه خلال الأشهر القليلة التي كان فيها قائدا عاما بلا منازع؛ إذ أن خيبته في أرقا وإنكار الرمح المقدس حطما هيته. ومع أن شجاعته الشخصية ونشاطه ليسا موضع شك إلا أنه كجندي لم يفلح في إحياز أي نصر كبير، فإذا ما أصبح ملكا فسوف ينقلب إلى الغطسة والاستبداد، ولن توحى قيادته أو سياسته بالثقة. وأما عن الأمراء الآخرين، فكان روبرت أوف فلاندرز أكثرهم اقتدارا، لكن المعروف عنه أنه كان يرغب في العودة إلى وطنه فور إنقضاء القدس. وكان روبرت النورماندي محبوبا وله هيته باعتباره رئيس النورماندين، لكنه لم يكن شخصية قاهرة، كما كان هو الآخر يعيل إلى العودة إلى أوروبا. ويبقى لدينا جودفري، فهو فيما مضى كان دوقا للورين الأسفل، وهو مركز أرفع من أي مركز آخر شغله أي من رفاقه، لكنه لم يكن الدوق الذي يتصف بالكفاءة العالية، وأظهر سلوكه في القسطنطينية أنه رجل ضعيف عنيذ مرتاب يتلو من الذكاء. على أن قصوره كرجل دولة وإداري كان شيئا غير معروف للصليبيين الذين رأوا فيه رجلا شهما وتقيا

وخادمًا كرس نفسه لقضيتهم. وقيل إنه حينما استفسر الناصيون عن الحياة الخاصة لكل قائد لم تجد حاشية جودفري فيه أي نقص سوى شغفه بالممارسات الدينية.<sup>(١)</sup>

#### انتصار جودفري

ولا نعرف من هم الناصيون. وربما كانوا من كبار القساوسة والفرسان الذين كانوا بمثابة كبار مستأجري الأرض بالنسبة لأمرء الصليبيين. وفي بادئ الأمر عُرض التاج على ريموند، لكنه رفض رفضًا أدهش المؤرخين لما كان يعرف عنه من طموح واضح لقيادة الحملة الصليبية، ولكنه تحقق من أن ذلك العرض لم يحظ بتأييد مخلص من أغلب الصليبيين، وأن رفاقه لن يخضعوا لسلطانه أبدًا في واقع الأمر، بل إن جنوده التابعين له، الذين يتوقون إلى العودة إلى أوروبا، أعلنوا عدم رغبتهم في أن يقبل العرض. وهكذا أعلن أنه لا يرغب في أن يكون ملكًا في مدينة المسيح المقدسة، أملًا بذلك أن يجعل من المستحيل أن يصبح أي فرد آخر ملكًا. وتقبل الناصيون في ارتياح إلى جودفري، الذي كان معروفًا أن كلا من روبرت أوف فلاتلرز وروبرت النورماندي يؤيدانه، فأظهر بعض التمتع ثم قبل سلطة الملك، لكنه طلب إعفائه من لقب الملك، وأن يسمى بدلًا من ذلك أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري أي حامي القبر المقدس.<sup>(٢)</sup>

وظن ريموند أنه راح ضحية خدعة. ومن المؤكد أن جودفري كان مخلصًا حينما رفض وضع تاج على رأسه في المدينة التي وُضع فيها على رأس المسيح تاج من الشوك.

<sup>(١)</sup> William of Tyre, *loc. cit.* vol. 1, pt1, pp. 365-6

<sup>(٢)</sup> يذكر Raymond of Aguilers, *xx*, p. 301 رفض ريموند للتاج ؛ ويقول صاحب تاريخ *Gesta Francorum*, *x*, 39, pp. 206-8 إن جودفري قد انتخب princeps civitatis (أمير مدن) لغرض قتال العرب ؛ ويستخدم Fulcher of Chartres, *I*, xxx, 1 لقب "princeps" (أمير) ؛ كما أن Albert of Aix, *vi*, 33, pp. 485-6 يذكر رفض ريموند ؛ William of Tyre, *loc. cit.* 2, ؛ وعن لقب جودفري أنظر vol. 1, pt 1, pp. 306-7 Moeller, 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-sépulcre', *passim*.



وكانت ميزته الرئيسية تتمثل في أن ورعه يتسق مع ورع سائر الصليبيين، ولم يفارق ذهنه أبداً اقتناعه بأن كنيسة المسيح ينبغي أن تكون هي الحاكم النهائي للأرض المقدسة. ولم يصبح في الإمكان تنويع ملك في القدس إلا بعد وفاته، وبعد عودة أغلب الحجاج إلى أوطانهم تاركين وراءهم مستعمرة تتألف من المغامرين من رجال الأعمال من ذوي النظرة العملية.<sup>(١)</sup>

وقابل ريموند انتصار حودفري بصورة سيئة للغاية؛ فرفض أن يسلم الحاكم الجديد برج داوود الذي كان في حوزته قائلاً إنه ينوي البقاء في القدس للاحتفال بعيد الفصح التالي وسيكون البرج محل إقامته، لكنه بعد أن احتج عليه كل من روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وافق على أن يتركه في رعاية أسقف البيرة إلى أن يعقد مجلس عام للحملة الصليبية لحسم الأمر. على أنه ما أن انتقل ريموند من البرج حتى سلمه الأسقف إلى حودفري دون انتظار لقرار شكيمي. وأعذر الأسقف نفسه أمام ريموند بأنه كان أعزل من كل دفاع واضطر للرضوخ، غير أن ريموند أوف أجيليه شاهد بنفسه أكوام السلاح الحائلة التي نقلها المندوب البابوي عدم الإيمان إلى منزل قريب من القبر المقدس، وربما شجعه على تصرفه هذا رجال ريموند التواقون إلى دفع سيدهم إلى العودة إلى فرنسا. وثارت ثائرة ريموند وأعلن بادية الأمر أنه عائد إلى وطنه فوراً، وغادر القدس ولكن باتجاه الجنوب إلى وادي الأردن ومعه كل جنوده لتنفيذ تعليمات بطرس بارتولوميو له في أنطاكية، وقاد رجاله وكل منهم يحمل سعة نخل وساروا من أريحا إلى النهر. وبعدما عاد من النهر نزل أصحابه كلهم ليستحموا في النهر المقدس وهم يرددون الصلوات والترانيم، ثم ارتدوا الملابس النظيفة. وعلق ريموند أوف أجيليه على ذلك بقوله: "ومع ذلك لم نعرف بعد لماذا طلب منا الرجل المقدس أن نفعل كل

<sup>(١)</sup> See Chalandon, *Histoire de la première Croisade*, pp. 290-2.

هذا". ولم يشأ ريموند العودة إلى القدس التي شهدت مذلتة، فضرب معسكره في أريحا.<sup>(١)</sup>

#### جودفري ورفاقه

وأدى فشل ريموند في الحصول على التاج إلى أن أصبح أتباعه في موقف الضعف. فحينما اجتمع القساوسة في أول أغسطس (آب) لانتخاب بطريرك لم تكن معارضة البروفنسال لآرنولف أوف روه معارضة قوّالة، ووجد أسقف مارتورانو تأييداً من أهل اللورين ونورماندي فرنسا وإيطاليا فتمكن من إقناع أغلب من بالجلس بتعيين آرنولف. وعيناً حاول ريموند أوف أحيله وأصدقائه أن يؤكدوا أن انتخاب آرنولف لا يتفق وقوانين الكنيسة؛ فآرنولف لم يكن حين مساعد شماس، كما كان الجيش يتخذ من أخلاقيات مادة يتغن بها. ورحبت به جماهير الناس في منصبه البطريركي الجديد.<sup>(٢)</sup> و كان آرنولف من الناحية السياسية يتصف بالاعتدال، وإذا كان رجال الدين قد توقعوا أن يملئ سياسته على جودفري فقد خاب ظنهم، وربما كان يدرك أنه ليس أهلاً لأن يحكم القدس، ولذا حصر نطاق أنشطته في الشؤون الكنسية ووضع محلّ اهتمامه في أن يجعل من الدائرة الأسقفية دائرة لائنية. وبموافقة ودفري، عين عشرين كاهناً لإقامة الخدمات الدينية اليومية في كنيسة القبر المقدس، وزود الكنيسة بالأجراس لدعوة الناس إلى الصلاة، ولم يكن المسلمون يسمحون للمسيحيين باستخدامها مطلقاً. ثم أبعاد قساوسة الطقوس الشرقية القائمون بالخدمات الدينية في الكنيسة التي كانت آنذاك —

<sup>(١)</sup> Raymond of Aguilers, xx, pp. 301-2; William of Tyre, x, 3, Vol. 1, pt 1, pp. 367-8.

<sup>(٢)</sup> et Raymond of Aguilers, xx, p. 30; *Gesta Francorum*, x, 39, p. 208, calling Arnulf 'sapientissimum honorabilem virum'; William of Tyre, x, 4, vol. 1, pt 1, p. 369.

كشأها الآن - تضم مذابح كنسية تنتمي إلى جميع طوائف العالم المسيحي الشرقي، ليس فقط اليونانية الأرثوذكسية والجورجية<sup>(١)</sup>، وإنما أيضا الطوائف الأرمنية واليعقوبية والقيطية. وغداة الغزو اللاتيني بدأ السكان المسيحيون الخليسون يعودون متلهفين إلى القدس، على أنهم بدأوا يشعرون بالأسى لتغير الحكام. فحينما أخرجهم اقتحار من المدينة أخذ بعض القساوسة الأرثوذكس معهم أقدم آثار كنيسة القدس، ألا وهو القسم الرئيسي من الصليب الحقيقي، وتبددت رغبتهم الآن في تسليمه إلى الحبر الذي تعامل حقوقهم. ولم يستطع آرنولف معرفة مكان إخفائه إلا بعد تعذيب المحتفظين به. على أنه برغم تزايد استياء المسيحيين الأرثوذكس من أبناء البلاد فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى تقبل الهرمية اللاتينية. وأما كبار قساوستهم فقد تفرقوا وأحجموا عن تعيين أساقفة أو بطريرك من بينهم في مواجهة اللاتينيين. وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك صدع بين الأرثوذكسية الشرقية والغربية في فلسطين، ورغم أن آرنولف قد اتخذ الخطوات الأولى التي تجعل من هذا الصدع حقيقة حتمية. وهكذا فإن الكنائس المارطيقية التي كانت تنعم بتسامح المسلمين وجدت في الغزو اللاتيني بداية الحسوف.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> (المترجم): الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية : إحدى أقدم الطوائف المسيحية في العالم ، وحاليا كنيسة مستقلة في اللغة الأرثوذكسية . وإعتنق الجورجيين المسيحية عن طريق امرأة "القديسة "ينو" في أوائل القرن الرابع الميلادي . ومنح الإمبراطور "زينو" (٤٧٤-٤٩١ م) الكنيسة إستقلالها بموافقة بطريرك أنطاكية ، ومنذ ذلك الوقت يحمل رؤساء الكنيسة لقب "كاتولييكوس" . وفي سنة ١٨٠١ م ضمت روسيا جورجيا ، ففقدت البلاد إستقلالها السياسي والكنسي ، وأثناء الثورة الروسية سنة ١٩١٧ م إستعادت الكنيسة إستقلالها ، لكنها عانت الإضطهاد في العشرينات. على أنه في عهد "حزيف ستاين" - الذي كان طالبا في معهد جورجيا اللاهوتي - تمتعت بمعاملة متميزة فيما يبدو . وبعد إنتخاب "كساثولييكوس إلياس" سنة ١٩٧٧ م عين أساقفة جديدا في العديد من الكراسي الأسقفية.

<sup>(٢)</sup> loc. cit. Raymond of Aguilers, loc. cit. Fulcher of Chrtres, I, xxx, 4, pp. 309-19; William of Tyre.

وبعد انتخاب جودفري تدهورت العلاقات بينه وبين رفاقه الذين كانوا يؤيدونه حين ذلك الوقت. فسرعان ما أساء إلى روبرت النورماندي لسبب أو لآخر، وازداد فتور روبرت أوف فلاندرز حياله، وكان تانكريد وقتئذ قد رحل إلى نابلس بعد أن أرسل سكانها إلى القدس يعلنون استسلامهم للصليبيين، وصحبه أخو جودفري (إيوستاس أوف بولونيا)، ربما ليحول دون ما اعتاد عليه من استحواده على الأسلاب كلها لنفسه، ولقيا استقبالاً حسناً هناك ولكن يبدو أنهما لم يحصلوا على غنائم.<sup>(١)</sup>

وبعد رحيلهما مباشرة وصلت سفارة مصرية إلى القدس لتوخي الفرنج على نقضهم العهد ولتأمرهم بمغادرة فلسطين. ووصلت في أعقاب السفارة أنباء بأن هناك جيشاً مصرية بقيادة الوزير الأفضل دخل فلسطين وأنه في طريقه إلى عسقلان. فأرسل جودفري إلى تانكريد وإيوستاس طالباً منهما التوكل في السهل البحري وإطلاعه على تحركات العدو، فأسرعا باتجاه قيسارية ثم استدارا جنوباً باتجاه الرملة، وفي طريقهما أمسكا بعدد من الكشافين الذين أرسلهم المصريون أمامهم، وانتزعا منهم معلومات تنصل بعدد قوات الوزير وأماكن مراكزها، وتوصلا إلى أن الأفضل ينتظر أسطولاً ليلحق به حاملاً إمدادات إضافية، وأنه لا يتوقع هجومًا من الفرنج، فأرسلوا إلى جودفري بذلك بحثانه على أن يأخذه بغتة، فحشد جودفري جيشه من فوره، وطلب من رفاقه أن يلحقوا به، فاستجاب روبرت أوف فلاندرز للنداء. وأما روبرت النورماندي وريموند — الذي كان ما يزال في وادي الأردن — فقد أجابا بالهما سيتطران إلى أن تتأكد الأنباء، ولم يتحركا إلا بعد أن أرسل الكشافين التابعين لهما لمعرفة ما كان يحدث.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> *Gesta Francorum*, x, 39, pp. 208-10

<sup>(٢)</sup> *Ibid.* pp. 209-10

#### الانتصار في عسقلان

وفي التاسع من أغسطس (آب) انطلق جودفري وروبرت أوف فلاندرز من القدس ومعهم رجالهما، وصاحبهما البطريرق آرنولف. وعندما وصلوا إلى الرملة وقابلوا تانكريد وایوستاس صدرت الأوامر إلى أسقف مارتورانو بسرعة العودة إلى القدس ليعلن مدى خطورة الوضع، ولكي يستحث كل رجل قادر على القتال أن يلحق بالهيش. وهنا اقتنع ريموند وروبرت النورماندي وغادرا القدس في العاشر من أغسطس (آب)، وتخلفت حامية صغيرة في المدينة حيث كانت التعليمات تقضي بأن يقوم بطرس الناسك بإجراء الطقوس الدينية بين صلاة وثلاث شساعة يتسهل فيها اليونانيون واللاتينيون على السواء من أجل انتصار العالم المسيحي. وفي باكورة الحادي عشر تجمع حشد الصليبيين كله في إبلين الواقعة وراء الرملة بأميال قليلة، ثم تقدموا في الحال إلى داخل سهل أشدود حيث اكتشفوا ساعة الغسق قطعان الماشية التي أحضرها المصريون معهم لأطعام الجنود، فأحاطوا بها واستولوا عليها، واستراحوا لفترة قصيرة حتى الصباح، ثم برزوا في وادي المجدل الأخضر الحصيب شمالي عسقلان حيث معسكر جيش الوزير. وفي ضوء الفجر رتبوا وحداتهم المقاتلة بحيث اتخذ ريموند اليمين ناحية البحر، وجودفري اليسرة، وروبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وتانكريد القلب. وما أن صدر أمر الهجوم حتى اندفع الجنود داخل الجيش المصري، وبغت الأفضل تماما، ويرجع ذلك إلى سوء الاستكشاف، فلم يتوقع أن يكون الفرنج على مثل هذه المسافة القريبة. ولم يبد رجاله مقاومة تذكر، وفي دقائق قليلة كانوا يفسرون مذعورين، ولاذت جماعة كبيرة منهم بغابة صغيرة من أشجار الجميز حيث قتلوا فيها حرقا، وفي مسيرتهم دفع ريموند بأعداد كبيرة إلى البحر، وفي الوسط توغسل روبرت النورماندي وتانكريد إلى قلب المعسكر، واستولى حرس روبرت الخاص على راية الوزير والكثير من أمتعته الشخصية، وتمكن الوزير ومعه حفنة من الضباط من الهرب

إلى عسقلان حيث استقلوا سفينة عادت بهم إلى مصر، وفي ساعات قليلة اكتمل النصيب وتأكد استيلاء الصليبيين على القدس.<sup>(١)</sup>

وغنم المنتصرون أسلابا هائلة. واشترى روبرت النورماندي راية الوزير بعشرين مثقالا فضيا من النورماندي الذي استولى عليها ثم قدمها إلى البطريق آرنولف، واشترى أمير آخر سيف الوزير بستين بيزنطة، وعثروا على سيائك ذهبية وأحجار كريمة بكميات هائلة ضمن أمتعة المصريين، ووقع في أيديهم من الأسلحة والدواب الشيء الكثير. وفي يوم السبت الثالث عشر من أغسطس (آب) عاد إلى القدس موكب منتصر محمل بالغنائم، وما استعصى عليهم حمله أشعلوا فيه النيران.<sup>(٢)</sup>

وتحقق للانتصار مغزاه الكامل. وإذا كان هذا الانتصار قد ضمن ألا يستعيد المصريون ما فقدوه من أراض، فلم يكن ذلك أن الفرنج سوف يحتلون فلسطين كلها. فالحرية المصرية ما تزال تتحكم في الساحل وتوفر الحماية للتغور. وكان في مأمول حودفري مواصلة المعركة والاستيلاء على عسقلان خاصة وأن الحامية في عسقلان تدرك تمام الإدراك تعذر الصمود أمام القوات الصليبية المتحدة. ومذبحه القدس لم تذهب أدراج النسيان، ولا يرغب مسلمو عسقلان في أن يلقوا مصير إخوانهم في القدس، وهم يعلمون أن الذين بقوا أحياء في القدس من المسلمين هم فقط الذين استسلموا لريموند أوف تولوز مما رفع من سمعته في الفروسية؛ فأرسلوا إلى المعسكر الصليبي بأنهم على استعداد لتسليم المدينة له هو وحده، لكن حودفري — لارتياحه الشديد في ريموند منذ حادثة برج داوود — رفض الاعتراف بأية شروط لا تؤدي إلى

18; Albert-Ibid. pp. 210-16; Raymond of Aguilers, xx, pp. 302-4; Fulcher of<sup>(١)</sup> Chartres, 1, xxx, 111, pp. 311. Of Aix, vi, 44-50, pp. 493-7; Ibn Al-Athir, op. cit. p. 202

Gesta Francorum, x, 39, pp. 216-18; Raymond of Aguilers, xx, pp. 304-5;<sup>(٢)</sup> Albert of Aix, vi, 47, p. 495; Fulcher of Chartres, 1, xxxi, 10, pp. 316-17. ومعركة عسقلان ينتهي تاريخ كل من Raymond of Aguilers وصاحب تاريخ Gesta Francorum.

تسليمه المدينة هو نفسه، فغضب ريموند وشعر بالمهانة، وبدأ لنوه في التحرك شمالاً ومعه كل رجاله. وأصيب روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز بصدمة شديدة من تفاهة جودفري حتى أنهما تركاهما كذلك. وبدون مساعدتهما لا يجرؤ جودفري على المغامرة بمهاجمة عسقلان، وهكذا ضاعت عسقلان من الفرنج لأكثر من نصف قرن من الزمان.<sup>(١)</sup>

وعرضت مدينة أرسوف الصغيرة الاستسلام إلى ريموند، ورفض جودفري مرة أخرى للوافقة على أي اتفاق من هذا النوع، وانصرف ريموند غاضباً مرة أخرى، وأعلن أصدقاء جودفري أن ريموند شجع حاميه أرسوف على الصمود أمام جودفري وحرس على أن يؤكد لهم ضعفه.<sup>(٢)</sup>

وبانتهاء أغسطس (آب) قرر ريموند، وروبرت النورماندي، وروبرت أوف فلاندرز مغادرة فلسطين؛ فكل من دوق نورماندي وكونت فلاندرز يتلطف على العودة إلى الوطن، وكل منهما يعتبر أنه قام بواجبه المسيحي وبذا يكون قد أوفى بعهده. وبرغم للشاحات التي حدثت مؤخراً، شعر جودفري بقلبه يهبط إلى قدميه لرحيليهما، وفي مقابلة الوداع التي تمت بينهم توصل إليهما ألا يدخلا جهداً لدى وصولهما إلى أوروبا في حث الجنود على الخروج إلى الشرق للحرب من أجل الصليب، وذكرهما بمدى الخطورة التي تهدد بالباقيين في الأرض المقدسة. وفي أوائل سبتمبر (أيلول) شرعا في رحلتهما شمالاً أعلى الساحل<sup>(٣)</sup> وصاحبهما ريموند. غير أن رحيل ريموند لم يكن قاطعاً؛ إذ كان قد أقسم على البقاء في الشرق، ولقد خسر القدس، ولكن ليس هناك ما يمنعه من أن يخلو حنّو بوهيموند وبالدين ويؤسس إمارته الخاصة به. وكانت المنطقة التي

<sup>(١)</sup> Radulph of Caen, cxxxm, p. 703; Albert of Aix, vi, 51, pp. 497-8

Albert of Aix, loc. cit. <sup>(٢)</sup>

Albert of Aix, vi, 53, p. 499; Fulcher of Chartres, I, xxxii, 1, pp. 318-20; <sup>(٣)</sup>

Orderic Vitalis, x, u, vol. iv, p. 69

تلائمه أكثر من غيرها هي أواسط سوريا حيث الأمان بعيدا عن الأتراك والمصريين، لا سيما وأن أغلبها في أيدي بني عمار المسلمين، كما كان يأمل في الحصول على تأييد من بيزنطة.<sup>(١)</sup>

وسار مع ريموند وروبرت أوف فلاندر وروبرت النورماندي أغلب رجائهم، وتغلب القليل من كل جيش للاستقرار في فلسطين، ولكي تتوازن القوات عادت أعداد من رجال جودفري — وفيهم بالدوين أوف لوبورج — باتجاه الشمال تحت راية كونت أوف فلاندر، وبقي تانكريد وأتباعه القليلون في فلسطين.<sup>(٢)</sup>

#### دياميرت أوف بيزا

ونمت الرحلة إلى الشمال دون صعوبات. فقد سارع حكام المدن الساحلية المسلمون إلى إمداد الجيش بالموثوق أثناء مروره، وفي منتصف سبتمبر (أيلول) وصل الجيش إلى ميناء طرطوس الذي كان ما يزال في أيدي حامية من رجال ريموند، وواصل رحلته إلى جبلة حيث سمع القادة أنباء صدمتهم صدمة شديدة وأثارت قلقهم.<sup>(٣)</sup>

ذلك أن البابا إيربان كان قبل وفاته بوقت قصير قد عين مندوبا بابويا ليحل محل أدمار في فلسطين، ووقع اختياره على دياميرت رئيس أساقفة بيزا. وكان البابا إيربان على دراية كاملة برفاقه الفرنسيين، ولكنه كان معظما بالنسبة للإيطاليين؛ وكان دياميرت رئيس أساقفة نشطا، وعرف عنه اهتمامه بالحرب المقدسة، ولذلك أرسله البابا

<sup>(١)</sup> Albert of Aix, *loc. cit.* وليس بقتيا التاريخ الذي قرر فيه ريموند إنشاء إمارة في وسط سوريا.

<sup>(٢)</sup> *Ibid.* vi, 54, pp. 499-500.



سنة ١٠٩٨ ميلادية مندوبا بابويا له إلى بلاط الملك ألفونسو السادس (أوف كاستيل)<sup>(١)</sup>، حيث أظهر حماسا بالغا واقتدارا في تنظيم الكنيسة في الأراضي التي انتزعت من عرب الأندلس، بيد أنه كانت هناك شائعات بأن إدارته لم تخل من فساد، لا سيما وأنه احتفظ لنفسه بحزم كبير من الأموال التي كان الملك ألفونسو قد أرسلها إلى البابا. وعلى الرغم من نشاطه، كان من الواضح أنه مغرور وطموح وغير أمين. وأدى تعيين البابا إيربان له كمندوب بابوي في الشرق إلى تقويض سياسته إلى حد بعيد.<sup>(٢)</sup>

غادر ديامبرت إيطاليا قبل نهاية سنة ١٠٩٨ ميلادية يصحبه أسطول من بيزا جهزته بلدية المدينة. ولا شك في أنه كان يأمل في استغلال أهل بيزا لترسيخ مكانته عند له من نفوذ عليهم، بينما أدركوا هم جدوى مساعدتهم له كي يحصلوا على امتيازات خاصة. وكانوا عصبية تتصف بالفوضى؛ فقد استفادوا أثناء رحيلهم شرقا من الإغارة على جزر هبتانيز، وكورفو، وليوكاس، وسيفالونيا، وزانت، وسرعان ما علمت القسطنطينية بتلك الانتهاكات، فسير إليهم الإمبراطور أسطولا بقيادة نائيسوس — العائد من أنطاكية مؤخرا بعد شهور كثيرة قضاها هناك — وكذلك البحار الإيطالي المولد لاندولف. وحاول البيزنطيون اعتراض أبناء بيزا أثناء مرور سفنهم أمام سلموس، غير أنهم وصلوا هناك متأخرين، كما فشلوا في اللحاق بهم أمام شواطئ كوس. وأخيرا ظهر الأسطولان أمام رودس بحيث يري كل منهما الآخر، وحاول البيزنطيون الهجوم واستولوا على إحدى سفن بيزا وعلى ظهرها أحد أقارب بوهيموند، ولكن عاصفة

(١) (المترجم): كاستيل : إقليم في أسبانيا.

(٢) برورد 2-51، pp. 7, vii, Albert of Aix، رواية عدائية عن سابق حياة Diambert. أنظر أيضا Pisani، (ed. Annales Tronci .)، vol. 1، pp. 178 ff. ويحتل أنه انطلق قبل أن يعلم إيربان بحوث آدمبار، وإما أن يكون قد عين مندوبا بابويا أثناء رحلته أو اتخذ لنفسه السلطة باعتباره شخصية كسبة أعلى في الشرق.

الساحل القيرصي، لكن الحاكم البيزنطي فيلوكاليس دحرهم وألحق بهم بعض الخسائر، فأبحروا باتجاه الساحل السوري، بينما دخل الأسطول البيزنطي قبرص.<sup>(١)</sup>

#### بوهيموند ودياميرت في اللاذقية

ظل بوهيموند، منذ أن رحل رفاقه إلى القدس، مشغولاً بتوطيد مركزه في أنطاكية. ولم يكن هناك ما يخشاه من الأتراك آنذاك، وإنما كان مشغولاً بالبيزنطيين في المقام الأول، فهو يعرف أن الإمبراطور لن يغفر له أبداً. ولما كان للإمبراطور أقوى أسطول في المياه الشرقية، بالإضافة إلى ميناء اللاذقية الواقع جنوبه مباشرة، فلن يشعر بالأمان أبداً، فقرر في نهاية أغسطس (آب) أن يحسم الأمر، وسار لمهاجمة اللاذقية، لكنه كان فاقد الحيلة بدون القوة البحرية، فالتحصينات قوية وتستطيع الحماية الحصول على اللون من قبرص. ووصل أسطول بيزا المعادي للبيزنطيين في الوقت المناسب تماماً. وسارع بوهيموند إلى التوصل إلى اتفاق مع دياميرت والقباطنة من أهل بيزا الذين وعدوه بتقديم كل ما يستطيعون من مساعدة.<sup>(٢)</sup>

وكان الإمبراطور قد أمر أمير بحرته بمعاينة من يأتون أعمال القرصنة من اللاتينيين، وإن كان يرغب في اجتذاب الصدام العلني. ولم يعرف تاتيسيوس على وجه اليقين كيف يتعامل مع تلك التطورات الجديدة، وبعد التشاور مع حاكم قبرص طلب من الجنرال البيزنطي بوتوميتيس، الذي ربما جاء إلى قبرص ليكون سفيراً فوق العادة في الشرق، أن يعبر البحر إلى أنطاكية وأن يقابل بوهيموند، ولكن بوهيموند رجل عنيد، فلم تحقق السفارة شيئاً. وعاد بوتوميتيس إلى قبرص وأبحر مع تاتيسيوس والأسطول إلى القسطنطينية لإطلاع الإمبراطور على ما حدث وتلقي تعليماته. وهبت عاصفة هوجاء

<sup>(١)</sup> . Anna Comnena, xi, x, 1-6, vol. iii, pp. 41-4

<sup>(٢)</sup> Albert of Aix, vi, 45, pp. 500-1

أمام سيس على ساحل كيليكيا الغربي حيث تحطمت سفن بيزنطية كثيرة، وتمكنت القاطع البحرية التابعة لأمير البحار من مواصلة الرحلة. وبعد ذلك اتخذت سفن بيزا مواقعها لتغلق ميناء اللاذقية من البحر.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك الوقت وصل ريموند وروبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى جبلة، وكان طبيعياً أن يعزج ريموند من أحداث اللاذقية؛ فهو يحقت كل ما يفعله بوهيموند، وسياسته هي سياسة التحالف مع بيزنطة، وكان شعور ريفقيه بالأسى لا يقل عن شعوره هو؛ وأيا ما كان شعورهما بالأسف لبعض أفعال الإمبراطور، فقد أدركا ضرورة وجود بعض التعاون بين مسيحيي الشرق والغرب، وكانوا يواجهان مشكلة إعادة نقل جيشيهما إلى أوروبا، وهي مهمة تكاد أن تكون مستحيلة بدون مساعدة من بيزنطة. ومن غير اللائق أن يستهل المندوب البابوي مقارنته في الشرق بعمل يثير استياء المسيحيين الشرقيين. واستدعي دياميرت إلى المعسكر في جبلة حيث واجه اعتراضاتهم الغاضبة، فأدرك الخطأ الذي وقع فيه واستدعي أسطول بيزا. ولا يستطيع بوهيموند حصار اللاذقية في غيبة المساعدة البحرية، فضلاً عن مشاعر الغضب التي أظهرها رفاقه، فاضطر إلى التخلي عن الحصار. وأظهر مواطنو اللاذقية كامل الرضا والترحيب بريموند، فدخلها بصحبة ريفقيه، ورفع رايته على القلعة لترفرف إلى جانب راية الإمبراطور. وعندما سمع حاكم قبرص بهذه التطورات أعلن عن موافقته وعرض تقديم وسائل النقل البحري دون مقابل لمسافر رويسرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى القسطنطينية في المرحلة الأولى من الرحلة إلى الوطن، فقبل العرض بامتنان بالغ وأبحرا في أمان إلى القسطنطينية حيث استقبلهما الإمبراطور استقبالا حسنا. ورفضاً اقتراحه بالبقاء في الشرق في خدمته. وبعد أن ألما زيارتهما القصيرة واصلتا

<sup>(١)</sup> .Anna Comnena, xi, x, 7-8, vol. m, p. 45; Albert of Aix, *loc. cit.*

رحلتها إلى الغرب. ولا نعرف عدد الذين أبحروا معها من رجالهما، وربما أبحر البعض على سفن حنوا للذهاب إلى إيطاليا مباشرة. وأما ريموند فقد بقي في اللادقية.<sup>(١)</sup>

#### حج بوهيموند في القدس

وفي تلك الأثناء لحق دياميرت ببوهيموند مرة أخرى في أنطاكية. وكان بوهيموند عليماً بالرجل، وسرعان ما استعاد نفوذه عليه. وفي تلهف المندوب البابوي على الرحيل إلى القدس قرر بوهيموند أن يصحبه؛ فقد أقسم هو والصليبيون الآخرون على الصلاة في كنيسة القبر المقدس وعدم الوفاء بهذا القسم بعرض هيبته للدمار، ولا ينبغي أن تضيق هذه الفرصة الرائعة كي ينجح مع دياميرت وبذا يضمن تحالفه، كما يتعين النظر في مستقبل القدس، فليس هناك من يرث جودفري، وصحته معتلة، ومن المرجح أن يتحكم المندوب البابوي فيمن يأتي بعده، وعلى أية حال تقضي الحكمة بأن يلم بصفه شخصية بالوضع؛ فأعلن عن رحيل دياميرت وبوهيموند إلى المدينة المقدسة في أواخر الخريف ليكونا هناك في أعياد الميلاد.<sup>(٢)</sup>

وعندما سمع بالدوين بتلك الأخبار أرسل من الرها بأنه سوف ينضم إليهما في الحج، فقد شعر هو الآخر بضرورة الوفاء بالتسليم، ومقدوره أن يترك الرها لفترة من الوقت. وكان واضحاً أنه ينبغي للجماعة أن تقوى بقدر الاستطاعة من أجل الصالح العام، وكان هو الآخر مهتماً بوراثنة عرش القدس؛ فهو أخو جودفري ويليهِ من حيث القرابة في الشرق — فرما غادر إيوستاس أوف بولونيا فلسطين في أعقاب روبرت أوف فلاندرز — ولا يقل طموحه عن طموح بوهيموند. وربما شعر بوهيموند فيما بعد بالأسف لصحبته، فقد جاء مع بوهيموند والدوين كسل رجالهما الزائدين عن

<sup>(١)</sup> Albert of Aix, vi, 56-60, pp. 501-5; *Ordre Vitalis*, vol. iv, pp. 70-2; Guibert . of Nogent, p. 232.

<sup>(٢)</sup> Fulcher of Chartres, I, xxxiii, 1-6, pp. 322-6; Albert of Aix, vi, 6, p. 511.

احتياجات الدفاع في أراضيها، وكذلك عدد غفير من النساء، واستنادا إلى ما أورده فولشر أوف تشارترز بلغ عددهم خمسة وعشرين ألف شخص.<sup>(١)</sup>

وانطلق الحجاج في أوائل نوفمبر (تشرين الثاني)، وسلك بوهيموند وديامسرت الطريق الساحلي بحرس جانبيهما أسطول بيزا، وأثناء مرورهما باللاذقية رفض ريموند مساعدتهما بالمون، وتوقفا في باتياس الواقعة إلى الجنوب قليلا كي يتمكن بالدوين من أن يلحق بهما، فقد وصل إلى أنطاكية بعد رحيل بوهيموند مباشرة، واستقبله ريموند في اللاذقية استقبالا حسنا. أما أهل باتياس وهم مسيحيون يونانيون يعترفون بسلطان الإمبراطور فلم يرحبوا بالحجاج وأظهروا عزوفهم عن تقديم الإمدادات، فواصل الحجاج مسيرهم لكنهم سرعان ما داهمهم الجوع. وكانت مدينة طرطوس التي مروا بها في نهاية الشهر قد عادت إلى أيدي المسلمين، وهاجمت حاميتها الراجلين في مؤخرة الحجاج وقتلتهم، ولم يستطيعوا الحصول على الطعام منها، أو على الكثير منه في طرابلس، إذ كان الخبز باهظ الثمن ولم يستطع شراؤه إلا الأغنياء. واستخرجوا بعض العصارة الغذائية من قصب السكر الذي كان ينمو في جوار طرابلس، ورغم اهتمام الحجاج بهذا النبات الجديد بالنسبة لهم، إلا أنه لم يكف لإشباع احتياجاتهم. وجاء شهر ديسمبر (كانون الأول) ببرد غير متوقع، وهطلت الأمطار بلا توقف، وارتفع معدل الوفيات بين المسنين والضعفاء، وهلك أغلب دواب الأجمال، لكنهم تابروا وواصلوا تقدمهم، وفي منتصف ديسمبر (كانون الأول) وصلوا إلى قيسارية حيث تمكنوا من شراء الطعام، وفي الحادي والعشرين وصلوا إلى القدس.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> يقول (Fulcher of Chartres (loc. cit.) إن بوهيموند دعا بلدوين لمصاحبة لأن الأعداد الأكبر توفر الأمان الأكبر. ويورد Fulcher عدد الحجاج، ولا شك أنه عدد مبالغ فيه (ibid. 8, p. 328).

<sup>(٢)</sup> Fulcher of Chartres, ibid. 7-18, pp. 326-32

وانتهج جودفري برؤباهم؛ فهو في حاجة ملحة إلى القوة البشرية، وداعبه الأمل في إقناع الكثير منهم بالبقاء في فلسطين والاستقرار في الضياع التي يستطيع تقديمها إليهم. ولقد أصاب بعض النجاح؛ فعندما عاد بوهيموند والدوين إلى الشمال تخلف عدد من الفرسان برحائم وبقوا معه. وكانت هزيمة المصريين في عسقلان تعني خروج يهودا والسامرة في داخل البلاد من نطاق سيطرتهم، ورغم بقاء المدن الساحلية في أيدي حكام فاطميين وتحت حماية الأسطول المصري باستثناء ميناء يافا. وكان أغلب سكان القرى من صغار المزارعين المسيحيين السليبيين الذين حرموا من حمل السلاح لأجيال. وكان سادتهم المسلمون يستغلونهم عندما تكون الحكومة المركزية ضعيفة، ولقد رحبوا في بادئ الأمر بتغير الأسياذ. وبنهاية الصيف امتد سلطان جودفري إلى سهل جزريل<sup>(١)</sup> في الشمال وإلى ما وراء حبرون داخل النقب في الجنوب ورغم عدم اكتمال سيطرته على جنوب يهودا؛ لأن أغلب السكان من المسلمين، وتسلب البدو من الصحراء لا يتقطع. وكانت حبرون — التي أطلق عليها الصليبيون اسم (القديس إبراهيم) — محصنة تحصينا قويا حتى يمكن السيطرة على المنطقة.<sup>(٢)</sup>

وفي تلك الأثناء توغل تانكريد في الجليل ومعه مجموعة صغيرة مكونة من أربعة وعشرين فارسا ورجاله. والجليل منطقة اختلف عليها مؤرخا الفاطميون ودقاق الدمشقي الذي لم يتسع الوقت أمامه لاحتلال تلك المقاطعة بعد هزيمة الفاطميين في عسقلان، ولذلك لم يقاوم مسلموها تانكريد، وعندما اقترب من عاصمتهم طبرية هربوا إلى الأراضي الدمشقية، واستقبلته الأقلية المسيحية في المدينة بمشاعر السعادة، أما الجالية اليهودية الكبيرة فكان أفرادها في كرب شديد، إذ أن ذكرى مصر لإخوانهم في

(١) (الترجم): سهل جزريل : يقع شمال فلسطين ويفصل بين منطقة تلال الجليل في الشمال والسامرة في الجنوب . وهو مذكور في الكتاب المقدس ، العهد القديم ، باسم " وادي بزرعيل " (سفر يشوع 17:16).

(٢) إستنادا إلى William of Tyre ، لم يكن لدى جودفري سوى ثلاثمائة فارس وألفين من المشاة (α, 19. Vol. 1, pt 1, p. 393).

القدس ما تزال ماثلة في أذهانهم. وقام تانكريد بتحصين طبرية، ثم واصل مسيرته إلى مدينة الناصرة المسيحية وإلى جبل طابور<sup>(١)</sup>، ثم توج غزواته بالاستيلاء على قلعة بيسلن الحصينة (سكيتوبوليس) التي تتحكم في الممر الواصل من سهيل حزريل إلى الأردن. وسارع مسلمو الجليل بالرحيل عن المنطقة، وتابع تانكريد رحيلهم بسلسلة من الغارات الحاطقة الناجحة على الأراضي الإسلامية المحيطة حريا على أسلوب العرب. وأسفرت تلك الغارات لا عن حصوله هو وأتباعه على غنائم وفيرة وحسب، وإنما أكدت أيضا امتلاكه للجليل. وهكذا كثرت الدولة المسيحية وأصبحت كتلة متماسكة من الأراضي تفصل المدن الفاطمية الساحلية فضلا تاما عن الأردن وحوارن في داخل البلاد. وما هم المصريون غير مستعدين بعد للتأثر من هزيمة عسقلان، وما هو دقاق الدمشقي غارقا إلى أذنيه في مشاجرات عائلية بحيث لا يجرؤ على المخاطرة بحرب هجومية، وإذن فليسس هناك من خطر عاجل يهدد جودفري. وواقع الحال أنه لا يتحمل حجوما مضادا حديدا بما لديه من قوات محاربة يقدرها المؤرخ وليم الصوري بثلاثمائة فارس وألفي راجل. إن تفرق العرب، دون غيره، هو الذي سمح للدولة الدخيلة الصغيرة بأن تقام داخل أراضيهم.<sup>(٢)</sup>

#### دياميرت يصبح بطريقا

وخطط دياميرت وبوهيموند سياستهما المقبلة أثناء ارتحاضهما جنوبا. وكان جودفري في حاجة إلى مساعدتهما؛ فهو يفتقر إلى القوة البحرية المتمثلة في سفن بيزا التي يستحوذ دياميرت على ولائها، كما كان في حاجة إلى أكبر عدد ممكن الفرسان يستطيع بوهيموند الاستغناء عنهم. وأمضى الحجاج عيد الميلاد في بيت لحم، وما أن

<sup>(١)</sup> (الترجم) : جبل طابور أو الطور : الجبل الذي نجا فيه ذكرى تولى المسيح .

<sup>(٢)</sup> Radulph of Caen, cxxxix, pp. 703-4; William of Tyre, ix, 13, vol. 1 pt 1, p.394

انتهت الاحتفالات حتى كشف الوافدان عن خططهما، فقد خُلع البطريق آرنولف، الذي كان أعداؤه كثيرين، تأسيساً على أن انتخابه لم يكن طبقاً للقانون الكنسي، وكان نصيره دوق نورماندي بعيداً آنذاك. وبتحريض من بوهيموند انتخب دياميرت بطريقاً للقدس مكان آرنولف. وانتشرت شائعات تقول إن الهدايا التي أخذها كل من بوهيموند وجودفري ساعدت على إنجاز المهمة. وفور الانتهاء من تنصيبه بطريقاً ركع بوهيموند وجودفري أمامه حيث نصّبهما في أراضي القدس وأنطاكية.<sup>(١)</sup>

وكان احتفالاً له شأن كبير وانشراح مغزاه بجلاء. إذ دائماً ما كان الرأي العام بين الحجاج يعتبر أن الأراضي المقدسة ينبغي أن تكون وفقاً كنسياً، بيد أنه لم يكن لآرنولف من السلطة أو الشخصية ما يمكنه من السيطرة على القوى الدنيوية، ثم جلاء دياميرت مندوباً بابوياً يتمتع بمهابة أضفها عليه قرار البابا إيربان بتعيينه، وأحضر معه المساعدة الفعالة المتمثلة في أسطول من السفن ومؤازرة مقتنرة من بوهيموند، ولذا لم يكن الصليبي العادي ينكر عليه مطالبه. وشارك جودفري في تقديم فصوص الاحترام اللائق الأصل للكنيسة، فهو رجل ضعيف لا يشعر بالأمان برغم ما يتنابه من نوبات عناد، وكان يأمل — باعتراؤه بسيادة الكنيسة — في أن يرتكز على ركيزة معنوية ملائمة في منصبه، وأن ينال من الكنيسة دعماً كاملاً لحكومته الدنيوية في البلاد، لكنه لم يكن حتى ذلك الوقت يعرف دياميرت حق المعرفة. وكان بوهيموند أشدّ مكرّاً فهو لم يخسر شيئاً باعتراؤه بسيادة دياميرت الذي سيكون بعيداً جداً بحيث لا يستطيع التدخل في شؤون أنطاكية، وسره تجاهل حقوق بطريق أنطاكية اليوناني لا سيما وأنه يرتاب في أنه عميل لبيزنطة. ولأن سلطانه الآن يرتكز من الناحية الرسمية على رجل الكنيسة اللاتيني الرئيسي في الشرق، فإنه بذلك أجاب على مطالب الإمبراطور برود عملي من شأنه أن يلقي الترحيب من جميع اللاتينيين، وبذا يمكنه أن يأمل في عولهم

<sup>(١)</sup> . Albert of Aix, vii, 7, pp. 511-12; William of Tyre, ix, 15, vol. 1 pt. 1, p. 387



الصادق إذا ما حاول الإمبراطور مهاجمته. ولعله حصل في تلك المناسبة على لقب أمير أنطاكية. ولم يكن لقب (أمير) المرتبط بالأرض معروفاً في الغرب إلا فيما ندر، وباستثناء جنوب إيطاليا حيث سبق أن استخدمه بعض الحكام النورمانديين الذين تعاقبوا على الأرض اللومباردية، ولم يعترفوا بأية سيادة دنيوية أعلى سوى كرسي القديس بطرس، وكان ذلك اللقب يناسب بوهيموند تماماً. وفي ذات الوقت حصل ابن أخيه تسانكريد على لقب أمير الجليل أيضاً، وربما أراد بذلك أن يظهر أن سيده لم يكن جودفري وإلمد البطريق. ولقد اغتبط دياميرت بالولاء الذي أظهره له<sup>(١)</sup>، ولعل البابا إيربان كان ينوي أن تصبح الأراضي المقدسة وفقاً كنسياً رغم أنه لم يكن يرغب في إفساد الترتيبات الكنسية القائمة، ولا شك في أنه كان سيرحب باستحلال أحد اللاتينيين في كل بطريرقية شرقية إذا ما تيسر ذلك بالطرق القانونية والسلمية، وربما يعن لنا أن نساءل ما إذا كان يوافق على إجراء تتحلل بموجبه بطريرقية القدس لنفسها سلطاناً يعلو فوق سلطان بطريرقية أنطاكية الأقدم ذات الزعامة التاريخية. وكانت مطالب دياميرت هي المطالب بطريرقية المتمثلة في سيادة دينية ودنيوية في الشرق تسمو بنفس قدر السيادة التي أتاحها البابا جريجوري السابع نفسه للبابوية في الغرب. ولقد اختصرت اللحظة اختياراً موقفاً: فقد مات البابا إيربان، ولابد أن تكون أنباء استخلاف باسكال الثاني — الذي رُفع إلى منصب البابوية في الثالث عشر من أغسطس (آب) — قد وصلت القدس بحلول الشتاء، وربما كان دياميرت على صلة وثيقة بالبابا الجديد الذي كان قد سبقه كمندوب بابوي في إسبانيا وعرف أنه رجل عادي القدرات وليس بالشخصية القوية، ومن غير المحتمل أن يتسبب في وجود عراقيل طالما تم الاعتراف بسيادته الإمبريالية.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> See Grousset, *Histoire des Croisades*, vol. 1, pp. 194-6, and Moeller, *op. cit.*

<sup>(٢)</sup> For Paschall II, see article 'Paschall II' by Amann in Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*.

ولم يقدم بالدوين صاحب الرها ولاءه للبطريق. وليس معروفا ما إذا كان قد طلب منه أن يفعل ذلك ورفض، أم أن المسألة لم يثرها أحد. ولكن يبدو أن علاقته بديامبرت لم تكن علاقة ودودة.<sup>(١)</sup>

#### بوهيموند وبالدوين يعودان إلى الشمال

وبانتهاء الاحتفال رحل بوهيموند وبالدوين معا في يوم رأس السنة الجديدة ١١٠٠ ميلادية إلى أراضيهم. وعاد معهما أغلب أتباعهما، وتخلّف عدد منهم منحهم جودفري إقطاعيات في فلسطين. وصاحب جودفري وديامبرت الحجاج إلى أرمينيا والأردن حيث أمضوا عيد الغطاس<sup>(٢)</sup>، ثم تحول بالدوين وبوهيموند شمالا أعلى السوادي إلى بيسان، ومنها إلى طبرية حيث قررا عدم السفر على الطريق الساحلي وإنما المضي قدما مروراً ببانياس ووادي الليطاني إلى داخل سوريا دون أن يعترض طريقهما أحد إلى أن أصبحا داخل سوريا بالقرب من معبد بعلبك حيث الولاء لـدقاق الدمشقي الذي خطط لاعتراضهما هناك. وعندما هاجمت القوات الدمشقية كان الركب يسير في طابور يتقدمه بوهيموند بينما كان بالدوين في المؤخرة، ولكن الدقاق كان حريصا على سرعة طردهم خارج أراضيه أكثر من حرصه على القضاء عليهم، فلم تكن غارته عليهم كاسحة ولذا كان من اليسير ردها، وواصل الفرنج طريقهم هبوطا إلى البحر

<sup>(١)</sup> ليس هناك من دليل على أن بلدوين قدم الولاء لـديامبرت بشأن الرها في أي وقت. ويتضح من الأحداث اللاحقة أن ديامبرت لم يكن يثق فيه.

<sup>(٢)</sup> (المترجم) : عيد الغطاس أو عيد الظهور الإلهي : عيد كنسي (٦ يناير) تقليداً قديماً، باعتباره أول ظهور للمسيح لغير اليهود، وفي الكنيسة الشرقية تقليداً للذكرى تصيد المسيح.

خلال البقاع ومن هناك اتقلوا الطريق الساحلي مروراً بطرطوس واللاذقية إلى أنطاكية، وقبل نهاية فبراير (شباط) كان بالدوين قد عاد إلى الرها.<sup>(٢)</sup>

وتمكن جودفري من بسط سيطرته على سهول فلسطين الساحلية بعد أن زادت قواته المسلحة، وكانت أراضيه معزولة عن البحر باستثناء ممر يؤدي إلى يافسا، وأثناء الخريف حاول توسيع هذا الممر بالاستيلاء على ميناء أرصوف الصغير الواقع شمال يافسا. وكان أهل أرصوف قد عرضوا الاستسلام لريموند أوف تولوز، ولكن أحبط مساعيهم تدخل جودفري، والآن وقد غادر ريموند فلسطين رأوا أن من الحكمة التوصل إلى اتفاق مع جودفري، فأرسلوا إليه بعض الرهائن وفي المقابل سمحوا بأن يدخل مدينتهم أحد الفرسان من هينولت وهو جبرار أوف أفسن ليقم في المدينة من ناحية وليكون رهينة من ناحية أخرى، بيد أن جودفري كان يريد السيطرة المباشرة، فسار في أواخر الخريف ومعه قوة صغيرة لمهاجمة المدينة. وكان أول ضحاياه صديقه جبرار أوف أفسن الذي قيده أهل أرصوف وعلقوه من فوق الأسوار بحيث أصبح معرضاً تماماً لسهام المغيرين، وراح جبرار يصرخ دون جدوى متوسلاً إلى جودفري كي يقي على حياته، ولكن رد عليه جودفري بأنه لو كان أخوه إيوستاس نفسه معلقاً في مكانه فلن يشيه ذلك عن تشديد المحجم، وسرعان ما سحب أهل أرصوف جسد جبرار بعد أن احترقه اثنا عشر سهماً من سهام رفاقه. على أن استشهاده ذهب هباءً إذ كان رجال جودفري فاقدي الخيلة أمام أسوار المدينة بعدما دمرت الحامية البرجين المتحركين اللذين شيدهما قذفاً بالنبيران الإغريقية الواحد تلو الآخر. ورفع جودفري الحصار في الخامس عشر من ديسمبر (كانون الأول)، ولكنه ترك نصف جيشه في الرملة وأمره بتخريب الريف المحيط بأرصوف ليستحيل على مواطنيها أن يفلحوا أرضهم.<sup>(٣)</sup>

<sup>(٢)</sup> . Fulcher of Chartres, I, xxxiii, 19-21, pp. 332-4.

<sup>(٣)</sup> . Albert of Aix vu, 1-6, pp. 507-11.

وبوصول التعزيزات واصل جودفري سياسته تلك بصورة موسعة؛ فبدأ رجاله في الإغارة على الريف المحيط بكل المدن الفاطمية الساحلية: عسقلان وقيسارية وعكا فضلاً عن أرصوف، إلى أن عجزت كلها عن الحصول على أية إمدادات من داخل البلاد. وفي نفس الوقت استعان ببخارة بيزا في تحصين مدينة يافا، وإدخال التحسينات على مرفئها، وتدفقت السفن من جميع الموانئ الإيطالية ومواني بروفانس الفرنسية لمشاركة أهل بيزا في تلك الفرصة السانحة تجديها توقعات التجارة الرائجة مع الدولة الجديدة، وبمساعدها تمكن جودفري من محاصرة الساحل الفلسطيني. وتزايدت الصعوبات أمام السفن الفاطمية في جلب الإمدادات بحراً إلى الموانئ الإسلامية. وكانت هناك أعمال قرصنة من الجانيين، لكن على وجه العموم كان مواطنو تلك الموانئ هم الذين عانوا أسوأ المعاناة.<sup>(١٦)</sup>

وفي منتصف شهر مارس (آذار) استجاب المصريون لنداء عاجل من حاميه أرصوف وأرسلوا لها فصيلة صغيرة بطريق البحر لتعزیزها، فتشجع رجال أرصوف ونظموا غارة مضادة على الفرنج، لكنهم وقعوا في كمين قُتل فيه الجزء الأعظم من جيشهم، فتملكهم اليأس وأرسلوا إلى جودفري سفارة وصلت القدس في الخامس والعشرين من مارس (آذار) حاملة إليه مفاتيح أبراج المدينة كهدية رمزية، على أن تدفع إتاوة سنوية، فقبل جودفري استسلامهم ومنح حق استلام الإتاوة لواحد من أهم فرسانه هو روبرت أوف أبوليا. وبعد ذلك بأيام قليلة فوجئ جودفري واغتبط لظهور جيران أوف أفيسن في القدس وقد شفي من جراحه والآن أعادته سلطات أرصوف كعلامة على حسن النوايا. ودفعه تأنيب الضمير الذي كان يعاني منه إلى إهدائه إقطاعية القديس إبراهيم، أي حيرون.<sup>(١٧)</sup>

<sup>(١٦)</sup> Ibid, vii, 12, 14. pp. 515-16.

<sup>(١٧)</sup> Ibid, vii, 13, 15. pp. 515-16.

### جودفري وأمرء الساحل

ولم يمض وقت طويل حتى سارت مدن عسقلان وقيسارية وعكا على نفس الدرب الذي سارت عليه أرصوف. ففي أول إبريل (نيسان) اجتمع أمرء تلك المدن وأرسلوا المبعوثين إلى جودفري يحملين هدايا من الخيول والفاكهة والزيتون والخيول العربية، وعرضوا عليه دفع إتاوة شهرية قدرها خمسة آلاف بيزنطة إذا سمح لهم بأن يفلحوا أرضهم في سلام، فقبل جودفري عرضهم، وسرعان ما نشأت علاقات حميمة بين المدن الإسلامية وحاكمها المسيحي. وكان العديد من صغار مشايخ المسلمين في سفوح الجبال قد أعلنوا خضوعهم من قبل؛ فبينما كان جودفري في معسكره أمام أرصوف زاره وفد منهم هدايا من الطعام، وتأثر الوفد بالبساطة التي يعيش فيها وابتهجوا لها — وهي بساطة أملاها عليه فقره وذوقه، وتناسبت تلك البساطة مع تصورهم للمحارب العظيم المتواضع ويسرت له الفوز بصدقتهم.<sup>(١)</sup>

وسار على دريهم شيوخ شرق الأردن وسعوا إلى التفاهم معه. إذ اعتادوا إرسال فائض إنتاجهم إلى مدن الساحل، والآن تعترض الدولة الفرنجية طرق تجارتهم، فطلبوا تمكينهم من إرسال قوافلهم عبر يهودا مرة أخرى فأذن لهم جودفري، لكنه حاول تحويل التجارة إلى ميناء يافا للمسيحي بقدر الإمكان. وفي نفس الوقت شجع الإيطاليين على اعتراض أية تجارة بين المدن الإسلامية الساحلية ومصر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كي تصبح تلك المدن معتمدة على المسيحيين في تجارتها. وهكذا بدأت فلسطين كلها تتكامل في كيان اقتصادي واحد بعلاقات مع أوروبا فيما وراء البحار، وحققَت السياسة الفرنجية عائداً سريعاً من الثروة والرخاء للدولة الصليبية.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> Ibid. loc. cit.; William of Tyre, ix, 20, vol. 1 pt 1, pp. 395-6

<sup>(٢)</sup> Albert of Aix, vii, 14, p. 516

#### غارات عبر الأردن

وشجع تزايد نفوذ جودفري بين حيرانه المسلمين على محاولة توسيع سيطرته لتشمل البلاد الواقعة عبر الأردن. وكان في أرض سوات الواقعة إلى الشرق من الخليل أمير أطلق عليه الصليبيون اسم "الفلاح السمين"، وكان تانكريد قد أغار على أراضيهِ ودفعه إلى الاعتراف بالسيادة الفرنجية، لكن "الفلاح السمين" سرعان ما تحلل من تلك التبعية فور رحيل تانكريد ولجأ إلى سيده الأعلى دقاق الدمشقي طلباً للمساعدة. ولذا طلب تانكريد بدوره المساعدة من جودفري، فإذا كان للفرنج موطن قدم هناك فسوف يتمكنون من تحويل التجارة الرائجة في الجولان وحوران إلى الموانئ الفلسطينية، فضلاً عن أن منطقة سوات تشتهر بخصب أراضيها. وتلف جودفري علسي الاشتراك في غزوها، فجمع الجنود في وقت مبكر من شهر مايو (أيار) وألحقهم بقوات تانكريد في غارة أدت بمها عبر أراضي "الفلاح السمين" إلى قلب الجولان مباشرة. وأثناء عودتهما مثقلين بالغنائم انقض الدقاق على المؤخرة التي يقودها تانكريد، ومضى جودفري الذي كان في الطليعة وهو يجهل ما كان يحدث، ولم يتمكن تانكريد من تخليص نفسه إلا بعد أن فقد الكثير من رجاله وكل نصيبه من الأسلاب. على أن الدقاق لم يشعر بأنه من القوة بحيث يطارد الفرنج فعاد إلى دمشق بعد أن تأكد من مغادرتهم أراضيهِ. ومضى جودفري ومعه أسلابه إلى القدس. لكن تانكريد كان يتحرق شوقاً للانتقام، فبعث أن استراح جيشه في طبرية وجمع التعزيزات قام بغارة أخرى في الأراضي الدمشقية كُلفت من الشراسة بحيث دفعت الدقاق إلى اقتراح هدنة. فكان رد تانكريد أن بعث بستة فرسان إلى دمشق ومعهم رسالة موداها أنه على الدقاق إما أن يصبح مسيحياً أو يغادر دمشق، فتعلكته سورة الغضب من تلك الإهانة، ورد على الرسل بالمثل وخبرهم بين أن يسلموا أو يقتلوا، وتغلب واحد منهم عن عقيدته وقتل الخمسة الآخرين. وفي الحال طلب تانكريد المساعدة من جودفري لئلا يثار لاستشهادهم، فخرج جودفري مرة أخرى ليشترك معه في غارة أكثر هولا من سابقتها؛ وظلوا أربعة عشر يوماً يخربون الجولان بينما احتفى المسلمون وراء أسوار مدنها. على أن الدقاق، الذي لم يكن ميالاً بطبعه

للالتهزام بمجملات القتال، لم يحاول أن يتصدى لهم. ووجد "الفلاح السمين" نفسه وقد هجره سيده وأفقره الفرنج فوافق مرة أخرى على قبول سيادة تانكريد ودفع إتاوة منتظمة له.<sup>(١)</sup>

وبرغم قوة جودفري الصاعدة بين حيرانه المسلمين، كانت قوته الداخلية في نطلق أراضيه آخذة في الاضمحلال. فكانت علاقته بتانكريد، وهو أكبر أتباعه، علاقة ودودة، غير أنه يبدو أن تانكريد، برغم كل ما يظليه من مساعدات جودفري، شكل سياسته وفقا لرغباته. وبينما كان تانكريد، وهو أمير الجليل، يتصرف كما لو كان عاجلا مستقلا، وجد جودفري أن سيده الأعلى الذي قبله دوغا روية، وهو البطريرق دياميرت، يقيد من استقلاله أكثر فأكثر؛ فلم يكن دياميرت يرضى بأن تكون سلطته مجرد سلطة اسمية نظرية، وإنما يريد أن تستند إلى قوة إيجابية، ولم يكن جودفري يميل إلى رفض طلباته لشعوره الدائم بعدم الثقة في نفسه أمام الكنيسة، وخشيته من أن يفقد مساعدته. في عيد تطهير العذراء، الثاني من فبراير (شباط) سنة ١١٠٠ ميلادية، قام بتسليم ربع مدينة يافا إلى دائرة القدس الكنسية، وبعد ذلك طلب دياميرت السيطرة لا على يافا كلها وحسب، وإنما أيضا على مدينة القدس نفسها وعلى قلعتها (برج داوود) وأذن جودفري مرة أخرى لكنه أصر على التأخير الذي ربما دفعه إليه فرسانه الحانقون؛ ففي قداس وقور أقيم يوم عيد الفصح أول إبريل (نيسان) وهب المدينتين للبطريرقية، لكنه أعلن استمرار امتلاكه لهما حتى توافيه المنية أو إلى أن يستولي من الكفار على مدينتين كبيرتين بدلا منهما. ولم يكن هذا حلا مرضيا؛ إذ ليس من اليسر بناء مملكة منظمة حول عاصمة مؤقتة، ويبدو أنه لم يكن لدى جودفري هيئة حكومية بخلاف جماعته هو نفسه، كما لم يكن بوسع أن يأمل الآن في تأسيس حكومة في القدس. ولو كان دياميرت إداريا متمرسا، أو رجل دولة يتصف بالحكمة مثل أديمار، لقدّر لنظام الحكم الهرمي الذي تصوره أن يبقى، لكن

<sup>(١)</sup> Ibid. vii, 16-17, pp. 517-18

محاولة غير المتبصرة أن يطرد من العاصمة حماها الديويين الذي يعتمد عليهم أمن الدولة المسيحية، هي محاولة من شأنها أن تؤدي إلى كارثة، وحين المهلة التي حصل عليها جودفري جعلت المستقبل غير معروف. لكن العناية الإلهية أظهرت الرحمة للقدس.<sup>(١)</sup>

فلدى عودة جودفري إلى الجليل في الثامن عشر من يونية (حزيران) بعد غارته في الجولان علم بوصول أسطول قوي إلى يافا قادما من البندقية، فخرج جنوبا لتحيته وهو يدرك الفائدة الكبيرة لهذا الأسطول في السيطرة على السواحل، وانطلق من طبرية مرورا بعكا وحيفا إلى قيسارية. وكان أميرها تواقا إلى إظهار احتراماته لسيده، فنهضه إلى مأدبة عومل فيها بأسمى مظاهر التشريف. ومن قيسارية انطلق جودفري مباشرة إلى يافا، فوصلها وهو يعاني من المرض، وأما فور وصوله النزل الذي كان قد شجعه بنفسه لكبار الزوار. وتذكر أصدقاؤه كل ألوان الفاكهة التي تناولها على مأدبة الأمير وتماسوا بكلمة السم، والحقيقة أن مرضه ربما كان التيفود. وفي اليوم التالي استرد من قوته ما يكفي لاستقبال أمر الأسطول البندقي والأسقف الذي كان بصحته، وناقش معهما الشروط التي بموجبها يقدم الأسطول المساعدة للصليبيين. على أن الجهد الذي بذله في المقابلة كان فوق طاقته الصحية، فطلب من جماعته نقله إلى القدس حيث تحسن تحسنا طفيفا في هوائها المنعش، لكنه كان بالغ الضعف بحيث لم يقدر على العمل.<sup>(٢)</sup>

#### جودفري في مرضه الأخير

وتحلق السياسيون حول فراش مرضه يتشاحنون. فهذا دياميرت قد عيّل صبره انتظارا للحظة يستولي فيها على المدينة، وها هم البنادقة متلهفون على اتخاذ الخطوات

<sup>(١)</sup> William of Tyre, ix, 16-17, vol. I, pt 1, pp. 388-90

<sup>(٢)</sup> Matthew of Edessa, Albert of Aix, vii, 18, p. 519. ويقول المؤرخ ساليو الأورق  
ويفترض أنه يعتمد على شائعات مسيحية محلية، إن الأمر من السم جودفري (n, clxv, p. 299).



اللازمة للمضي في ترتيبهم، وقد جاءوا إلى القدس في جماعتين للعبادة في الأماكن المقدسة: الأولى في الحادي والعشرين من يونية (حزيران)، والثانية في الرابع والعشرين، لكن ربما تخلف أمرهم وأسقفهم لفترة أطول لمواصلة المفاوضات. وما أن سمع تانكريد بوصوهم وبمرض جودفري حتى ترك الجليل متجهاً إلى الجنوب على عجل. ومن فراس المرض أناب جودفري ابن عمه الكونت البرجندي وارنر أوف جراي للقيام بأعماله، وأعطى موافقة على الشروط التي اشترطها البنادقة والتي تتمثل في أن يُسمح لهم بحرية التجارة في سائر أنحاء الدولة الفرنجية، وأن يكون لهم سوق وكنيسة في كل مدينة من مدن الدولة، وأن يحصلوا على ثلث كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها، وعلى مدينة طرابلس كلها شريطة دفع إتاوة لجودفري، وفي مقابل ذلك يقدمون مساعدتهم للصليبيين حتى منتصف أغسطس (آب).<sup>(١)</sup> ثم توقفت المدن التي سوف تتم مهاجمتها بين الصيف، وتقرر أن تكون عكا الهدف الرئيسي على الرغم من المعاهدة المعبودة بين أميرها وجودفري، ولابد من الاستيلاء على حيفا كذلك. وكان تانكريد يأمل في ضمان عكا لنفسه وضمها لإمارته، على أن جودفري شخصياً وعد صديقه جلدسمار كاربيل بإعطائه حيفا.<sup>(٢)</sup>

وخلال النصف الأول من يولية (تموز) بدأ جودفري أقوى قليلاً، وكان يُظن أنه سوف يشق. وبدأ الاستعداد لتنفيذ مخططات تسيير الحملة إلى عكا، فلاحق جنود تانكريد بقائدهم في العاصمة، وعين وارنر أوف جراي قائداً لجنود جودفري. وعندئذ قرر البطريق ديامبرت مصاحبة الحملة كي يُظهر أنه السلطة الرئيسية في البلاد، ولكني يكون له رأي عند أي توزيع للأراضي؛ فهو لا يثق في وارنر، وظن أنه من المأمون أن

vn, 19, p. 519 *Translatio Sancti Nicolai in Venetiam R.H.C.Oec* vol. v, pt 1, (1)  
pp. 272-3; Albert of Aix .

. *Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.* ; Albert of Aix vn, 20, p. 520. (2)

يغادر القدس فسجوفري يعاني المرض الشديد ولا يقوى على اتخاذ أي إجراء، وجنوده كلهم يعيدون عنه في الحملة. ولم يحدث قط أن أخطأ في حساباته على هذا النحو.

وفي الثالث عشر من يولية (تموز) غادر القدس كل من البطريق وتانكريد ووارنر وجميع رجالهم، وساروا جنوباً إلى يافا للاتصال بالبنادقة. وأثناء اقترابهم من يافا سقط وارنر مريضاً فجأة، وكان واضحاً أن حالته لا تسمح له بمواصلة الحملة، فبقي أربعة أيام في يافا ثم عادوا به إلى القدس محمولاً على عتفة. بينما أسرع الجيش شمالاً على الساحل وتجهزت سفن البندقية للإبحار شمالاً إلى حانية، لكن الرياح الشمالية أوقفتها ولم تمرز تقدماً يذكر.<sup>(١)</sup>

ولم يكد وارنر أن يصل إلى القدس حتى توقف قلب جودفري المرهق. وفي يوم الأربعاء الثامن عشر من يولية (تموز)، كان جودفري — كونت اللورين وحامي القبر المقدس — يرقد في هدوء ليستريح راحته الأخيرة بعد أن تقوى بأمر طقوس الكنيسة. لقد كان حاكماً ضعيفاً يفتقر إلى الحكمة، لكنه نال احترام الرجال من كل الأمم لشجاعته وتواضعه وإيمانه. وفي القدس قوبل نبأ موته بالحداد، وظل مسجى في نعش مكشوف خمسة أيام، ثم دُفن في كنيسة القبر المقدس.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> .*Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.*

<sup>(٢)</sup> .Albert of Aix, vn 21, pp. 520-1; William of Tyre, x, 23, vol. 1 pt 1, p. 399



## الفصل الرابع

(مملكة أورشليم)



## مملكة أورشليم

"لَا يَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ"

(صموئيل الأول : ٨ - ١٩)

أملى حودفري وصيته وهو على فراش المرض، وأوفى بوعده الذي وعد به في عيد الفصح وذهب مدينة القدس للطريق. وعندما مات لم يكن في القدس من يتمتع بأية سلطة فيما عدا وارنر أوف جراي، فقد رحل البطريق وزعماء الفرسان كلهم في الحملة

إلى عكا. وكان وارث نفسه يحتضر، لكنه أدرك ما ينبغي عمله؛ فنهض من فراش مرضه واحتل من قوره برج داوود ووضع فيه رجالاً من حرس جودفري الشخصي، وبعد أن تشاور مع بعض الضباط في منزل جودفري وهم ماثيو وكيل الإقطاعيات، وجودفري (الياور)، ومع روبرت أسقف الرملة وأرنولف الأسقف السابق، أرسل أسقف الرملة مع فارسين للانطلاق بغاية السرعة إلى الرها ليخبروا بالدوين بوفاة أخيه، ويستدعوه ليتولى التركة؛ فلا طاعة عليهم إلا لواحد من أقاربه. وهو أمر دُر من قبل؛ إذ شملت الدعوة الموجهة إلى بالدوين أسماء جماعة من الفرسان كانوا عند إرسالها مع الجيش مثل جلدمار كارتبل وقيشر الألماني. وتتألف هذه الجماعة من أبناء اللورين والفرنسيين الشماليين الذين جاءوا إلى الحملة الصليبية مع جودفري أو لحقوا به، وكانوا يعارضون النورمانديين والإيطاليين معارضة مريرة لا سيما وأن جودفري كان واقفاً تحت نفوذهم. وأفلحوا في كتمان سرهم وظنوا أن الحكمة تقتضي بإبقائه على الكتمان، فلم تصل أنباء موت جودفري إلى الجيش.<sup>(١)</sup>

وبينما كانت سفن البنادقة ما تزال بالقرب من يافا انتظاراً لهدوء الرياح الشمالية جاءهم من قلنس رسول ينعي إليهم موت جودفري، فسأل أمر البنادقة نفسه عن مدى تأثير ذلك على الحملة، وأرسل لنوه أسرع ثلاث سفن لديه شمالاً بمحاذاة الساحل لتلحق بتانكريد والبطريق وتستفسر عما يتوهمه الآن. ووقع النبأ على الجيش وقعاً سيئاً لما كان يمكنه لجودفري من حبة، ويبدو أن ديامبرت قد تردد. لقد كان قلقاً على ميراثه، لكنه كان مطمئناً إلى ما أوصى به جودفري، وظن أن أهل اللورين بلا قيادة، ووافق على ما أصر عليه تانكريد من ضرورة انتهاز فرصة وجود الأسطول

<sup>(١)</sup> Albert of Aix, vii, 30, p. 526; William of Tyre, x, 3, vol. 1, pt 1, pp. 403-4

يتضح أن قادة الجيش لم يعلموا بموت جودفري إلا عن طريق البنادقة

البندقي للاستيلاء على حيفا على الأقل وتأجيل الهجوم على عكا. لكنه أرسل مبعوثاً إلى القدس للاستيلاء على برج داوود باسمه.<sup>(١)</sup>

وواصل الجيش زحفه إلى حيفا وعسكر على منحدرات جبل الكرمل، وسرعان ما انخر الأسطول البندقي داخلاً إلى خليج حيفا التي كان أغلب سكانها من اليهود مع وجود حامية مصرية صغيرة. وتذكر اليهود مصير ذويهم التمس في القدس والجليل، فأظهروا الاستعداد للدفاع عن أنفسهم إلى النهاية، وزودهم المسلمون بالسلاح، فحاربوا بكل ما أوتي من جنسهم من عناد. وفي معركة دارت في المرفأ فقد البنادقة سفينة، فنبط ذلك من عزيمتهم وانسحبوا إلى الخليج، وفي نفس الوقت علم تانكريد فحالة بالوعد الذي وعده جودفري بمنح جلدمار كارنيل ميناء حيفا فتملكه الحق، واستدعى رجاله وتجهز إلى عيمته حيث ظل متجهماً مقطب الجبين. واستخدم ديامبرت كل لياقته لإقناعه باستئناف الهجوم، وتبين له أن البنادقة يعدون العدة بالفعل للتصرف، ووعدته بأنه سيعمل على منح حيفا للرجل الأفضل، فوافق تانكريد على التعاون مرة أخرى وشنّ هجوماً جديداً. وبعد كفاح يائس هالت القتال على العرج الرئيسي للدفاعات فأحدثت ثغرة. وهرب من كان قادراً على الفرار من المسلمين واليهود إلى عكا أو إلى قيسارية، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان.<sup>(٢)</sup>

وسقطت حيفا في الخامس والعشرين من يولية (تموز). وفي الحال اجتمع قادة الجيش لتعين من سيأخذها، وكان لستانكريد أكثر القوات عدداً إلى جانب تأييد ديامبرت، فلم يستطع جلدمار كارنيل أن يفعل شيئاً ضده وطرده من المدينة، فأتجه ومعه أبناء اللورين إلى حيرون جنوب فلسطين حيث اتخذها مقراً له. وأما حاكمها

<sup>(١)</sup> .*Translatio Sancti Nicolai in Venetiam*, pp. 275-6; William of Tyre, *loc. cit.*

<sup>(٢)</sup> .Albert of Aix, vii, 22-5, pp. 521-3; *Translatio Sancti Nicolai*, pp. 276-8



جيرار أوف أفيسن فرمما كان ما يزال مع تانكريد.<sup>(١)</sup> وبعد ذلك اجتمع دياميرت وتانكريد لمناقشة القضية الأكر ألا وهي حكومة القدس المقيمة، وبلغت دياميرت الآن أخبار القدس: فقد وجد مبعوثه أن وارنر أوف جراي قد استولى على سرج داوود ورفض تسليمه إلى ممثلي البطريق، كما علم باستدعاء بالدوين إلى الجنوب. ومات وارنر في الثالث والعشرين من يولية (تموز) من جراء الإرهاق الذي بذله في مجهوده الأخيرة؛ غير أنه على الرغم من تفسير أصدقاء البطريق لموته هذا بأن يد الرب قد امتدت لمعاقبته على عدم تقواه، فإن ذلك لم يُجدهم قتيلاً؛ فقد بقي السرج آمنًا في حيازة أنباء اللورين.<sup>(٢)</sup> وليس بمقدور دياميرت أن يأمل في تحقيق مطالبه دون أن يُعان على ذلك ومن ثم أصبح التحالف مع تانكريد أمرًا أساسيًا، فإمارته تمتد الآن من شرق الجليل إلى البحر المتوسط وتفصل القدس عن الشمال. وأما تانكريد فكان يحقت بالدوين منذ أن تشاجرا في كيليكا قبل ذلك بثلاث سنوات. ولذلك قرر دياميرت، بموافقة تانكريد النامة، أنه ينبغي أن يعرض حكم فلسطين على بوهيموند، وأمر أمين سرّه موريللوس بالتوجه فوراً إلى أنطاكية ومعه رسالة إلى أميرها.

#### دياميرت يلجأ إلى بوهيموند

ولم يكن دياميرت يقصد أن يتخذ بوهيموند بأية أوامام حلول طبيعة توليه للسيادة مستقبلاً. وافتتح خطابه بالذكور بمساعدة بوهيموند له في انتخابه بطريقاً للندارة الكنسية التي ووصفها بأنها أم الكنائس جميعاً وسيدة الأمم، متجاهلاً بذلك مطالب روما تجاهلاً يئساً. ثم ذكر التنازلات التي انتزعها من جودفري، واشتكى من محاولات حاشيته الخيلولة دون ذلك، وأعاد التأكيد على بنود المنحة التي تمت يوم عيد

<sup>(١)</sup> Albert of Aix, vii, 6, pp. 523-4. وليس هناك تسجيل يدل على أن جيرارد يعترض

على تصرف جلدمار Geldemar.

<sup>(٢)</sup> William of Tyre, loc. cit.

الفصح والتركيز على أنه بموجبها ينبغي للقدس أن تتحول إليه بموت جودفري. غير أن وارنر أوف حراي قد جانيه الصواب باحتلاله برج داوود، وعرض الميراث على بالدوين. ومن أجل ذلك طلب من بوهيموند أن يتخف لمساعدته. فاما كما فعل والسد بوهيموند حينما ساعد البابا حريجوري السابع وقت أن ظلمه الأباطرة الألمان، وهي ذكرى لم تكن تتصف بسماحة نفس إزاء الكنيسة كما يبدو من تخيل دياميرت. وعلى بوهيموند أن يكتب إلى بالدوين لئله من الحضور إلى فلسطين دون إذن البطريرق، وإذا ما عصى فلا بد من أن يستخدم بوهيموند القوة لكبح جماحه، أي أنه من أجل أن يحكم البطريرق فلسطين متحديا بذلك رغبة الفرسان الذين يقع على كاهلهم أمر الدفاع عن البلاد، ينبغي لأمر أنطاكية المسيحي أن يعلن الحرب على كونت الرها المسيحي.<sup>(١)</sup>

وليس من الممكن أن نعرف ما كان يمكن أن يكون عليه رد بوهيموند على تلك الرسالة، لو أنها وصلت! فلم يكن من المحتمل أن يندفع ويخاطر بالدخول في صراع مع بالدوين؛ ولو أنه جاء إلى فلسطين لما بقي طويلا خاضعا للبطريرق دياميرت. على أن تلك الدعوة لم تصل إلى بوهيموند على الإطلاق، وتبقى الحظ عن دياميرت.

#### ريموند في زيارة القسطنطينية

وحدثت تطورات في شمالي سوريا خلال الأشهر القليلة المنصرمة نتجت عنها بعض تغيرات. فقد أمضى ريموند أوف تولوز أشهر الشتاء في اللاذقية يحكمها بالاشتراك مع ممثلي الإمبراطور، وكان على علاقة ممتازة بحاكم قبرص الذي كان ينيوه بالإمدادات. وفي وقت ما من الربيع التالي تلقى رسالة من الإمبراطور ألكسيوس يشكره فيها على مساعدته ويطلب منه تسليم اللاذقية إلى السلطات البيزنطية، ويدعوه لزيارة

<sup>(١)</sup> William of Tyre, x, 4. ويرد نص خطاب دياميرت عند Albert of Aix, vi, 27, p. 524.

البلاط الإمبراطوري. وربما حمل الرسالة من القسطنطينية إيوستاثيوس الخصى الذي نال مؤخرًا ترقية وأصبح أمير البحار للأسطول الإمبراطوري، وخرج بأسطول قسوي وشرع في الحال في الاستيلاء على موانئ غرب كيليكيا، وسيلبوسيا، وكوريكوس، ثم وسع سيطرته لتشمل أراضي كيليكيا الأبعد إلى الشرق التابعة لسيوهيموند، فاحتل طرسوس، وأدنا، وماميسترا. وقبل ريموند الدعوة وأبحر إلى القسطنطينية في أول يونية (حزيران)، وفي قبرص قابل الأسطول البندقي الذي كان في طريقه إلى يافا، ووصل إلى العاصمة الإمبراطورية في نهاية الشهر تقريبًا. وأمّا زوجته الكونتيسة إلغيرا أوف أراجون التي بقيت بجانبه في جميع رحلاته، فقد تخلّفت في اللاذقية تحت حماية السلطات البيزنطية مع من بقي من جيوش تولوز وبروفانس.<sup>(١)</sup>

وكان أمين سر ديامبرت قد وصل إلى اللاذقية في نهاية يولية (تموز) وهو في طريقه إلى أنطاكية، واحتجزته السلطات لفحص أوراقه، واكتشفت الرسالة المرسلة إلى بوهيموند. وأرسلت الرسالة إلى رجال ريموند لترجمتها، فصدّموا صدمة شديدة وأبقوها في طي الكتمان واعتقلوا موريللوس.<sup>(٢)</sup>

ولو أنّ بوهيموند تسلم الرسالة لغداً مستقبله كله أكثر إشراقًا. ففسى بداية أغسطس (آب) غادر أنطاكية وهو يجهل أحداث فلسطين متوجّهًا إلى أعلى الفرات تلبية لنداء الأرمن في ملطية. وكان قد تمكن في باكورة الصيف من تعزيز حدوده الجنوبية الشرقية وراء نهر العاصي بانتصاره على هجوم مضاد شتّه رضوان الحلبي الذي انسحب واتّجه إلى حمص يطلب مساعدة أميرها.<sup>(٣)</sup> وكانت العلاقات بين حمص وحلب

<sup>(١)</sup> Anna Comnena, xi, vii, 4, x, 9-10, vol. m, pp. 345-6; Fulcher of Chartres, I,

xxxii, 1, pp. 320-1; *Translatio Sancti Nicolai*, p. 271

كومنينا ليس واضحًا، وإن كان التاريخ يمكن تأكيده من المصادر الغربية.

<sup>(٢)</sup> Albert of Aix, loc. cit.

<sup>(٣)</sup> Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 588-9

في غاية الاضطراب بحيث لا تشكل خطرا على بوهيموند حتى وإن كان المسلمون قادرين على استرداد تل مناس التي تركها ريموند بيليت دون حماية كافية ورحل جنوبا مع كونت تولوز. وشعر بوهيموند بقدرته على توسيع سلطانه باتجاه الشمال، ولم يستطع منع البيزنطيين من استعادة كيليكيا لافتقاره إلى القوة البحرية، لكنه كان منلهفا على السيطرة على ممرات جبال طوروس والمقابلة التي ربما تخترقها أية حملة بيزنطية تستهدف أنطاكية. وسعد بوهيموند لتلبية جبريل صاحب ملطية نداء الاستغاثة الذي كان يتوقع هجوما من مالك غازي حوموشكين الأمير الدانشمندي صاحب سيواس الذي دأب على الإغارة على أراضي جبريل لثلاث سنوات في الصيف، ويخشى الآن من أن يتقدم إلى المدينة نفسها. ولم يشأ جبريل الاستغاثة ببالدوين، مع أنه أقرب، بعد التجربة التي مر بها زوج ابنه ثوروس صاحب الرها. لكن بوهيموند أظهر مراعاته لمشاعر الأرمن. وكان من بين أصدقاء جبريل أسقف أنطاكية الأرمني سيجريان، وأسقف مرعش جريجوري، واستغل جبريل وساطتهم وعرض تسليم المدينة إلى بوهيموند شريطة وضع نهاية للتهديد التركي.<sup>(١)</sup>

وقبيل أن يتوجه بوهيموند إلى أنطاكية استجابة للنداء تصرف تصرفا أدى إلى انفصاله عن اليونانيين إلى الأبد. وترتب عليه أول صدع لا سبيل إلى رتقه بين الكنيستين اليونانية واللاتينية. ذلك أن جون الرابع، الذي أعاد أديمار تنصيبه بطريقا لأنطاكية، استمر في منصبه منذ ذلك الوقت. لكنه يوناني، وبوهيموند يشك في أنه متعاطف مع بيزنطة وفي أنه يشجع الأرثوذكس التابعين لدائرته البطريراقية على التطلع إلى الخلاص على يد الإمبراطور. والآن طرده بوهيموند من المدينة، وعين مكانه واحدا من اللاتينيين هو برنارد أوف فالنس، الذي كان قسيسا تابعا لأديمار، وجعله بوهيموند مؤخرا أسقفا لمدينة أرطة، وأخذ معه إلى القدس لرسامته. وكان اللاتينيون

<sup>(١)</sup> Albert of Aix, *loc. cit.*; Matthew of Edessa, n, cixvii, pp. 230-1; Michael the Syrian (ed. Chabot), m, iii, p. 187; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 203-4

المتأخرون، مثل وليم الصوري شديدي الرغبة في ترسيخ شرعية تعاقب البطارقة اللاتينيين في أنطاكية، فأعلنوا أن جون الرابع استقال بالفعل من كرسيه الأسقفي، ولكن الحقيقة هي أن جون لم يعلن عن استقالته إلا بعد وصوله إلى القسطنطينية كسي يفسح الطريق ليخلفه يوانان. واستقر في أحد الأديرة في أكسيا حيث كتب بحثاً ينكسر فيه الأعراف اللاتينية ويتحدث بمرارة عن الاضطهاد اللاتيني، وآلت حقوقه إلى البطريرق الجنديد الذي انتخبه القساوسة المبعدون. وهكذا تأسس عيطان متنافسان من البطارقة، الخط اليوناني والخط اللاتيني، لا يتنازل أحدهما للآخر. وبات الصدع بين الكنيستين في أنطاكية واضحاً لا ليس فيه بسبب بوهيموند، أما الإمبراطور الذي يتطلع إلى استعادة أنطاكية إلى إمبراطوريته، فقد أضاف إلى تطلعه هذا تصميمه على إعادة الخط الشرعي إلى العرش البطريرقي.<sup>(١)</sup>

#### بوهيموند في الأسر

وانطلق بوهيموند إلى ملطية بعد أن أزاح مصدر الخيانة الرئيسي المحتمل في أنطاكية. ولم يشأ أن يترك عاصمته بحامية غير كافية، فلم يصطحب معه سوى ابن عمه ريتشارد أوف سالرنو وثلاثمائة فارس وتكملة من المشاة، وصحبه الأساقفة الأرمن مسن أنطاكية ومرعش، وربما كان بعض فرسانه من الأرمن كذلك. وامتلات نفسه بالثقة من أنه سوف ينتصر على الأتراك حين يمثل هذه القوة الصغيرة، فسار دون أن يأخذ حيلاب

<sup>(١)</sup> William of Tyre, vi, 23, vol. 1, pt 1, pp. 273-5; Orderic Vitalis, vol. iv, p. 141. ويفترض Orderic Vitalis دوغما منطق أن التغيير حدث أثناء أسر بوهيموند، ومع ذلك عيسى بوهيموند من خلفه « Deux Indédits » Leib, p. 704. See Radulph of Caen, cx, p. 704. ويرد هروب جون المؤرخ في أكتوبر ١١٠٠م في مخطوطة في سبنا، ترد في Byzantins, pp. 59-69. Benechewitch, Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum, p. 279. أنطلي Grumel, 'Les Patriarches D'Antioche du nom de Jean', in Echos d'Orient, vol. xxxi, pp. 286-98.

الجندر في التلال التي تفصل ملطية عن وادي اكسو. وهناك كان الأمير الدانشسمندي ينتظر متربصا في كمين، وانقض عليه فجأة، فبوغت الفرنج وأحيط بهم، وأبىد جيشهم بعد صراع خائف مرير، وقتل الأساقفة الأرمن. واقتيد بوهيموند ومعه ريتشلرد أوف سالرنو إلى الأسر المذل، وهو الذي طالما أخاف الكفرة.<sup>(١)</sup>

وكان بالدوين هو الذي خلص شمال سوريا للعالم المسيحي. فلما وجد بوهيموند نفسه أسيرا قص حصلة من شعره الأصفر وعهد بها لجندي انسل من بين الأتراك المحيطين، وأسرع إلى الرها حيث أبلغ بالدوين رسالة من بوهيموند مظهرا حصلة الشعر الأصفر دليلا على صدقه، وقد توصل بوهيموند في رسالته إلى بالدوين أن يعمل على إنقاذه قبل أن ينقله الأتراك إلى أعماق الأناضول. على أنه كان مهتما بسلامة الدويلات الفرنجية أكثر من اهتمامه بصديقه وغريمه القديم، فانطلق في الحال بقوة صغيرة لا تضم سوى مائة وأربعين فارسا وكان استطلاعهم رائعا، فسبقته شائعات تضخم من حجم جيشه. وكان مالك غازي جوموشتيكين قد سار في الصباح التالي لانتصاره إلى أسوار ملطية وأخذ يلوح للحامية برعوس ضحاياه من الفرنج والأرمن، لكنه عندما سمع باقتراب بالدوين رأى من الأفضل العودة إلى أراضيه ومعه أسلابه وأسراؤه، وتبعه بالدوين داخل الجبال ولكنه حشى الثوغل في أعمال البلاد لتلا يقسع في كمين، فضلا عن عدم ثقته في السكان المحليين، فعاد إلى ملطية بعد ثلاثة أيام. ونقل

<sup>(١)</sup> Albert of Aix, vii, 27-8, pp. 524-5; Fulcher of Chartres, 1, xxxv, 1-4, pp. 343-7; Radulph of Caen, Cxli, pp. 704-5; Matthew of Edessa, *loc. cit.*; Michael the Syrian (ed. Chabot), miii, pp. 188-9 (talking of Armenian treachery); Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp. 49-50; Ibn al-Athir, *op. cit.* p. 203; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 589

بوهيموند وريتشارد أوف سالرنو مقيدين بالسلاسل ليقتضيا سجنًا طويلًا في قلعة  
نكسار البعيدة في جبال بنطش.<sup>(١)</sup>

ورحب جرييل صاحب ملطية بسبالدوين باعتباره مخلصه، وسارع بوضع نفسه  
تحت سيادته. وفي المقابل ترك بالدوين خمسين فارسًا لتدبير الدفاع عن المدينة، وبعد  
ذلك بأشهر قليلة استطاع جرييل بمساعدة الفرسان ردّ هجوم دانشمندي قام به الأتراك  
بعدما علموا بنبأ رحيل بالدوين عن الشمال.<sup>(٢)</sup>

#### رحلة بالدوين إلى القدس

أما مبعوثو القدس الذين جاءوا ليخبروا بالدوين بموت أخيه، فلم يستطيعوا المشـول  
بين يديه سوى بعد عودته إلى الرها من حملته في نهاية أغسطس (آب). وأمضى شهر  
سبتمبر (أيلول) في الترتيب لرحلته والإعداد لحكومة الرها. وكان ابن عمه بالسـالدين  
أوف لوبورج في أنطاكية حيث يبدو أنه كان نائبًا عن بوهيموند، وربما كان يعمل  
ضابط اتصال بين القائدين الكبيرين، واستدعى إلى الرها حيث خلـع عليه بالسـالدين  
الكونتية تحت سيادته. وانطلق بالدوين إلى القدس في الثاني من أكتوبر (تشرين الأول)  
ومعه عائلته والحرس الخاص المؤلف من مائتي فارس وسبعمئة راجل. وكما يخبرنا  
قسيسه فولشر أوف تشارترز، انطلق لا يستشعر إلا قليلًا من الحزن لموت أخيه، وغاية  
السرور بما سرته.<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> (المترجم): منطقة جبال بنطش Pontos : تقع شرقي البحر الأسود ، والإسم مأخوذة من الإسم  
القديم للبحر الأسود وهو (نجر بنطش) . Albert of Aix, vn, 29, pp. 525-6 ، والمراجع في  
الحواشي السابقة

<sup>(٢)</sup> . Albert of Aix, loc. cit.

<sup>(٣)</sup> Fulcher of Chartres, u, i, 1, pp. 352-4; Albert of Aix, vn, 31, p. 527

وتبددت آمال دياميرت في خروج بوهيموند لإيقاف بالدوين، فقد ضاع بوهيموند الآن في السر. وعشاعر البهجة استقبل الفرنج في أنطاكية الرجل الذي أنقذهم بتدخله مما كان سيقرب على الكارثة. وبعد أن أمضى ثلاثة أيام في أنطاكية أرسل زوجته ومن صاحبها من السيدات ليرحلن بحراً إلى يافا خشية ما قد يواجهه من مصاعب في الرحلة. وفي اللاذقية، حيث استقبلته السلطات استقبالاً حسناً، أمضى ليثين وانضم إليه جنود آخرون كثيرون، لكن سرعان ما تبدد حماسهم على أثر الأنباء التي تقول إن أتراك دمشق عاقدون العزم على القضاء عليه أثناء رحيله جنوب الساحل. وبوصوله إلى جبلة كانت قواته قد تضاءلت إلى مائة وستين فارساً وحمالة راحل، ولم يصل سالماً إلى طرابلس إلا بالإسراع في السير. وكانت علاقة أمير طرابلس الجديد، فخر الملك، بسدقاق الدمشقي في أسوأ أحوالها لأنه كان يحاول التعدي تدريجياً على المنطقة اللبنانية الساحلية؛ ولذلك سره أن يقدم إلى بالدوين ليس فقط جميع المواد الغذائية التي يحتاجها، وإنما أيضاً المعلومات حول تحركات ومخططات الدقاق.

وبينما يقترب الطريق الساحلي من بيروت قادما من طرابلس، وعند ممر لمر الكلب، يقع الطريق في ممر ضيق بين الجبال والبحر. ولهذا الممر شهرته منذ أقدم العصور؛ إذ قام كل الغزاة الذين اقتحموه، منذ الفرعون رمسيس، باحتفاء بانتصاراتهم بتسجيل ذلك في عبارة على واجهة الصخرة. وهنا كان الدمشقيون ينتظرون بحسب بالدوين الذي كان ما يزال يذكر تحذير أمير طرابلس ولذا كان يتقدم بحذر شديد ليحد نفسه في مواجهة جيش الدقاق كله ومعه جيش أمير حمص. بينما يقف أسطول عربي قادم من بيروت على استعداد لقطع طريق الانسحاب، وفشل بالدوين في عبور النهر في مواجهة تلك القوات المتفوقة، وشعر بالامتنان لهبوط الليل، فتمكن من الانسحاب تحت جنح الظلام. وحث أمير حمص الدمشقيين على مهاجمته في الظلام، لكن مستشاري الدقاق فضلوا الانتظار حتى الفجر ليتمكن الأسطول الإسلامي من العمل معهم، واكتفوا بإطلاق سيل من السهام أثناء الليل على صفوف الفرنج. ويصف فولشو أوف تشارترز المعركة قائلا: "كم كنت أود لو عدت إلى وطني في تشارترز أو أورليانز"



وكم شعر آخرون بمثل شعوري! ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته بالدوين، ففي الصبح التالي تظاهر بمحاولة الانسحاب، لكنه راعى أن يكون أفضل رجاله المسلحين في المؤخرة، وتبعه الدمشقيون بطاردونه مثلثين، وعندما وصل إلى الجزء الضيق من الطريق مرة أخرى عبر جوفيا الواقعة على مسافة خمسة أميال إلى الشمال، واستدار فجأة واندفع فرسانه المدرعون في قوة وسرعة وبكل ثقل نحو مطارديه الذين بوغثوا وتداعوا إلى الوراء على حشود الجنود من خلفهم. وسرعان ما عجم الاضطراب في الطريق الضيق وشدت بالدوين هجماته، ولم تتمكن السفن العربية من الاقتراب من الشاطئ لمساعدة حلفائها الذين دب الذعر بينهم. وبمبوط الليل كان الجيش الإسلامي كله قد هرب إلى الجبال أو وراء أسوار بيروت. وعسكر بالدوين تلك الليلة في جونيك وفي الصباح التالي عبر جيشه المحمل بالغنائم نهر الكلب دون مقاومة.

ومن تلك المرحلة حتى نهاية الرحلة لم يتعرض له المسلمون. ومر بسلام على بيروت وصيدا، وفي صور أرسل له حاكمها المصري الملون عن طيب خاطر، وفي اليوم الأخير من أكتوبر (تشرين الأول) وصل إلى ميناء حيفا المسيحي. وكانت حيفا تابعة لتانكريد الذي كان آنذاك في القدس يساعد دياميرت في محاولة بائسة لأخذ برج داوود من أبناء اللورين قبل مجيء بالدوين. وأثناء غياب تانكريد عرض الفرنج في حيفا فتح بوابات المدينة لبالدوين ولكن الزيب ساورته وفضل أن يعسكر خارج الأسوار. وبعد أن استراح جنوده هناك عدة أيام واصل سيره جنوبا على الساحل إلى يافا. ولدى سماع تانكريد أنباء اقترابه أسرع إلى يافا ليحاول تزعم المدينة ضده، لكن مواطنيها طردوه، ودخل بالدوين يافا وسط حماس سكانها، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً. وفي التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) سار أعلى التلال ودخل القدس.<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> Fulcher of Chartres, II, i, 2-iii, 9, pp. 354-66، وهي عبارة عن رواية شاهد عيان تنبض بالحياة عن الرحلة : Albert of Aix, VII, 32-5, pp. 527-31.

#### الملك بالدوين

وبينما هو يقترب من المدينة شيئا فشيئا خرج سكانها للترحيب به بأروع مظاهر البهجة. ولم تكن حشود المستقبلين تتألف من الفرنج جميعا وحسب، وإنما من اليونانيين والسوريين والأرمن كذلك، الذين قابلوهم جميعا خارج الأسوار ونقلوه بمظلمهم التشريف إلى كنيسة القبر المقدس. وتبعثر أعداؤه؛ فانسحب ديامبرت من القصر البطريقي إلى دير على جبل صهيون وقضى الوقت في الصلاة والممارسات الورعة. ورحل تانكريد شمالا إلى أراضيه في الجليل، وانتهت الفوضى التي سادت فلسطين منذ موت جودفري. وفي يوم ذكرى القديس مارتين، الأحد الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني)، وافق الجميع بسرور على أن يحمل بالدوين لقب ملك القدس.<sup>(١)</sup>

وكان بالدوين بالغ الحصافة بحيث لم يلجأ إلى الانتقام. وتطلع أعداء ديامبرت — ومنهم البطريق السابق آرتولف — إلى مشاهدة عذلاته السريع، لكن بالدوين لم يتخذ أي إجراء ضده، وإنما تركه يتمتع بكامل حقوقه وذهب في حملة ضد العرب. وتحقق ديامبرت من أنه سوف يحسن صنعا بقبول الهزيمة ومحاولة الإفادة منها قد الإمكان. وعندما عاد بالدوين إلى القدس في منتصف ديسمبر (كانون الأول) وجد ديامبرت على استعداد للصالح بعد أن تلاشت آماله في إنشاء حكومة ثيوقراطية فعالة. على أنه رعا يظل محتفظا بسيادته الاسمية وما له من نفوذ كبير على المملكة. كما أن بالدوين — الذي لم يفته ما لـديامبرت من سيطرة على المساعدة التي تقدمها ييزا — عفى عنه عن طيب خاطر وثبته في دائرته البطريارقية.<sup>(٢)</sup> أما تانكريد فكان أكثر ضراوة؛ إذ استدعاه بالدوين إلى القدس ليبين أسباب عصيانه لرغبات جودفري المعروفة حيال تسليم حيفا، ولم يمثل تانكريد للاستدعاء مرتين، ثم وافق أخيرا على مقابلة بالدوين على ضفاف نهر

<sup>(١)</sup> Fulcher of Chartres, n.iii, 13-14, pp. 368-9; Albert of Aix, vii, 36, pp. 531-2;

William of Tyre, x, 7, 1, pp. 410-11

<sup>(٢)</sup> Fulcher of Chartres, n. iii, 15, pp. 369-70; William of Tyre, x, 9, i. p.413

العوجاء الصغير بين يافا وأرصوف، لكنه لم يأت في المرعد وطلب أن تتم المقابلة في حيفا. وكان هناك حل أبسر، فلا يوجد قائد لفرنجة أنطاكية منذ وقوع بوهيموند في الأسر ورحيل بالدوين أوف لوبورج ليحكم الرها، فاقترحوا بمين تانكريد إليهم ليكون وصيا مكان خاله. فوجد تانكريد في هذا الاقتراح متسعا لا يطفى عليه فيه ظل بالدوين، بينما شعر بالدوين بالغبطة لتخلصه دون مشقة من تابع له لا يثق فيه ولا يحبه، وامت المقابلة في حيفا في أوائل مارس (آذار) سنة ١١٠١ ميلادية في جو من الود، وأعاد تانكريد إلى بالدوين إقطاعية الجليل مع غنياته الطيبة ورحل إلى أنطاكية.<sup>(١)</sup>

وكان قد سبق في يوم عيد الميلاد في سنة ١١٠٠ ميلادية، في كنيسة الميلاذ في بيت لحم، أن قدم بالدوين تبجيله إلى البطريق ديامبرت الذي قام بدوره بتتويجه ملكا.<sup>(٢)</sup>

وهكذا تأسست مملكة أورشليم بعد أكثر من أربع سنوات على رحيل أمراء الغرب الأوروبي من أوطانهم في الحملة الصليبية. وكان الفائز الوحيد من بين جميع قادتها هو بالدوين، الابن الأصغر للفلس لكونت بولونيا، وسقط أنداده الواحد تلو الآخر؛ إذ عاد الكثير منهم إلى الغرب: روبرت النورماندي، وروبرت أوف فلاندرز، وهيو أوف فرمندوا، وستيفن أوف بلوا، حين أخوه إيوستاس أوف بولونيا — الذي ربما كان يأمل في أن يرث أخاه جودفري — فضل أراضيه على شاطئ القناة الإنجليزي. أما منافسوه الرئيسيون في الشرق، فهنا بوهيموند يرقد يائسا في سجنه التركي، وذلك ريموند — الذي ما يزال بلا أرض — بعيد في القسطنطينية عميل للإمبراطور. لكن بالدوين ترقب الزمن واغتتم الفرص المتاحة. وهو الوحيد من بينهم جميعا الذي أثبت أنه

<sup>(١)</sup> Fulcher of Chartres, n, vii, 1, pp. 390-3; Albert of Aix, vii, 44-5, pp. 537-8

<sup>(٢)</sup> Fulcher of Chartres, n, vi, 1, pp. 384-5; Albert of Aix, vii, 43, pp. 536-7;

.William of Tyre, loc. cit.

أكثرهم اقتدارا وأشدّهم صبرا وأعماقهم بصيرة فنال مكافأته، وأظهر المستقيل أنه أهمل  
هذا، وكان تنويجه تنويجا رائعا، ونهاية تحذوها الآمال للحملة الصليبية الأولى.



## المرفقات

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة  
الصليبية الأولى

المرفق الثاني: (قوة الصليبيين العدديّة)



## المرفق الأول المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

غطت المصادر المعاصرة أو شبيهة المعاصرة على وجه التقريب قصة الحملة الصليبية الأولى . وقد تناولت في الحواشي النقاط التي أثارها المصادر الأقل أهمية أو الثانوية ؛ بيد أن أهم المصادر الرئيسية التي نعتمد عليها دوماً ، والتي لا تتفق دائماً مع بعضها البعض ، في حاجة إلى تقييم نقدي كي نقدم قيمتها النسبية .

### (١) المصادر اليونانية

المصدر الوحيد ذو الأهمية الرئيسية هو Alexiad الذي كتبه Anna Comnena ، وهو يتناول حياة الإمبراطور ألكسيوس الذي كتبه ابنه الأثيرة التي كتبت تاريخها بعد أربعين سنة من أحداث الحملة الصليبية ، بعدما أصبحت عجوزاً . وربما خانتها ذاكرتها أحياناً ، وينصرف ذلك خاصة إلى أن تأريخها يتسم بشيء من التشوش ؛ فضلاً عن أنها عالجت الأحداث بعد إنتقضائها ، كما أنها كانت إنهارة باردة أرادت أن تظهر والدتها



ألكسيوس في كل حال معظهر الرجل الطيب الحكيم ذي الضمير الخي ؛ ومن ثم كانت تميل إلى إحقاق ما قد يُفسّر في رأيها على أنه يسئ إليه أو إلى أصدقائه . فهي بصراحة لا يعتمد عليها عندما تتناول الأحداث التي تقع خارج حدود الإمبراطورية إذ تطلق العنان لتجاملاتها ، مثل ما جاء في روايتها عن سيرة حياة البابا جريجوري السابع . على أن المؤرخين المحدثين يتجهون إلى التقليل من شأنها . ولقد كانت امرأة ذكية ذات ثقافة عالية تُعمل ضميرها وتحاول التحقق من مصادرها . وعلى الرغم من أنها كتبت في شيخوختها فقد كان في نيتها لزمّن طويل أن تكون مترجمة حياة أبيها ولابد أن تكون قد جمعت الكثير من مادتها أثناء حياته عندما كانت تواتيها الفرصة الكاملة للحصول على أوراقه الرسمية . وكانت تتحكم في إشعارها عندما تستند إلى معلومات لها مصداقيتها ، كروايتها عن مسيرة الصليبيين عبر الأناضول ، ومن الواضح أنها إستفادت من تقارير تاتيسوس ؛ وعلى الرغم من أنها قد أخطأت في حذف بعض الأشياء ، فليس من الممكن إقامتها بأنها قد ارتكبت أى حذف في وصفها للأحداث التي حدثت في القسطنطينية أو داخل الإمبراطورية . وكانت تتمتع بثقة والدها كما كان لها معرفة شخصية بالكثير من الشخصيات والأحداث التي تصفها . ومن اليسير التجاوز عن ورعها وإشعارها ، ومن ثم فإن شهادتها على كافة الشؤون المتصلة مباشرة ببيزنطة ينبغي تفضيلها على أية شهادة أخرى لأي مؤرخ آخر .<sup>(١)</sup>

أما أعمال المؤرخين Zonaras and Glycas<sup>(٢)</sup> ، والتاريخ العام الموجز المعروف باسم the Synopsis Sathas<sup>(٣)</sup> ، فلا تضيف سوى القليل جدا إلى معلوماتنا . وليس هناك وثائق بيزنطية رسمية باقية تتصل بالحملة الصليبية عند الرسائل التي كتبها

<sup>(١)</sup> نشرت آخر طبعة عن أنا كومينا في The Collection Budé ، وحررها Leib مقدمة كاملة وحواشي . وترد في Anna Comnena, by Mrs Buckler دراسة نقدية تفصيلية عن Alexiad . وهناك ترجمة إنجليزية لـ Alexiad by E. A. S. Dawes (London, 1928) .

<sup>(٢)</sup> كلاهما نشر في the Bonn Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae .

<sup>(٣)</sup> Ed. In Sathas, Bibliotheca Graeca Medii Aevi, vol. vii .

ألكسيوس للأمرء والمسؤولين على إحتلاف رتبهم وهي مترجمة إلى اللاتينية ومن ثم تفتقر  
بقينا إلى الدقة . كما أن خطابات أسقف بلغاريا Theophylact ، التي لم تنشر على  
الوجه الملائم حتى الآن فلا تضيف سوى القليل من المعلومات .<sup>(١)</sup>

#### (٢) المصادر اللاتينية

المصادر اللاتينية أكثر عددا ، وهي عمدنا بأغلب معلوماتنا .

إنضم Raymond of Aguilers ( أو Aighuilhe في دائرة اللوار الأعلى Department of Haute Loire ) إلى الحملة الصليبية في صحة Adhemar of Le Puy ، وسرعان ما أصبح واعظا لريموند التولوزي Raymond of Toulouse . وبدأ يكتب تاريخه *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem* أثناء حصار أنطاكية وألغاه في نهاية سنة ١٠٩٩م . وقد ركّز على حملة الكونت ريموند ، على أنه وإن كان فرنسا جنوبيا مخلصا ، فإنه بقينا لم يكن بمنأى عن أن ينتقد رئيسه ، فقد عارض تأخر الكونت عن مواصلة السير من أنطاكية ، ولم يتعاطف معه في تبنيه للسياسة البيزنطية . ولم يكف عن توجيه التعليقات غير الودودة لليونانيين إلا في مناسبة واحدة ( أنظر ما سبق صفحة ٣٢٦ ) . وكان دوره في قصة الرمح المقدس سببا في إرتياب القاد في مصداقته ، على أنه ممن الواضح أنه كان مخلصا في نطاق حدوده وعلى دراية واسعة ، وسرعان ما إنتشر تاريخه إنتشارا واسعا . وبالرغم من أن بعض المخطوطات المبكرة تحتوى على تلفيقات معينة فلم يعاد نشرها مطلقا .<sup>(٢)</sup>

وكان Fulcher of Chartres حاضرا في مجمع كليرمونت ، ثم ذهب إلى الشرق في صحة سيده الأعلى Stephen of Blois ، وفي شهر يونيو ١٠٩٧م أصبح واعظا لسيدي

<sup>(١)</sup> ترد رسائل Theophylact في M. P. G. vol. cxxvi .

<sup>(٢)</sup> Ed. in the *Recueil des Historiens des Croisade* ، وهناك متسع لشرقة نقدية جيدة .

Baldwin of Boulogne ، وبقي في حاشيته منذ ذلك الوقت قُدماً . وقد كتب تاريخه *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* على ثلاث مراحل في ١١٠١ و ١١٠٦ و ١١٢٤ - ١١٢٧ م . وكان فولشر أكثر المؤرخين اللاتينيين ثقافة وأكثرهم مصداقية . ورغم إخلاصه التام للبلدوين إلا أن نظراته العامة كانت موضوعية بصورة ملفتة . ولا تظهر أية حجة عدائية للبيزنطيين إلا في مرحلته الثالثة فقط ؛ كما أن نظراته العامة إلى المسيحيين الشرقيين عادلة وودودة . وقد استعان المؤرخون اللاحقون كثيراً بتاريخه.<sup>(١)</sup> وفي حوالى ١١٠٨ م، نشر Bartolf of Nangis ، وربما كان يكتب في سوريا ، طبعة تضم الفصول المبكرة مع إضافات قليلة تعالج الوصف البيئي بصورة أساسية .<sup>(٢)</sup> وهناك موجز مقتضب للفصول اللاحقة ينسب إلى Losiard of Tours .<sup>(٣)</sup> وقد استخدم William of Malmesbury و Richard of Poitiers و Sicard of Cremona تاريخ فولشر كله كمصدر رئيسي عندما كانوا يكتبون عن الحملة الصليبية .<sup>(٤)</sup>

وأكثر الروايات المعاصرة إنتشاراً عن الحملة الصليبية هو العمل الذى لا يعرف صاحبه والمعروف بإسم *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* ، الذى ربما كتبه كمنذرات يومية أحد أتباع بوهيمند ممن ذهبوا إلى القدس مع تانكريد . وينتهى هذا التاريخ بقصة معركة عسقلان في عام ١٠٩٩ م ، ونشر للمرة الأولى سنة ١١٠٠ م أو أوائل ١١٠١ م ؛ وقد قرأه Ekkehard في القدس سنة ١١٠١ م . وتضم أقدم مخطوطة باقية تليقات مثل الوصف " الحرق " لأنطاكية ، وفقرة تشبه أعمال بوهيمند في القسطنطينية ( أنظر ما سبق ص ٢٠٩ الحاشية ١ ) أوحى بها بوهيمند نفسه في حوالى

<sup>(١)</sup> الطبعة التى نشرها Hagenmeyer ، وهى مشروحة بالكامل ، حلت محل الطبعة المنشورة في *Recueil* .

<sup>(٢)</sup> Ed. in the *Recueil*. See Cahen, *La Syrie du Nord*, P. 11 n1

<sup>(٣)</sup> Ed. in the *Recueil* .

<sup>(٤)</sup> أنظر Cahen loc. cit. ولم يعد تاريخ Sicard موجوداً .

سنة ١١٠٥ م ، وكذلك فقرة أقتبست من Raymond Of Aguilers . وكان الكاتب حينها بسيطاً ، وخلصاً بقدر إسهامه ، غير أنه كان ساذجاً ومتحيزاً وشديد الإعجاب بيوهيمند . ويعزى النجاح الواسع الذي حققه تاريخ *Gesta* بصورة أساسية إلى الجهود التي قام بها بوهيمند نفسه . وقد إعتبر أنها بمثابة دفاع عمن نفسه "*apologia*" وراح يعرضها للنشر في شمال فرنسا أثناء زيارته هناك سنة ١١٠٦ م .<sup>(١)</sup> وأعيد نشره في تاريخ مبكر بطريقة تكاد أن تكون كلمة بكلمة ، وقام علي نشره قس من بوترو الفرنسية ، وكان صليبياً ، يدعى Tudebod . وتحتوي نسخته *the De Hierosolymitano Itinere* على إضافات قليلة من ذكريات شخصية.<sup>(٢)</sup> وفي حوالى سنة ١١٣٠ م ظهر *Historia Belli Sacri* ، وهو عبارة عن تجميع أهوج جمعه راهب من مونت كاسينو يركز على *Gesta* وبه فقرات قليلة مأخوذة من Radulph of Caen ، ومن مصدر آخر مفقود الآن ، ومن مأتورات التقاليد الجارية.<sup>(٣)</sup> وأعيد كتابة *Gesta* عدة مرات ، في حوالى سنة ١١٠٩ م بواسطة Guibert of Nogent الذي أضاف معلومات شخصية وإستعار من Fulcher ، والذي كان ينشد المزيد من النغمة النقدية الأخلاقية في الأسلوب<sup>(٤)</sup> ، وفي حوالى سنة ١١١٠ م بواسطة Baudri of Bourgueil رئيس أساقفة Dol ، الذي كان يسعى إلى تحسين الأسلوب اللفظي<sup>(٥)</sup> ، وبواسطة Robert of Reims الذي ظهرت نسخته - وهي شعبية رومانسية نوعاً ما *Historia Hierosolymitana* - في حوالى سنة

<sup>(١)</sup> نشر Bréhier آخر نسخة بعنوان *Histoire Anonyme de la première Croisade* . وما تزال هناك فائدة ترمى من الحواشي الموجودة في نشرة Hagenmeyer المعروفة باسم *Anonymi Gesta Francorum* (Heidelberg, 1890).

<sup>(٢)</sup> Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.* pp. 8-9

<sup>(٣)</sup> Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

<sup>(٤)</sup> Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

<sup>(٥)</sup> Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

١١٢٢ م.<sup>(١)</sup> كما أنها ألهمت التاريخ *Expeditio contra Turcos* الذي لا يعرف كاتبه،  
والقصود الخاصة بالحملة الصليبية في تاريخي Hugh of Fleury and Huntingdon of  
Henry.<sup>(٢)</sup>

وهناك ثلاثة مؤرخين للحملة الصليبية الأولى على جانب من الأهمية لم يشتركوا  
فيها هم أنفسهم. فقد جاء Ekkehard رئيس دير Aura إلى فلسطين مع الصليبيين الألمان  
في الحملات الصليبية لعام ١١٠١ م. وبعد عودته إلى ألمانيا في حوالي عام ١١١٥ م كتب  
عملاً يسمى Hierosolymita انتهى أن يكون جزءاً من تاريخ للعالم كان يفكر في  
وضعه. وهو يتألف من ذكريات شخصية قليلة وقصص خكاهها له أو لصديقه Frutholf  
of St Nicholsberg أعضاء عاملون في الحملة الصليبية، واستكمل معلومات مأخوذة من  
تواريخ نشرت بالفعل. ودائماً ما كان يذكر مصادره، ولكنه كان ساذجاً سريع  
التصديق.<sup>(٣)</sup>

وقد جاء Radulph of Caen إلى سوريا سنة ١١٠٨ م؛ واشترك مع بوهيمند بالفعل  
في حملة Epirot سنة ١١٠٧ م ثم ألحق نفسه بتانكريد. وبعد موت تانكريد في حوالي  
سنة ١١١٣ م، كتب *Gesta Tancredi Sicilae in Expeditione Hierosolymitana*؛ وهو  
كتاب لا يوجد إلا في مخطوطة ولم يستكمل قط. ويدل أسلوبه على جهل كاتبه وإدعائه  
الكبير، ويضم القليل من فضلات شاملة من المعلومات حول بطلها، ويخالف ذلك يسير

<sup>(١)</sup> Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

<sup>(٢)</sup> Extracts of Hugh and Henry are published in the fifth volume of the *Recueil*.

The *Expedition Cotra Turcos* is publish with Tudebod in the third volume.

<sup>(٣)</sup> النسخة الواردة في المجلد الخامس من *Recueil* أفضل بكثير من نسخة Hagenmeyer  
(Ekkehard von Aura, Leipzig, 1888).

على هج أعمال أخرى منشورة بالفعل؛ ومع ذلك، لا يبدو أن الكاتب قد قرأ

<sup>(٤)</sup>, *Gesta Francorum*

وترد أكثر الروايات المعاصرة إكمالاً للحملة الصليبية الأولى في *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanæ Ecclesiae* of Albert of Aix (Aachen)، وهو التاريخ الذي كتب في وقت ما في حوالي سنة 1130م. ولا نعرف شيئاً عن Albert سوى أنه لم يذهب إلى الشرق مطلقاً. وحتى منتصف القرن الماضي كان يعتبر أكثر المصادر أصالة لتاريخ الحملة الصليبية؛ وأولاه مؤرخون عظام مثل جيبون Gibbon ثقتهم الكاملة. على أنه منذ أن تقسده von Sybel نقداً هداماً أصبح الاتجاه الحديث التقليل من شأنه على نحو لا يتصف بالعدل. وتاريخه عبارة عن تجميع لأساطير وروايات شهود العيان، جمعها بقدر ضئيل جداً من الحس النقدي وبدون الإستشهاد بالمصادر. ومن الواضح أن روايته عن حياة بطرس الناسك المبكرة لا يعتمد عليها؛ بيد أن سرده لحملة بطرس أمده بما يقينا أحد الذين اشتركوا فيها؛ فهناك تفاصيل مقنعة إجمالاً مثل الوقت المستغرق في الانتقال من مرحلة إلى أخرى في المسيرة. ولا بد من أنه اعتمد في قصة رحلة جودفري إلى القسطنطينية والمسير عبر الأناضول على مارواه له جندي في جيش جودفري. وربما كان من عادته قبل أن يبدأ في جمع كتابه تدوين المعلومات التي يدل له بها الجنود والحجاج العائدون. ومن اليسر بصورة معقولة التعرف على ما يحويه كتابه من أساطير؛ عكسي أنه في سرده لأحداث الحملة الصليبية ذاتها يتعين أن يعامل بما يستحقه من إحترام.<sup>(٥)</sup>

<sup>(٤)</sup> .Ed. in the *Recueil*

<sup>(٥)</sup> .Ed. in the *Recueil*. وهناك كم كبير من الكتابات عن Albert، من أهمها ما كتبه Kres، von Syble، Kügler، Kühne and Beaumont (see Bibliography) وانظر أيضاً Hagenmeyer، *Le Vrai et le* (للمقدمة)، *Geschichte des ersten Kreuzzuges*, 2<sup>nd</sup> ed. *Faux sur Pierre l'Hermite*، وخاصة صفحة 9 وما بعدها.

أما William of Tyre، وهو أعظم المؤرخين، الصليبيين، فقد كتب بعد الحملة الصليبية بحوالى سبعين سنة. وإلى أن وطّد الصليبيون أنفسهم في فلسكين إعتد في كتابة تاريخه على Albert of Aix بصورة تكاد تكون مانعة؛ على أنه بعد الإستيلاء على القدس إستند تاريخه كذلك على ما بقي في مملكة الصليبيين من سجلات وتراث. ولم يصبح تاريخه الرائع *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gesta* مصدرا هاما إلا بعد إستخلاف بالدوين. وأرجو أن أناقشه بصورة أكثر إكتمالا في جزء تالٍ من هذا الكتاب.<sup>(١)</sup>

وهناك وجهة نظر مختلفة إختلافا بسيطا تغطي السنوات من 1100 إلى 1163م أوردها Caffaro الجنوى مؤلف *The Annals of Genoa* و *De Liberatione Civitatum* *Orientis* وهو العمل المكتوب سنة 1155م والذي أكتشف ضمن بعض الأوراق القديمة بعد قرن من الزمان، ويحتمل أن يكون قد حدث فيه تغير طفيف قبل نشره. وكان Caffaro من أسرة جنوية جاءت إلى فلسطين سنة 1100م وتصطبغ روايته بالصيغة الوطنية وإن كانت معتدلة ويعتمد عليها.<sup>(٢)</sup>

وجميع المؤرخين المعاصرين في أوروبا الغربية يذكرون الحملة الصليبية، لكنهم يعتمدون اعتماداً كلياً على مصدر أو آخر من المصادر التي ذكرناها، باستثناء *the Chronicle of Zimmern* الذي يقدم معلومات عن الصليبيين الألمان.<sup>(٣)</sup>

ولقد نتج عن الحملة الصليبية ملاحم حماسية باللاتينية وبلهجات فرنسا العصور الوسيطة شمالا وجنوبا. ومع ذلك، كان لثرائها الأدبية من الأهمية ما يفوق جدارتها

<sup>(١)</sup> Ed. In the *Recueil*. See Prutz, *Wilhelm von Tyrus*, and Cahen, *op. cit.* pp. 17-18.

<sup>(٢)</sup> Ed. In the fifth volume of the *Recueil*.

<sup>(٣)</sup> Excerpts are published by Hagenmayer in vol. 1 of the *Archives de l'Orient Latin*.

التاريخية؛ ذلك أن الشعراء اللاتين Gregory the Lombard, Joseph of Exeter and Gunther of Basle ليست لهم قيمة من الناحية التاريخية. أما "أنشودة أنطاكية البروفنسية *Provençal Chanson d'Antioche*" التي تنسب إلى Gregory Bechada فهي أكثر إثارة وتستحق مزيداً من الدراسة. وفي لهجات شمال فرنسا العصور الوسطى توجد - بالإضافة إلى أنشودة Baudry الشعرية أنشودة أنطاكية *Chanson d'Antioche* a التي نظمها Graindor of Douai، وهي تركز جزئياً على Robert the Monk وجزئياً على أنشودة سابقة نظمها Richard the Pilgrim الذي شارك في الحملة الصليبية على ما يبدو في جيش Ropert of Flanders. وكان رجلاً بسيطاً جاهلاً نوعاً ما وإنما كانت له وجهة نظره الخاصة به. فمثلاً، وبرغم رغبته في أن يستولى الصليبيون على القسطنطينية، وكذلك ودوداً إزاء تاتيسوس. كما توجد قصيدة شعرية بالفرنسية نظمها Giron مع بعض التلغيفات التي حشرها من يدعى Fulcher تقوم على أساس نفس المادة، وأخرى بالأسبانية *Gran Conquista d'Utramur*، في تاريخ لاحق، تستخدم Bechada and William of Tyre and Graindor. وليست الدائرة سوى تاريخ أسطوري بطلها Godfrey of Lorraine مثل *Chevalier eu Gygne*.<sup>(١)</sup>

والمتبقى لدينا من المراسلات المعاصرة للحملة الصليبية قليل جداً؛ وإن كان ذا أهمية عظمى. فهناك رسائل قليلة من وإلى البابا إيربان الثاني وباسكال الثاني؛ ومناشدتان من رجال الدين في الشرق؛ ورسالتان مثيرتان، وإن كان بهما الكثير من المراعاة، مرسلتان من زعماء صليبيين؛ والأكثر قيمة رسالتان من كل من صليبيين - سارزين Stephen of Blois و Anselm أسقف Ribemont. وقد كتب ستيفن ثلاث رسائل لزوجته؛ ضاعت الأولى التي كتبها لدى وصوله القسطنطينية. والثانية من معسكر في نيقية والثالثة من معسكر في أنطاكية. وعلى الرغم من أن ستيفن كان رجلاً ضعيفاً إلا أنه كان مخلصاً ومتحمساً؛ ورسالتاه هما الأكثر إنسانية من بين وثائق الحملة الصليبية. وكتب Anselm

(١) عن الملاحم الحماسية أنظر Hatem, *les Poèmes Epiques des Croisades* الذي يذيع عن الأصل السوري للقصائد، والمرجع المرحوم في 12-16 pp. Cahen, *op. cit.*



رسالته من أنطاكية ووجهها إلى رئيسه Manases رئيس أساقفة Reims، ويحتويان على معلومات ولكنهما يخلوان من نوعية الكتابة الشخصية التي يتصف بها خطايا ستيفن.<sup>(١)</sup>

وليس هناك من شك في الأهمية الكبيرة للقرارات البابوية القليلة التي تنظم الحملة الصليبية، والمواثيق المتصلة بإنشاء المملكة الصليبية. وتضم محفوظات جنوا والبنديقة مادة تزايد أهميتها بتزايد إهتمام المدن الإيطالية بشؤون الصليبيين.

### (3) المصادر العربية

على الرغم من كثرة المصادر العربية وأهميتها البالغة للحملات الصليبية المتأخرة فهي لاتعطينا سوى القليل فيما يتصل بالحملة الصليبية الأولى. ولم تبق أية مواثيق أو مستندات رسمية عن تلك الفترة. إن ما يشتهر به العرب من دوائر المعارف العظيمة والمؤلفات الجغرافية الكبيرة لاتكاد تهتم بسنوات الحملة الصليبية الأولى، باستثناء واحد، وهو أن أعمال المؤرخين الذين يعرف أنهم عاشوا في ذلك الوقت لم تصل إلينا إلا على هيئة مقتبسات قصيرة متفرقة في أعمال الكتاب المتأخرين. وليس هناك سوى تواريسخ ثلاثة لها أهمية حقيقية.

في الفترة من 1140 إلى 1160م كتب ابن القلانيسي الدمشقي Ibn al-Qalanisi of Damascus تاريخاً عن مدينته في وقت الغزوات التركية حتى عصره. ويظهر من عسوان تاريخه "مذيل تاريخ دمشق Mudhayyal Tarikh Dimashq" أن المقصود به أن يكون تديلاً لتاريخ المؤرخ هلال Hilal الذي كان يستهدف كتابة تاريخ عن العالم بينما لم

<sup>(١)</sup> يرد أفضل نشر لهذه الرسائل في Hgenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe. وهناك مجموعة مكتملة على نحو أكبر ترد في Riant, Inventaire des Lettres historiques.

يهتم ابن القلايسى إلا بدمشق وحكامها. وقد أمضى حياته في ديوان الإنشاء بالبلاط العثماني وتدرج فيه إلى أن أصبح رئيساً له، ومن ثم كان على دراية جيدة؛ ويبدو أنه كان يتوخى الدقة والموضوعية إلا عندما كانت تتعرض سمعة رؤسائه للخطر.<sup>(١)</sup>

وفي بداية القرن الثالث عشر كتب ابن الأثير الموصلي Ibn al-Athir of Mosul كتابه "كامل التواريخ Kamil et-Tawarikh" وقد كان لإستخدامه المعنى ونقصه للمصادر السابقة أن جعل منه حجة لها أهمية بالغة رغم أن رواياته تتسم عادة بالإقتضاب الشديد.<sup>(٢)</sup>

وبعد ذلك بنصف قرن كتب كمال الدين الحلبي Kemal ad-Din of Aleppo تاريخه، الذي لم يستكمل حتى الآن، عن حلب وموسوعته؛ على أنه إمتعان هو الآخر بما سبقه من مصادر واستشهد في موسوعته بأسماء تلك المصادر، التي من بينها ما يثير ضياعه غاية الأسف، ألا وهو تاريخ الغزو الفرنجي لكتابه حمدان بن عيد الرحيم الأثاري، ولم يبق منه سوى صفحات قليلة حتى في عصر كمال الدين نفسه. وترك ابن زريق للمعري، من معرفة النعمان المولود سنة 1051م، والذي لعب دوراً في أحداث الحملة الصليبية، تاريخاً لعصره لم يعرف هو الآخر إلا من مقتطفات قليلة؛ وترك ابن زريق الحلبي المولود في 1090م تاريخاً لشمال سوريا في وقت الحملة الصليبية، ما يزال موجوداً منه الآن عدد أكبر بقليل من المقتطفات.<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> عن ابن القلايسى أنظر مقدمة Gibb لترجمة فقرات تاريخ دمشق *Damascus Chronicle* التي تشير إلى الحملات الصليبية (أنظر ثبت المراجع). ونص العربي الكامل نشره Amedorz (Leyden, 1908).

<sup>(٢)</sup> نشر (Tornberg (Leyden, 195-76) الأعمال الكاملة لابن الأثير باللغة العربية في أربعة عشر مجلداً، وفقرات ذات الصلة منشورة في R. H. G. Occ.

<sup>(٣)</sup> ليست هناك طبعة جيدة لتاريخ كمال الدين. ويرد في *Recueil* فقرات كاملة تتصل بالحملة الصليبية من 1097 إلى 1146م.

#### (4) المصادر الأرمينية

هناك مصدر أرميني لا يقدر بثمن يغطي فترة الحملة الصليبية الأولى، ألا وهو: تاريخ ماثيو الأورقي *Chronicle of Matthew of Edessa* الذي يتناول تاريخ سوريا من سنة 952 إلى 1136م ولابد أنه كُتب قبل سنة 1140م. وكان ماثيو رجلاً ساذجاً يعمل الكراهية لليونانيين ولا يشعر بكثير حب لأبناء جلدته من الأرثوذكس. ولابد أنه إستقى الكثير من معلوماته عن الحملة الصليبية من بعض جنود الفرنج الجهلة؛ أما عن الأحداث التي حدثت في مدينته وما حاورها فكان على دراية كاملة.<sup>(1)</sup>

ويتناول الحملة الصليبية باقتضاب المؤرخون الأرمن اللاحقون مثل Samuel of Ani and Mekheta of Airavanq، الذين كتبوا في نهاية القرن الثاني عشر، و Kirakos of Ganzag and Vartan the Great في القرن الثالث عشر ويبدو أنهم إستفادوا من Matthew ومن تاريخ مفقود كتبه من يدعى Hohn the Deacon الذي يثنى على صموئيل ثناءً كبيراً، والذي أظهر عداءً معيناً لا إزاء الإمبراطور ألكسيوس فحسب، وإنما أيضاً إزاء أمه أنسا دالاسينا Anna Dalassena.<sup>(2)</sup>

---

<sup>(1)</sup> نشر Dulaurier سنة 1858م ترجمة فرنسية من المخطوطات، ومقتطفات من النص الأرميني مع ترجمة فرنسية في *R. H. C. Arm.* ونُشر النص الأرميني بكامله في القدس سنة 1868م، ولم أتمكن من الحصول عليه، ولذا إستخدمت ترجمة Dulaurier، مع مطابقتها بقسدر الإمكان بالمقتطفات الأرمينية المنشورة في *Recueil*.

<sup>(2)</sup> ترد في *Recueil* مقتطفات عن هؤلاء المؤرخين.

#### (5) المصادر السورية

العمل الوحيد الباقي الذي يتناول الحملة الصليبية الأولى هو تاريخ ميخائيل السوري Michael the Syrian، بطريركي أنطاكية اليعقوبي من 1166 إلى 1199م، وهو يمر مر الكرام بالفترة السابقة على سنة 1107م. ولقد استعان بالتواريخ السورية الأقدم التي ضاعت الآن، كما استعان بالمصادر العربية. ومعلوماته ضئيلة القيمة إلى أن يصل إلى عصره.<sup>(1)</sup>

وعلى الرغم من أن التواريخ الرئيسية للحملة الصليبية قد نشرت كل على حدة فإن التجميع الكبير الوحيد للمصادر هو *Recueil des Historiens des Croisades*، الذي نشر في باريس من سنة 1844م قُدِّمًا. وهو يتضمن نصوصا لاتينية وفرنسية قديمة وعربية ويونانية وأرمينية مع ترجمات إلى الفرنسية للكتاب الغربيين واليونانيين. ول سوء الحظ شاب الإهمال طبعات المخطوطات فيما عدا المجلد الأخير (الخامس) من النصوص اللاتينية المنشورة بعد عدة سنوات من نشر باقي *Recueil*. كما أن هناك الكثير من الفراغات العشوائية في النصوص، وليست الترجمة دقيقة دائما. ومع ذلك، تبقى المجموعة شيئا لاغنى عنه لدارس الحملات الصليبية.

---

<sup>(1)</sup> ترجمها Chabot ونشرها.



## المرفق الثاني

### قوة الصليبيين العددية

يتورط أى مؤرخ من مؤرخي العصور الوسطى، مهما كان جنسه، بدرجات متفاوتة في مبالغات تشوها الكتابات التصويرية الفظة كلما اضطر إلى تقدير الأعداد التي لا سبيل إلى حصرها؛ ولذا يستحيل علينا اليوم إثبات الحجم الحقيقي الذي كانت عليه الجيوش الصليبية. فعندما نجترنا Fulcher of Chartres and Albert of Aix أن مقاتلي الحملة الصليبية الأولى بلغ عددهم مئتا ألف مقاتل، بينما نجترنا Ekkehard لأهم كانوا ثلاثمائة ألف، ويورد Raymond of Aguilers رقما متواضعا قدره مائة ألف، أو عندما تعلن أنا كومنينا أن جودفري اللوريني Godfrey of Lorraine أحضر معه عشرة آلاف فارس وسبعين ألف من المشاة، فمن الواضح أن هذه الأرقام لاتعني سوى الدلالة على ضخامة العدد الكبيرة جدا في الواقع.<sup>(١)</sup> على أنه عندما يتناول المؤرخون أعدادا أصغر، فلا حاجة هناك إلى إنعدام الثقة الكاملة في هؤلاء المؤرخين، على الرغم من أنهم يفضلون ذكر رقم تقريبي. ومن الأدلة التي يسوقونها نستطيع أن نجري تخفيضات معينة.

ولاسبيل إلى تقدير نسب أعداد غير المقاتلين في الجيوش، إذ كانت أعدادهم مرتفعة بقينا. ولقد أحضر عدد كبير من الفرسان عقيلاتهم معهم؛ وقد إصطحب ريموند التولوزي Raymond of Toulouse زوجته، وإصطحب بالدوين البولسوني Baldwin of Boulogne زوجته وأولاده وكان مع بوهيمند أخت واحدة على الأقل. ونحن نعرف أسماء عدد من السيدات اللاتي اشتركن في حملة روبرت النورمندي Robert of

<sup>(١)</sup> Anna Comnena, x, ix, 1, vol. 11, p. 220; Fulcher of Chartres, 1, x, 4, p.

183; Ekkehard, Hierosolymite, xii, p. 21; Raymond of Aguilers, v, p. 242.

ويذكر تاريخ Chronicle of Zimmern, p. 27 أن جيش Godfrey كان قوامه ٣٠٠٠٠ رجل.

Normandy، وأحيانا تظهر سيدات أخريات في القصة. وقد جلبت كل هؤلاء السيدات معهن وصيفات، وبقينا كان مع الجيش عدد كبير من السيدات الأقل شأنًا، من الفضليات ومن اللاتي يفتقدن الفضل والاحترام. وما نفتأ نسمع عن ذكور غير مقتلئين مثل بطرس بارتولوميو Peter Bartholomew ومخدومه. وكان عدد رجال الدين المصاحبين للجيش كبيرا، على أنه من الأرجح أن أغلب الذكور من غير المقاتلين كانوا يُدفعون دفعا إلى الخدمة في أوقات الخطر. وليس من الممكن أن تجاوز نسبة غير المقتلئين الدائمين من النساء وكبار السن والأطفال ربع القوة كلها.

كما يُرجَّح أن معدل الوفيات كان مرتفعا بصورة خاصة بين غير المقاتلين، ولاسيما كبار السن والأطفال. أما معدل الوفيات بين المشاة المقاتلين بسبب الأمراض والمشاق فلا بد أنه قد جاوز معدله بين الفرسان والسيدات، فمن كانت تتوفر لهم خدمات أفضل ومقدرة أكبر على شراء الطعام. وكان دور الفرسان في المعارك أكثر تعرضا للقتال من المشاة ومن ثم كانت خسائرهم أكبر.

ويبدو أن نسبة الفرسان إلى المشاة حوالي واحد إلى سبعة مع الأخذ في الاعتبار أن المشاة يشملون جميع القادرين على القتال. وربما كانت تقديرات أنا كوميينا صحيحة فيما يتعلق بالقوة النسبية لقوات جودفري صحيحة، وإن تعين قسمة أرقامها على عشرة على الأقل. وفي معركة عسقلان التي اشترك فيها كل رجل متاح في فلسطين، كان عدد الفرسان ألف ومائتين فارس وعدد المشاة تسعة آلاف راجل، وهي نسبة واحد إلى سبعة ونصف.<sup>(١)</sup> وفي حصار القدس، وإستنادا إلى Raymond of Aguilers، كان هناك ما بين ألف ومائتين إلى ألف وثلاثمائة فارس من جيش قوامه اثني عشر ألف رجل، كان يضم — مع ذلك — أبناء جنوا وإنجليز وبمازة.<sup>(٢)</sup> ويتعين أن يؤخذ المصطلح "فارس" على أنه يعني خيال مسلَّح وليس بأي معنى آخر من معان الفروسية، بينما كان الكثير من رجال

<sup>(١)</sup> William of Tyre, ix, 12, vol. 1, pt. 1, p.380

<sup>(٢)</sup> Raymond of Aguilers, xxx, p. 292

المشاهير غير مسلحين تسليحا كاملا. وربما كانت نسبة رماة السهام وحملات الخراب مجرد نسبة ضئيلة بصورة معقولة من المجموع الإجمالي.

وعن الجيوش كل على حده، فمن اليقين تقريبا أن جيش ريموند كان هو الأضعف، وإن لم يتوفر لدينا سوى دلالة واحدة على حجمه. ذلك أنه عندما سمع الشائعات الكاذبة في كوكسون Coxon بأن الأتراك قد أعلنوا أنطاكية أرسل قوة فرسان من خمسمائة فارس عن فيهم بعض فرسانه البارزين، لإحتلال المدينة.<sup>(٦٦)</sup> ويتواتر ذكر الرقم خمسمائة تواترا تشويه الريبة، بيد أنه ربما كان ذلك الرقم يعتبر الوحدة الملائمة لقلوة أو حملة من هذا النوع. ومن غير المحتمل أن يكون ريموند قد حجز نصف قوة فرسانه في هذه المرحلة. وإذا ما قابلنا هذا الرقم (٥٠٠) على أنه صحيح بوجه التقريب، فلا بد وأن كانت قوة فرسانه كلها قد بلغت ألف ومائتي فارس أو أكثر، وإجمالي جيشه قد بسـع عشرة آلاف رجل عدا كبار السن والنساء والأطفال.<sup>(٦٧)</sup>

ويرد في تاريخ لوقا Chronicle of Lucca أن بوهيمند ذهب إلى الشرق ومعه مئتين الفرسان ٥٠٠ فارس.<sup>(٦٨)</sup> وتلاحظ أنا كومينا أن جيشه لم يكن جيشا ضخما، ومن ثم ربما كان هذا الرقم صحيحا تماما.<sup>(٦٩)</sup> وقد سمح لتانكريد بأن يأخذ معه في حملته على

<sup>(٦٦)</sup> أنظر ما سبق ص ٣٠٣.

<sup>(٦٧)</sup> من الواضح أن جيش ريموند كان مازال جيشا هائلا عندما غادر فلسطين كما أظهرت الحملات اللاحقة.

<sup>(٦٨)</sup> من إتياس. Chalandon, *Histoire de la Première Croisade*, p. 133. ولم أتمكن من إكتشاف التاريخ الذي يشير إليه.

<sup>(٦٩)</sup> Anna Comnena, x, ix, 1 vol. 11, p. 230 : "بوهيمند ... لم يكن لديه جيش كبير لأنه كان ينظر إلى المال ...".



كيليكيا مائة فارس ومائتي راجل. رغم أنه أرسل له لاحقاً ثلاثمائة راجل آخرين. وتتفق هذه الأرقام مع بعضها البعض بصورة معقولة.<sup>(١)</sup>

والدليل الوحيد المتوفر لدينا على الأحجام النسبية للجيش الأخرى يتمثل في تصرف ريموند في روجيا Rugia عندما حاول أن يرشو أنداده ليقبلوا زعامته، إذ عرض على جودفري وروبرت النورمندي عشرة آلاف سو لكل منهما<sup>(٢)</sup> وعلى روبرت الفلاتدرزي ستة آلاف سو، وتكريد خمسة آلاف سو ومبالغ أقل للقادة الأقل شأنًا. ولابد أن المبالغ قد حُددت في علاقتها بالقوة التي يستطيع كل أمير تقديمها آنذاك. رغم أنه من المحتمل أن يكون ريموند قد عرض على تكريد مبلغًا أكبر بصورة تفاوتية كسي يُعده هو وأكبر عدد ممكن من النورمنديين عن بوهيمند.<sup>(٣)</sup>

ودليلنا الوحيد على حجم جيش جودفري، بعيدا عن الرقم الخيالي الذي أوردته أنا كومينا، يتمثل في إستعداده لأن يتخلى عن خمسمائة فارس وألفي راجل لأخيه بلدوين من أجل حملته على كيليكا. ولايتمثل في الأغلب الأعم أن يكون قد تخلى عن نصف قوة فرسانه، حتى وإن كان في نيته أن تعود هذه القوة للانضمام إليه قبل الوصول إلى أنطاكية. والأمر يغرينا إلى أن نفترض أن العرض الذي عرضه ريموند في روجيا Rugia كان يقوم على أساس دفع عشر عملات سو عن كل فارس. وفي ذات الوقت، لو أننا قسّمنا الرقم الذي ساقته أنا كومينا على عشرة فقد نضيف إلى رصيد جودفري حوالي ألف فارس وسبعة آلاف راجل وقت وصوله إلى القسطنطينية. ولابد أن خسائره كانت كبيرة قبل تاريخ الاجتماع المعقود في روجيا، وذلك باستبعاد الفرسان الذين صحبوا بلدوين إلى الرها؛ على أن هناك من انضم إليه من الباقين على قيد الحياة من حملة بطرس الناسك الصليبية والحملات الصليبية الألمانية التي لم يكتب لها النجاح، فضلا عن بعض

<sup>(١)</sup> أنظر ما سبق ص ٣١٤.

<sup>(٢)</sup> (المترجم) : سو Sou عملة فرنسية قديمة مختلفة القيمة.

<sup>(٣)</sup> أنظر ما سبق ص ٣٩٦.

بمعاراة جوليمار Guynerer الذين كان سيدهم بولون، ومن الطبيعي لذلك أن ينضموا إلى كونت بولينيا وإخوته.<sup>(١)</sup>

وفي روجيا كان روبرت نورماندى يتساوى في المرتبة مع جودفرى فإذا كان تحت إمرة جودفرى ألف فارس فلا بد وأن روبرت كان على نفس القدر من القوة. وبعد قرن من الزمان اضطرت نورماندى إلى تزويد دوقها بعدد من الفرسان يقل قليلا عن ستة آلاف فارس.<sup>(٢)</sup> وربما كان روبرت قادرا على أن يجمع بسهولة للحملة الصليبية أكبر عدد من الفرسان، ربما ستمائة وخمسين فارسا، وقد انضم إليه جنود من برتاني ومن وراء القناة الإنجليزية الأمر الذى ربما أضاف إليه مائة أو مائة وخمسين فارسا. وزيادة على ذلك، وبعد عودة ستيفن أوف بلوا وهيو أوف فيرمندوا إلى أوربا، فإنه قد تسولى زمام قيادة قواهما التى بقيت بعد رحيلهما. فأما ستيفن، الذى لم تكن أراضيه شاسعة وإنما كانت غنية، فرمما قدم مائتين وخمسين أو ثلاثمائة فارس. وأما هيو، فيرجح أنه لم يحضر معه الكثير مما يزيد على مائة فارس. وإجمالا، يرجح بصورة معقولة أن روبرت كان لديه ما يقترب من ألف فارس تحت قيادته في وقت روجيا.

وبنفس القاعدة، لابد وأن كان لدى روبرت أوف فلاندرز ستمائة فارس أتى بعضهم من أراضى حاره كونت هينولت Count of Hainault. وكان روبرت مدين قانونا للملك، ملك فرنسا، بمحرد عشرين فارسا كاملي التسليح؛ غير أنه في سنة

<sup>(١)</sup> أنظر ما سبق الصفحات ٢٥٠-٢٥١ و٣١٩.

<sup>(٢)</sup> 684-5. *Militia Regni francie*, in Bouquet, R. H. F. vol. xxii, pp. 684-5. وذلك يعطى نورماندى ٦٠ صاحب راية (الترجم: صاحب الراية هو فارس له أتباع تحت رايته في الميدان). وذلك في زمن فيليب أوغسطس. وربما كان لكل صاحب راية عشرة من الخيالة. أنظر أيضا قائمة المراجع السابق vol. xxii, p. 698 n. 2، التى تذكر ٥٨١ فارسا لدوقية نورماندى.

١١٠٣م عرض في معاهدة تزويد هنرى الأول ملك إنجلترا بألف فارس.<sup>(١)</sup> ولنا من اليسر عليه أن يجمع ستمائة فارس للحملة الصليبية.

وتتناسب مع هذه الأرقام قوة بوهيمند المؤلفة من خمسمائة فارس الذين ذكرها تاريخ لوكا. the Chronicle of Lucca. وإذا افترضنا أن جيوش اللوردات الأقل شأننا تحتسب في الجيوش الأكبر، وأن المبالغ التي عرضها عليهم ريموند في روجيا شخصية خالصة، فإننا نصل إلى العدد الإجمالي للحملة كلها وهو تقريبا أربعة آلاف ومئتين إلى أربعة آلاف وخمسمائة فارس وثلاثين ألف راجل، بما في ذلك المدنيين الذين يمكن إخبارهم على الخدمة القتالية. ويرد في الخطاب الذي كتبه ديامبرت للبابا قوة الجيش بخمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل. وربما كان هذا العدد الأخير للجيش يتضمن المقاتلين المسلحين فقط، أما الرقم الأول ففيه مبالغة عن رقم أربعة آلاف يمكن التغاضي عنها.<sup>(٢)</sup>

ويبدو هذا الجيش صغيرا بما فيه الكفاية من الصغر. ومع ذلك، وعندما نتعرض للأرقام التي يذكرها المؤرخون لكل معركة على حدة، نجد الأرقام أصغر من ذلك؛ ففي معركة بحيرة أنطاكية، وعندما قيل لنا إن جميع الفرسان دخلوا المعركة، لم يكن هناك سوى سبعمائة فارس في المعركة؛ على أن الكثير من الفرسان كانوا مرضى في ذلك الوقت؛ ويتضح من رسالة أرسلها Anselm of Ribemont أن النقص الحقيقي كان في الجياد، يقدر بأن لم يكن متاحا سوى ٧٠٠ في وقت حصار أنطاكية، ولذا هلك الكثير من الجوع ومن البرد؛ ويعلن أنه لم يكن هناك نقص في عدد الرجال.<sup>(٣)</sup> وفضلا عن ذلك، يحتمل في هذه المناسبة أن يبقى فرسان ريموند معه لحراسة المعسكر. وقيل إن

<sup>(١)</sup> Actes des Comtes de Flandres, ed. by Vercauteren, nos. 30, 41, ومقابلة  
بملاحظات في Lot, L'Armement et les Armées du Moyen Age, vol. 1, p. 130 n. 2.

<sup>(٢)</sup> Letter in Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe, p. 172.

<sup>(٣)</sup> أنظر ما سبق ص ٣٤٣.

الحملة المغيرة التي قادها بوهيمند وروبرت أوف فلاندرز في الشهر التالي كانت تتألف من ألفي فارس وخمسة عشر ألف راجل، وذلك قطعاً باستبعاد جيش رموند.<sup>(١)</sup> ولكن، مرة أخرى لم يكن حاضراً في حصار القدس سوى ألف ونايتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وأزيد قليلاً من عشرة آلاف راجل؛ وكانت قوة الجيش في عسقلان مماثلة جداً.<sup>(٢)</sup> وعلى الرغم من أن الكثير من الجنود قد لاقوا حتفهم أو قتلوا وأن كثيرين قد علقوا إلى أوطانهم، فمن الممكن أن تكون قوة الجيش قد تقلصت بمقدار الثلثين في الفترة ما بين اجتماع روجيا وحصار القدس.

ولذلك، ليس بوسعنا إلا أن نعيد التأكيد على أن أي تقدير ينبغي أن يؤخذ بحفظ. وأنا أعتقد أن قوام الجيش كله وقت أن غادر القسطنطينية قد بلغ على وجه التقريب العدد الإجمالي الذي سبق أن اقترحه أعلاه. وعلى مدى العامين التاليين تضاعف الجيش بصورة كبيرة جداً؛ وأما في روجيا فقد كان حسابات رموند عتيقة ويشورها الكثير من التفاؤل إستخدامها ليبيّن عليها عروضة. وفي إعتقادي أنه يمكن قبول الأرقام الصغيرة نسبياً، المذكورة في تاريخ إنجازات بلديون الجسورة، على أنها صحيحة على الحملة.

ومن الخيال بنفس القدر إحتساب حجم حملة بطرس الناسك الأصلي. فمن الواضح أن الرقم الذي أورده المؤرخ ألبرت أوف آيكس وهو أربعين ألف مبالغ فيه، وإن كان من المحتمل أن يصل عدد أتباعه إلى عشرين ألف شخص، وكان غير المقاتلين من هذا لرقم يمثل الأكثرية الساحقة.<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> أنظر ما سبق ص ٣٤١.

<sup>(٢)</sup> أنظر ما سبق ص ٥٠٤ الحاشيتين ٢١ و٢٢.

<sup>(٣)</sup> يقدر المؤرخ Chalandon, op. cit. p. 59 أن ١٥٠٠٠ شخصاً غادروا فرنسا مع بطرس؛ ومن المحال التحقق من هذا العدد وهو معقول فيما يبدو. ويقول تاريخ *Chronica of Zimmern*, pp. 27-8 إن بطرس كان معه ٢٩٠٠٠ شخصاً في سيبتيوت بعد أن قتل ٣٢٠٠ ألمان (في كسيغوردون Xerigordon).

ولإغراض المقارنة، تجدر ملاحظة أن الجيش البيزنطي كله في القرن التاسع قد احتسب على أنه يبلغ مائة وعشرين ألف رجل. ولابد أن ضياع مقاطعات الأناسطول قد نتج عن خفض القوات المتاحة بحلول نهاية القرن الحادى عشر؛ على أنه ربما كان بإمكان ألكسيوس الاستغناء عن سبعين ألف رجل إقتضت الحاجة إلى إستخدام أغلبهم في شغل حاميات حدوده المترامية الأطراف، بينما كانت نسبة كبيرة تجرى تسريحها في كل شتاء لأسباب إقتصادية. ومن غير المحتمل أن يكون أكبر جيش دافع به البيزنطيون في المعارك في هذه الفترة يزيد على عشرين ألف رجل من الجنود المجهزين والمدربين على نحو جيد. ومن الغالب تقدير أحجام الجيوش الإسلامية؛ وربما بلغ جيش كيربوقا حوالى ثلاثين ألف رجل، ولكن ليس هناك من دليل فعلى على ذلك. وكان قادرا على الإضطلاع بحصار أنطاكية أكثر فاعلية مما كان يستطيعه الجيش الصليبي. ومن المؤكد أن جيش المصريين في عسقلان كان أكبر من جيش الصليبيين، وإن لم يكن هناك من مسيل لمعرفة حجمه الفعلى سوى بالتخمين. ومن المشكوك فيه ما إذا كان الجيش التركي في دوريليوم على نفس القدر من ضخامة جيش الصليبيين؛ إذ كان الأتراك يعتمدون على هجومهم المفاجئ وعلى حركتهم لتعويض أى نقص في أعدادهم.

( ثبت المرجع )



## BIBLIOGRAPHY

### I. ORIGINAL SOURCES

#### 1. COLLECTIONS OF SOURCES

[Note. The abbreviations at the end of certain items are used to refer to these items in the footnotes and the following sections of the bibliography.]

- ACHÉRY, L. D'. *Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum*, 13 vols. Paris, 1655-77. 2nd ed. (ed. L. F. J. de la Barre), 3 vols. Paris, 1723.
- Acta Sanctorum* (Bollandiana). Antwerp-Paris-Rome-Brussels, 1643- (in progress). [Aa. Ss.]
- Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti* (ed. J. Mabillon and L. d'Achéry), 9 vols. Paris, 1668-1701.
- AMEDROZ, H. F. and MARGOLIOUTH, D. S. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate: Original Chronicles of the Fourth Islamic Century*, 6 vols. and Index. Oxford, 1920-1.
- Archives de l'Orient Latin*, pub. Société de l'Orient Latin, 2 vols. Paris, 1881-4.
- ASSEMANN, J. S. *Bibliotheca Orientalis*, 3 vols. Rome, 1719-28.
- BENECHWITZ, V. *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum qui in Monasterio Sanctae Catharinae in Monte Sinai Asservantur*. St Petersburg, 1911.
- BOUQUET, M. and others. *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*, 23 vols. Paris, 1738-1876. New series, Paris, 1899- (in progress). [R.H.F.]
- BROSSET, M. F. *Collection d'Historiens Arméniens*, 2 vols. St Petersburg, 1874-6.
- CAETANI, L. See Bibliography, p. 352.
- Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium* (ed. J. B. Chabot and others). Paris, 1903- (in progress). [C.S.C.O.]
- Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*. Vienna, 1866- (in progress).
- Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*. Bonn, 1828-97. [C.S.H.B.]
- DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, 3 vols. Munich-Berlin, 1924-32.
- Fonti per la Storia d'Italia*, Istituto Storico Italiano. Rome, 1887- (in progress).
- HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088-1100*. Innsbruck, 1902.
- HOLTZMANN, W. See Bibliography, p. 355.
- JAFFÉ, P. *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, 6 vols. Berlin, 1864-73.
- JAFFÉ, P. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2nd ed. (ed. W. Wattenbach, S. Loewenfeld, and others), 2 vols. Leipzig, 1885-8.
- LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites au début du XIII<sup>e</sup> Siècle*. Rome, n.d. (1924).



### Bibliography

- Liber Pontificalis* (ed. L. Duchesne), 2 vols. Paris, 1884-92.  
MABILLON, J. *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, 6 vols. Paris, 1703-39.  
MABILLON, J. *De Re Diplomatica Libri VI*. Paris, 1681.  
MANSI, J. D. *Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio*, 31 vols. Florence, Venice, 1759-98. Continuation (ed. J. B. Martin and L. Petit). Paris, 190- (in progress).  
MIGNE, J. P. *Patrologiae Cursus Completus*.  
I, *Patrologia Latina*, 221 vols. Paris, 1844-55. [M.P.L.]  
II, *Patrologia Graeco-Latina*, 161 vols. in 166. Paris, 1857-66. [M.P.G.]  
MONTFAUCON, B. DE. *Bibliotheca Coisliniana*. Paris, 1715.  
*Monumenta Germaniae Historica* (ed. G. H. Pertz, T. Mommsen, and others). Hanover, 1826- (in progress). [M.G.H.]  
MURATORI, L. A. *Rerum Italicarum Scriptores*, 25 vols. Milan, 1723-51. [R.I.Sr.]  
NEUBAUER, A. and STERN, M. *Quellen zur Geschichte der Juden in Deutschland*, 2 vols. Berlin, 1892.  
Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. and Index. London, 1896-7. [P.P.T.S.]  
*Patrologia Orientalis* (ed. R. Graffin and F. Nau). Paris, 1907- (in progress). [P.O.]  
*Recueil des Historiens des Croisades*. Publ. Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris, 1841-1906.  
*Documents Arméniens*, 2 vols. 1869-1906. [R.H.C.Arm.]  
*Historiens Grecs*, 2 vols. 1875-81. [R.H.C.G.]  
*Historiens Occidentaux*, 5 vols. 1844-95. [R.H.C.Occ.]  
*Historiens Orientaux*, 5 vols. 1872-1906. [R.H.C.Or.]  
RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades, Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.  
RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*, 2 vols. Innsbruck, 1893-1904.  
ROZIÈRE, E. DE. *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs du Vme au Xme Siècle*, 2 vols. Paris, 1859.  
SATHAS, K. N. *Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη, Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, 7 vols. Venice-Paris, 1872-9.  
TOBLER, T. and MOLINIER, A. *Itinera Hierosolymitana et Descriptiones Terrae Sanctae*, 2 vols. Geneva, 1879.  
UGHELLI, F. *Italia Sacra*, 9 vols. Rome, 1644-62.  
VAISSÈTE, DOM. See Bibliography, p. 359.

### 2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

- Adamnan. *Arculf's Narrative about the Holy Places* (trans. J. R. Macpherson). P.P.T.S. vol. III.  
Aetheria. See *Pilgrimage of Saint Silvia*.

### Bibliography

- Aimé of Monte Cassino. *Chronicon, L'Ystoire de li Normant* (ed. O. Delarcq). Rouen, 1892.
- Albert of Aix (Albertus Aquensis). *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. iv.
- Alexius I Comnenus. Letters nos. i, v and xi, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Ambrose, St. Archbishop of Milan. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. xvi.
- Annales Altahenses Majores*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. xx.
- Annales Pisani* (ed. P. Tronci), 4 vols. Pisa, 1828-9.
- Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* (ed. L. Bréhier as *Histoire Anonyme de la Première Croisade*). Paris, 1924. (Also ed. H. Hagenmeyer. Heidelberg, 1890.)
- Anselm of Ribemont. Letters nos. viii and xv, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Augustine, St. of Hippo. *Contra Faustum*, in *M.P.L.* vol. xlii.
- Augustine, St. of Hippo. *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. xli.
- Augustine, St. of Hippo. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. xxxiii.
- Bartolf of Nangis. *Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
- Baudri of Dol. *Historia Jerosolimitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. iv.
- Baudri of Dol. *Vita di Roberti de Arbrissello*, in *Aa. Ss.* (23 February), vol. iii.
- Bechada, Gregory. *Chanson d'Antioche en provençal* (ed. P. Meyer) in 'Fragment d'une Chanson d'Antioche en provençal', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii.
- Benedict of Accolti. *Historia Gotsfridi*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Berno. *Libellus de Officio Missae*, in *M.P.L.* vol. cxlii.
- Bernold of Constance (Saint-Blaise). *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. v.
- Bohemond. Charter no. x, and letters (with other princes) nos. xii and xvi, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Caffaro de Caschifelone. *Annales Iamenses*, in *Fonti per la Storia d'Italia*, vols. i and ii.
- Caffaro de Caschifelone. *De Liberatione Civitatum Orientis Liber*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. i.
- Cartulaire de Saint-Chaffre* (ed. U. Chevalier). Paris, 1881.
- Chanson du Chevalier au Cygne* (Belgian version, ed. Reiffenberg and Borgnet), 3 vols. Brussels, 1846-59.
- Chanson du Chevalier au Cygne* (ed. Hippeau), 2 vols. Paris, 1874-7.
- Chronicon Barensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. v.
- Chronique de Zimmern* (German text with French trans., ed. Hagenmeyer), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii.
- Clementia, Countess of Flanders. Charter no. vii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Clergy of Lucca. Letter no. xvii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

### Bibliography

- Commemoratorium de Casis Dei vel Monasteriis*, in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana*, vol. 1.
- Cosmas of Prague. *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. vii.
- Daimbert (Dagobert), Archbishop of Pisa and Patriarch of Jerusalem. Letters nos. xviii and xxi, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- De Sancto Wlphlago*, in *Ad. St.* (7 June), June, vol. ii.
- Ekkehard of Aura. *Chronicon Universale*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. vi.
- Ekkehard of Aura. *Hierosolymita*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. 1.
- Ennodius. *Libellum pro Synodo*, in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. vi. Vienna, 1882.
- Expediitio Contra Turcos* (ed. at base of Tudebod), in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
- Fulbert of Chartres. *Epistolae*, in *R.H.F.* vol. x.
- Fulcher of Chartres. *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* (ed. H. Hagenmeyer). Heidelberg, 1913.
- Genoese citizens. Pact with Bohemond no. xiv, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Gesta Adhemari Episcopi Podiensis Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Gesta Francorum*. See *Anonymi Gesta Francorum*.
- Gilon. *De Via Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Glaber. See Radulph.
- Graindor of Douai. See Richard the Pilgrim.
- Gregory VII, Pope. *Epistolae*, in *Monumenta Gregoriana*, vol. ii of Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*.
- Gregory VII, Pope. *Registra* (ed. E. Caspar), in *M.G.H. Epistolae*, vol. ii.
- Gregory of Tours. *De Gloria Martyrum*, in *M.P.L.* vol. lxxxi.
- Guibert of Nogent. *Historia Hierosolymitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. iv.
- Gunther of Basle. *Solymarius*, in *Archives de l'Orient Latin*, vol. i.
- Henry of Huntingdon. *De Captione Antiochiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Historia Belli Sacri* (Tudebodus Continuatus), in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
- Historia et Gesta Ducis Gotfridi*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Hugh of Fleury. *Itineris Hierosolymitani Compendium*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Hugh of Lerchenfeld. *Breviarium Passagii in Terram Sanctam*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Itinerary of Bernard the Wise* (trans. J. H. Bernard), in *P.P.T.S.* vol. iii.
- Itinerary of the Bordeaux Pilgrim* (trans. A. Stewart), in *P.P.T.S.* vol. i.
- Jerome, St. *De Viris Illustribus*, in *M.P.L.* vol. xxxiii.
- Jerome, St. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. xxxii.
- Jerome, St. *Liber Paralipumenon*, in *M.P.L.* vol. xxviii.
- John VIII, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. cxxvi.
- Joseph of Exeter. *Poemata* (ed. J. Jusserand), *De Josepho Exoniensi*. Paris, 1877.
- Joseph the Historiographer. *Tractatus de Exordio Sacrae Domus Hospitalis Jerosolimitani*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.

### Bibliography

- Lambert of Arras. Canons of the Council of Clermont, in Mansi, *Concilia*, vol. xx.
- Leo IX, Pope. *Epistolae*, in M.P.L. vol. cxliii.
- Leo of Ostia. *Chronicon Monasterii Casinensis*, in M.G.H. *Scriptores*, vol. vii.
- Lisiard of Tours. *Historiae Hierosolimitanae Secunda Pars*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Liudprand of Cremona. *Opera* (ed. J. Becker). Hanover-Leipzig, 1925.
- Malaterra, Gaufredus. *Historia Sicula*, in M.P.L. vol. cxlix.
- Martin I, Pope. *Epistolae*, in M.P.L. vol. lxxxvii.
- Milites Regni Franciae*, in R.H.F. vol. xxii.
- Miracles de Saint-Benoît* (ed. E. de Certain). Paris, 1856.
- Miracula Sancti Wolframmi Senonensis*, in *Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti*, ser. iii, pt. ii.
- Monitum in Balduini III Historiae Nicenae vel Antiochenae Prologum*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. i.
- Nicholas I, Pope. *Epistolae*, in M.G.H. *Epistolae*, vol. vi.
- Notitiae Duae Lemovicenses de Praedicatione Crucis in Aquitania*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Orderic Vitalis. *Historia Ecclesiastica* (ed. A. Le Prevost and L. Delisle) in Société de l'Histoire de France, 5 vols. Paris, 1838-55.
- Paschal II, Pope. Letters nos. xix and xxii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Peregrinatio Frotmundi*, in Aa. Ss. (24 October), Oct., vol. x.
- Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine* (trans. A. Stewart), in P.P.T.S. vol. i.
- Prudentius. *Carmina* (ed. J. Bergman), in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. lxi.
- Radulph of Caen. *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Radulph Glaber. *Historiarum Sui Temporis Libri V*, in R.H.F. vol. x.
- Raymond of Aguilers. *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Richard the Pilgrim. *La Chanson d'Antioche*, in *Roman des Douze Pairs: La Chanson d'Antioche composée au Commencement du XII<sup>e</sup>me Siècle par le Pèlerin Richard, renouvelée sous le Règne de Philippe Auguste par Graindor de Douai et publiée pour la première fois par Paulin Paris*, 2 vols. Paris, 1848.
- Robert the Monk. *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Sigebert of Gembloux. *Chronicon*, in M.G.H. *Scriptores*, vol. vi.
- Stephen of Blois. Letters nos. iv and x, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Symeon, Patriarch of Jerusalem (with others). Letters nos. vi and ix, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Tolomeo. *Annales Lucchenses*, in M.G.H. *Scriptores* (new ser.), vol. viii.
- Translatio Sancti Nicolai in Venetiam*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. i.
- Tudebod. *De Hierosolymitano Itinere*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Urban II, Pope. Letters nos. ii and iii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

### Bibliography

- Victor II, Pope. Letter no. 1 (wrongly attributed to Victor III), in *M.P.L.* vol. **CXIX**.  
Victricius, St. *Liber de Laude Sanctorum*, in *M.P.L.* vol. **XX**.  
*Vita Genovefae Virginis Parisiensis*, in *M.G.H. Scriptores Rerum Merovingiarum*, vol. **III**.  
*Vita Lietberti*, in d'Achéry, *Spicilegium*, vol. **IX**.  
*Vita Urbani II*, in *Liber Pontificalis*, vol. **II**.  
William of Malmesbury. *Gesta Regum* (ed. W. Stubbs), Rolls Series, 2 vols. London, 1887-9.  
William of Tyre. *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, in *R.H.C. Occ.* vol. 1, pts. 1 and 2. Old French version, *L'Estoire de Eracles, Empereur, et la Conquête de la Terre d'Outremer*, *ibid.*  
Willibald. *Hodoeporicon* (trans. W. R. Brownlow), in *P.P.T.S.* vol. **III**.

### 3. GREEK SOURCES

- Anna Comnena. *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 3 vols. Paris, 1917-45. (Also ed. Ducange, in *R.H.C.G.* vol. 1.)  
Attaliates, Michael. *Historia* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1853.  
Basil, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. **XXIX-XXXII**.  
Bryennius, Nicephorus. *Historia* (ed. A. Meineke), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.  
Cedrenus, Georgius. *Synopsis Historiarum* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1839.  
Cerularius, Michael, Patriarch. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. **CXX**.  
*Chronicon Paschale* (ed. L. Dindorf), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1832.  
Constantine Porphyrogenetus. *De Ceremoniis Aulæ Byzantinae* (ed. J. J. Rieske), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1829-30. (Also ed. A. Vogt, in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 4 vols. Paris, 1935-40.)  
*Doctrina Jacobi nuper Baptizati* (ed. N. Bonwetsch), in *Abhandlungen der Königlich-Preussischen Akademie der Wissenschaften zu Göttingen, Phil.-Hist. Klasse, Neue Folge*, vol. **XX**, no. 3. Berlin, 1910.  
Eastern Patriarchs. Letter to Theophilus, in *M.P.G.* vol. **xcv**.  
Eusebius of Caesarea. *Ecclesiastical History* (trans. H. J. Lawlor and J. E. L. Oughton), 2 vols. London, 1928.  
Glycas, Michael. *Chronicon* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.  
Gregory Nazianzen, St. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. **xLVI**.  
John VI Cantacuzenus. *Historia* (ed. L. Schopen), in *C.S.H.B.* 3 vols. Bonn, 1828-32.  
John Chrysostom, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. **xLVII-LXIV**.  
John the Oxite, Patriarch of Antioch. *Περὶ τῶν Ἀγίων*, in Leib, *Deux Inédits Byzantins*.

### Bibliography

- Nicephorus Callistus. *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. cxi. vi.  
 Nicephorus, Patriarch. *Opuscula Historica* (ed. C. de Boor), in *Bibliotheca Teubneriana*. Leipzig, 1880.  
 Origen. *In Joannem*, in *M.P.G.* vol. xiv.  
 Passio LX Martyrum et Legenda Sancti Floriani (ed. H. Delchaye), in *Analecta Bollandiana*, vol. xxi. Brussels, 1903.  
 Peter, Patriarch of Antioch. Letter to Michael Cerularius, in *M.P.G.* vol. cxx. *Synopsis Chronicon*, in *Sathas, Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη*, vol. vii.  
 Theodosius, Patriarch of Jerusalem. Letter to Ignatius of Constantinople, in *Mansi, Concilia*, vol. xvi.  
 Theophanes Confessor. *Chronographia* (ed. C. de Boor), 2 vols. Leipzig, 1883-5.  
 Theophylact, Archbishop of Bulgaria. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. cxxvi.  
 Zonaras, Joannes. *Epitome Historiarum*, vol. iii (ed. T. Büttner-Wüst), in *C.S.H.B.* Bonn, 1897.

#### 4. ARABIC AND PERSIAN SOURCES

[Note. The titles of the works are translated into English.]

- Abu'l Feda. *Moslem Annals* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. i. (Full text with Latin trans. ed. J. Reiske. Copenhagen, 1789-94.)  
 Abu'l Mahasin. MS. passages quoted with Russian trans. in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar-slayer*.  
 Agapius of Maboug. *Universal Chronicle* (ed. with French trans. by A. A. Vasiliev), in *P.O.* vols. v, vi and vii.  
 Antiochus the Strateger. *Capture of Jerusalem by the Persians*, Arabic version (ed. with French trans. by A. Couret), in *Revue de l'Orient Chrétien*. Paris, 1897. See Bibliography, p. 350.  
 Baladhuri. *The Conquest of the Nations*, Arabic text. Cairo, A.H. 1319. (English trans. by P. K. Hitti and F. C. Murgotten, 2 vols. New York, 1916-24.)  
*Chronicle of Seert* (ed. with French trans. by A. Scher), in *P.O.* vols. iv, v, vi and vii.  
 Eutychius, Patriarch of Alexandria. *Annals* (Latin trans. in *M.P.G.* vol. cxi).  
 Ibn al-Athir. *History of Atabegs of Mosul* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. ii, pt. ii.  
 Ibn al-Athir. *Sum of World History* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. i. (Full Arabic text ed. C. J. Tornberg, 14 vols. Leyden-Upsala, 1851-76.)  
 Ibn Khaldun. *Universal History*. Arabic text, 7 vols. Bulaq, A.H. 1287, (Partial Latin trans. by C. J. Tornberg. Upsala, 1840.)



### Bibliography

- Ibn al-Qalīnī. *Continuation of the Chronicle of Damascus: The Damascus Chronicle of the Crusades* (selected and trans. into English by H. A. R. Gibb). London, 1932. (Full Arabic text ed. H. F. Amedroz. Leyden, 1908.)
- al-Jahiz. *Three Essays* (ed. J. Finkel). Cairo, 1926.
- Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. III.
- Miskawaihi. *The Experiences of the Nations* (concluding portions with English trans. by D. S. Margoliouth), in Amedroz and Margoliouth, *Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vols. I and II (Arabic text); vols. IV and V (English text).
- Mukaddasi. *Description of Syria* (English trans. by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. III.
- Nasir-i-Khusrau. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (English trans. from the Persian by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. IV.
- Severus of Aschmounin. *History of the Patriarchs of Alexandria* (ed. with English trans. by B. Evetts), in *P.O.* vols. I and V.

#### 5. ARMENIAN SOURCES

- Aristaces of Lastivert. *History* (Armenian text). Venice, 1844.
- Kirakos of Gantzag (Guiragos of Kantzak). *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Matthew of Edessa. *Chronicle* (French trans. by E. Dulaurier). Paris, 1858. (Extracts with French trans., in *R.H.C.Arm.* vol. I.)
- Mekhitar of Ayravanq. *History* (Armenian text). St Petersburg, 1867.
- Samuel of Ani. *Chronological Tables* (French trans.), in Brosset, *Collection d'Historiens Arméniens*, vol. II.
- Sebeos. *History of Heraclius* (Armenian text). Constantinople, 1851.
- Sembar, Constable of Armenia. *Chronicle* (Armenian text). Paris, 1859.
- Vahram Rabuni. *History of the Rupenian Dynasty* (rhyming chronicle, Armenian text with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Vartan the Great. *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

#### 6. SYRIAC SOURCES

- Anonymous Chronicle (ed. A. S. Tritton with English trans.) in 'First and Second Crusades from an anonymous Syriac chronicle', in *Journal of the Royal Asiatic Society*. London, 1933.
- Anonymous Chronicle (ed. with Latin trans. by I. Guidi), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV. (Quoted as Anon. Guidi.)
- Bar Hebraeus, Gregory, called Abu'l Faraj. *Chronography*. Part I, *Political History* (ed. with English trans. by E. A. W. Budge), 2 vols. Oxford, 1932. Parts II and III, *Ecclesiastical History* (ed. with Latin trans. by

### Bibliography

- J. B. Abbeloos and T. J. Lamy), 2 vols. Louvain, 1872-7. (Extracts in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. II.)  
Elias of Nisibin. *Chronicle* (ed. with French trans. by E. W. Brooks and J. B. Chabot), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vols. VII and VIII.  
Michael the Syrian. *Chronicle* (ed. with French trans. by J. B. Chabot), 4 vols. Paris, 1899-1910.  
'Thomas the Priest.' *Book of the Caliphs* (ed. as *Chronicon Miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens* with Latin trans. by E. W. Brooks), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV.

#### 7. HEBREW SOURCES

- Anonymous of Mainz-Darmstadt. *Memorial* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.  
Eliæzer bar Nathan. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.  
Ephraim bar Jacob. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.  
Martyrology of Nuremberg. *Das Martyrologium des Nürnberger Memorbuches* (ed. with German trans.), in Safeld, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. III. Berlin, 1898.  
Salomon bar Simeon. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

#### 8. VARIOUS SOURCES

- Antiochus the Strateger. *Capture of Jerusalem by the Persians*, in Georgian (ed. with Russian trans. by A. Marr), in *Textes et Recherches relatifs à la Philologie Arménienne*, vol. IX. St Petersburg, 1909. (This work was probably originally written in Greek. The Georgian version is derived from a lost Arabic version, of which the work mentioned in Bibliography, p. 348, is an abridgement. A second Georgian and a slightly fuller Arabic version have since been discovered. See P. Peeters in *Analecta Bollandiana*, vols. XXXI and XXXVIII.)  
John of Nikiu. *Chronicle* (trans. from the Ethiopic by R. H. Charles). London, 1916. (This work was originally written in Greek and translated into Arabic and from Arabic into Ethiopic. Both the Greek and Arabic versions are lost.)

#### II. MODERN WORKS

- AMANN, E. and DUMAS, A. *L'Eglise au pouvoir des Laïques*, vol. VII of A. Fliche and V. Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1940.  
AMANTOS, K. *Ἱστορία τοῦ Βυζαντινοῦ Κράτους*, 2 vols. Athens, 1939-48.  
AMARI, M. *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 9 vols. Florence, 1854-72.



### Bibliography

- AMÉLINEAU, E. 'La Conquête de l'Égypte par les Arabes', in *Revue Historique*, vol. CXXIX. Paris, 1915.
- ANDERSON, J. G. C. 'The Road-System of Eastern Asia Minor', in *Journal of Hellenic Studies*, vol. XVII. London, 1897.
- ARCHER, T. A. and KINGSFORD, C. L. *The Crusades*. London, 1894.
- ARNOLD, T. and GUILLAUME, A. *The Legacy of Islam*. Oxford, 1931.
- BALLESTEROS Y BERETTA, A. *Historia de España*, vol. II. Barcelona, 1908.
- BARKER, E. Article 'The Crusades', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.
- BARTHOLD, W. Article 'Turks', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BARTHOLD, W. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Gibb Memorial Series. Oxford, 1928.
- BAUDRILLART, A., VOGT, A. and ROUZIS, M. *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*. Paris, 1912- (in progress).
- BEAUMONT, A. A. 'Albert of Aachen and the County of Edessa', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- BECKER, C. H. Article 'Djizya', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BERCHEM, M. VAN. 'The Mosaics of the Dome of the Rock at Jerusalem and of the Great Mosque at Damascus', ch. V in Creswell, *Early Muslim Architecture*.
- BLEYE, A. *Manual de Historia de España*, 2 vols. Bilbao, 1927-8.
- BOGIATZIDES, I. 'ἱστορικὰ Μελέτην', Thessalonica, 1932.
- BOISSONNADE, P. 'Cluny, la Papauté et la première grande Croisade internationale contre les Sarrasins d'Espagne', in *Revue des Questions Historiques*, vol. CXXVII. Paris, 1932.
- BOISSONNADE, P. *Du nouveau sur la Chanson de Roland*. Paris, 1923.
- BRÉHIER, L. *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades*. Paris, 1928.
- BRÉHIER, L. and AIGRAN, A. *Grégoire le Grand, les États barbares et la Conquête Arabe*, vol. V of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*.
- BREYSSIG, T. 'Gottfried von Bouillon vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte*, vol. XVII. Trier, 1898.
- BROWN, L. E. *The Eclipse of Christianity in Asia*. Cambridge, 1931.
- BUCKLER, G. *Anna Comnena*. Oxford, 1929.
- BUHL, F. Articles 'Al Kuds' and 'Muhammed', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BURKITT, F. C. *Early Eastern Christianity*. London, 1904.
- BURY, J. B. *History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene*, 2 vols. London, 1889.
- BURY, J. B. *Selected Essays* (ed. Temperley). Cambridge, 1930.
- BURY, J. B. 'The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogenetos', in *English Historical Review*, vol. XXII. London, 1907.
- BUTLER, A. J. *The Arab Conquest of Egypt*. Oxford, 1902.
- BYRNE, E. H. 'Genoese Colonies in Syria', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

### Bibliography

- CABROL, F. and LECLERCQ, H. *Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie*. Paris, 1907- (in progress).
- CAETANI, L. C. *Annali dell' Islam*, 7 vols. Milan, 1905-14.
- CAHEN, C. 'Diyar Bakr au temps des premiers Artuqides', in *Journal Asiatique*, vol. CCXCVII. Paris, 1915.
- CAHEN, C. 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Musulmanes', in *Byzantion*, vol. IX. Brussels, 1914.
- CAHEN, C. 'La première Pénétration turque en Asie Mineure', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1918.
- CAHEN, C. *La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades*. Paris, 1940.
- CAHEN, C. 'La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXIV. Paris, 1943-5.
- Cambridge Medieval History* (planned by J. B. Bury), 8 vols. Cambridge, 1911-36.
- CAUWENBERGH, E. VAN. *Les Pèlerinages expiatoires et judiciaires dans le droit communal de la Belgique au Moyen Age*. Louvain, 1922.
- CAVAIGNAC, E. *Histoire du Monde*. See Gaudetroy-Demombynes.
- CHALANDON, F. *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène Ier*. Paris, 1900.
- CHALANDON, F. *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile*, 2 vols. Paris, 1907.
- CHALANDON, F. *Histoire de la première Croisade*. Paris, 1925.
- CHALANDON, F. *Les Comnènes*, t. II: *Jean II Comnène et Manuel Comnène*. Paris, 1913.
- CHAMICH, M. *History of Armenia* (trans. J. Avdall), 2 vols. Calcutta, 1827.
- CHEVALIER, U. *Cartulaire de Saint-Chaffre*. See Bibliography, p. 344.
- CHRISTENSEN, A. *L'Iran sous les Sassanides*. Paris-Copenhagen, 1916.
- COGNASSO, F. *La Genesi delle Crociate*. Turin, 1914.
- COURET, A. *La Palestine sous les Empereurs grecs*. Grenoble, 1869.
- COURET, A. *La Prise de Jérusalem par les Perses en 614*. Orléans, 1896.
- CRESWELL, K. A. C. *Early Muslim Architecture*, 2 vols. Oxford, 1932-40.
- CROZET, R. 'Le Voyage d'Urbain II et ses arrangements avec le Clergé de France', in *Revue Historique*, vol. CLXXIX. Paris, 1937.
- DAVID, C. W. *Robert Curthose*. Cambridge, Mass., 1920.
- DELBRÜCK, H. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte*, 3 vols. Berlin, 1907.
- DELEHAYE, H. *Les Origines du Culte des Martyres*, in *Analecta Bollandiana*, vol. XLIV. Brussels, 1925.
- DELEHAYE, H. *Sanctus: Essai sur le Culte des Saints*. Brussels, 1927.
- DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass., 1945.
- DESCHAMPS, P. *Les Châteaux des Croisés en Terre Sainte*: vol. I, *Le Crac des Chevaliers*. Paris, 1934; vol. II, *La Défense du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1939.

### Bibliography

- DEBREISS, R. *Le Patriarchat d'Antioche*. Paris, 1945.
- DIEHL, G. and MARÇAIS, G. *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, vol. III of *Histoire Générale*, fondée par G. Glotz, *Histoire du Moyen Âge*. Paris, 1936.
- DIEHL, C., MARÇAIS, G., OECONOMOS, L., GUILLAUD, R. and GROUSSET, R. *L'Europe Orientale de 1081 à 1453*, *ibid.* vol. IX. Paris, 1945.
- DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
- DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, vol. II. Munich-Berlin, 1925.
- DOZY, R. *Histoire des Musulmans d'Espagne* (new ed.), 3 vols. Leyden, 1932.
- DUCANGE, C. DU F. *Les Familles d'Outremer* (ed. E. G. Rey). Paris, 1869.
- DUCHESNE, L. *Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical*. Paris, 1898.
- DUNCALF, F. 'The Pope's Plan for the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- DUVAL, R. *Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse*. Paris, 1892.
- DUSSAND, R. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*. Paris, 1927.
- DVORNIK, F. *The Photian Schism*. Cambridge, 1948.
- EBERSOLT, J. *Les Sanctuaires de Byzance*. Paris, 1921.
- EBERSOLT, J. *Orient et Occident*, 2 vols. Paris, 1928-9.
- Encyclopaedia of Islam*, 4 vols. Leyden-London, 1908-34.
- ENLART, C. *Les Monuments des Croisés*, 2 vols. (with albums). Paris, 1925-8.
- ERDMANN, C. *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*. Stuttgart, 1935.
- EVERY, G. *The Byzantine Patriarchate*. London, 1947.
- FLICHE, A. *Le Règne de Philippe Ier, Roi de France*. Paris, 1912.
- FLICHE, A. *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, vol. II of *Histoire Générale*, fondée par G. Glotz, *Histoire du Moyen Âge*. Paris, 1930.
- FLICHE, A. 'Urban II et la Croisade', in *Revue de l'Histoire de l'Eglise de France*, vol. XIII. Paris, 1927.
- FLICHE, A. and MARTIN, E. V. *Histoire de l'Eglise*. See Amann and Bréhier.
- FRITSCH, E. *Islam und Christentum im Mittelalter*. Breslau, 1930.
- FRYE, R. and SAYILI, A. 'Selçuklardan evvel Ontasarkta Türkler', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1946.
- GAUDEFRY-DÉMOMBYNES, J. and PLATONOV, S. F. *Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades*, in E. Cavaignac, *Histoire de Monde*, vol. VII. Paris, 1911.
- GAY, J. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*. Paris, 1904.
- GAY, J. *Les Papes du XIe siècle et la Chrétienté*. Paris, 1926.
- GIBBON, E. *Decline and Fall of the Roman Empire* (ed. J. B. Bury), 7 vols. London, 1896.
- GINDLER, P. *Graf Baldwin I von Edessa*. Halle, 1901.
- GOEJE, M. J. DE. *Mémoire sur la Conquête de la Syrie par les Arabes*. Leyden, 1900.
- GORDLEVSKY, A. *Seldjuk Empire in Asia Minor* (in Russian). Moscow, 1941.

### Bibliography

- GRAEFE, E. Article 'Hakim', in *Encyclopaedia of Islam*.
- GRAETZ, H. *Geschichte der Juden*, 11 vols. Leipzig, 1866-78.
- GRAF, G. *Geschichte der Christlichen Arabischen Litteratur*, 2 vols. Vatican City, 1944-7.
- GRANDCLAUDE, M. *Etude Critique sur les Livres des Assises de Jérusalem*. Paris, 1930.
- GRÉGOIRE, H. 'Mahomet et le Monophysisme', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.
- GRÉGOIRE, H. 'Notes sur Anne Comnène', in *Byzantion*, vol. III. Brussels, 1926.
- GROUSSET, R. *Histoire de l'Arménie des Origines à 1071*. Paris, 1947.
- GROUSSET, R. *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*, 3 vols. Paris, 1934-6.
- GROUSSET, R. *L'Empire du Levant*. Paris, 1946.
- GRUMEL, V. 'Jérusalem entre Rome et Byzance', in *Echos d'Orient*, vol. XXXVIII. Paris, 1939.
- GRUMEL, V. 'Les Patriarches d'Antioche du nom de Jean', in *Echos d'Orient*, vol. XXXII. Paris, 1933.
- GRUNEBaum, G. E. V. *Medieval Islam* (2nd imp.). Chicago, 1947.
- GÜTERBOCK, C. *Der Islam im Lichte der byzantinischen Polemik*. Berlin, 1912.
- HAGENMEYER, H. *Chronologie de la Première Croisade*. Paris, 1902.
- HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe*. See Bibliography, p. 342.
- HAGENMEYER, H. *Peter der Eremit*. Leipzig, 1879. French trans. (without appendices) by Furcy Raynaud, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Ermit*. Paris, 1883.
- HALPHEN, L. *L'Essor de l'Europe*, vol. VI of *Peuples et Civilisations* (ed. I. Halphen and P. Sagnac), 2nd ed. Paris, 1940.
- HANSEN, W. *Das Problem des Kirchenstaates in Jerusalem*. Fribourg, 1928.
- HATEM, A. *Les Poèmes Epiques des Croisades*. Paris, 1932.
- HEERMANN, O. *Die Gefechtsführung der abendländischen Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzuges*. Marburg, 1887.
- HEFELE, C. J. *Histoire des Conciles* (trans. and ed. H. Leclercq). Paris, 1907- (in progress).
- HERGENRÖTHER, J. *Photius, Patriarch von Konstantinopel*, 3 vols. Regensburg, 1887-9.
- HEYD, W. *Histoire du Commerce du Levant* (trans. Furcy Raynaud; 2nd reimp.), 2 vols. Leipzig, 1936.
- HILL, G. *A History of Cyprus*, vol. I. Cambridge, 1940.
- HOGARTH, D. G. and MUNRO, J. A. R. *Modern and Ancient Roads in Eastern Asia Minor*. Royal Geographical Society, Supplementary Papers (new ser.), vol. III. London, 1893.

### Bibliography

- HOLTZMANN, W. 'Die Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXVIII, Leipzig, 1928.
- HONIGMANN, E. *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. III. Brussels, 1935.
- HONIGMANN, E. Articles 'al Lādhiqiya', 'Izmiq', 'Macarrat al Numan', 'Malarya', 'Marash', 'Missis', 'Orfa', 'Ortoqids' and 'Shaizar', in *Encyclopaedia of Islam*.
- HOUTSMA, M. T. Article 'Seljuks', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.; articles 'Menguchek' and 'Tutush', in *Encyclopaedia of Islam*.
- HUART, C. *Histoire des Arabes*, 2 vols. Paris, 1911-12.
- HUBERT, L. *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*. Ansbach, 1892.
- HUSSEY, J. M. *Church and Learning in the Byzantine Empire*. Oxford, 1937.
- IORGA, N. *Histoire de la Vie Byzantine*, 3 vols. Paris, 1934.
- IORGA, N. *Histoire des Croisades*. Paris, 1924.
- IORGA, N. *Les Narrateurs de la Première Croisade*. Paris, 1928.
- Islam Ansiklopedisi*. Istanbul, 1940- (in progress).
- JERŠČEK, C. *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe*. Prague, 1877.
- JORANSON, E. 'The Great German Pilgrimage of 1064-65', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- JUGIE, M. *Le Schisme Byzantin*. Paris, 1941.
- JUGIE, M. 'Le Schisme de Michel Cérulaire', in *Echos d'Orient*, vol. XXXV. Paris, 1937.
- JUYNBOLL, T. W. Article 'Kharadj', in *Encyclopaedia of Islam*.
- KLEIN, C. *Raimund von Aguilers: Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Berlin, 1892.
- KNAPPEN, M. M. 'Robert II of Flanders in the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- KÖPRÜLÜ, M. F. 'Anadolun Selcuklarî Tarihi'nin Yerli Kaynakları', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1943.
- KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.
- KRAUSS, S. *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichte*. Leipzig, 1914.
- KREBS, F. *Zur Kritik Alberts von Aachen*. Münster, 1881.
- KREY, A. C. 'A Neglected Passage in the Gesta', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- KREY, A. C. 'Urban's Crusade, Success or Failure?', in *American Historical Review*, vol. LIII. New York, 1918.
- KRUMBACHER, K. *Geschichte der byzantinischen Literatur*. Munich, 1897.
- KÜGLER, B. *Albert von Aachen*. Stuttgart, 1885.
- KÜGLER, B. *Bohemund und Tankred*. Tübingen, 1862.

### Bibliography

- KÜGLER, B. *Geschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1891.  
 KÜGLER, B. 'Peter der Eremit und Albert von Aachen', in *Historische Zeitschrift*, vol. XLIV. Berlin-Munich, 1880.  
 KÜHNE, E. *Zur Geschichte des Fürstentums Antiochien, 1098-1130*. Berlin, 1897.  
 KULAKOVSKY, Y. 'Criticism of evidence in Theophanes' (in Russian), in *Vizantijski Vremennik*, vol. XXI. St Petersburg, 1915.  
 KULAKOVSKY, Y. *History of Byzantium* (in Russian), 3 vols. Kiev, 1913-15.  
 KURAT, A. N. *Peşenek Tarihi*. Istanbul, 1937.  
*Kuseir Amra*. Published by Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, 2 vols. Vienna, 1907.  
 LABOURT, J. *De Timotheo I, Nestorianorum Patriarcha*. Paris, 1904.  
 LABOURT, J. *Le Christianisme dans l'Empire Perse*. Paris, 1904.  
 LAMMENS, H. *Etudes sur le Siècle des Ommayyades*. Beirut, 1930.  
 LAMMENS, H. *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*. Beirut, 1928.  
 LAMMENS, H. *La Syrie: Précis Historique*, 2 vols. Beirut, 1921.  
 LA MONTE, J. L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*. Cambridge, Mass., 1932.  
 LANE POOLE, S. *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, 1925.  
 LANE POOLE, S. *The Mohammedan Dynasties*. Paris, 1925.  
 LANGLOIS, V. *Numismatique de l'Arménie au Moyen Age*. Paris, 1855.  
 LAURENT, J. *Byzance et les Turcs Seldjoucides jusqu'en 1081*. Nancy, 1913.  
 LAURENT, J. 'Byzance et les Origines du Sultanat de Roum', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. 1. Paris, 1930.  
 LAURENT, J. 'Des Grecs aux Croisés: Etude sur l'histoire d'Edesse', in *Byzantion*, vol. 1. Brussels, 1924.  
 LAURENT, J. *L'Arménie entre Byzance et l'Islam*. Paris, 1919.  
 LAURENT, J. 'Le Duc d'Antioche Katchatour', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXX. Leipzig, 1929-30.  
 LAURENT, J. 'Les Arméniens de Cilicie', in *Mélanges Schlumberger*, vol. 1. Paris, 1924.  
 LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*. See Bibliography, p. 343.  
 LEIB, B. *Rome, Kiev et Byzance à la fin du XI<sup>ème</sup> siècle*. Paris, 1924.  
 LE STRANGE, G. *Lands of the Eastern Caliphate*. Cambridge, 1905.  
 LE STRANGE, G. *Palestine under the Moslems*. London, 1890.  
 LOEWE, H. M. J. 'The Seljuks', in *Cambridge Medieval History*, vol. IV, ch. X, B. Cambridge, 1923.  
 LONGNON, J. *Les Français d'Outremer au Moyen Age*. Paris, 1929.  
 LOT, F. *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, 2 vols. Paris, 1946.  
 LUCHAIRE, A. 'Les premiers Capétiens', in E. Lavisse, *Histoire de France*, vol. II, 2. Paris, 1901.  
 MANSELLI, R. 'Normanni d'Italia alla Prima Crociata: Boemondo d'Altavilla', in *Japigia*, vol. IX. Naples, 1940.



### Bibliography

- MANTEYER, G. DE. *La Provence du Ier au XIIe Siècle*. Paris, 1908.
- MARICQ, A. 'Un "Comte de Brabant" et des "Brabançons" dans deux textes byzantins', in *Académie Royale de Belgique, Bulletin de la Classe des Lettres*, 5ème série, vol. XXXIV. Brussels, 1948.
- MÉLY, F. DE. 'La Croix des premiers Croisés', in supplementary vol. to Riant, *Excursus Sacrae Constantinopolitanae*. Paris, 1904.
- MICHAUD, J. F. *Histoire des Croisades*, 5 vols. Paris, 1817-22.
- MICHEL, A. *Amalfi und Jerusalem im griechischen Kirchenstreit*. *Orientalia Christiana Analecta*, no. 121. Rome, 1939.
- MICHEL, A. *Humbert und Kerularios*, 2 vols. Paderborn, 1924-30.
- MOELLER, C. 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-Sépulcre', in *Mélanges Godfried Kurth*, vol. 1. Liège, 1908.
- MORAVCSIK, G. *Byzantinoturcica*, 2 vols. Budapest, 1942-3.
- MORDTMANN, J. H. Articles 'Izmir' and 'Eskişehir', in *Encyclopaedia of Islam*.
- MUIR, W. *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall* (rev. ed.). Edinburgh, 1915.
- MUKRİMİN HALİL (YINANÇ). Article 'Danışmend', in *İslam Ansiklopedisi*.
- MUKRİMİN HALİL (YINANÇ). *Türkiye Tarihi, Selçuklu Dairi*, vol. 1, *Anadolun Fethi*. Istanbul, 1934.
- MUNRO, D. C. 'Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza?', in *American Historical Review*, vol. XXVII. New York, 1922.
- MUNRO, D. C. *The Kingdom of the Crusaders*. New York, 1936.
- MUNRO, D. C. 'The Speech of Pope Urban II at Clermont', in *American Historical Review*, vol. XI. New York, 1906.
- NAU, F. *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIème au VIIIème siècle*. Paris, 1933.
- NICHOLSON, R. H. *Tancred*. Chicago, 1940.
- NORDEN, W. *Das Papsttum und Byzanz*. Berlin, 1903.
- OECONOMOS, L. *La Vie Religieuse dans l'Empire Byzantin*. Paris, 1918.
- O'LEARY, DE L. *Arabia before Mohammed*. London, 1927.
- O'LEARY, DE L. *A short History of the Fatimid Khaliphate*. London, 1923.
- O'LEARY, DE L. *How Greek Science passed to the Arabs*. London, 1948.
- OMAN, C. W. C. *A History of the Art of War in the Middle Ages* (2nd ed.), 2 vols. London, 1924.
- ORMANIAN, M. *L'Eglise Arménienne*. Paris, 1910.
- OSTROGORSKY, G. 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire', in *Cambridge Economic History of Europe*, vol. 1. Cambridge, 1942.
- OSTROGORSKY, G. *Geschichte des byzantinischen Staates*. Munich, 1940.
- PARIS, G. 'La Chanson d'Antioche provençale et la Grande Conquête de Ultramar', in *Romania*, vols. XVII, XIX and XXII. Paris, 1888, 1890, 1893.
- PAULOT, L. *Un Pape Français: Urbain II*. Paris, 1903.
- PERINCE, A. *L'Imperatore Eraclio*. Florence, 1905.
- PRISTER, C. *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux*. Paris, 1885.

### Bibliography

- PIGEONNEAU, H. *Le Cycle de la Croisade et la Famille du Bouillon*. Saint-Cloud, 1877.
- PIGNOT, J. H. *Histoire de l'Ordre de Cluny*, 3 vols. Autun, 1868.
- PIGULEVSKAYA, N. V. *Byzantium and Iran in the Sixth and Seventh Centuries* (in Russian). Moscow, 1946.
- PONTIERI, E. *Tra i Normanni nell'Italia meridionale*. Naples, 1948.
- POUPARDIN, R. *Le Royaume de Bourgogne*. Paris, 1907.
- PRUTZ, H. G. *Wilhelm von Tyrus*. Munich, 1883.
- RAMSAY, W. M. *The Historical Geography of Asia Minor*. Royal Geographical Society, *Supplementary Papers*, vol. iv. London, 1890.
- RAMSAY, W. M. 'The Intermixture of Races in Asia Minor', in *Proceedings of the British Academy*, vol. vii. London, 1917.
- RASOVSKY, D. 'The Polovtsians' (in Russian), in *Seminarium Kondakovianum*, vols. vi-x. Prague-Belgrade, 1935-9.
- REY, E. G. *Les Colonies Franques de Syrie*. Paris, 1883.
- REY, E. G. 'Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. viii. Paris, 1900-1.
- RIANT, P. *Donation de Hugues, Marquis de Toscane*. Académie d'Inscriptions et de Lettres, *Histoires et Mémoires*, vol. xxxi. Paris, 1884.
- RIANT, P. *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte*. Paris, 1865.
- RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877-8.
- RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades*. See Bibliography, p. 343.
- RICHMOND, E. T. *The Dome of the Rock in Jerusalem*. Oxford, 1924.
- RÖHRICHT, R. 'Die Pilgerfahrten nach dem Heiligen Lande vor den Kreuzzügen', in *Raumer, Historisches Taschenbuch*, vol. v, Folge 5. Leipzig, 1875.
- RÖHRICHT, R. *Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Innsbruck, 1901.
- RÖHRICHT, R. *Geschichte des Königreichs Jerusalem*. Innsbruck, 1898.
- RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*. See Bibliography, p. 343.
- ROSEN, V. R. *Emperor Basil the Bulgar-slayer* (in Russian). St Petersburg, 1883.
- ROUSSET, P. *Les Origines et les Caractères de la première Croisade*. Neuchâtel, 1945.
- RUNCIMAN, S. 'Charlemagne and Palestine', in *English Historical Review*, vol. i. London, 1935.
- RUNCIMAN, S. 'The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. xviii. Brussels, 1948.
- RUNCIMAN, S. *The Emperor Romanus Lecapenus*. Cambridge, 1929.
- RUNCIMAN, S. 'The Holy Lance found at Antioch', in *Analecta Bollandiana*, vol. lxxviii. Brussels, 1950.
- SACKUR, E. *Die Cluniacenser*, 2 vols. Halle, 1892-4.
- SCHLUMBERGER, G. 'Deux Chefs normands des Armées byzantines', in *Revue Historique*, vol. xvi. Paris, 1881.



### Bibliography

- SCHLUMBERGER, G. *L'Épopée Byzantine*, 3 vols. Paris, 1896-1905.  
 SCHLUMBERGER, G. *Numismatique de l'Orient Latin*, 2 vols. Paris, 1878-82.  
 SCHLUMBERGER, G. *Récits de Byzance et des Croisades*, 2 vols. Paris, 1917-22.  
 SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Empire Byzantin*. Paris, 1884.  
 SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Orient Latin* (continued by F. Chalandon and completed by A. Blanchard). Paris, 1943.  
 SCHLUMBERGER, G. *Un Empereur Byzantin, Nicéphore Phocas*. Paris, 1890.  
 SIMON, G. *Der Islam und die Christliche Verkündigung*. Gütersloh, 1920.  
 SOBERNHEIM, M. Article 'Ibn Ammar', in *Encyclopaedia of Islam*.  
 STARR, J. 'Byzantine Jewry on the eve of the Arab Conquest', in *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. xv. Jerusalem, 1935.  
 STARR, J. *The Jews in the Byzantine Empire, 641-1204*. Athens, 1939.  
 STEVENSON, W. B. 'Islam in Syria and Egypt' and 'The First Crusade', in *Cambridge Medieval History*, vol. v, chs. vi and vii. Cambridge, 1926.  
 STEVENSON, W. B. *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.  
 SYBEL, H. VON. *Geschichte des ersten Kreuzzuges* (2nd ed.). Leipzig, 1881.  
 TER MEKELIAN, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zur Byzantinischen Kirche*. Leipzig, 1892.  
 TER MINASSIAN, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zu den Syrischen Kirchen*. Leipzig, 1904.  
 THIBAUDET, A. *Cluny*. Paris, 1928.  
 THUROT, C. 'Études Critiques sur les Historiens de la Première Croisade', in *Revue Historique*, vol. l. Paris, 1876.  
 TOMASCHKE, W. *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter*. Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philos.-hist. Klasse, vol. CXXIV. Vienna, 1891.  
 TOURNÉBIZE, F. *Histoire politique et religieuse de l'Arménie*. Paris, 1910.  
 TRITTON, A. S. *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*. Oxford, 1930.  
 USENER, H. *Der Heilige Tychon, Sonderbare Heilige*, no. 1. Leipzig-Berlin, 1907.  
 USPENSKY, F. I. *History of the Crusades* (in Russian). St Petersburg, 1900.  
 VACANT, A. and MANGENOT, E. *Dictionnaire de Théologie Catholique*. Paris, 1899- (in progress).  
 VAILHÉ, S. 'La Prise de Jérusalem par les Perses en 614', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. vi. Paris, 1901.  
 VAILHÉ, S. 'Les Juifs et la Prise de Jérusalem en 614', in *Echos d'Orient*, vol. xii. Paris, 1907.  
 VAISSÈTE, DOM. *Histoire de Languedoc* (ed. A. Molinier), 10 vols. Toulouse, 1874.  
 VASILIEV, A. A. *Byzantium and the Arabs* (in Russian), 2 vols. St Petersburg, 1900-2. Vol. 1 trans. H. Grégoire and E. M. Canard as *Byzance et les Arabes*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. 1. Brussels, 1935.

### Bibliography

- VASILIEV, A. A. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols. Paris, 1932.
- VASILIEV, A. A. 'The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century', in *Seminarium Kondakovianum*, vol. IX. Prague-Belgrade, 1937.
- VASILIEVSKY, V. G. *Works* (in Russian), vol. 1, containing *Byzantium and the Petchenegs*, and *The Varango-Russian and the Varango-English Company in Constantinople*. St Petersburg, 1908.
- VERLINDEN, C. 'Robert Ier, Le Frison, Comte de Flandre', in *Werken mitgegeven door de Faculteit der Wijsbegeerte en Letteren te Gent*. Ghent, 1935.
- VILLEY, M. *La Croisade: Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, vol. VI of H. X. Aquilière, *L'Eglise et l'Etat au Moyen Age*. Paris, 1942.
- VINCENT, H. and ABEL, R. *Jérusalem*, vol. II, *Jérusalem Nouvelle* (2 fasc.). Paris, 1914-26.
- WELLHAUSEN, J. *Das Arabische Reich und sein Sturz*. Berlin, 1902.
- WIET, G. *L'Egypte Arabe*, vol. IV of C. Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*. Paris, 1937.
- WILKEN, F. *Geschichte der Kreuzzüge*, 7 vols. Leipzig, 1807-32.
- WITTEK, P. 'Byzantinisch-seldschukische Beziehungen', in *Oostersche Genootschap in Nederland, Verlag van het achste Congress*. Leyden, 1936.
- WITTEK, P. 'Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum', in *Byzantion*, vol. XI. Brussels, 1936.
- WITTEK, P. 'Le Sultan de Roum', in *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves*, vol. VI. Brussels, 1938.
- WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1938.
- WOLFF, T. *Die Bauernkreuzzüge des Jahres 1096: ein Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Tübingen, 1891.
- YAKUBOVSKY, A. 'The Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *Proceedings of the Academy of Science of the U.S.S.R.* Moscow, 1936.
- YEWDALE, R. B. *Bohemund the First*. New York, 1917.
- YINANÇ. See Mukrimin Halil.
- ZETTERSTEEN, K. V. Articles 'Sukman ibn Ortok' and 'Suleiman ben Qurulmush', in *Encyclopaedia of Islam*.
- ZLATARSKY, V. N. *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), 3 vols. in 4. Sofia, 1918-40.

